مذكرات رواد العلوم والفنون

بناء الجامعات والأكاديميات

الدكتور محمد الجوادي



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٦

مذكرات رواد العلوم والفنون

الجوادي ، محمد
مذكرات رواد العلوم والفنون : بناء الجامعات والأكاديمية / محمد الجوادي .- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦.
٣٨٤ ص ؛ ٢٤ سم
تدمك ٧ ١٧٥ ٤١٩ ٩٧٧
١ ـ العلماء ٢ ـ الفنانون
(أ) العنوان :

رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٨٥٠/ ٢٠٠٦

I.S.B.N 977 - 419 - 175 - 7

ديوى ٩٢٥

إهــــداء

إلى الأستاذ الدكتور محمود فوزى المناوى
تعبيراً عن التقدير القديم والود المتصل بإذن الله

د . محمد الجوادى

هذا الكتاب

نتدارس فى هذا الكتاب مذكرات أربعة قادة بارزين من الأكاديميين المؤسسين فى مجالات مختلفة لا تقف عند العلوم والآداب، وإنما تمتد آفاقها إلى الفن والموسيقى والشرطة والرياضة كذلك، وقد أردنا أن نستعرض من خلال طيف أنشطتهم الواسع وتخصصاتهم المتعددة قضايا الإنشاء المؤسسى فى مصر المعاصرة وما يستتبعه هذا الإنشاء من إنجاز ونجاح وتغيير للصورة وتنمية للمجتمع، ورفع من قدراته، وما يتطلبه هذا الإنجاز من سعة أفق، وطول نفس، ومجاهدة للبيروقراطية، وللأمراض الاجتماعية، والتشوهات الخلقية التى هى قادرة على تعويق كل جهد مؤسسى أو رائد.

ومما هو جدير بالتأمل أن إنجاز عملية التأسيس فى مصر أصبحت تسير من صعب إلى أصعب، فعلى حين نجح جماعة من أولى العزم فى بداية القرن العشرين فى أن ينشئوا جامعة أهلية، فإن نظراءهم فى نهايته فشلوا فى أن يتموا نفس الخطوة!! بل ربما يصدق القول بأنهم فشلوا فى أن يخطوا بها خطوتها

الثانية، وعلى حين كان هناك مناخ يسمح بل سمح بالفعل بتأسيس كلية (مدرسة) للفنون الجميلة، فإن دور الفنون الجميلة نفسه أصبح يتراجع فى كل موضع، وعلى حين كان تعليم البنات هادفا وناجحا فإن تعليم البنات اليوم أصبح مظهريًا كميًا فحسب، وعلى حين كان تعليم الفنون يستهدف القدرة الفنية والذوق الفنى، فإنه أصبح الآن عملا روتينيا ينتهى بشهادة ورقية فحسب.. وهكذا.

ومن العجيب أكثر من هذا أن الجهود المحاربة للإنشاء والتطوير قد أصبحت من القوة بمكان بارز، وقد رفعت أنبل الشعارات، بل جعلت شعاراتها بمثابة إطار تقليم أو تجريم أو تحريم لجهد الآخرين، أو خلط بين الموهبة والادعاء، وأحيانا ما يتم هذا تحت دعاوى الالتزام أو المساواة أو التكافؤ فى الفرص، بل أحيانا ما كانت دعاوى التعويق ترفع أنبل وأجمل شعارات الفكر الإنسانى التى تبلورت فى مذاهب متعددة من قبيل الاشتراكية والديمقراطية والحرية والانفتاح والثورة وما إلى هذا من ألفاظ رنانة.

●●

على أن حسن حظ الوطن قد هيأ للتطور كثيرا من الإيجابيات غير المنظورة التى أسهمت فى صياغة التطور فى اتجاه إيجابى أو تقدمى، وفى هذا الإطار فإننا نستطيع أن نرى نموذجا للتربية الراقية على يد عالم دين جليل وهو يدفع بالدكتورة سمحة الخولى فى مدارج الرقى الفنى والتربوى حتى تكون قادرة على تأدية ما أدت من دور فى خدمة التعليم الموسيقى والفنى فى بلادها.

كما نرى شيئا قريبا من هذا فى تربية الدكتور عبد الكريم درويش الذى لم ينجح فيما أداه لوطنه إلا بفضل توجيه مستمر على أيد كثيرة امتدت إليه لتأخذ به إلى الخطوات الأولى فيما وصل إليه، ثم واصل نجاحه بدأب وجد، ولا يكاد الوضع يختلف فى حالة اثنين من أوائل خريجى الجامعة المصرية بلغا فى العلوم

والآداب مبلغا رفيع القدر، وأسهما فى تأسيس وتقوية عدد كبير من مؤسسات الوطن التى لا تزال تؤدى أدوارها بقوة واقتدار.

فنحن نرى عبد الحليم منتصر الذى جمع خريجى كلية العلوم (ثم كليات العلوم) فى جمعية تحولت مع الزمن إلى نقابة للعلميين، وهو نفسه الذى مضى فى التنسيق بين الجمعيات العلمية المختلفة خطوات واثقة وناجحة حتى أسس الاتحاد العلمى المصرى.

ونرى سليمان حزين وهو يجاهد (من خلال مواقع بيروقراطية وأخرى علمية) فى سبيل إنشاء مؤسسات ثقافية فى مصر وفى خارجها، ويتوج هذا الجهاد بتأسيسه جامعة أسيوط.

●●

لسنا نريد أن نستبق الحديث الذى تصور به المذكرات بعض ما دار فى الكواليس وفى الأجواء المفتوحة على حد سواء قبل أن تتحقق نشأة كثير من مؤسساتنا العلمية والجامعية والوطنية أو تطويرها فى الكليات والجامعات فى جامعة أسيوط، وجامعة عين شمس، وفى أكاديميتى الشرطة والفنون، وفى المجمع العلمى المصرى، والجمعية الجغرافية، والاتحاد العلمى، وجمعية تاريخ العلوم وفلسفته، ومجلة رسالة العلم... وما إلى ذلك.

والحق الذى لا مراء فيه أنه كان من حسن حظ هذا الكتاب أن يجد فى المكتبة العربية المعاصرة مذكرات أربعة من الأكاديميين المؤسسين فى مجالات مختلفة، فمن أول رئيس لأولى الجامعات الإقليمية، إلى أول أستاذة للفن تصبح رئيسة لأكاديمية الفنون، إلى أول رئيس لأكاديمية الشرطة، إلى الرئيس المؤسس للاتحاد العلمى المصرى

ومن اللافت للنظر أن هؤلاء لم يكونوا فى بدايات حياتهم يخططون للوصول إلى ما وصلوا إليه، وإنما هم قد بدأوا حيواتهم مهتمين بما تخصصوا فيه من حيث هو مهنة «شرطية» أو «نباتية» أو «جغرافية» أو «موسيقية»، لكن تميزهم فى الأداء، وحبهم للعلم، ودأبهم من أجله، قد دفعهم، بصورة طبيعية تغلبت فى سيرها على ما لم يكن منه بد من أحقاد، إلى المواقع التى مكنت وطنهم من الإفادة منهم إفادات قصوى فى التأسيس والتنظير والتأطير، وجعلتهم بمثابة مصابيح هداية لأجيال تعلمت منهم ومن تلاميذهم، وتلقت العلوم والفنون بمنهجية كفيلة باستمرار العلوم والفنون وازدهارها على مستوى الممارسة والعلم والفكر والتعليم.

● ●

وليس من شك فى أن إنشاء المؤسسات الراعية للمهنة، أى مهنة، يمثل خطوة متقدمة من خطوات الحضارة التى تتطلب وعيا بمتطلبات العلم وبمتطلبات المهنة فى الوقت نفسه، كما تتطلب الانتباه إلى أن وظيفة الجامعة أو الأكاديمية فى صناعة خريج المستقبل لا تقف عند النظر فيما يجب أن يتأهل به هذا الخريج من علم أو ممارسة، وإنما تمتد لتشمل علاقته بالمجتمع كثمار لمؤسسة أعطاها المجتمع اهتمامه وعوّل عليها آماله، لهذا فإننا نرى سمحة الخولى على سبيل المثال وهى تنبهنا إلى خطورة الانتصار لأسلوب الامتحان الذى لا يضمن تحقيق الحدود الدنيا من ممارسة مبنية على علم، بل إنها فى هذا التنبيه تبذل من نفسها ما تدير به صراعا عنيفا مع أحد أساتذتها الأعزاء على نفسها، المحببين إلى قلبها، لكنها تدرك أن هذا هو الواجب عليها تجاه علمها الذى تعلمته وعلمته، والذى هى مسئولة عن مستوى تلاميذها فيه. ونرى المنطق نفسه يحكم عبد الحليم منتصر فى نظرته إلى مستوى تأهل المشتغلين بالعلم. ونرى المنطق نفسه

يشغل عبد الكريم درويش وهو يتأمل فى التكوين النموذجى الذى لابد له من أن يُبذل من أجله الجهود فى تكوينه لضباط الشرطة. ونرى المنطق نفسه فيما يسعى به سليمان حزين من إعداد طلاب التعليم العام ليكونوا قادرين على النجاح فى الجامعة وفيما بعد الجامعة.

••

ونحن نلمح فى كل ما نقرؤه لهؤلاء القادة الأربعة اعترافًا ممتنًا بالفضل لجيل الرواد الذين سبقوهم إلى البناء والإنجاز، ونكاد نحس ونحن نقرأ هذه المذكرات ونتدارسها بفضل عدد كبير من جيل الرواد الذين لم يقف عطاؤهم عند تخصص معين، أو معهد، أو جامعة، وإنما كان إسهامهم منتشرًا فى أثير الوطن حتى إن أثره ظهر فى مجالات هواياتهم واهتماماتهم كما ظهر من قبل فى مجالات تخصصهم، وفى هذا الصدد يكفينى أن أشير إلى أسماء على مصطفى مشرفة، وأمين الخولى، وأحمد لطفى السيد، وحسين فوزى، ويحيى حقى، ومحمد عوض محمد، وطه حسين، ومصطفى عامر، وإبراهيم عبد الهادى، وعباس العقاد، وأحمد حسن الزيات، ومحمد كامل حسين، ومصطفى نظيف، وأبو بكر خيرت، ومحمود الحفنى، وأحمد أمين، ومحمد حسن العشماوى، وأحمد زكى، وسيد درويش، وزكريا أحمد، ومحمد حسين هيكل.

ولست أحب أن أنتهى من هذه المقدمة من دون الإشارة إلى أن هذا المجلد يقف إلى جوار إخوانه من المجلدات السابقة التى سبق لى نشرها منذ ١٩٩٤، متدارسا بها المذكرات والذكريات التى سجلت رؤى أصحابها لتاريخنا المعاصر فى مجالاته العسكرية والسياسية والاجتماعية والعلمية والإدارية والتربوية والفكرية والثقافية، وربما أن هذا المجلد يجمع مع كل ما سبقه من مجلدات آفاقا رحبة، وهذا بالطبع هو شأن المنهجية.

ومن الإنصاف لنفسى أن أذكر أنى تجنبت الحديث المتفلسف عن المنهجية، ولم يكن دافعى فى هذا حبى للبعد عن التفلسف فحسب، لكن دافعى الأول كان إيمانى أن حديث المذكرات الخفىّ أو الداخلىّ عن هذه المنهجية يمثل طرازا أرفع بكثير وأبلغ أثرا من كل حديث آخر.

لهذا آثرت أن أمضى مع الرواد فى سعيهم لا أسبقهم إلا للتقديم الذى لابد منه، ولا ألحق بهم إلا للتعقيب الذى لا مفر منه، ولا أجاورهم إلا للتفسير الذى لا يجوز تأخيره، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن أكون قد وفقت فى كل هذا.

وإنى لأرجو الله سبحانه وتعالى أن يعيننى على الانتهاء مما شرعت فيه من مدارسة مذكرات أخرى، وأن يوفقنى أيضا لما دفعتنى إليه ثقة القراء من إعداد الطبعات التالية من الكتب التى نفدت طبعاتها السابقة، وأدعوه سبحانه وتعالى أن ييسر لى أمرى، وأن يهدينى سواء السبيل، وأن يرزقنى الغنى والهدى والعفاف والتقى والحب والرضا، وأن يكفينى شر نفسى، وأن يجعل عملى خالصا لوجهه الكريم، وأن يديم علىّ نعم القبول والدأب والجد والجلد، وأن يبارك لى فى وقتى وصحتى وعافيتى وسمعى وبصرى، وأن يجعل كل ذلك الوارث منى.

د. محمد الجوادى

المحتويات

سليمان حزين يزعجنا دون أن يدرى فى هذه المذكرات بالحديث عن تضحياته المادية فى الوظائف التى تقلدها ● وهو يريد أن يبث فى روعنا أنه كان مثاليا إلى أبعد الحدود على أننا لانطلب منه ذلك ● قدره أرفع من أن يحتاج إلى مثل هذا الحديث المقرظ لسماحة نفسه أو لسموها عن مثل هذه المطامع المادية الصغيرة ● نجد سليمان حزين مع أنه بلغ هذا السن وهذه الحكمة يصطنع مواقف للخلاف حين لايكون هناك محل للخلاف ، ومواقف للاتفاق حين لايكون هناك محل للاتفاق ومواقف للتأمل حين لايكون هناك داع لتأمل وتكثر هذه المواقف والمواضع فى كتابه إلى حد ملحوظ ● حين يتحدث عن مولده على سبيل المثال يلجأ إلى الاصطناع الظاهر كأنه يحاول أن يقلد طه حسين فى مطلع الأياما ● ما يرويه عن العوامل الذكية التى كان الأباء يغلبونها حين يختارون لابناءهم المدارس التى يتعلمون فيها ● والده يفضل لابنائه طنطا الثانوية على مدرسة الخديوية بالقاهرة لأسباب صحية أو نفسية لم نعد قادرين على الاختيار تبعًا لها وكأننا فقدنا كل مقومات الاختيار السليم وأصبحنا نعتبره من الترف ● حديثه عن أهمية المشاركة فى القرار والأثر الواعى الذى تتركه هذه المشاركة فى صياغة التكوين التربوى للنشء ● على الرغم من المنهج الذى اختاره سليمان حزين لكتابة مذكراته مغلبًا الرأى والفكر على القص، فإننا لا نخطئ فى هذه المذكرات مدى حرصه على إثبات الدور التنويرى أو التطويرى الذى أداه لمجتمعه ● مساهماته البناءة فى اكثر من مجال ، وأهم ما يفخر به بالطبع : إنشاؤه جامعة أسيوط ● كيف اختير لرئاستها ● يتحدث عن تجربة جامعة الإسكندرية (أولى الجامعات خارج القاهرة) دوره فى الحياة العامة ● دور جمعية هيئة التدريس فى جامعة الإسكندرية ● دوره فى أسيوط ● تجربة قيام جامعة أسيوط

واستحواذها على قدر ليس باليسير من مجرى حياة صاحب المذكرات المتدفق ● نشأة الجامعة من حيث هى تطور حضارى لمنطقة كبيرة ومهمة من بلاده● يصور الجامعة جزءا لا يتجزأ من مقومات الجغرافيا الحضارية ● يعتز بأن يتحدث عن اعتقاده بأن له تجارب شخصية فى التطبيق التربوى، وأن هذه التجارب أسهمت فى تحديد معالم الفلسفة التربوية لمصر المعاصرة ● محاولة إنشاء منظومة تعليمية فى صعيد مصر منذ الخمسينيات ● يلخص تجربته بطريقة فلسفية وعملية تطبيقية ● يعتز بفكرة ربط الجامعة بالبيئة وهى الفكرة التى ابتدعها فى جامعة أسيوط ● يشير إشارة سريعة إلى بعض المصاعب التى صادفته هناك ودفعته للاستقالة ● ينظر إلى الإنجازات الشخصية فى إطار محبته لوطنه وعمله من أجله وفى خدمته ● يلخص إنجازاته فى المركز الديموغرافى بالقاهرة ● يشير إلى بعض إنجازات المركز ● إنشاء وإدارة المركز الديموجرافى فى القاهرة لا يأتى إلا فى سياق حديثه عن العمل العام والوظيفى الذى أداه لوطنه بعد خروجه من الوزارة ● يذكر بشئ من الاعتزاز (والفخر بالطبع) أنه كان واحدًا من مؤسسى منظمة اليونسكو ● دوره التالى فى استقطاب فكرة إنشاء مركز التربية الأساسية فى سرس الليان ● دوره فى إنشاء المركز الثقافى المصرى فى بريطانيا : معهد لندن ● تفصيلات الحديث عن مخاطر السفر تلهيه عن الحديث عن المشكلات الحضارية أو البيروقراطية التى صادفته فى إنشاء معهد لوطن محتل فى بلد المحتل نفسه ● يبدو أنه لم يكن واعيًا بالقدر الكافى لمثل هذه التناقضات وبخاصة أن العلم رفع من قدره بحيث كان يتحدث إلى نظرائه من الإنجليز حديث الند للند ● يتحدث حديثًا مشابهًا عن مساهمته فى إنشاء المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ● دوره

فى تطوير جامعة الأزهر بصفة عامة ● يكاد يقرر أنه الوحيد الذى تولى هذه العملية لانه كان واحدًا من ثلاثة كلفوا بها ثم بقى هو وتركه زميلاه الآخران ● الدور الذى قام به فى اللجنة التى تولت صياغة ملامح تطوير الأزهر ● المبررات التى كان يعتقد فى أهميتها وإمكانية وتحققها من خلال العمل على تطوير الأزهر ولائحته ● يتحدث بفخر واعتزاز عن دوره فى تحقيق هدف عظيم وهو تعليم البنات فى الأزهرى ينبه المؤرخين والباحثين إلى أنه لا يجوز الحكم على التطوير على نحو متعجل ● يشير إلى بعض المشكلات التى لا تزال تواجه عملية التطوير ● يذكر أنه هو الذى تولى كتابة مذكرة ترشيح السادات لنيل جائزة نوبل، وهى الجائزة التى فاز بها بالفعل ● يقترح على الأزهر إنشاء كلية للخدمة الاجتماعية ● يتحدث بقدر معقول من الفخر وإقرار الواقع عن انتقاله المبكر من الجامعة إلى العمل التنظيمى والقيادى فى وزارة التربية والتعليم ليكون بمثابة الرجل الفنى الأول فى الوزارة ● يشيرإلى أن محمد عوض محمد هو الذى طلب العودة إلى الجامعة ● يفيض فى حديث ممتع عن خبراته البيروقراطية الوظيفة فى الوزارة ● يجيد رسم الصورة الكفيلة بأن تقدم لنا فكرة صادقة عن عمله فى ذلك الوقت ● يبدو حريصًا على أن يدلنا على مساهمات له ذات قيمة فيما يتعلق بتطوير التعليم العام فى بلادنا ● يحرص على إثبات أنه كان أول من اعترض على نظام التشعيب إلى أدبى وعلمى فى مدارسنا الثانوية ● أخذ منذ تأسس المجلس القومى للتعليم يقترح نظام المواد الاختيارية بدلا منه ● يشير إلى تقارير المجلس القومى للتعليم ١٩٧٥ و١٩٧٦ ● يظن أن نظام الثانوية العامة الجديد الذى أقر فى سنة ١٩٩٠ قد تبنى أفكاره، بينما الحقيقة أن هذا النظام الجديد اشتمل كثيرا من التعديلات التى لم يتطرق إليها سليمان حزين أبدًا، ولا

أظنه يوافق عليها ولا على بحثها، ولكنه مع ذلك يبدى سعادة بهذا التعديل ● اعتزازه بمشاركته فى إصلاح التعليم الثانوى من خلال تعديل نظام الثانوية العامة لتكون على مرحلتين ● الاقتراحات التى انتهت إليها المجالس القومية المتخصصة فيما يتعلق بنظام الثانوية العامة ● نجاح المجالس القومية المتخصصة فى دفع الوزارة إلى الالتزام ببداية مبكرة للعام الدراسى ● مقترحات سليمان حزين ومقترحات المجالس القومية ● يحدثنا عن دوره فى إعداد ما سمى بالشهادة الثانوية المعادلة ● تفسيره الخاص لاختياره كوزير للثقافة ● الضيق الذى يسيطر على الدكتور لويس عوض إلى حد أن يصور فترته عل يأنها كانت «غمة» ● اعتزازه بمنصبه فى المجالس القومية المتخصصة ● يرى أن هذا الحدث لا يأتى بمثابة المعلم البارز فى حياته وإنما يأتى فى السياق الطبيعى لسيرة حياة رجل اهتم بالتعليم والروابط الثقافية ● حياته فى نظره تتمحور حول دوره كخبير وطنى للثقافة والتعليم وهو الدور الذى اعترفت له به الدولة عندما اختارته عضوًا فى المجالس القومية المتخصصة ● يحكى تاريخ حياته الجامعى من خلال تأريخه لحياة جامعة القاهرة وكلية الآداب بالذات ● لصاحب المذكرات آراء قيمة فى المجتمع الجامعى وتكوينه الثقافى والتعليمى، وقد أفرد لها فصولاً مهمة من كتابه الذى بين أيدينا وحديثه عن بيئة الجامعة ● يحرص على أن يسجل فى فصول كتابه انتقاده نظام الترقيات المعمول به الآن ● فهمه العميق لدور الجامعة فى العمل الثقافى ● يتأمل نظام تعليمه وحياته يحدثنا عما خرج به من هذا التأمل ● تقدير الفرص السانحة التى أتيحت له يعتبرها بمثابة ألف وخمسمائة فرصة من فرص زملائه ● يتمسك بما يتعلق بتاريخه العلمى أخذا وعطاء ● حريص كل الحرص على هذا المعنى الإنسانى والثقافى حتى فى حديثه

عن تكوينه الشخصى فى مراحل حياته المختلفة ● يتحدث عن حياته العامة فى خارج الجامعة فى فترة طلبه العلم فى انجلترا ● يحكى بقدر كبير من التفصيل عن تعليمه في الخارج والوظيفة التى هيأته لهذه البعثة ● تفوق تفوقًا ملحوظًا فى هذا الحديث الذى يقدم لنا من خلاله تجربته الدراسية الجادة فى بعثته التعليمية ● التجربة رغم جديتها لم تحل بينه وبين التزود بمنابع الثقافة الحقة، ولم توقعه فى أسر الغرب ● تجربته فى البعثة نمّت وقوت من ثقته بنفسه وبما حصل من علم فى بلاده وجامعته الأم قبل أن يسافر ● أسماء أساتذته فى بعثته بالتفصيل ذاكرًا فضل كل منهم فى مجاله ● الإضافة التى أضافها للعلم الذى تخصص فيه ومنهجه العلمى فى تناول المعارف المتعلقة بتخصصه ● يشير باعتزاز إلى أنه ربما مثل امتدادا طبيعيا مع انقطاع فى الزمان للعالم العربى الكبير عبد الرحمن بن خلدون الذى أثبت عبقرية مبكرة فى ربط التاريخ والعمران بالبيئة الجغرافية ● يتحدث عن أبرز أساتذته وتكوين هؤلاء الأساتذة العلمى ● يتحدث بنفس الروح المنصفة للذات عن تلاميذه ويصف مدرسته بأنها مدرسة واسعة النطاق على الرغم من أننا نعرف أنه لم يقض فى الجامعة وقتًا طويلا ● حديثه المستفيض عن الأمراض التى تعرض لها فى طفولته، وعن حالته الصحية ● كان من حظ أن يعيش وأن يمتد به العمر ● شفى تماما من البهارسيا عندما عولج منها بعقار الطرطريك وهو العقار الذى كان متاحًا فى ذلك الوقت ● يحكى عن مرض أصابهم وذهبت أخته ضحية له ● ذكريات شبه كاملة عن قصة اصابته بالملاريا ● قصة إصابته بلدغة عقرب وكيف تصرف والده تصرفًا حكيمًا فى الإسعاف الأولى له ● لايزال يذكر تفاصيل علاجه من قصر النظر ، وما حدث له عندما ارتدى النظارة لأول مرة ● صاحب المذكرات يتحدث عن

اساتذته سواء فى الجامعة أم قبل، ولكنه شأن المثقفين المصريين مولع بالحديث عن المشاهير بأكثر مما هو مولع بالحديث عن أكثر الأساتذة تأثيرًا فى حياته ● تلمذته لاحمد لطفى السيد وطه حسين فى أول عهده بالجامعة ● تفصيل معقول عن تاريخه التعليمى فى كلية الآداب ● لا يقف عند تاريخه الشخصى وإنما يقدم صورة تاريخية ● يشير إلى ما امتازت به الجامعة فى عهدها الأول من الالتفات إلى إمكانية التعاون بين كليات مختلفة ● يشير إلى ما لقيته شهادتا كليتى الآداب والعلوم من الاعتراف بهما من الخارج ● يتحدث باعتزاز شديد عن اثنين من أساتذته فى كلية الآداب هما محمد عوض محمد ومصطفى عامر ● يتحدث باعتزاز عن بعض أساتذته فى الدراسة الثانوية ● يؤمن بأن طعام الريف الدسم بسبب قوة البنية الكفيلة بخلق بطل رياضى من طبقة سيد نصير ● ينتبه إلى الحديث عن بدايات سيد نصير الدور الذكى الذى لعبه ناظر مدرستهم فى بناء مجد سيد نصير ● يتحدث عن برامج الرعاية التربوية والتعليمية التى كانت المدرسة الثانوية تقدمها لطلابها ● حريص كل الحرص وفى أكثر من موضع على أن يذكر أنه ترك وظيفته لاستاذه ليترقى وكيلا للوزارة وهو نوع من التزيد فى الحديث عن الذات وبخاصة أننا نعرف أن هذا الأستاذ كان عديل رئيس الدولة الرئيس عبدالناصر نفسه، وقد كان واصلاً لا محالة إلى وكالة الوزارة وما هو أرفع منها، بل وقد وصل بالفعل إلى منصب وزير التربية قبل أن يصل سليمان حزين إلى منصب الوزير بأكثر من ٣ سنوات، لو أن صاحب هذه المذكرات قال إنه واءم نفسه وصبّرها لكان هذا أولى له ● يخص اثنين من أساتذته فى المرحلة الثانوية بحديث ممتن ومقدر ● يتحدث عن الفترة الأولى من حياته التى قضاها فى الكتاب ● لأنه أستاذ الجغرافيا الحضارية فإن الحديث عن الأماكن التى

تلقى فيه العلم لا يفوته ● يصف قصر الزعفران حيث بدأت الجامعة المصرية فى نشأتها الأولى وصفًا دقيقًا موحيا ● حديثه عن مدرسة طنطا الثانوية بكل ما فى هذا الحديث من لمحات جغرافية، كذلك فإن لمدرسته الابتدائية فى السودان ذكريات عالقة فى ذهنه حتى بعد نصف قرن ● سعادته بأن يروى أنه زار هذه المدرسة وهو مسئول كبير وبصحبة الوزير الفرنسى المشهور مالرو ● يعتبر تكرار هذه الزيارة نوعًا من الصدف السعيدة ● يدلنا على دور حضارى مهم أتيح له أن يقوم له من أجل حماية معبدى أبو سمبل من أية ظروف مناخية طارئة ● للعروبة فى تفكير سليمان حزين وفى مذكراته قدر كبير جدًا لا يقف عند حدود وصف مصر بالعروبة فى عنوان المذكرات، وإنما يتعدى هذا إلى مواضع كثيرة جدًا ● يتحدث ـ على سبيل المثال ـ عن إرهاصات مبكرة دعا فيها إلى القومية العربية، متخذا من مادة درسها فى الجامعة مدخلاً إلى هذا الحديث ● حديثه عن لقائه بالدكتور سامى الدروبى المفكر السورى الكبير ● حديثه عن رحلته العلمية إلى اليمن ● تتضمن المذكرات إشارات سريعة إلى الدور الذى أتيح لسليمان حزين أن يلعبه فى تأسيس بعض الجامعات العربية فى الأوطان العربية ● يشير إلى علاقته بالكويت والسعودية داعما لحركتها التعليمية والثقافية منذ مرحلة مبكرة ● يتحدث عن تعاونه مع الحكومة السعودية ● فخور إلى أبعد الحدود بتوليه رئاسة لجنة الشئون الاجتماعية للجامعة العربية ● يعتز بالأدوارالتى قدر لها أن يؤديها فى الجمعية الجغرافية المصرية ● يعتز بالجمعية وبمقرها وبنشاطها وأعضائها الذين وصلوا إلى الوزارة والذين حازوا جوائز الدولة التقديرية ورياسة الجامعة.

الباب الثانى:

من حياتى مع الموسيقى ..مذكرات سمحة الخولى

● التعريف بالمذكرات وصاحبتها ● صاحبة المذكرات تستشعر على نحو عبقرى حقيقة أن العلم كفاح متصل لابد أن يستعذبه طالب العلم حتى يصل إلى غايته فيه، وإلا فإنه يصبح واقفا عند حدود خطرة قد تجعله فى مرحلة من المراحل نصف متعلم، وفى مرحلة تالية نصف عالم، وفى مرحلة ثالثة نصف أستاذ، وفى مرحلة رابعة نصف أكاديمى، وفى مرحلة خامسة نصف رائد أو نصف عميد أو نصف شيخ طريقة ● صاحبة المذكرات كانت تدرك أن هناك طابعا قوميا لابد لها أن تتمثله وأن تمثله وأن تعبر عنه فى حياتها ونشاطها العلمى والأكاديمى والفنى ● سمحة الخولى تمثل واحدة من العلامات فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ● فهمها العميق ساعدها على أن تكتب بحثا بعنوان «تقاليد الارتجال فى الموسيقى العربية» ● بذكائها وقدرتها البيانية تعبر عن مدى الأثر الإيجابى الذى تركه توجيه والديها لها ● قدر لها أن تنال البعثة بعد تفوقها فى الشهادة الجامعية الأولى ● الهدف الذى وضعه والدها أمام عينها كان بمثابة ضوء هداها إلى الطريق الذى سارت فيه ووصلت إلى القمة ● تبلور رأيها فى تكوينها الأكاديمى ● تدرك أهمية التعبير عن الذات لكل أكاديمى مسكون بالفن ● القدر

يقف بجانبها حين ييسر لها ثلاثة من رؤساء التحرير الفرصة للتعبير عن الذات والأفكار والطموحات الموسيقية هم: والدها الشيخ أمين الخولى فى مجلة الأدب، ثم الدكتور حسين فوزى فى الأهرام وغيرها، والأستاذ يحيى حقى فى مجلة المجلة ● تتحدث سمحة الخولى باعتزاز شديد عن عبقرية والدها الشيخ أمين الخولى ● تجد أن من الأبلغ أن تقتبس من عبارات تلامذة والدها ما يعبر بدقة عن المعنى الذى تريد توضيحه ● تنقل عن صلاح عبد الصبور قوله عن والدها إنه كان يحترم الحضارة الغنية فى مظاهرها الثقافية والفكرية دون أن يستخذى أمامها ● تنقل عن د. أحمد كمال زكى تقييمه للمنهج الفكرى لوالدها ● تنطلق إلى الحديث عن التفرد والتميز الذى تمثل فى شخصية والدها الذى جمع بين الأصالة والحداثة فى مثالية ● تلفت أنظارنا إلى إيمان والدها العميق بمصر وبالشخصية المصرية وبالإنسان المصرى الأصيل ● تؤكد على هذا المعنى بأن تقتبس من كلام والدها فى مجلة الأدب قوله: إنه لشر من أن يموت الناس جوعا، أن يموتوا كبتا، أو أن يموتوا بلادة إحساس! ● تؤسس على ما تقدم تأملها لفلسفة والدها فى تربيتها على هذا النهج الحضارى الرائع ● تشير إلى ما كانت والدتها تتميز به من حب للموسيقى وإحساس بها ● تروى بسعادة بالغة ذكرياتها عن طفولتها الباكرة وعن اللحظة التى أصبحت فيها تمتلك جهاز البيانو ● منهج والدها فى متابعة تعلم أبنائه للهواية ● مدى جديته فى كل ما هو تربوى ● تلقى بكثير من الضوء على جوانب أخرى من منهج والدها فى رعاية موهبتها الفنية ● قدرة والدها على مزج التربية الفنية بالوجدان الروحانى فى تربيته لها ● رأيه المعارض لها ● تبدو على وشك الانحياز إلى هذا الرأى فى لحظات نفسية معينة ● عندما طلبت من والدها أن تلتحق بمعهد الموسيقى ثارت

ثائرة والدها وهو الذى ظل ينفق على تعليمها الموسيقى فى إطار الهواية أعواما متصلة! ● تحرص على أن تروى أحد المواقف النبيلة التى وقفها والدها فى سبيل تشجيعها حتى بعدما تقدمت به السن ● تعبر عن عشقها الأزلى والأبدى للموسيقى ● تدرك منذ مرحلة مبكرة حقيقة الدور الوطنى الذى يمكن للموسيقى أن تلعبه فى إذكاء الروح الوطنية والتبصير بحقيقة السياسات الاستعمارية والحركات التحررية ● تدرك مكانة الموسيقى فى البنيان الفكرى والفنى لأمتها ● تنتبه فى حديثها عن سيد درويش إلى ظاهرة تزامن مولد الفنون الجديدة فى المجتمع المصرى فى مستهل القرن العشرين ● تتأمل فيما اكتشفته من التوافق الذى حدث ما بين الموسيقيين المصريين والشعراء المصريين ● تسجل اكتشافها للأثر الاجتماعى فى موسيقى أبو بكر خيرت وتقارن بينه وبين الآثار التى وجدت فى الفنون الآخرى ● تبذل الجهد من أجل تدوين التراث الموسيقى الذى خلفه أبو بكر خيرت ● حديث صاحبة المذكرات عن زوجها الراحل المؤلف الموسيقى جمال عبد الرحيم ● تجيد تلخيص مسيرة حياة جمال عبد الرحيم على نحو مركز يكفل تصوير إبداعه وتفرده على نحو يليق بهذا الإبداع وذلك التفرد ● تلقى بعض الضوء على عبقرية جمال عبد الرحيم فى التأليف الموسيقى ● يحفل حديثها عن جمال عبد الرحيم بكثير من الوفاء والامتنان والتقدير والإعجاب ● تصف طبيعة علاقتها هى وزملائها وتلاميذها بالدكتور حسين فوزى وصفا دقيقا ● تلقى بعض الضوء على الجانب الموسيقى فى تكوين الدكتور حسين فوزى ● موهبة حسين فوزى ● حديثها عن حسين فوزى يدلنا على أنها تصل فى إيمانها بالموهبة الموسيقية وبالفطرة الموسيقية إلى آفاق لم يصل إليها دراويش الموهبة أنفسهم ● تقييمها للدور الموسيقى الذى لعبه

الفنان سيد درويش ● صاحبة المذكرات تبلور رأيها فى إنجاز سيد درويش ● تشير إلى دور هذا الرائد الموسيقى العظيم فى توسيع دائرة المستمتعين بالموسيقى ● تعود إلى هذه المعانى فتزيدها عمقا وتأصيلا ● الدكتورة سمحة الخولى تنفرد بالقول بأن جيل المؤلفين الموسيقيين المصريين ليسوا إلا امتدادا لسيد درويش على الرغم من اختلاف اللغة الموسيقية التى تعاملوا بها ● تزيد هذه النقطة إيضاحا بما تورده من أمثلة من أعمال أبو بكر خيرت الموسيقية ● قدرة سمحة الخولى على اكتشاف مواطن التفوق فى أعمال الملحنين الشرقيين المحافظين ● تصف زكريا أحمد بأنه «صاحب الفطرة الموسيقية» وبأنه «الفنان الذى دخل ميدان الموسيقى العربية من أوسع الأبواب ● سمحة الخولى تؤصل الدور الفنى الذى لعبه محمد القصبجى على مدى تاريخه الموسيقى ● تشير إلى جانب ثان من جوانب التميز فى موسيقى الفنان محمد القصبجى ● ترى أن الموسيقار محمد القصبجى اهتدى بفطرته إلى مبدأ التلحين المنفصل ● القصبجى استطاع أن يطور الموسيقى العربية من الداخل ● تردف سمحة الخولى برأيها فى قيمة هذا الاتجاه الإصلاحى مقارنة بينه وبين اتجاهات أخرى لا تذكر أسماء أصحابها ● تولى عناية خاصة لعلاقة القصبجى بآلة العود وتطويرها من أجل رفع كفايتها الصوتية ● تكشف عن سر نجاح الموسيقار سيد مكاوى ● وصوله إلى السر القادر على صدق التعبير ● تلخص بعض آراءها فى قيمة ألحان الموسيقار سيد مكاوى ● تعود إلى طفولتها لتعبر عن الامتنان للإسهامات الموسيقية التى تضافرت على تكوين شخصيتها الفنية ● تشير إلى عبقرية المناهج المدرسية التى اعتمدت على مختارات من أناشيد الهراوى وألحان أحمد خيرت ● صاحبة المذكرات تفصل القول العلمى فى قيمة أناشيد خيرت

والهراوى ● تروى تجربتها الشخصية مع هذه الألحان ● تعبر عن رؤية تربوية واعية بقيمة العناصر القومية فى تكوين الوجدان الفنى لأبناء الجيل الجديد ● صاحبة المذكرات لا تكف عن تأمل تجربتها فى الحياة الموسيقية منذ كانت طفلة تتفتح مواهبها للموسيقى وللعزف الموسيقى حتى أصبحت «شيخة الطريقة» المسئولة بحكم عمادتها وأستاذيتها عن تقييم الأدوار الفردية والمراحل الفنية فى موسيقانا القومية ● تلخص ملامح التميز فى موسيقى يوسف جريس ● تزيد هذه الجزئية إيضاحا بعبارات ذكية قادرة على الاقتراب بنا من عالم النقد الموسيقى العلمى ● تؤكد على ما ترى أنه يمثل جوهر العظمة فى حياة الفنان يوسف السيسى ● تنحو نفس المنحى فى تعاملها مع كثير من الأعمال الموسيقية المعاصرة ● تحتفى بكل إبداع فنى مصرى على أرض الوطن أو فى خارج الحدود ● تقدم موسيقى حليم الضبع وتتحدث عن إنجازه فى العالم الجديد ● تلخص رؤيتها لأعمال حليم الضبع الجانحة إلى التجريب ● لا تبخل علينا بذكريات مفصلة أو تفصيلية عن الجهود التى شاركت فيها من أجل إنشاء معهد الكونسرفتوار ● تلخص قصة الجهود الحكومية التى بذلت من أجل إنشاء المعهد ذاكرة اسماء كل مَنْ كان له فضل فى هذا العمل العظيم ● تقدر دور أبو بكر خيرت فى تأسيس وعمادة معهد الكونسرفتوار ● تحرص على أن تشير إلى نجاح أبو بكر خيرت فى تجربته الجديدة التى لم يكن مؤهلا لها بطريقة مباشرة ● نجاح خيرت بطريقة عملية فى إدماج طلاب المعهد الجديد فى الحياة المهنية من خلال وظائفه وسلطاته الأخرى ● تحرص على أن تروى قصة اختلافها معه ● حديث صاحبه المذكرات عن رائد آخر تكن له كل تقدير وهو الدكتور محمود الحفنى ● تثنى الثناء كله على مؤتمر الموسيقى العربية الذى انعقد فى القاهرة

عام ١٩٣٢ ● تنتبه إلى الدور المهم الذى يمكن لهواة الموسيقى أن يؤثروا به فى الحياة الموسيقية لأمتهم ● تعطى أهمية كبيرة لدراسات الخلفيات التى كانت وراء الاهتمام الذى تملك الرائدة الموسيقية السيدة بهيجة رشيد كسيدة مصرية من هواة الموسيقى ● تعبر عن الامتنان لجهد هذه الرائدة الهاوية ● تجيد الدكتورة سمحة الخولى التعبير عن الاعتزاز بالزمالة فى العمل الأكاديمى ● تتحدث عن زميلتها الدكتورة عواطف عبدالكريم بحب وإعجاب ● تشير إلى موقف عواطف عبدالكريم المبكر فى تأييدها فى اختلافها مع أبو بكر خيرت حول نظم تقييم طلاب الكونسرفتوار ● لا تجد صعوبة فى أن تشرك قرائها فى الحكم على الفهم الموسيقى الذى يطالعنا به بعض المهتمين بالموسيقى من المثقفين ● تحرص على أن تجهر برأيها النابع من خبرة علمية وفنية رفيعة وممتدة ● تناقش المؤلفة أفكار الدكتور فؤاد زكريا : الأستاذ الجامعى الشهير الذى ترمز له بالرمز (ف.ز) فيما يتعلق بالموسيقى الشرقية ● تلخص تقييمها لآراء هذا المؤلف التى أوردها فى عدد من كتبه عن الموسيقى ● تنبهنا إلى أن المقارنة لا تجوز ولا تثمر شيئا ذا بال إذا لم تنتبه إلى الفروق البارزة بين الحضارتين الغربية والشرقية الإسلامية ● تنتقد آراء هذا الأستاذ الجامعى فيما يتعلق بتفريقه بين أنصار القومية والشعبية ● تتصدى بشعور وطنى واثق وبحب قومى جارف لمثل هذه الدعوات وتنبهنا إلى خطورتها :

الباب الثالث:

ذكريات عطرة : مذكرات الدكتور عبد الحليم منتصر

التعريف بالمذكرات ، وصاحبها ● هذا الكتاب هو أولى الكتب بإعادة الطبع ● انتقاؤه لعشرة من أعلام الفكر على أنهم هم الذين علموه ● اختياره لهؤلاء العشرة دون غيرهم يعكس - بصورة ما - موقفه من الحياة ومن العلم ● المؤلف يتساءل عن تعمد صاحب المذكرات ألا يختار محمد حسن العشماوى باشا وزير المعارف الأسبق من بين هؤلاء، مع أنه كان من أقاربه الأقربين ● الإنجاز الجامعى الذى حققه كأول مدير لجامعة الكويت ● لطفى السيد و تشجيعه له على أن يكون المدير الأول للجامعة الكويتية ● كمية العطاء التى كان يعطيها أسبوعيا بعد تقاعده ● بعض الأعباء التى تولاها ● دوره فى إنشاء وزارة البحث العلمى، وإسهامه هو نفسه فى عرض الفكرة، وترشيحه أو توقع ترشيحه ليكون ثانى (أو أول) المسئولين عن هذه الوزارة ● اعتزازه بجهوده الرائدة فى نشر الثقافة العلمية بإسهاماته الثقافية المتعددة فى الصحافة والإذاعة والمؤتمرات ● نشأة مجلة «رسالة العلم» وجهوده فيها طوال سنوات ● يبدى اعتزازا خاصا بعلاقته بالإذاعة البريطانية ● جهوده فى تعريب التعليم الجامعى ● الجهد الذى بدأه ولم يستكمله من أجل إنجاز موسوعة علمية ● يروى تجربة سابقة فى ترجمة كتاب

«التاريخ الطبيعى للنباتات» ● يعلى من قيمة الأدب والثقافة إلى أبعد الحدود ● المثاليات التى كانت تحكم تفكيره فى مرحلة تكوينه ● الشكوى مما تصاعد فى عهد الثورة من جور السلطة السياسية على حقوق الجامعة ● إعجابه بلطفى السيد مدير الجامعة الأول فى رفضه قبول فكرة الحرس الجامعى واعتماده بدلا من هذه الفكرة على إقرار الجدية فى الدراسة والامتحانات ● قدرته على مجابهة تدخل البعض فى الأنشطة الطلابية ● نجاحه فى تمويل مشروعات وأنشطة كليته ● يشيد بدعم أستاذيه (شيخيه) مديرى الجامعة الأولين : محمد كامل حسين، ومصطفى نظيف ● نجاحه فى دعم موازنات النشر العلمى للكلية ● حرص أحمد لطفى السيد على أن يضمن خطبته فى حفل افتتاح المدينة الجامعية كثيرا من الشكر للملك ● خبرته كعضو فى مجلس الجامعة ● هاجم كلية التربية فى محاولتها تسجيل ضابط لدرجة الدكتوراه فى التربية على الرغم من عدم حصوله على شهادات سابقة ● فهمه لروح القانون الجامعى وإنقاذ أستاذ الزراعة من العقوبة ● رأيه المنتقد لما سمى بالطريقة الكلية فى تعليم اللغة العربية ● رأيه فى فشل الطريقة الكلية فى تحقيق ما كان مستهدفا منها فى تعليم اللغة ● مطالبته بالعودة إلى الطريقة الأبجدية التى نشأت عليها أجيال سابقة ● يشير إلى استقالة الرئيس الثانى لجامعة عين شمس الأستاذ مصطفى نظيف ● يوحى بأن الأمراض الجامعية التى استفحلت طوال السنوات الماضية لم تكن أمر حتميا، وأنه كان من الممكن التغلب عليها مبكرا بفضل الحزم ووضوح الرؤية قبل أن تصبح أمرا عاديا طبيعيا ● علاقته بتلميذاته ومرءوساته ● كان عطوفا حانيا إلى أبعد حد فيما يتعلق بشئون الحياة، لكنه كان حاسما حازما فيما يتعلق بالعلم والأداء الجامعى ● كانت كليته هى الكلية الوحيدة بين كليات

الجامعات التى لم يفصل أو ينقل منها أى عضو من هيئة التدريس أو معيد أو موظف أو عامل فى التطهير ● مواقفه النقابية الشامخة ● قضية النزاع حول ممارسة خريجى كليات العلوم لبعض الوظائف والمهن كانت قديمة العهد حتى من قبل نشأة النقابة ● كان يتولى بنفسه رعاية هذه القضايا النقابية بحكم رئاسته لجمعية خريجى كليات العلوم ● كان ينتقد مشروعات الثورة فى حرية شديدة ● يهاجم فكرة السد العالى تماما ● عزيز أباظة يقول له: « احمد ربنا أن تتكلم بهذه الصورة، وتبقى خارج السجون والمعتقلات» ● حديثه عن عدم جدوى مشروع الوادى الجديد ● يشكك فى جدوى مشروعات استصلاح الأراضى التى كانت الثورة قد بدأت فيها مع إحداث ضجيج كبير عن إمكاناتها وعوائدها ● يصفها بالمشروعات الوهمية ● يأسف للمظهرية الواضحة التى سادت وسيطرت على بعض تنظيمات السياسة فى وقت من الأوقات ● يطالب فى مرحلة مبكرة وبطريقة علنية بأن تقوم مصر بصناعة القنبلة الذرية ● لا يكف عن نقد ما حدث فى هزيمة ١٩٦٧، وهو يعبر عن آلامه بطريقة مباشرة وغير مباشرة، ويكرر هذا التعبير فى مواضع متعددة ● المقارنة بين موقف كليوباترا من الهزيمة وموقف قادتنا فى ١٩٦٧ ● يتبنى الشائعة القائلة بقتل المشير عبد الحكيم عامر ● لا يستنكف الاعتراف بجهله فى بعض المواقف ● ما تعلمه من خبرة العشماوى باشا فى معرفة الرجال ● اهتمامه أو انشغاله بالمقابل المادى الذى يمنح نظير جهوده العلمية وشكواه من ضعف هذا المقابل وإصراره على الحصول على حقوقه ● مقارنته أجر العلماء بأجر بالراقصة ● عنايته بالجانب المعنوى فى حياته: الحوار الذى دار بينه وبين إحدى بناته حول تكاليف حفل زفافها ● يشير فى غير مغالاة إلى بعض المصاعب المعتادة (أو الطبيعية) التى واجهته فى فترة

التكوين ● الإشارة إلى دراسته فى مدرسة فارسكور الابتدائية، والإشادة بهذه المدرسة وحرصه على الوفاء لها ببعض ما تستحق من الامتنان والفخر ● الأساتذة الذين علموه وأفاد من معرفتهم ● حديثه عن مشرفة وأمانته المفرطة و بساطته وصراحته وعدالته ● عبقرية مشرفة وقدرته على الانتصار لأفكاره ● يعتز اعتزازا كبيرا بتتلمذه على يد الدكتور أحمد زكى، ثم بمزاملته له فى الكويت ● كل تلاميذ أحمد زكى كانوا يفضلون التخصص فى الكيمياء على غيرها نتيجة حبهم له ولشرحه ● عقلية أحمد زكى التحليلية وخلقه الرفيع ● إعجاب لا حدود له بالدكتور محمد كامل حسين ● عظمة الأستاذ مصطفى نظيف: يرى فيه نموذجا لا يتكرر● فضل مصطفى نظيف فى دفعه إلى الاهتمام بتاريخ العلم ● الإشادة بشخصية أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد ومواقفه ● زيارته له ضمن وفد الجامعة حين استقال من إدارة الجامعة احتجاجا على نقل الدكتور طه حسين من كلية الآداب وكان الدكتور منتصر لا يزال معيدا ● لم يكن يتوانى عن تصحيح الخطأ اللغوى ما سنحت الفرصة لهذا التصحيح ● ولع لطفى السيد بالثقافة ● مدى العلاقة الروحية التى كانت تربط شباب الجامعة بأقطاب الجامعة من طراز لطفى السيد ومشرفة ● بداية علاقته بالمجمع اللغوى من خلال أحمد لطفى السيد ● علاقته بالدكتور طه حسين ● ما يرويه عن شغفه المبكر بالاستماع إلى طه حسين والتلمذة عليه ● يذكر كيف أنه كان يوفق بين واجباته العلمية وهذه الهواية المحببة ● أسعده ما لاحظه من حيوية طه حسين فى مناقشات المجمع اللغوى ● مدى تقدير طه حسين لعبقرية أمير الشعراء أحمد شوقى ● يقارن بين أعلام الأدب الثلاثة طه حسين والعقاد وأحمد أمين من وجهة نظره ● إعجابه بالدكتور محمد حسين هيكل كأديب وكمفكر وكوزير

للمعارف ● عنايته بالصواب ● الدكتور هيكل أبدى أسفه مما يعنيه المديح من أنه لم تكن هناك شجاعة عند الآخرين ● لا يتوقف عند شهادته فى محكمة الثورة ● ثناؤه على الأستاذ أحمد حسن الزيات ● الاعتراف بالدور الذى لعبته مجلة «الرسالة» فى تكوين وجدانه ووجدان جيله ● مودته ومحبته للشاعر عزيز أباظة ● انتقاده لثناء عزيز أباظة الجم على الشاعرة عاتكة الخزرجى وتعبيره عن اعتقاده فى مبالغة الشاعر عزيز أباظة فى مديح الشاعرة، إلا أنه هو الآخر يقع فى هوى هذه الشاعرة ● اعتزازه بقصيدة الشاعر عزيز أباظة فى الثناء على مجلة «رسالة العلم» وما تضمنته هذه القصيدة من ثناء عليه هو نفسه ● المذكرات عكست بصدق شديد شخصية صاحبها العظيم الذى شغلته الحياة العلمية عن أن يستمتع بالحياة نفسها على نحو ما يستمتع بها الآخرون ● لا نراه طوال رحلة المذكرات يشير من قريب ولا من بعيد إلى متع الحياة وزخرفها، ولا يكاد يفرغ للاستمتاع بها.

الباب الرابع:

حصاد السنين.. مذكرات عبد الكريم درويش

● التعريف بالمذكرات وصاحبها ● صاحب المذكرات استطاع أن يبلور خبرات الحياة العريضة المثمرة فى صفحات قليلة، وأن يضمن المذكرات كثيراً من الدروس الحية فى الإدارة والقيادة على حد سواء ● استطاع أن يلم إلماما سريعا وذكيا بالتحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى شهدها وطنه مع تقلب العصور واختلاف أنظمة الحكم ● يصور لأبناء وطنه الجانب المضىء فى التجربة الشرطية ● ينبهنا إلى الطبيعة المختلفة للعمل الأمنى والمشكلة الدائمة فى خطورة اتصاله بالجماهير أو ممارسة الإعلان عن أدائه ● لا تغيب عن ذهن عبد الكريم درويش العلاقة الوثيقة بين الأمن والعدالة ● يحكى إحدى تجاربه فى اسكتلانديارد متمنيا أن نصل فى مصر إلى مثل هذا المستوى الكفيل بتحقيق عدالة ناجزة ● يروى تجربته فى كلية الشرطة بشىء من الاعتزاز ● استطاع أن يحرز نجاحات ساحقة فى مجالات مهمة ● الرياضة هى المجال الأول الذى استطاع أن يعيد إلى الأكاديمية رونقها فيه بعدما كانت وصلت إلى حالة لم تحصل فيها على أى كأس من كئوس النشاط الرياضى على مستوى مصالح وإدارات وزارة الداخلية ● يروى كيف وضع نظاماً جديداً لاختيار الطلبة

للالتحاق بكلية الشرطة ● أهم إضافة أدخلت على هذا النظام وثيقة التعارف، أو «شجرة العائلة» كما أطلق عليها، والاختبار النفسى، وأيضاً تقرير من مدير المدرسة الثانوية التى كان بها الطالب عن سلوكه فى أثناء الدراسة، ورأى مدير المدرسة فى مدى صلاحية الطالب لأن يكون ضابط شرطة ● أعد رد وزير الداخلية على طلب إحاطة تقدم به أحد أعضاء مجلس الشعب ● ضمّن هذا الرد دراسة تحليلية لبيانات الطلبة المقبولين وخلفياتهم العائلية والاجتماعية والاقتصادية ● أعلى نسبة من الطلبة المقبولين كانوا من أبناء رجال التربية والتعليم، يليهم أبناء صغار ملاك الأراضى الزراعية، ثم أبناء العاملين بالحكومة ● المستشار أحمد على موسى النائب العام فى ذلك الوقت اتصل به وسأله عن نظام القبول الذى استحدثته أكاديمية الشرطة فى عهده، وطور نظام قبول أعضاء النيابة العامة فى ضوء تجربة أكاديمية الشرطة ● يفخر بالنجاح الذى حققه بإدخال المرأة فى أكاديمية الشرطة ● يُرجع نجاحه فى إدارة أكاديمية الشرطة وفى غيرها إلى فهمه لقيمة التمويل ودوره وأهمية الاعتماد على مدير الميزانية ● ينبهنا إلى فهمه للدور التربوى للمؤسسات التعليمية ● ينتقد نظام التعليم الجامعى المصرى بعد تجربته فى جامعة نيويورك ● يجيد تصوير ما يسميه عملية الصهر التى كان لابد لطلاب كلية الشرطة أن يتعرضوا لها فى أيامهم الأولى فى الكلية وقسمها الداخلى ● يشير إلى تجربة محمود ابن زميل دفعته الوزير أحمد رشدى ● حديث متميز عن تجارب ناجحة قدر له أن يخوضها باقتدار على مدى سنوات خدمته الشرطية ● يكشف السر غن الدور الذكى الذى قدر له أن يلعبه من أجل إعادة لوحة «زهرة الخشخاش» الشهيرة التى سرقت فى وقت من الأوقات من متحف محمد محمود خليل ● يحكى تجربة

إنسانية فى غاية الذكاء يعترف فيها بالفضل لمجند بسيط استطاع أن يتوصل إلى فكرة بسيطة تمكنت بها الشرطة بل أجهزة الدولة من إزاحة كتلة خرسانية كبيرة من الطريق بعدما عجزت الأجهزة المسئولة عن أن توفر الونش الكفيل برفع هذه الكتلة الخرسانية ● يروى تجربته الناجحة فى مؤسستين شرطيتين مهمتين، الأولى مصلحة تحقيق الشخصية التى تمكن من إعادة تنظيمها بخطوات جبارة لم تكن ممكنة إلا لشاب فى مثل سنه وبدعم جبار من وزير متميز ● التجربة الثانية فى معهد تدريب الضباط ● يذكر تجربته فى العمل كأركان حرب لمصلحة تحقيق الشخصية التى لم تلق النجاح إلا بسبب تعاون زكريا محيى الدين وتفويضه له فى صلاحيات كثيرة ● يعترف عبد الكريم درويش فى فخر بأنه كان فى تلك المرحلة من أهل الثقة ● تعليق أخير له على تجربته فى مصلحة تحقيق الشخصية ● يثنى على وزير الداخلية حسن أبو باشا فى معرض حديثه عن إدخال تجربة الشرطة النسائية ● حصوله على أعلى الدرجات العلمية فى الإدارة من جامعة نيويورك ● يجيد تصوير تجربته مع العلم حين انقطع له بالليل والنهار وحين أصبح وهو فى كامل الصحة أقرب ما يكون إلى كامل المرض بسبب الاستخدام المكثف والزائد لحواسه وملكاته من أجل العلم والتحصيل العلمى ● حديثه عن تجربتيه البارزتين فى معهد الإدارة العامة وفى المركز القومى للبحوث الاجتماعى والجنائية، وقد كان من مؤسسى هذا المركز ● بعض ثنائه على الدكتور محمد توفيق رمزى ● كانت دراسة صاحب المذكرات فى «اسكتلنديارد» خطوة أخرى مبكرة على طريق نموه المعرفى الذى قدم لنا واحدا من أفضل العقول العلمية فى الإدارة المتخصصة علما وممارسة وتطبيقا وريادة ● يتحدث عن مشاركته فى النشاط الوطنى فى منطقة القناة من خلال موقعه الرسمى

كضابط بوليس مع ما كانت هذه المشاركة تمثله من مخاطر ● يحرص على ذكر طبيعة المواقف الوطنية لقيادات الشرطة ورجال النيابة العامة والقضاء تجاه إخوانهم من الفدائيين المصريين ● من خلال موقعه كضابط شرطة يبذل جهودا وطنية أخرى فى مكافحة وباء الكوليرا (١٩٤٧) ● مشاركته فى إضراب ضباط الشرطة (١٩٤٨) ● يتوج حياته فى الخدمة العامة بوصوله إلى منصب نائب وزير الداخلية وعضو مجلس الوزراء بعدما رأس المجلس الأعلى للشرطة لفترة غير مسبوقة ● يرأس اللجنة الأوليمبية المصرية فى دورتين ● تجربته مع تنظيم دورة الألعاب الإفريقية ● تحفل المذكرات بتصوير دقيق ووضوح لكثير من فترات عمله فى الشرطة وكيف أسهمت هذه الفترات فى تكوين شخصيته المتميزة ● يشير إلى فضل كل مرحلة من مراحل حياته على مسيرة حياته كلها ● يجيد تصوير التجارب الأولى لضابط الشرطة فى الأقسام ● يتحدث عن تجربته فى قسم العطارين كطالب تدريب بإشراف الملازم أول السيد فهمى (وزير الداخلية فيما بعد) ● يتحدث عن إدراكه للفرق بين التعليم والتدريب ● يتحدث عن الأثر الجميل الذى أحدثه تنقله بين المدارس المختلفة والبلاد المختلفة فى أكثر من موضع من مذكراته ● حديثه عن دراسته فى المرحلة الثانوية ● يذكر بالتقدير فضل أخيه الأكبر الدكتور طاهر درويش على تكوينه وتوجهاته الثقافية والحضارية ● ينتبه إلى بعض القيم التربوية المهمة ● الحرص على نظافة الأصابع فى المدرسة الأولية فى القرية ● يلفت نظرنا إلى حقيقة الأمر فيما يتعلق بعمل البوليس فى بريطانيا ومكانته فى المجتمع هناك ● يروى بعض المواقف التى تؤكد هذه الفكرة التى يبلورها عن مكانة البوليس البريطانى وطريقة عملية ● يذكر نصيحة الوزير عبد العظيم فهمى له بعدم قبول الانتداب

لرئاسة الجمهورية ● يذكر معاناته فى عهد شعراوى جمعة من الحقد الدفين ● تحفل المذكرات بالتقدير لكثير من أساتذته وزملائه ورؤسائه، وهو يثنى على مجموعة ضباط الخيالة فى كلية الشرطة ● يثنى على البوزياشى إسماعيل المليجى أحد أساتذته فى كلية البوليس ● يتحدث عن قيمه وأخلاقه بتفصيل كبير ● المذكرات تتضمن كثيرا من طرائف الحياة المصرية الجميلة بكل ما تحمله من معان مرتبطة بالقيم ● ما يرويه عن قصة مشاركته فى القوة التى أنيط بها تحديد إقامة فؤاد سراج الدين باشا فى مزرعته عقب وقوع حريق القاهرة ● يتحدث بأسى عن مفاجأة اختيار شعار الدورة الإفريقية الخامسة للألعاب التى عقدت فى القاهرة فى ١٩٩١ ● لا تخلو المذكرات من كثير من الحديث عن كثير من المصاعب البيئية والمهنية التى صادفها على مدى سنوات خدمته الطويلة فى البوليس ● معاناته البدنية فى ليلة ليلاء من ليالى الداوريات فى مركز منيا القمح ● المذكرات تحفل بكثير من صور التعبير النفسى الدقيق عن مشاعر صاحبها، وعلى سبيل المثال فإنه يجيد التعبير عن ضيقه وتبرمه من العمل فى مكتب البوليس السياسى ● ما اعتراه من ألم نفسى حين علم بنقله من الإسكندرية فجأة بعد مدة قصيرة لم يستمتع بالعمل فيها ● يلخص سعادته عند حصوله على الدكتوراه ● نهاية إضراب ضباط الشرطة فى ١٥ أبريل ١٩٤٨ بالإحباط الشديد ● يروى تجربة له مع أحد تجار المخدرات فى الفترة التى عمل فيها فى نقطة بوليس المعسكر البريطانى بمنطقة التل الكبير.

مذكرات الاكاديميين المتخصصين
منهجية العلم والفن

الباب الأول

مستقبل الثقافة في مصر العربية

للدكتور سليمان حزين

(١)

ولد الدكتور سليمان أحمد حزين فى مدينة وادى حلفا عام تسعة (١٩٠٩)، حيث كان والده يعمل بها، لكنه لم يلبث أن عاد إلى موطنه الأصلى فى البحيرة حيث نشأ فى قرية «اليهودية» (وهى التى أصبح اسمها «الوفائية») والتحق بالكتاب، ثم بالمدرسة الابتدائية، ثم تلقى تعليمه فى المرحلة الثانوية فى طنطا، والتحق بآداب القاهرة وتخرج فى قسم الجغرافيا (١٩٢٩)، وابتعث إلى انجلترا، فحصل على الماجستير من ليفربول (١٩٣٢)، وعلى الدكتوراه من مانشستر (١٩٣٥)، وأوفدته جامعة مانشستر فى بعثة علمية إلى اليمن.

عمل الدكتور حزين مدرسًا فى آداب القاهرة، وانتقل إلى آداب الإسكندرية عند إنشائها أستاذًا مساعدا لكرسى الجغرافيا، ثم عين مديرًا عامًا للثقافة فى وزارة المعارف فى أوائل الخمسينيات، فوكيلا مساعدا لوزارة المعارف (١٩٥٤)، ثم اختير بعد ذلك مديرًا لجامعة أسيوط، وتسلمها كما يقال بيتًا فى شارع الفلكى عليه لافتة باسم الجامعة، فحولها إلى منارة من أعظم منارات مصر العلمية، وهو صاحب فضل وافر على التعليم العربى كله، بما بذل من جهد فى تأسيس هذه الجامعة التى غذت بعد ذلك كل الجامعات الإقليمية بأعضاء هيئات

التدريس، وعلى سبيل المثال فقد كان هناك فى فترة من الفترات ثمانية من رؤساء الجامعات المصرية مروا فى سلكهم الجامعى بجامعة أسيوط!!

وإلى الدكتور سليمان حزين يعود الفضل فى إنشاء كثير من مؤسساتنا الثقافية، فقد أسهم فى إنشاء المعهد الثقافى المصرى فى لندن (١٩٤٣)، والمعهد الإسلامى بمدريد (١٩٥٠)، ومن قبل قسم الجغرافيا فى آداب الإسكندرية (١٩٤٢).

وقد نال الدكتور سليمان حزين كثيرًا من التقدير، فقد انتخب عضوًا فى مجمع اللغة العربية (١٩٧٨)، كما نال جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية (١٩٧١)، وكان ثانى عشر من حصل عليها، وجائزة لانجتون العلمية من جامعة مانشستر، كما اختير عضوًا فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، وكذلك فى المجلس الأعلى للثقافة، كما كان من أوائل الذين اختيروا لعضوية مجمع البحوث الإسلامية، ولعضوية المجالس القومية المتخصصة عند إنشائها (١٩٧٤)، وقد عمل مقررا المجلس القومى للتعليم منذ إنشائه وحتى وفاته.

وفى مجال تخصصه الجغرافى بذل جهودًا ممتازة، وألف أكثر من عشرة كتب فى الجغرافيا باللغتين العربية والإنجليزية، ونشر ما يربو على مائتى بحث ومقال علمى باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية، وقد دعته الأمم المتحدة لإدارة المركز الديموجرافى لشمال إفريقيا.

وكان الدكتور سليمان حزين بصفة دائمة من أبرز رؤساء وأعضاء المجمع العلمى المصرى، وهو تلك المؤسسة التى أسست منذ عهد نابليون، والتى تضم فى عضويتها كثيرًا من العلماء الطبيعيين إلى جوار علماء الجغرافيا والتاريخ والآثار والعلوم الإنسانية.

(٢)

يمثل الدكتور سليمان حزين علامة هامة فى تاريخ التعليم فى وطنه مصر، ويصعب جدًا أن تتكرر الفرصة التى أتيحت لسليمان حزين فهو من ناحية أول خريج فى أول دفعة فى أول كلية من أول جامعة حكومية، حيث كان أول دفعته التى كانت أول دفعة تتخرج فى جامعة فؤاد الأول بعدما درس أربع سنوات فى هذه الكلية الجديدة من الجامعة الجديدة.. ومن الناحية الأخرى فقد كان سليمان حزين المدير المؤسس لرابع جامعة مصرية، وهى فى ذات الوقت أول جامعة تمت نشأتها الحقيقية فى عهد الثورة.

سليمان حزين إذن متميز جدًا من حيث هو نتاج، ومتميز من حيث هو منتج ولكنه يجمع مع هذا التميز درجات عليا ورفيعة من الوجود والجد والتجويد، وقد أعطاه الله طول العمر فكان نموذجًا لأولئك الذين عناهم الحديث الشريف «خيركم من طال عمره وحسن عمله».

فأما الوجود فإن سليمان حزين قضى جل حياته فى مصر، وقضاها فى وجود حقيقى ولم تشأ الظروف له أبدا أن ينقطع عن الوجود فى قلب حياتنا الثقافية والعلمية والتربوية، وكان وجوده هذا نموذجًا للنفس الطويل الهادئ الذى يصعب أن يتاح للوجود ما لم يكن الوجود نفسه رياضيا فى روحه يتقبل الظل بمثل ما يتقبل اللمعان، ويتقبل السخط بمثل ما يتقبل الرضا، ويتقبل قبل هذين الجحود الشديد بقدر ما يتقبل الامتنان السريع.

أما الجد فقد كان لسليمان حزين منه النصيب الأوفى، فهو مجتهد فى دراسته إلى الحد الذى يحفظ عليه الأولية، ومجتهد فى تثقيف نفسه إلى الحد الذى يجعله مستعدا على الدوام لتقبل الرأى الآخر والاطلاع على آراء الآخرين

والاستماع إلى الآخرين بنفس القدر الذى يستمع فيه إلى نفسه، وبقدر أكبر مما يقدم به نفسه للآخرين، ثم هو حريص على أن يرتقى بقدرته على اتخاذ القرار وبفرصته فى اتخاذ القرار فإذا هو من اوائل الاساتذة الذين تركوا جامعة القاهرة ليكونوا الرواد المنشئين لجامعة الإسكندرية فى مطلع الأربعينات ثم إذا هو بعد ذلك حريص على أن يشارك فى العمل العام من مستوى قومى رفيع من خلال مناصب عليا فى وزارة المعارف العمومية، ثم إذا هو بعد كل هذا يقود خطوات بلده فى جامعة الصعيد على خير ما تكون القيادة وبأكثر ما تكون الأقدام ثباتا، ويكفى القارئ هذا الجزء من حياته نموذجا للجد الواضح، ولكن القارئ سيعجب عندما يعرف أن سليمان حزين أضاف إلى كل هذا كثيرًا من الجد المتواصل طيلة ثلاثين عامًا أخرى من جهد الشيوخ الأفاضل .

(٣)

أما التجويد وسليمان حزين فهما صنوان، ويكفى أن سليمان حزين اختار لجامعة أسيوط هيئة تدريسها وبعثاتها اختيار الحنبليين من بين الحنبليين فكان كل الذين اختارهم بلا استثناء دررًا فى قلادات هذا الوطن وفى أسيوط وفى الجامعات التى تفرعت منها «المنيا وجنوب الوادى» ثم فى الجامعات التى نشأت فى سهولة فى السبعينات معتمدة فى المقام الأول على الغذاء العقلى الذى قدمته أسيوط (وهى جامعات الزقازيق والمنصورة وطنطا وقناة السويس والمنوفية والكليات الحديثة فى جامعة حلوان فضلاً عن توسعات جامعة الأزهر بعد تطويره) بل فى جامعات خارج الوطن من اولئك الاعلام الذين يتبوأون أرفع المناصب العلمية فى العالم العربى كله بلا استثناء، كل اولئك قدمهم وأتاحهم وأتاح خدماتهم للعلم وللوطن وللتعليم الجامعى رجل واحد عظيم هو سليمان حزين صاحب هذه المذكرات.

ليس كثيرًا إذن على هذه المذكرات العظيمة الضخمة أن تحمل عنوان «مستقبل الثقافة فى مصر العربية» فقد كان سليمان حزين صاحب المذكرات واحدًا من الرعاة الأول لمستقبل الثقافة فى مصر العربية .

● ●

كان عبد الحميد بدوى باشا يعتقد أن أقطاب الفكر المصرى المعاصر ثلاثة هم لطفى السيد وطه حسين ومحمد كامل حسين، ومن عجائب الأقدار أن ثلاثتهم كانوا على التوالى المديرين المؤسسين للجامعات المصرية الأولى القاهرة والإسكندرية وعين شمس، وكنت أحدث نفسى لو طلب إلى عبد الحميد بدوى أو إلى مَنْ يخلفه فى فقهه وقانونه وقضائه أن يختار الرائد الرابع هل كان يختار المدير المؤسس للجامعة الرابعة، وأظن القارى قد يعتقد أن الجواب بالإيجاب هو الأقرب إلى الصواب.

نعم كان سليمان حزين بمثابة المسئول الأول عن التعليم فى العهد الأول للثورة المصرية، فقد كان الرجل الفنى القوى فى وزارة المعارف العمومية التى تعاقب عليها لمدد قصيرة جدًا اثنان من أساتذته فى نفس القسم قسم الجغرافيا فى كلية آداب القاهرة، وهما الدكتوران عباس عمار ومحمد عوض محمد، وذلك بعد أن ترك الوزارة إسماعيل القبانى الذى كان هو وطه حسين بمثابة رأسى اتجاهين قريبين من التنافر فى الفكر الموجه للعملية التربوية فى مصر، ثم أصبحت الوزارة فى قبضة العسكرين حيث تولاها كمال الدين حسين عضو مجلس قيادة الثورة، مما أتاح فرصة أكبر للفنيين من رجال الصف الأول فى وزارة المعارف من أمثال سليمان حزين «أو الذين كان فى مقدمتهم سليمان حزين» أن يفرضوا كثيرًا من رؤاهم على مسيرة التعليم، ولانتجاوز إذا قلنا إن سليمان حزين استطاع فى المهام التى تولاها أن يفرض رؤاه بأبعد من غيره .

(٤)

وهذه مذكرات سليمان حزين تنطق لنا بكثير من هذا، وتوحى لنا بأكثر من الكثير الذى تنطق به، وهى مذكرات هادئة ولكنها تثير السؤال القوى عن مدى الافتقاد إليها لمن لايعرفون أنها صدرت ولمن لم يتح لهم الحظ أن يتناولوها بالقراءة وبالاطلاع.

ولست أدرى ما الذى دفع سليمان حزين إلى أن ينشر مذكراته وهى كبيرة الحجم ضمن كتاب أكبر حجما، هو «مستقبل الثقافة فى مصر العربية»، وقد جعل هذه المذكرات بمثابة الفصل الثالث عشر من كتابه هذا الذى صدر عن دار الشروق عام ١٩٩٤ وجعل عنوانها «من سيرة مصرى من أهل الفكر والثقافة العربية»، وقد احتل هذا الفصل الصفحات من ٤١٣ وحتى ٥٢٨ من هذا الكتاب، لكننا فيما نتناوله فى هذا الباب لن نقف عند حدود ما احتواه هذا الفصل، وإنما سنأخذ من الكتاب كله كثيرًا مما له علاقة بالسيرة الذاتية للدكتور سليمان حزين، ولعل إطلاعنا القارئ على عناوين فصول هذا الكتاب يدله على أن مذكرات هذا الرجل قد استغرقت كثيرًا من فقرات هذا الكتاب أو السفر الضخم.

وهذه هى عناوين فصول كتاب حزين على التوالى:

هذا الكتاب وجذور الثقافة فى مصر العربية، ثقافة مصر فى مسيرتها مع الحضارة والتاريخ، ثقافة مصر العربية المعاصرة والمؤثرات الداخلية والخارجية فيها، المتغيرات المعاصرة فى الغرب والشرق وفى العالم العربى وصداها المرتقب فى الفكر والثقافة، تتابع أجيال الثورة فى مصر العربية المعاصرة (بحث مقارن فى دراسة الشخصية الثقافية وتاريخ الحضارتين القديمة والحديثة فى بلدين

عريقين هما: مصر والصين، مشروع ميثاق العمل الثقافى فى مصر، فلسفة المعرفة والتعليم فى مصر عبر العصور، التربية السياسة: تنمية الشعور الوطنى بالانتماء والمسئولية، مشروع بإصلاح جذرى للتعليم فى مصر العربية، نحو استراتيجية مستقبلية للتعليم فى مصر العربية، شجرة الجامعة فى مصر: رؤية تاريخية تحليلية، من سيرة مصرى من أهل الفكر والثقافة العربية.

(٥)

ولست أحب أن أتغاضى عن الإشارة السريعة إلى أن سليمان حزين لم يضع هذا العنوان اعتباطًا، وإنما هو قد استخدم عنوان أستاذه طه حسين فى كتابه الأشهر «مستقبل الثقافة فى مصر» وأضاف إليها كلمة «العربية» التى تتعارض تماما مع ما نعرفه عن الطرح الذى قدمه طه حسين فى كتابه، ومع أن مثل هذا الموضوع من الموضوعات المحببة إلى الكتّاب فى تناولهم نظرًا لسهولته وتوافر المراجع فيه، إلا أننى أرى فى مذكرات سليمان حزين ومسيرة حياته ما هو أهم بكثير من مثل هذه القضية.

على أننا لا نستطيع أن نقف عند حدود هذا الاختلاف البيّن بين الرجلين من دون أن نشير إلى اختلاف ثانٍ بينهما بلوره سليمان حزين بوضوح فى حديثه عن قيمة العلم ووظيفته:

«وكان طه حسين يدعو إلى أن العلم ينبغى أن يطلب «من أجل العلم»، وأحب أن أعترف أننى لم أقتنع تماما بما كان يقوله لنا أستاذنا طه حسين، وإننى قد وصلت إلى أن أؤمن بأن العلم ينبغى أن يطلب «من أجل الحياة». ومن هنا لم يكن صعبا على صاحبكم أن يرى وجه الصواب فيما قاله فلير وغيره من علماء أوروبا بعد ذلك بعقد واحد.. وهو أن كل علم لابد أن تكون له «قيمة عملية» ونفع عملى

«للجار وللناس». بل من هنا استهوى مذهب «النفعية العلمية» صاحبكم فرجع إلى ما أخذه عن عبد الرحمن بن خلدون وما استمع إليه من هربرت جون فلير، فوصل إلى ما أسماه «الجغرافيا الحضارية»، وهى صيغة مستندة إلى مفهوم «العمران» عند المفكر العربى الأصيل عبد الرحمن بن خلدون، ولكنه يطوع المعنى للمفهوم الجغرافى الحديث، وليس لهذا المصطلح صيغة مطابقة له فى اللغات الأوروبية التى تضيق فى تعبيراتها عن اللغة العربية ذات الغناء فى التعبير والمصطلح، ويكفى أن نذكر على سبيل التذكرة أن اللغات الأوروبية فيها مصطلح «للثقافة» (Culture) ومصطلح «للحضارة» (Civilization). أما اللغة العربية ففيها ثلاثة مصطلحات واحد منها «للثقافة» (بالمعنى السابق)،وواحد للحضارة (بالمعنى السابق أيضا)، ثم واحد «للمدنية» وهى التى تعبر عن الجانب «المادى» الملموس من «الحضارة»، وأما الجانب المعنوى أو الوجدانى أو الأدبى من الحضارة فهو «الثقافة» بمعناها الضيق، ومن هنا فقد لجأنا إلى اصطلاح «الجغرافيا الحضارية» على نها تشمل المدنية والثقافة معا».

(٦)

وقد نهج سليمان حزين فى هذه المذكرات منهجًا عجيبًا جديدًا ولكنه منهج جغرافى صرف، متأثر إلى أبعد الحدود بثقافته فى الجغرافيا الحضارية التى هى تخصصه الدقيق، فهو لاينظر إلى نفسه إلا فى إطار البيئات المختلفة التى نشأ فيها أو أنشأته، وهو لا يتحدث عما فعل إلا فى إطار الفعل، وهو بعيد عن الانفعال وبعيد عن أن يضع فكره أو اعماله فى إطار الانفعال، وهو أبعد ما يكون عن أن يتناول الأمور من وجهة نظره الفردية، وإن كان فى ذات الوقت يعطى نفسه كل حقها كنفس متفردة من صنع الله الفرد المتفرد !.

يتواضع سليمان حزين وهو يفخر، ويفاخر بتواضعه ثم يتواضع فى فخر، وأظنه بسلوكه هذا شبيها بالجواهرجى الذى يضع الوسادات الرقيقة حول اللؤلؤ الذى يُخشى عليه من الكسر فيأبى إلا أن تكون الوسادات من خام يليق بأن يكون إلى جوار اللؤلؤ ثم إذا هو يحدث نفسه عن قيمة اللؤلؤ ويتشكك فى هذه القيمة لأنها عرضه للضياع حين يصيبها الكسر، وهو لهذا يكتشف قيمة جديدة فى اللؤلؤ وهى أنه لاقيمة له إلا بالحفاظ عليه وبالحفاظ على الحفاظ عليه .

هذا هو سليمان حزين وهذه هى مذكراته فى اختصار شديد ! بل فى اختصار من ذلك النوع الذى قد يوصف بأنه مخل ومشوه للصورة العظيمة، ولكنه فى ذات الوقت أقصى ما يستطيعه القلم من تصوير ! .

(٧)

ولكن سليمان حزين مع هذا كله يزعجنا فى هذه المذكرات، دون أن يدرى، وربما دون أن يقصد أيضًا، بالحديث عن تضحياته المادية فى الوظائف التى تقلدها وهو يريد أن يبث فى روعنا أنه كان مثاليا إلى أبعد الحدود مع أننا لم نطلب منه ذلك، ومع أن قدره أرفع من أن يحتاج إلى مثل هذا الحديث المقرظ لسماحة نفسه أو لسموها عن مثل هذه المطامع المادية الصغيرة... ولنأخذ هذا النموذج لهذا الحديث:

«وقد استمر صاحبكم (هكذا يعبر عن نفسه فى مقابل تعبير طه حسين عن نفسه بصاحبنا) فى التدريس الإضافى بالإسكندرية أربع سنوات حتى افتتحت جامعة الإسكندرية فى خريف عام ١٩٤٢. وهنا رغب صاحبكم فى أن ينتقل إلى الجامعة الجديدة ليبنى على ما بدأه من قبل. ويذكر أنه كان قد رقى قبل ذلك إلى وظيفة أستاذ مساعد بالقاهرة، لكنه حين قرر أن ينتقل إلى جامعة

الإسكندرية لم يشأ أن يقال عنه إنه ترك الجامعة الأم «ليرقى» فى الجامعة الجديدة ويشغل بها وظيفة أستاذ (وكان ذلك ممكنًا بحسب نظام الوظائف إذ ذاك) فذهب صاحبكم ليقابل أستاذه طه حسين الذى كان يعمل مستشارًا لوزارة المعارف (إذ ذاك)وكان مكلفًا بالإشراف على إنشاء جامعة الإسكندرية. فذكر لأستاذه أنه يرغب فى النقل على أساسين أولهما «ألا» يرقى (للمعنى الذى أشرت إليه الآن) وأن يكتفى بأن يعين «رئيسًا» لقسم الجغرافيا الذى ينشأ فى كلية الآداب بالإسكندرية! وهنا ضحك طه حسين (وأذكر أنه قهقه كعادته) ذاكرًا أن زميلاً لى كان أستاذًا مساعدًا بكلية الحقوق بالقاهرة، بل كان يشغل مثلى وظيفة أستاذ مساعد بأقدمية من التاريخ نفسه، ولكنه اشترط لنقله أن يرقى فورًا إلى وظيفة أستاذ فى كلية الحقوق الجديدة!ومع ذلك أصررت على موقفى فسبقنى الزميل فى الدرجة. وإننى رغم ذلك لا أزال أذكر الزميل الخيّر وأترحم على ذكراه».

(٨)

وعلى هذا النحو نجد سليمان حزين مع أنه بلغ هذه السن وهذه الحكمة يصطنع مواقف للخلاف حين لايكون هناك محل للخلاف، ومواقف للاتفاق حين لايكون هناك محل للاتفاق ومواقف للتأمل حين لايكون هناك داع لتأمل وتكثر هذه المواقف والمواضع فى كتابه إلى حد ملحوظ، وهو حين يتحدث عن مولده على سبيل المثال فإننا نجده يلجأ إلى الاصطناع الظاهر كأنه يحاول أن يقلد طه حسين فى مطلع الأيام دون أن ينتبه إلى ما يجوز أن يصور وما لايجوز، فهو ينبئنا أنه لم يكن يدرى أشياء نعرف جميعا أنه لم يكن يدريها بالطبع ثم هو يفسر الاحتمالات المختلفة التى لم يعرف أيها حدث دون أن يكون لهذا التفسير

أية قيمة فى العمل الأدبى والإنسانى الذى يقدمه لنا، ولنتأمل هذا الذى يرويه حيث يقول:

«... كانت ساعة الفجر من يوم الاثنين الرابع والعشرين من شهر مايو ١٩٠٩ حين خرج الطفل إلى الحياة باكيًا كغيره من أطفال البشر، وليس يعرف أكان بكاؤه مرتفعًا أم غير مرتفع، كان لا يدرك أكان ذلك نتيجة المفاجأة والارتياع من الجو الجديد، أم كان نوعًا من الاحتجاج والإعلان الصارخ عن الذات فى عالم لم يكن ليدرك عنه ولا عن سره شيئًا، ولكنه لم يلبث أن تلقته يد القابلة ومن كان شاهدًا من الأهل فى حنان واستبشار، وفى ترديد لاسم الجلالة، كان حفيًا بأن يستشعره جلده الرقيق وإن لم يدركه جنانه الوليد، ويبدو أنه قبض عليه من قدميه قبل أن يقبض عليه من يديه كما عهد الطفل فيما بعد. ثم لم يلبث جسد الطفل أن لف فى لفاف ناعم رقيق، وكان ذلك كله أول عهده بمحيط الحياة».

«كان ذلك فى بيت يملكه عمدة المدينة ويؤجره للنازلين فى مدينة حلفا أو وادى حلفا عند الطرف الشمالى الأقصى من أرض السودان. وكان المنزل على الضفة الشرقية لمجرى النيل العظيم، وعلى قيد خطوات معدودات هى عرض الطريق الذى يجرى فوق جسر النهر وما يجف به من زرع قليل. ولقد كان ذلك الطريق أول ما سارت عليه أخته الكبرى الزهراء «زهر الرياض» حاملة الوليد فى صباح مشمس على كفيها وبين ذراعيها الحانيتين متجهة إلى الجنوب لتبلغ بالرضيع الذى لم يستكمل الأربعين يومًا إلى مرسى السفينة الصغيرة على الشاطئ حيث أركب الوليد مع أهله متجهين بالنهر وفوق مائه إلى الشمال لقضاء عطلة الصيف فى ربوع مصر موطن الوالدين».

(٩)

ومن أهم الفقرات فى هذه السيرة تلك التى يحدثنا بها صاحب المذكرات عن العوامل الذكية التى كان الأباء يغلبونها حين يختارون لأبنائهم المدارس التى يتعلمون فيها، فهذا والده يفضل لابنائه مدرسة طنطا الثانوية على مدرسة الخديوية بالقاهرة لأسباب صحية أو نفسية لم نعد قادرين على الاختيار تبعًا لها وكأننا فقدنا كل مقومات الاختيار السليم وأصبحنا نعتبره من الترف:

«ثم أراد أبى أن يختار لى أفضل مدرسة ثانوية ألتحق بها، فتوجهنا إلى المدرسة الخديوية الثانوية. وكان عدد المدارس الثانوية الحديثة فى مصر كلها محدودًا جدًا فى ذلك الوقت، فكانت هناك مدرستان أو ثلاث مدارس بالقاهرة (هكذا يقول سليمان حزين ويبدو أنه لم يشأ أن يقطع برأى حاسم يكون فيه غير مصيب) ومدرسة بالإسكندرية ومدرسة بطنطا للدلتا كلها ومدرسة بأسيوط للصعيد كله. واختار أبى أن يتوجه بى أول ما يتوجه إلى المدرسة الخديوية. وكانت تقوم فى مبنى قديم فى درب الجماميز والحلمية، وهو المبنى القديم الذى هدم فيما بعد وقامت مكانه المدرسة الجديدة الحالية. ولكن ما إن دخلنا إلى المبنى حتى ألفيناه بناء قديمًا ترتفع فى جدرانه الخارجية «رطوبة» أكلت طلاءه الخارجى حتى بلغت ما يقارب نهاية الدور الأرضى من المبنى. وهنا أذكر أن أبى استرعى نظرى وانتباهى إلى حالة المبنى وما أصابه من رطوبة وإهمال. ثم سألنى كيف ترى هذا المبنى الضخم الكبير بالنسبة لمدرسة أم درمان حيث الرونق الصغير الجميل، وحيث الرطوبة لم تستطع أن تنال منه شيئًا. واقتنع الصبى مع والده أنه قد لا يكون من الخير أن ينتقل من بلد دافئ ومن مبنى حسن الصيانة وجاف الجدران إلى مبنى مثل هذا الذى أطلقوا عليه اسم «المدرسة الخديوية».

«ولعل هذه كانت أول تجربة أخذ الوالد المعلم بيد ابنه الصغير فيها ليبادله الرأى ويجعله يشارك بنفسه - على صغره وقلة تجربته - فى «اتخاذ القرار» بالنسبة لمستقبله الدراسى والمكان الذى يمارس فيه حياته فى مرحلة الصبا ومطلع الفتوة. ولعل هذا الدرس أن يكون قد انطبع فى نفس الطفل فاتبعه فى تربية أولاده بل وبعض أحفاده فيما هو قابل من أيام بحيث اعتاد الناشئ والتلميذ الصغير على أن يكون له رأيه فى مكان دراسته وظروف معيشته وحياته المدرسية. بل لعل الطفل الشاب قد ذكر هذه التجربة وهذا الدرس من أبيه حين انتهت إليه المسئولية فيما بعد، وفى شرخ حياته العاملة، فأصبح مسئولاً عن تربية الشباب وتنشئته (بمن فيهم ذريته من صلبه) فكان دائمًا يشرك الشباب فى مسئولية كل قرار يؤثر فى مصير الحياة التعليمية ثم الحياة العامة. وقد مارس صاحبكم هذا الدرس عن والده المربى العظيم حين أصبح مسئولاً عن الأستاذية فى الجامعة ثم فى وزارة التربية والتعليم، ثم فى جامعة أسيوط التى أنشأها إنشاءً، ثم فيما تلا ذلك من مسئوليات فى مجال التربية والتعليم والثقافة وصناعة بناء الرجال...».

(١٠)

ونمضى مع صاحب المذكرات وهو يواصل حديثه عن أهمية المشاركة فى القرار والأثر الواعى الذى تتركه هذه المشاركة فى صياغة التكوين التربوى للنشء فيقول:

«... ثم خرج الوالد بابنه الفتى وتوجها من القاهرة إلى طنطا، حيث كانت المدرسة الثانوية التى أدى الصبى فيها امتحان الشهادة الابتدائية فى خيمة كبيرة أقيمت فى حوش الكرة الواسع، والتى كانت قد ألصقت بجدرانه قوائم بأسماء

المدارس التى يؤدى تلاميذها الامتحان مع إشارة إلى أرقام جلوسهم ومكانهم من الخيمة. وكان الفتى قد دخل إلى حوش المدرسة دون أن يعاين مبانيها الكبيرة والجديدة وذات اللون الأبيض خصوصًا أنه أدى الامتحان وهو يكاد يكون مغمض العينين من أثر الرمد الطارئ. فلما عاد اليوم ليعاين المدرسة ومبانيها الدراسية ومبانى «الداخلية» ومنزل الناظر والمسجد الصغير والأحواش الفسيحة، لم يلبث أن سبق والده إلى التصريح بأن هذه هى المدرسة التى يود الالتحاق بها، وهكذا استدرج الوالد الحصيف ولده إلى أن يتخذ قراره بنفسه. ولعل هذه أن تكون أول مناسبة يمارس فيها الفتى اتخاذ القرار فى وضوح.. وهو الأمر الذى عاد إليه مرارًا وتكرارًا فى حياته القابلة، حين أصبح رجلاً مسئولاً عليه أن يتخذ القرار، وما كان ذلك إلا لأن أباه كان قد وضعه فى هذا الأمر، وفى هذه السن المبكرة على أول الطريق. وتلك بادرة أبوية تربوية لم تتح لكثير غيره من الفتيان».

(١١)

وعلى نحو ما نجد سليمان حزين حريصًا فى كثير من المواضع فى مذكراته على ذكر فضل والده عليه فى تكوينه الخلقى والعلمى والإنسانى، نجده أيضًا حريصًا على ذكر فضل أمه وزوجته، وهو يورد ذكر اسميهما كذلك، ولنذكر أن سليمان حزين كان فى طليعة الأساتذة الذين تزوجوا من تلميذاتهم والذين بقيت زوجاتهم يمارسن الوظيفة، ومع أن سليمان حزين يبدى امتنانًا كبيرًا لهاتين الشخصيتين إلا أن هذا لا يأتى إلا فى آخر صفحات المذكرات:

«... وأذكر إلى جانب ذلك أمى السيدة مبروكة محمد عصفور وهى ابنة العالم المالكى الجليل والتى عرفت الله فى أبنائها بأفضل ما يعرفه إنسان عن

خالقه. فعلمتنى خشية الله ورعاية حقه علىّ وعلى جيلى من مخلوقاته، فعشت فى رعاية أمى فردًا فى خلق كثير، رعيت حقوقهم قبل أن أرعى حقى الذى ضمنه ورعاه لى والداى رحمهما الله».

«وأذكر ممن كان لهم الفضل علىّ زوجى عزيزة محمد الشعرانى،وهى كانت تلميذتى فى كلية الآداب بجامعة القاهرة، وهى سليلة الإمام المتصوف عبدالوهاب الشعرانى. وقد كنت أول أستاذ فى الجامعة يختار تلميذته قرينة له.وما أظن إلا أن هذه كانت هداية من الله سبحانه، إذ اخترتها فى اليوم السادس من عودتى من البعثة العلمية فى الخارج، وقد امتد بنا هذا القران الأليف الزكى أكثر من نصف قرن (منذ عام ١٩٣٧) وأعطتنى زوجى خيرالذرية وأزكاها، كما كان لها الفضل فى مسيرتى فى الحياة الدنيا (والآخرة إن شاء الله) على صراط المودة والخير والحق المستقيم فى صحبة سليلة الإمام الشعرانى رضى الله عنه وأرضاه».

(١٢)

وعلى الرغم من المنهج الذى اختاره سليمان حزين لكتابة مذكراته مغلبًا الرأى والفكر على القص، فإننا لا نخطئ فى هذه المذكرات مدى حرصه على تصوير الدور التنويرى أو التطويرى الذى أداه لمجتمعه، وهو حريص على أن يذكر لنا مساهماته البناءة فى اكثر من مجال، وأهم ما يفخر به بالطبع هو إنشاؤه جامعة أسيوط، وهو يروى كيف اختير لرئاستها فيقول:

«وأما عن جامعة أسيوط ... أكتفى بأن أذكر قصة تعيينى مديرًا (رئيسًا) لها فى آخر سبتمبر من عام ١٩٥٥، ذلك أننى كنت إذ ذاك وكيلاً مساعدًا لوزارة التربية والتعليم (فى اسمها الجديد منذ عام ١٩٥٤) وكان بالوزارة أربعة وكلاء

مساعدين وكنت أنا أقدمهم ويلينى فى الأقدمية أستاذ سابق لى بمدرسة طنطا الثانوية هوالمرحوم الأستاذ سيد يوسف، وكنت قد رقيته من قبل إلى درجة مدير عام لشئون العاملين ثم إلى وظيفة وكيل مساعد للوزارة، كما كنت على الدوام من أقرب الناس إليه، وكانت له ظروف خاصة تربطه بصفة النسب مع رئيس الدولة والوزارة إذ ذاك. ومع ذلك فإن الذى دفعنى فى ذلك الوقت لأن أسعى لأخلى مكانى فى الوزارة لأفسح الطريق أمامه (وهو أستاذى ومعلمى ويكبرنى بنحو خمسة عشر عامًا) ليصبح وكيلاً أول للوزارة ويرأس باقى زملائه فى الوزارة، فضلاً عن أنه من رجال التعليم الأصلاء، وليس «دخيلاً» مثلى أو معارًا من الجامعات إلى الوزارة... كان الدافع الأساسى فى ذلك - والله يشهد على ذلك - هو أننى كنت من «تلاميذه» وليس مستساغًا لى أن أقف فى طريق ترقيته. ولذلك فقد عرضت على وزيرالتربية والتعليم إذ ذاك (وكان هو الصديق والزميل الكريم كمال الدين حسين النائب السابق لرئيس الدولة الزعيم جمال عبدالناصر).. عرضت عليه أن يعرض موضوع نقلى وإعادتى أستاذًا بجامعة الإسكندرية حتى أتجنب الحرج مع أستاذى ومعلمى، ولكنه عرض أن يعدل طلبى إلى النقل مديرًا لجامعة أسيوط التى كانت الدولة تفكر فى إنشائها - ومع ذلك فقد عرضت عليه موقفى القاطع فى ضرورة إخلاء مركزى تقديرًا لمعلمى، وإننى حتى إذا قبلت أن يكون نقلى إلى الجامعة الجديدة فى أسيوط فإن لى اشتراطات خاصة أحب أن أعرضها - بكل التواضع والتقدير - على من بيدهم مقدرات هذه الجامعة الجديدة، وانتقالى لتولى إنشائها - وقد طلب إلىّ أن أقدم مذكرة بهذا الشأن لعرضها على رئيس الوزراء ومجلس الوزراء الذى يقر مثل هذه الأمور. وكانت هذه سابقة جديدة فى تقرير مثل هذا الإجراء.. ولعلها كانت المرة الفريدة حتى ذلك التاريخ أو منذ قيام الثورة على الأقل».

(١٣)

ولنتأمل ما يرويه سليمان حزين فى موضع آخر عن فترة عمله فى تأسيس جامعة أسيوط وعن تجربته فى هذا التأسيس، ونحن نلاحظ هنا أن فكرة جامعة الصعيد كانت سابقة على اختياره، بينما رأيناه فى الموضع السابق يشير إلى «المواكبة» بين القرارين:

«... وفى خريف عام ١٩٥٥ فكرت الثورة فى إنشاء أولى الجامعات الجديدة فى الصعيد، على أن تكون فى مدينته الكبرى ومركزه التعليمى الأساسى (أسيوط)، ورأت وزارة التربية والتعليم إذ ذاك أن تفاتح واحدا من أبناء جامعة القاهرة وخريجيها الأوائل (هكذا يتحدث سليمان حزين عن نفسه)، وعرضت عليه فرصة لا تتاح إلا فى أندر النادر، تلك هى أن يضطلع بإنشاء جامعة فى منطقة طال حرمانها بعيدا عن القاهرة، بحيث يكون إنشاء الجامعة مما يقارب نقطة الصفر».

ويعبر سليمان حزين بإيجاز عن مكمن الصعوبة فى المهمة التى ندب لها على نحو ما رأى هذه الصعوبة فى وقتها وهو يكاد يحصر «المشكل» فى مبدأ أو قضية التأنى من أجل تحقيق التجويد، وليس هذا بالمشكل لكن المشكل يكمن فى أنه لم يكن واثقًا من أن الثورة ستقبل بالتأنى من أجل التجويد:

«والحق أن صاحبكم (كاتب هذا البحث) (هكذا يخرج سليمان حزين من التلميح الباهت إلى التلميح الصريح) تهيب العرض أول الأمر، خصوصا أنه لم يكن ساعيا إليه ولا واثقا كل الثقة من أن الثورة التى واجهت مهام الإصلاح التاريخى الكبير تستطيع أن تتناول إنشاء الجامعة الجديدة والسابعة فى تاريخ مصر » (هكذا يعطى سليمان حزين جامعة أسيوط ترتيب السابعة فى بعض

الأحيان، ناظرًا إلى التاريخ الممتد، ويعطيها ترتيب الرابعة من حيث ترتيب الوجود بين الجامعات الحديثة المعاصرة) بأسلوب الصبر والمصابرة الذى يقتضيه إنشاء مثل هذا الصرح العلمى، الذى يحتاج مجرد الاستعداد المادى له عامان أو عامين، ناهيك عن التخطيط الحكيم والسليم والمتأنى للعمل العلمى فيه، إذا ما أريد له أن يخالف عن النهج الذى اتبع فى إقامة الجامعات «الحاضرية» الأخرى، والذى كان يلائم زمنه، بعد أن انقضى على تجربة إقامة الجامعة المصرية الحكومية فى عام ١٩٢٥ ثلاثة عقود أو أكثر».

(١٤)

وسرعان ما يشير سليمان حزين إلى الإيجابيات التى شجعته على المضى قدمًا فى هذه المهمة، وهو يكاد يحصر هذه الإيجابيات فى النظر إلى نفسه على أنه كان من أهل الخبرة لا أهل الثقة:

« ولكن صاحبكم التمس الثقة والسند على مواجهة مثل هذه الأمانة الكبرى، أمانة إنشاء جامعة من الألف إلى ما يليها من أحرف، لعل بلوغ حرف الياء منها أن يستغرق جيلا كاملا أو ما يزيد.. التمس صاحبكم الثقة والسند من أمور كثيرة، ربما كان من أبرزها أنه استشعر أن الثورة تعتبر أن إقامة صرح جامعى جديد ينبغى أن يعهد فيه إلى واحد من أهل «الخبرة»، رغم أن الأسلوب الطبيعى لأية ثورة فى مستهلها هو أن يكون لأهل «الثقة» شىء من الأسبقية عند الاختيار للأعمال التجريبية التى تتصل بصميم المبادئ التى قامت الثورة من أجلها، مثل مبدأ «تعويض الحرمان» ومبدأ «عدالة التوزيع» و«تكافؤ الفرص» بين الريف والحضر».

●●

ويضيف سليمان حزين عاملاً آخر لا يقل أهمية عن العامل الأول، وإن كان هذا العامل لم يكن حسب سياق حديثه حاسما تمامًا كالأول فيما يتعلق باضطلاعه بهذه المهمة، ويبدو هذا واضحا من أنه يشير إليه بفعل «الاستشعار» ويشير إلى نفسه المستشعرة بضمير الجمع، وهو يتحدث عما حدث فى تجربته من سماح نظام الثورة بالسلطة الكاملة لغير رجالها من أصحاب المسئوليات فيقول:

«... كذلك فإننا استشعرنا أن الثورة جادة فى أن تجمع فى تكامل بين مبدأ «المسئولية» ومبدأ «السلطة» فى مثل هذا العمل الكبير، بمعنى أن مَنْ يكلف به يجب أن يعطى من السلطة ما يتيح له ممارسة المسئولية، وهو أمر روعى فى فترات من حياة الجامعة المصرية من قبل، ولم يراع مراعاة كاملة فى فترات أخرى، اختل (فيها) الربط بين حكم الجامعة لنفسها، واستقلالها بأمورها، مما أدى إلى شىء من التعثر فى مسيرة العمل الجامعى فى مصر، بعد أن تحول أمر الجامعة المصرية من جامعة «أهلية» فى عام ١٩٠٨ إلى جامعة «حكومية» تتبع «الدولة» منذ عام ١٩٢٥».

(١٥)

ويعود الدكتور سليمان حزين فى موضع ثالث ليلقى الضوء على الظروف السياسية والوطنية فى المرحلة التى أسند إليه فيها إنشاء الجامعة الجديدة فى أسيوط، مركزًا على ما يرى أنه «أهم الخبرات» التى أهلته للمهمة الجديدة، ومع أنه يكرر أو يبلور ما نعرف عنه وعن تاريخة وعن تكوينه العلمى إلا أنه يحرص على أن ينبهنا إلى حقيقة مهمة وهى ألا نقبل مَنْ هم فى مستوى أقل من مستواه إذا ما أردنا إنشاء جامعات جديدة... وهو يقول:

«وعندما حلّ صيف ١٩٥٥ كانت الثورة قد أمضت ثلاثة أعوام من فجر عملها فى مجال البناء القومى الجديد، وما صاحبه من تغيير ثورى شمل بعض الجوانب الأساسية فى حياة المجتمع المصرى، ومنها جانب التعليم العام والتعليم الجامعى، وكان من أظهر نواحى العمل فى هذا المجال الأخير هو التفكير بصفة جدية فى إنشاء جامعة الصعيد فى أسيوط. وحدث أن كان صاحبكم فى ذلك الوقت قد أمضى خمس سنوات فى خدمة الثقافة والربط بين التعليم الجامعى والتعليم العام فى وزارة المعارف (التربية والتعليم) بعد أن مارس العمل فى كل من جامعتى القاهرة والإسكندرية، وبعد أن كانت فرص التعليم والعمل الجامعى قد أتيحت له من قبل (من أوسع الأبواب) للاحتكاك بهذا التعليم بالخارج فى انجلترا وفرنسا والنمسا، كما أتيحت له فرص الاتصال بالعمل الدولى فى مجال التعليم والثقافة والبحث العلمى عن طريق اليونسكو وغيرها من المنظمات الدولية، وكذلك عن طريق زيارات عمل ودراسة على الطبيعة لمشكلات الإنشاء والأداء العملى فى مجموعة كبيرة من الأحرام الجامعية الجديدة فى الغرب.. لاسيما فى بعض أرجاء الولايات المتحدة الأمريكية (حيث زرنا ثلاثة وعشرين حرما جامعيا فى صيف عام ١٩٥٢)، وكانت لهذه الزيارات والدراسات الميدانية فائدة عملية فى الاطلاع على أساليب العمل المستحدثة فى إنشاء الجامعات ونشر خدماتها فى المناطق والمدن الصغيرة بعيدا عن مدن العواصم الكبرى، وفيما أصبح يسمى بالجامعات الجديدة التى تخالف عن أساليب الجامعات العتيدة وكلياتها التقليدية».

(١٦)

والشاهد أن سليمان حزين حريص كل الحرص على أن يشير إلى أن تجربته فى إنشاء جامعة أسيوط لم تكن إبداعًا محضًا ولا رؤية فردية خالصة، وإنما

كانت محصلة فكر عالٍ قدر له أن يتمثله فى الفترة السابقة مباشرة على إنشاء الجامعة، وهو يلخص هذا المعنى فى فقرة مهمة يقول فيها:

«لقد كانت الفترة ما بين عام ١٩٥٠ وعام ١٩٥٥ فترة دراسة واستعداد وجمع خبرة بالنسبة لمن عُهد إليه (يقصد نفسه) فى آخر سبتمبر من ١٩٥٥ أن ينشئ جامعة فى أسيوط، ولكن الظاهرة التى تستحق التسجيل فى شىء من العرفان الواجب، هى أنه عندما ظهر الترشيح لوظيفة مدير الجامعة (كما كانت تسمى فى ذلك الوقت قبل اعتماد لقب رئيس الجامعة) طُلب إلى المدير المرشح أن يضع مذكرة بالظروف والملاءمات والشروط التى ينبغى أن ترتبط بها الدولة من حيث المبدأ، قبل أن تحدد مهام الجامعة المقترحة ومقومات قيامها فى أفضل ظروف ينبغى أن تتوافر لها خلال مراحل الإنشاء».

هكذا كتب سليمان حزين بانيا فعل الطلب للمجهول دون أن يشير إلى اسم مَنْ طلب منه هذا الطلب، ونحن نعرف أن قامة سليمان حزين كانت أطول من قامة كل مَنْ كان بيدهم أن يطلبوا هذا الطلب لكننا لا نستطيع أن نتغاضى عن أن هناك فاعلا لفعل قبل أو أرغم على أن يقبل أن يبنى للمجهول ... وكنا نود لو أن سليمان حزين قد جاد علينا باسم الفاعل، وعلى كل الأحوال فلنقرأ ملامح المذكرة الابتدائية التى أعدها سليمان حزين على نحو ما يصورها هو.

(١٧)

والحاصل أن سليمان حزين قد وضع يده فى ذكاء دارس التاريخ على حقيقة مهمة واستطاع الانطلاق منها إلى آفاق إنجازه على نحو سليم على نحو ما نرى من تركيبه للأحداث فى الفقرات التالية:

«وقد وضعنا هذه المذكرة وضمناها بعض ملامح فلسفة التعليم الجامعى بالنسبة للمناطق الجديدة التى لم تعرفه من قبل. فقد كانت مصر المعاصرة قد أمضت قرنا ونصف قرن من بناء صرح التعليم الحديث منذ أيام محمد على، دون أن يقوم معهد علمى جامعى واحد إلى الجنوب من القاهرة، وعلى هذا النحو ينبغى أن يكون مفهوما أن قيام جامعة لصعيد مصر إنما ينطوى قبل كل شىء على تصحيح لوضع تاريخى طويل اتسم بالظلم الثقافى الذى كاد أن يجعل من التعليم العالى وما يتبعه من ثقافة للخاصة والعامة، ما يشبه الحكر على أهل الشمال وأهل الدلتا والثغور، أما أهل الظهير الريفى التاريخى لمصر فى الصعيد فقد كان مقضيا على غالبيتهم أن يعيشوا تحت ظلال من هذا الظلم المقيم الذى آن أن تتجلى سحاباته، وأن تتاح الفرصة لأبناء الصعيد ـ رجالا ونساء ـ فى أن يشاركوا مشاركة مباشرة وكاملة وشاملة فى بناء الحياة والفكر والمستقبل على أرض مصر المعاصرة».

... ...

هكذا نرى سليمان حزين وقد صور هدفه مرتبطًا ارتباطا مباشرًا بتصحيح الوضع التاريخى الظالم الذى اساء إلى أهل الصعيد، وهو يبنى ما يقترحه من خطط على هذه الحقيقة التى لفت النظر إليها ويؤسس مقترحاته على نحو يجمع بين المثالية والعملية على نحو ما نرى فى حديثه عن مذكرته التى قدمها إلى مجلس الوزراء:

«ولقد شملت المذكرة التى أعددناها وعُرضت على مجلس الوزراء فى ٢٨ سبتمبر ١٩٥٥، فى شأن الاعتبارات التى يقوم عليها مشروع جامعة أسيوط وتعيين مدير لها على عدد من المبادئ والقواعد نستشعر أن من الخير، بل ومن المفيد، أن نذكرها بشىء من التفصيل، لأنها تمثل منعرج التحول من مرحلة «الجامعات الحاضرية» إلى مرحلة جامعات مدن الريف فى مصر المعاصرة».

ويبدو لى أن الدكتور سليمان حزين فيما يلى من حديثه عن بنود مذكرته قد ضم حديثه عما تحقق بالفعل فى تجربته فى أسيوط وما واجهته هذه التجربة إلى ما كان يطالب به عند الانشاء، وليس عليه من حرج فى هذا حتى إن فاته أن يشير إلى هذه الملحوظة فيما قدم به للمذكرة التى تضم التجربة وتفصيلاتها إلى التخطيط والشروع، وفى جميع الأحوال فمن المفيد أن نستأنف قراءة ما يرويه:

«وأهم هذه النقاط ما يأتى:

«أن يكون إنشاء الجامعة الجديدة التزاما من الدولة والحكومة، يجعل لقيامها أولوية خاصة فى العمل الحكومى، بحيث يسرع فى التخطيط الفورى لبدء العمل الجامعى فى أسيوط خلال عام واحد (اضطررنا إلى مده إلى عامين تحت ظلال عدوان ١٩٥٦)».

«... أن تعامل الجامعة المستحدثة على مستوى متكافئ مع الجامعات القديمة، وذلك من حيث قبول الطلاب واختيار هيئة التدريس وهيئة العاملين، ومعاملتها على مستوى واحد متكافئ، فلا يكون هناك نظام مماثل لما هو معمول به فى وظائف القضاء العالية والمحاكم العليا، الذى كان يقضى بأن يبدأ التعيين بأسيوط ثم يتم التدرج إلى محاكم الدلتا فى المنصورة وطنطا ثم إلى الإسكندرية ثم القاهرة، وذلك تدرج مقبول فى الترقى فيما يتصل بوظائف القضاء، ولكنه غير مقبول فيما يختص بوظائف الجامعات».

ومع أنى لست فى معرض تقييم آراء سليمان حزين فيما يتعلق بهذه الجزئيات إلا أنى أود أن أشير سريعًا إلى الجانب السلبى الذى نشأ عن هذه الفكرة بعد سنوات قليلة، وقد تمثل فى تكريس انعزال الجامعات جميعًا بعضها عن بعض

حتى أصبح من المستحيل أن يحدث تطعيم من جانب جامعة قديمة لجامعة جديدة أو العكس، ولسنا نستطيع أن نتجاهل خطورة هذا النوع من الاستقلال للجامعات فرادى لا للجامعة كمؤسسة على فكرة الجامعة.. وعلى المستوى الجامعى.. وعلى التعليم الجامعى.

(١٩)

ويستطرد سليمان حزين من هذه الفقرة إلى التأكيد على فكرة أخرى مناظرة على مستوى الطلاب، ويشير إلى أن هذه الفكرة كانت بمثابة الفكرة الأم التى ولدت من رحمها فكرة التوزيع الجغرافى لطلاب الجامعات من خلال مكتب التنسيق، وهو يشير إلى أهمية هذه الفكرة فى حماية الجامعة الناشئة (فى أسيوط) ومثيلاتها من أن تكون بمثابة مثابة للطلاب أصحاب المجاميع الأقل من غيرها:

«وبالتالى كذلك تختص جامعة أسيوط، فى الكليات التى تنشأ بها تباعا، بقبول طلاب الصعيد من المنيا جنوبا حتى أسوان، فيكون هناك نظام «مرحلى» للتوزيع الجغرافى فى قبول الطلاب يُطبق خلال المرحلة الإنشائية التى تبدأ بقبول جميع الصالحين من الحاصلين على الشهادة الثانوية العامة من مدارس الصعيد، حتى إذا ما بقيت طاقة فائضة فإنه يجوز أن تقبل الجامعة من طلاب الشمال ومَنْ لم تتسع لهم طاقة الجامعات فى القاهرة والإسكندرية».

«ولقد كانت جامعة أسيوط أول حجر فى أساس قيام مرحلة الانتقال إلى نظام التوزيع الجغرافى فى تنسيق قبول الطلاب، ولولا ذلك لبقيت النظرة للجامعة فى أسيوط (وغيرها من الجامعات الجديدة التى ظهرت فيما بعد) على أنها فى مؤخرة الجامعات، يُقبل بها الطلاب الأقل فى مجموع درجاتهم فى

الثانوية العامة، أما الآن فإنها (وشقيقاتها الجديدات) تقبل مجموعة متكاملة من الطلاب يمثلون قطاعا كاملا من المجاميع التى حصل عليها الطلاب فى شهادة إتمام الدراسة الثانوية».

(٢٠)

ويواصل الدكتور سليمان حزين الحديث عن المميزات التى حرص على أن توفرها الدولة لجامعة أسيوط عند إنشائها ومدى أثر هذه المميزات على نشأة الكيان الجامعى وتطوره:

«... أن تكون للجامعة منذ البداية حرية كاملة فى التخطيط العلمى والأكاديمى لأقسامها العلمية وكلياتها. ولقد تم هذا بالفعل، فأنشأنا للجامعة لجنة للتخطيط كانت مثالا فريدا بالنسبة للوقت الذى أنشئت فيه، حيث إن فكرة «التخطيط» فى حد ذاتها كانت إذ ذاك لا تزال فكرة مستحدثة بالنسبة للعمل الحكومى بصفة عامة، فضلا عن أنها عاصرت هذه الجامعة خلال عقد كامل من حياتها الأولى، وما أجدر مثل هذا النظام أن يكون قاعدة أساسية تتبع فى توسيع العمل الجامعى ورسم خطة قومية موحدة للجامعات كلها من جهة، ولكل جامعة فى خصوصيات عملها من جهة أخرى».

«... أن تُمنح الجامعة الاستقلال المالى والاستقلال الإدارى، وهو أمر أقر بالنسبة لجامعة أسيوط منذ يوم مولدها الأول، وحاولنا فى الجامعات الأخرى أن نقيمه وندعمه بنص قوانين الجامعات، وإن كان التنفيذ الفعلى قد تأخر حتى قيام المجالس القومية المتخصصة (١٩٧٤/ ١٩٧٥) وتوصيتها بمنح هذا الاستقلال للجامعات بصفة فعلية وواقعية بعد عشرين سنة من قيامه فى جامعة أسيوط».

«... أن يختلف نظام العمل فى الجامعة الجديدة وأقسامها العلمية عما هو معمول به فى النظام التقليدى بالجامعات القائمة. وبعبارة أخرى يصبح «القسم العلمى» هو وحدة التكوين الأساسية فى الجامعة، وتكون الأقسام فى كل كلية هى نواة تكوينها على نحو يضمن لكل قسم شخصيته، بل «ومدرسته» إذا أمكن، وبالتالى فيكون «الأستاذ» هو العماد الأول فى كيان القسم والكلية والجامعة، ويكون مجلس القسم هو نقطة البدء الحقيقية فى تخطيط العمل الأكاديمى فى المادة أو المواد المترابطة التى يضطلع بها القسم، ويكون مجلس الكلية مجلس تنسيق بين الأقسام، أو مجلس تخطيط وربط للعمل المشترك والمتكامل بين الأقسام، فإذا ما وصلنا إلى الجامعة يكون مجلسها مجلس إشراف وقرار فى التخطيط الأكاديمى الذى يأتى من الأقسام والكليات، وذلك إلى جانب اضطلاعه بالتنسيق الإدارى والتنسيق المالى دون أن ينقلب إلى «مجلس إدارة».

(٢١)

ولا يمل الدكتور سليمان حزين من الفخر، دون استخدام للفظ الفخر، بما تحقق على يديه فى جامعة أسيوط من الأخذ بفكرة الأقسام الجامعية بديلاً عن تكرار الأقسام الواحدة فى الكليات المختلفة ومع أنه يشير إلى أن كفاءة الاداء قد زادت بنسبة يصعب قياسها فإنه يقدر الوفر فى ميزانية الانفاق بأرقام محددة على نحو ما نرى فى حديثه:

«... أن يقوم العمل فى الجامعة على أساس «الأقسام العلمية الموحدة»، بمعنى أن يكون هناك فى الجامعة كلها قسم علمى واحد للمادة الأساسية الواحدة، وذلك وفق ما هو معمول به فى الجامعات بالخارج. أما فى جامعاتنا فنظرا لأنها تشكلت فى الأصل من «كليات» مختلفة جُمع بعضها إلى بعض، فقد ورثت

الجامعة نظام تعدد الأقسام للمادة الواحدة، فكان هناك مثلا قسم للكيمياء(أو قسمان للكيمياء العضوية وغير العضوية) فى كلية العلوم، وقسم فى كلية الهندسة، وثالث فى كلية الزراعة، ورابع فى كلية الطب، وخامس فى كلية الطب البيطرى، وهكذا تشتت الجهود... وتتعدد المعامل وتتفرق ميزانيات البحوث، وقد تتضارب اختصاصات الأساتذة بدلا من أن تتكامل تحت مظلة واحدة. أما فى جامعة أسيوط فإن اعتماد نظام «الأقسام العلمية الموحدة» للجامعة كلها كان ممكنا لأن الجامعة بدأت من نقطة الصفر، وقد ترتب على اتباع هذا النظام زيادة فى كفاءة الأداء يصعب قياسها، ولكنها انطوت على وفر فى ميزانية الإنفاق يقدر بنحو ٢٥٪ من المعامل والأجهزة والمعدات، ونحو ١٥٪ من هيئة التدريس والمساعدين، وذلك كله مع تحسين ظاهر فى كفاءة الأداء، فضلا عن أن «مشارب» الطلاب فى مختلف الكليات قد تقاربت، حين كان طالب العلوم وطالب الطب والصيدلة والهندسة والزراعة والطب البيطرى يدرسون مقرراتهم المتنوعة فى معمل واحد، تحت إشراف مجموعة متكاملة من الأساتذة».

... ...

وينتقل سليمان حزين إلى الحديث فى سرعة عن بعض الأهداف العلمية المثلى التى وضعها نصب عينيه منذ مرحلة التخطيط لنشأة جامعة أسيوط:

«... أن يهدف العمل فى الأقسام العلمية الموحدة إلى قيام نوع من «البينية» و«تكامل البحوث» بين المواد «المتكاملة»، كعلم الكيمياء وعلوم الأحياء والبيولوجيا، أو بين بعض فروع الهندسة وعلم اقتصاديات الإنتاج، أو بين علوم الأحياء البحتة وعلوم النبات الزراعى وغير ذلك مما يبدأ بصورة متواضعة فى مرحلة ما قبل الدرجة الجامعية الأولى، ولكنه يظهر فى صورة نافعة حقا فى مرحلة البحث العالى، كما يتجلى فى البحوث التى تربط بين الطب والهندسة والزراعة ونحو ذلك».

وينتبه الدكتور سليمان حزين إلى أن ينسب إلى نفسه وإلى جامعة أسيوط الفضل فى الاتجاه الذى تطور فيما بعد وهو الاتجاه إلى ربط الجامعة بقضايا البيئة واحتياجات التنمية، وهو يشير بل يؤكد على أن هذا المعنى كان منصوصا عليه فى مذكرته:

«... أن ترتبط الجامعة فى تخطيطها الأول باحتياجات التنمية فى صعيد مصر، وهو إقليم لم تصله خدمات الجامعات، بل حرم منها خلال عصور متعاقبة، وكان لهذا أثره وخطره بالنسبة للشعور العام بالانتماء فى اتصاله بالعدالة الاجتماعية فى توزيع الخدمات الجامعية، وكانت الثورة قد بدأت تلتفت إلى بعث مشروعات التنمية فى صعيد مصر، ومن ذلك بناء السد العالى، وتعميم الرى الدائم بالصعيد بدلا من رى الحياض، ونشر بعض الصناعات الحديثة فى بلاد لم تكن تعرف منها قبل ذلك غير صناعات السكر القائمة على الإنتاج الزراعى. ومن هنا فقد رسمت خطة الدراسة فى الجامعة الجديدة على أساس وضع أولويات فى إنشاء الأقسام العلمية والكليات بما يخدم أولويات التنمية فى الصعيد، وتم الاتفاق على أن تبدأ الجامعة بالكليات العملية وأقسامها، أى أن تبدأ بالطريق الصعب فى إنشاء المرافق الجامعية، فبدأنا فعلا بكليتين للعلوم والهندسة، ثم بالطب والزراعة، ثم الصيدلة، ثم الطب البيطرى، ثم التجارة، واكتفينا من الأقسام النظرية بإنشاء ما أسميناه «الأقسام العلمية المرجأة» فى اللغات والآداب والحقوق، على أساس تكوين هيئات التدريس والإفادة من بعضهم مرحليا فى الكليات العملية، مثل دراسة الاقتصاد والقانون والعمل مثلا فى كلية الهندسة، وذلك كله حتى يجىء الوقت الذى تستطيع فيه الجامعة أن تنشئ بعض

الكليات النظرية، عندما تواتى الظروف فى أسيوط ذاتها أو فى بعض مدن الصعيد الأخرى كالمنيا أو سوهاج، وذلك ما حدث فيما بعد، خصوصا حين دخل تكوين المعلمين تحت مظلة الجامعات بتوجيه من المجلس القومى للتعليم منذ سنوات معدودة،فتم التوسع فى إنشاء كليات التربية فى الجامعات المصرية، ومن بينها جامعة أسيوط التى ضمت إليها كلية للمعلمين كانت تتبع وزارة التربية والتعليم، بعد أن انفردت جامعة عين شمس أكثر من عشرين عاما بأنها الجامعة الوحيدة التى تقوم فيها كلية للتربية».

●●

كذلك ينتبه الدكتور سليمان حزين إلى الحديث عن دور الجامعة فى التنمية الاجتماعية مركزًا على دورها فى تعليم الفتيات بوجه خاص:

«... أن يراعى أيضا أن تكون الجامعة فى خدمة «التنمية الاجتماعية» إلى جانب التنمية المادية العامة للصعيد، وقد اقتضى ذلك أن تنتشر الجامعة بعملها فى نطاق الريف بقراه ونجوعه، لا عن طريق تيسير الدراسة الجامعية للبنين من القرى فحسب، وإنما كذلك عن طريق بذل عناية خاصة بالفتيات، خصوصا أن جانبا منهن (فقيرات المسلمات وبعض القبطيات من غير أتباع الكنيسة الإنجليزية) لم يكن ينالهن غير نصيب محدود من خدمات الكلية الأمريكية المدرسية التى قامت فى مدينة أسيوط».

(٢٣)

وينتقل الدكتور سليمان حزين إلى حديثه عن فكرة ربط المجتمع بالجامعة من خلال التعبير الذى يبلور علاقة الجامعة بما حولها فى القول بأنها «جامعة بلا أسوار» مادية أو معنوية:

«وهناك ناحية خاصة تتصل بامتداد الجامعة بخدماتها خارج نطاق حدودها، بحيث تكون «جامعة بلا أسوار».. فلا تقوم أسوار «مادية» تحجز مبانى الجامعة عن الناس من حولها، ولا أسوار «معنوية» تحجب فكر الجامعة ومناخ حياتها عن فكر الناس وحياتهم، وهذا ما سعت إليه جامعة أسيوط منذ نشأتها الأولى، حيث كانت خدمات معاملها وورشها ومزارعها ومستشفياتها وملاعبها وسائر مرافقها كلها مفتوحة لمن يقصدها، دون حرج أو حدود مادية أو معنوية، وهذا ما مكن للجامعة منذ البداية أن تضع إمكاناتها كلها فى خدمة المجتمع، ومكن لها كذلك أن تمارس وظيفتها المثلثة، فيقصدها الطلاب لطلب العلم والمعرفة والتدريب، ويجتمع فيها الباحثون لبحث المسائل العلمية النظرية من جهة، والتطبيق على مشكلات المجتمع من جهة أخرى، ثم تكون مفتوحة المرافق بغير حرج ولا سدود لتصبح بحق مرفقا قوميا إقليميا مفتوحا لخدمة جمهور المجتمع والتعاون معه وبفعالية فى تنمية الوعى القومى (بل والسياسى) فى المنطقة، وتنمية الشعور الوطنى بالانتماء المستنير، للحركة الوطنية القومية فى قلب الصعيد».

(٢٤)

وعند هذا الحد يجد سليمان حزين أن من واجبه التحدث عما آلت إليه تجربة الجامعة فى تحقيق فكرته فى أن تكون جامعة بلا أسوار، ولهذا يلجأ إلى الهامش ليتحدث عن التطور التاريخى لهذه الفكرة فى ظل المتغيرات الأمنية، وهو يقول:

«احتفظ الحرم الجامعى الجديد لجامعة أسيوط بهذه السمة، التى ميزته عن سائر أحرم الجامعات «ذات الأسوار»، وذلك خلال أكثر من عشرين عاما، شعر المواطنون فيها بأنهم أحرار فى الدخول إلى الحرم وملاعبه وحدائقه ومزرعته،

وأنهم يستطيعون بإذن أن يدخلوا إلى مكتبات الجامعة وورشها وبساتينها المثمرة وسائر مرافقها، دون أن تصدهم أسوار، ولكن الدولة للأسف الشديد استشعرت فى بعض ظروف الأمن فى مطالع الثمانينيات ما دعاها إلى أن تقيم الأسوار، وأن تدقق فى الدخول إلى الحرم الجامعى الجديد، لكننا نرجو ألا ينتهى هذا التدقيق عند بوابات الأسوار إلى أن يذهب ببعض ما اشتهرت به الجامعة من أنها «جامعة بلا أسوار»، وهو ما استهدفه التخطيط الأصيل لجامعة أسيوط».

(٢٥)

ويردف سليمان حزين هذا كله باعتراف وتقدير للدولة التى لم تبخل على جامعة أسيوط بالفرصة فى الإنشاءات وفى تقديم أولوية انشاءاتها فى أسيوط والمنيا لتكون تالية مباشرة لأولوية إنشاء السد العالى:

«... تلك كانت هم النقاط التى باركها مجلس الوزراء من حيث المبدأ كرمز لالتزام الدولة المسبق بالمبادئ والقواعد التى يقوم عليها إنشاء الجامعة الجديدة، وهو التزام رسمى لم يسبق أن ارتبطت بمثله الدولة، فى حالة إنشاء الجامعات، وكان له أبعد الأثر فيما حققته هذه التجربة الجديدة، خصوصا أنه قد تم الاتفاق على أن تكون للمنشآت الجامعية فى أسيوط أولوية بالنسبة لمشاريع الإنشاء فى الصعيد كله، فيما عدا مشروع السد العالى، الذى لم يبدأ إلا بعد فترة (ولو قصيرة) من بدء أعمال الإنشاء فى جامعة أسيوط، التى انفردت (هى والكليات التى تفرعت عنها فى المنيا وغيرها) بقسط موفور من إمكانات الدولة فى البناء والتشييد والتأثيث وبناء المعامل والورش، بل إقامة المرافق العامة لأول مدينة جامعية متكاملة، بما فى ذلك مدينة الطلاب ومدينة الطالبات ومساكن هيئة التدريس وعائلاتهم، وبعض المدارس الملحقة والمجاورة للحرم الجامعى.

ولقد كان نصيب الجامعة من ذلك كله نصيبا عادلا لم تتخلف فيه فرصة الجامعة إلا فى إقامة المستشفيات التى تأخرت بعض الشىء».

(٢٦)

ولا يهمل سليمان حزين الإشارة إلى حقيقة مهمة وهى أن الجامعة كانت حريصة على أن تعوض الوطن أرضا زراعية بدلاً عن تلك التى استقطعتها لتبنى عليها مبانيها.. وربما أننا ننظر الآن إلى فكرة سليمان حزين بتعالٍ قائلين: ولم لم تبن الجامعة من الاساس فى منطقة الاراضى البور التى أشار إليها؟ لكننا لانملك إلا أن نقول قدر الله وما شاء فعل:

«... كذلك فإن الحرم الجامعى الجديد لجامعة أسيوط قد خطط تخطيطا حديثا ليشمل المزرعة الكبيرة (عند طرفه الغربى) وحدائق الفاكهة والملاعب والحدائق العامة والمبانى العلمية والسكنية وسائر المرافق العامة بما يغطى نحو ٣٧٠ فدانا، ولكن الجامعة بالاتفاق مع الهيئات المركزية والمحلية قد احتجزت نحو ألف فدان من الأراضى البور جهة «الغريب» شرق النيل قبالة أسيوط، وبدأت منذ اليوم الأول خطة عملية لاستصلاحها وإضافتها إلى الرقعة الزراعية تعويضا عما اقتطعته مبانى الجامعة من الأرض الزراعية».

... ...

ويختتم سليمان حزين حديثه عن تجربته فى التخطيط لجامعة أسيوط بعبارة يراها بمثابة جوهر التقييم لتجربة إنشاء الجامعة فى مجتمع أسيوط فيقول:

«والواقع أن فرصة إنشاء جامعة جديدة فى أسيوط كانت فرصة فريدة لم يكن منتظرا أن تتكرر فى سهولة ويسر فى مدن مصر الأخرى مع الأسف الشديد».

(٢٧)

وفى أكثر من موضع من مذكراته يعتز صاحب هذه المذكرات بفكرة ربط الجامعة بالبيئة وهى الفكرة التى يخبرنا أنه هو الذى ابتدعها فى جامعة أسيوط فيقول:

«أما الجامعة الرابعة القديمة فكانت جامعة أسيوط (١٩٥٥)، فهى الجامعة الوحيدة التى بدأت من نقطة الصفر، وكان عليها أن تنشئ كلياتها الخاصة، وأن تكون جامعة للصعيد، فتربط نفسها بشئون النصف الجنوبى للبلاد ربطًا محكمًا وأصبحت وظيفتها التعليمية من يومها الأول وظيفة «مثلثة» فهى «للتعليم» وهى «للبحث العلمى» وهى «لتنمية البيئة».

« وهكذا فإن مصر بدأت تعرف الوظيفة الثالثة للجامعة وهى «تنمية البيئة والمجتمع » وانتشرت هذه الفكرة فى الجامعات الأخرى، بما فيها الجامعات الحديثة. ولكننا لا نزال بحاجة ماسة إلى أن نتوسع فى تطبيق هذه الوظيفة الثالثة، وكذلك الوظيفة الرابعة للجامعات (فى الحياة الفكرية العامة وريادة المجتمع من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية) لتستطيع الجامعات أن تصبح بحق فى خدمة البيئة والمجتمع المحيط بها وخدمة الفكر السياسى والاقتصادى والاجتماعى فى البلاد. وهذا أمر مطبق فى كل جامعات العالم ومن ثم فإننا نوصى بصفة خاصة بأن يكون لكل جامعة «ظهيرها الإقليمى» الذى تتفاعل معه وتخدمه، وتبرز شخصيته البيئية البشرية والحضارية العامة، والذى تثبت به وجودها الجامعى وتشع عليه من حياتها الجامعية المتميزة. لتكون لها « الريادة » الفكرية والسياسية والاجتماعية العامة فى البلاد كلها».

ولا يغفل الدكتور سليمان حزين الحديث عن دور نوادى هيئات التدريس فى ربط الجامعة بالمجتمع، وهو (فى الفصل الخاص بشجرة الجامعة فى مصر) يعطى لفكرة نوادى هيئات التدريس أبعادًا تاريخية مهمة، كما يتحدث عن تجربة جامعة الإسكندرية (أولى الجامعات خارج القاهرة) فى الحياة العامة متخذًا من تأسيس جمعية هيئة التدريس فى جامعة الإسكندرية محورًا من محاور هذه المشاركة الفعالة فيقول:

«... أما جامعة الإسكندرية فقد سلكت سبيلاً أخرى لتأكيد شخصيتها فى الحياة العامة، فاتخذت هيئة التدريس فيها لونًا جديدًا من القيادة الجماعية، تأثرت فيه بحركة كانت تسود الجامعات فى الخارج منذ أواخر الحرب العالمية الثانية (التى قامت خلالها جامعة الإسكندرية رسميا فى خريف عام ١٩٤٢، والغزاة الألمان على بعد ٧٠ كيلومترا إلى الغرب من المدينة). وسعت تلك الحركة العالمية إلى تكتل أعضاء هيئات التدريس الجامعية فى جمعيات لهم، يأتلف منها اتحاد دولى. ولقد دعى بعضنا إلى المشاركة فى أعمال المؤتمر الدولى لاتحاد الجامعات، فتشاورت جماعة صغيرة منا فى عام ١٩٤٨/١٩٤٧ (وكان الكاتب واحدًا منها) وأنشأنا جمعية أعضاء هيئة التدريس التى استحالت فيما بعد إلى نادى هيئة التدريس بالجامعة. وكنا مجموعة صغيرة من الأساتذة الشبان والنازعين بحكم شبابهم إلى التماس بناء شخصية الجامعة عن طريق هيئة التدريس، وفى قيادة جماعية لا تسير بالضرورة وراء الإمامة الجامعية التى لا تملك دائمًا سبيلاً إلى الفكاك من مراعاة الحكم، فى بلد كل جامعاته هى جامعات للدولة وذلك منذ أن فقدت الجامعة الأم صفتها «الأهلية» التى دامت

بين عامى ١٩٠٨ و١٩٢٥ (ولعل تلك الفترة كانت، على قصرها وانحصار مجال العمل فيها، من أمجد أيام العمر بالنسبة لشجرة الجامعة فى مصر). ولم تلبث جمعية أعضاء هيئة التدريس بالإسكندرية أن سنحت لها الفرصة لتثبت وجودها التنظيمى المستقل حين كانت أول هيئة فى مصر تبعث بالتهنئة إلى قيادة ثورة ١٩٥٢ فى أيامها الأولى. ولعل نادى أعضاء هيئة التدريس بالإسكندرية (الجامعة الخامسة فى تاريخ مصر والابنة الأولى لجامعة القاهرة الأم) أن يكون من أكثر نوادى أعضاء هيئة التدريس استمساكا بدوره فى المسائل الجامعية والقومية العامة معًا».

(٢٩)

وفى موضع آخر من كتابه يتحدث صاحب هذه المذكرات بتوزيع لحنى مختلف عن دوره فى إنشاء الجامعة فى أسيوط وفى التنمية الحضارية لإقليم الصعيد كله فيقول:

«... فجامعة أسيوط لم تنشأ ككليات فرعية من جامعة القاهرة، ولم ترث أى معهد علمى عال كان قائمًا بالصعيد، وإنما هى قد نشأت ونمت بطريقة جديدة مختلفة عما سبقها من جامعات قديمة، وحتى عن بعض ما لحقها من جامعات استحدثت فى جهات أخرى من مصر. ويذكرنا نمو جامعة أسيوط بنمو شجرة «البانيان» التى تنمو وتمتد فى اتجاه أفقى، بحيث تمتد أغصانها امتدادًا أفقيًا إلى جوانبها الخارجية، ثم تتدلى بعض الأطراف إلى أسفل، حتى تلمس الأرض بعيدًا عن جذع الشجرة وجذرها الأصلى، ثم تغرس الأطراف المتدلية نفسها فى التربة ليتكون منها جذر أو عماد جديد للشجرة، يعود فيصبح همزة وصل بين التربة وعرش الأغصان العلوى، الذى يمتد مرة أخرى امتدادًا أفقيًا أيضًا، بحيث

لا تلبث شجرة البانيان أن تشمل مساحة كبيرة من الأرض، تمتد من فوقها الأغصان والفروع، وقد نمت من تحتها الدعائم والجذور».

ويطبق سليمان حزين نظريته على مراحل نشأة جامعة أسيوط على يديه فيقول:

«ولعل من المفيد أن نذكر أن نمو جامعة أسيوط بعيدًا عن القاهرة فى قلب الصعيد إنما جاء بامتداد الأغصان.. وأن هذه الأغصان وما حملته من أزهار وثمار، إنما تمثلت بدايتها الأولى فى طائفة من أبناء الجامعة الأم (أو جامعات الشمال) نزحوا منها إلى أحضان التربة المصرية بعيدًا عن القاهرة وحملوا معهم روح الانطلاق والتجديد فى العمل الجامعى. فكانت هذه الجامعة الجديدة فى الصعيد ابنة للجامعة الأم، من حيث الفكر والأصالة الجامعية، دون التقيد بنظام العمل بالجامعات فى العاصمتين الكبيرتين، وهى التى أصبح لها من التقاليد الراسخة ما بدأ يقيد حرية الجامعات ذاتها فى الانطلاق الأكاديمى أو حتى الانطلاق التنظيمى فى العمل والإدارة».

... ...

وهو يؤكد على معنى التحرر من التقاليد وأهميته لنشأة جامعة جديدة فيقول:

«ولقد رأينا كيف أن تحرر جامعة أسيوط منذ بدايتها الأولى قد أتاح فرصة لتجدد من أساليب العمل العلمى، فأقامت «أقسامها العلمية الموحدة» وجعلت القسم نواة التنظيم الأكاديمى بالجامعة قبل الكلية، التى توارثت نظامها الجامعات الأخرى فى الشمال. فضلاً عن أن أسيوط حصلت على استقلالها المالى والإدارى بعيدًا عن مركزية السلطان بالقاهرة، بل فضلاً عن أن نشأتها

ونموها الأول بالانتشار الأفقى شجرة البانيان قد أتاحا لها الفرصة لأن تكون جامعة أما المجموعة من الجامعات التى امتدت إلى المنيا فى الشمال القريب وإلى سوهاج وقنا وأسوان فى الجنوب البعيد. وإذا كانت المنيا قد تأثرت بأسلوب نشأة الجامعات الأخرى فقامت بها بعض المعاهد قبل أن تصبح جامعة مستقلة، فإن سوهاج وقنا وأسوان كان نموها كله تقريبًا بطريقة نمو شجرة البانيان.. على نحو ما نشأت جامعة أسيوط ذاتها».

(٣٠)

هكذا تحتل تجربة قيام جامعة أسيوط أكثر من فقرة فى أكثر من موضع فى أكثر من فصل من فصول هذا الكتاب، فضلاً عن استحواذها على قدر ليس باليسير من مجرى حياة صاحب المذكرات المتدفق فى آخر فصول هذا الكتاب، وهو الفصل الذى خصصه لمذكراته، وهو يتناول موضوع هذه الجامعة من حيث هى تطور حضارى لمنطقة كبيرة ومهمة من بلاده، وعلى هذا النحو يصور سليمان حزين الجامعة جزءا لا يتجزأ من مقومات الجغرافيا الحضارية على نحو ما يسمى هو نفسه منهجه العلمى الأكاديمى، وعلى سبيل المثال فإن هذه النشأة القديمة لهذه الجامعة وهى نشأة لم تكتمل تحظى بحديث مفصل عنها حيث فيقول:

«... بل هكذا بقى ريف مصر (الذى كان يضم زهاء ثلاثة أرباع سكانها فى ذلك الوقت خارج العاصمتين) بدون جامعة تخدمه أو تشع فيه إشعاعًا مباشرًا. ولقد فكرت الدولة فى عام ١٩٤٩ فى الالتفات إلى الريف بادئة بالصعيد، فقررت إنشاء جامعة أسيوط (وأسمتها إذ ذاك جامعة محمد على، رأس الأسرة الحاكمة) بأن وضعت لها «حجر الأساس» على حافة مزرعة على جسر ترعة

الإبراهيمية شمال مدينة أسيوط. ولكن سرعان ما تكشف أن تفكير الدولة إذ ذاك لم يكن عن اقتناع وإيمان، فلم تلبث الدولة ذاتها أن أنشأت جامعة إبراهيم (عين شمس) بالقاهرة فى عام ١٩٥٠».

... ...

وهنا يحرص سليمان حزين على أن يتحدث عما يسميه مفهوم «الردة إلى العاصمة» فى إنشاء الجامعات، وهو المصطلح الذى يصف به عدول الدولة عن إنشاء جامعة أسيوط واتجاهها إلى إنشاء جامعة إبراهيم (عين شمس) قبلها:

«وكانت الردة عن الريف إلى العاصمة تأكيدًا لمفهوم قديم هو أن «الجامعة» كما قلنا لا يمكن أن تقوم إلا فى وسط حضرى كبير، أى فى العاصمة الكبرى أو العاصمة الثانية على أقل تقدير. وقد ترتب على ذلك المفهوم القديم أن تأكد الظلم الاجتماعى والظلم الثقافى للريف ومدن الريف، فلم يكن بد بالنسبة لمن يرغب فى التعليم العالى أو الجامعى من أن يكون قادرًا على النزوح إليه من المدينة الصغيرة إلى العاصمة الكبيرة، ولم يكن ليقدر على مثل هذا الارتحال إلا من توفرت له الأسباب المادية، ولو لم يكن بالضرورة صالحًا لأن يستفيد من مثل هذا التعليم فى المهجر الحضرى الكبير. وحتى بعض هؤلاء القادرين من أبناء الطبقة المتيسرة فى مدن الريف لم تكن الظروف الاجتماعية لتأذن لهم دائمًا فى الارتحال من أجل طلب العلم بعيدًا عن بيوتهم وأهليهم، وكان ذلك قائمًا ومسلمًا به فى حالة فتياتنا من أهل الريف البعيد، لاسيما فى الصعيد. وترتب عليه ما ترتب من تخلف فتيات الصعيد (والمسلمات منهن بصفة خاصة) عن ركب التعليم الجامعى. وهكذا حرم أبناء الفقراء بعامة وبنات الصعيد بخاصة، فتخلفوا عن ركب المعرفة والتربية الجامعية، وركب المساهمة فى قيادة جيلهم والأجيال اللاحقة، وهى خسارة لها أبعادها الاجتماعية والتاريخية التى لا تقاس».

ولا يفوت صاحب هذه المذكرات أن يتحدث فى اعتزاز عن اعتقاده بأنه كان صاحب تجارب شخصية فى التطبيق التربوى، وأن هذه التجارب أسهمت فى تحديد معالم الفلسفة التربوية لمصر المعاصرة، وعلى رأس هذه التجارب يأتى بالطبع دوره فى إنشاء منظومة تعليمية فى صعيد مصر منذ الخمسينيات،و هو يلخص تجربته هذه بطريقة فلسفية وعملية تطبيقية فى ذات الوقت فيقول:

« ... وقد بحثنا فى أسيوط عن النواحى التى ينبغى أن تتناولها التربية والتعليم والتثقيف فى إعادة بناء شخصية الشباب المصرى فى أرض الصعيد، وقسمنا النواحى التربوية أربعة أقسام هى:

«(أ) تهذيب الغُريزة فى الإنسان».

«(ب) تدريب العقل، ومعه اليد التى تبنى الحضارة للحضارة».

«(جـ) تربية الضمير الإنسانى الذى يفرق بين الحق والباطل».

«(د) تأديب النفس البشرية التى تعرف الله وتخشاه».

«وانتهينا إلى معادلة مؤداها أن:

«تهذيب الغريزة يخرج الحيوان من البهيم».

«وتدريب العقل واليد يخرج البشر من الحيوان».

«وتربية الضمير تخرج الإنسان من البشر».

«وتأديب النفس يخرج الإنسان من الإنسان، وهذا منتهى ما تهدف إليه التربية الإنسانية القويمة».

«ولقد حاولنا أن نطبق هذه المعادلة التى تتدرج فيها المعرفة على بناء جامعة أسيوط وبناء منظومة تعليمية للصعيد كله بقدر ما سمحت به ظروف جامعة تخدم نحو ٥٥٠٠ كيلومتر من طول وادى النيل الأدنى، وتخدم نحو ربع سكان مصر إذ ذاك، ولا تكاد تجد من البنية الأساسية فى مدارس التعليم العام ما يصلح لأن نقيم عليه صرح ثقافة علمية واجتماعية مرجوة لمستقبل هذا القسم العريق من مصر. وهو الذى كان مستقرًا لحضارة مصر قبل التاريخ وعند فجر التاريخ ومطلع الوحدة المصرية الفرعونية التى خلدها الزمن. ومع ذلك فقد كان تبسيط أصول التربية الوطنية التى سعينا إليها كافيا لأن يجعل طريقنا واضحة، ونتائج عملنا قابلة للقياس العلمى والمراجعة العلمية من وقت لآخر، حتى إننا نجحنا فيما نرجو فى أن نجعل العملية التعليمية والتثقيفية سبيلاً إلى استحداث تغير «اجتماعى» شمل الرجال ونسبة طيبة من النساء فى عالم الصعيد الذى لم يكن يعرف غير القدر القليل من العناية بالمرأة، التى سبق لها أن كانت فى عهد قدماء المصريين تمد البلاد بأمثال الإلهة «سشات» التى كانت هى القوامة على خزائن البرديات فى معابد مصر القديمة».

«وعندما قامت جامعة أسيوط فى الخمسينيات من هذا القرن كانت المرأة الصعيدية والمسلمة بصفة خاصة لا تجد من التعليم أو المشاركة فيه إلا القليل ولا تكاد تعرف من التعليم الجامعى شيئًا يذكر».

(٣٢)

وهو حريص على أن يفيض فى هذا الحديث المتفلسف إفاضة الحريص على أن يقدم رؤية ذاتية للقضايا العامة التى يتناولها فيقول:

«ولم يكن أمر تهذيب الغريزة شيئًا صعبًا لأن غرائز المصريين كانت قد هُذبت منذ عصور سحيقة، وإن كان الإهمال فى الصعيد قد أورث الناس غير قليل من عادات السوء، (ومنها الثأر)، خصوصًا وإن الصعيد كان بعيدًا عن نفوذ الدولة الحاكمة وسلطانها، فكان طبيعيًا أن يأخذ الناس بعض جوانب القانون فى أيديهم وأن يسيروا على العرف أكثر من مسيرتهم فى كنف القانون».

«وأما عن العقل فقد كان تدريبه يعلم الناس أن يميزوا بين «الصواب» و«الخطأ» فكان علينا أن نربى الضمير لأنه الوحيد الذى يعلمنا التمييز بين «الحق» و«الباطل». ومن هنا فإننا عرفنا فى أسيوط منذ اليوم الأول أن «تدريب العقل» وحده لا يكفى، وإنما ينبغى أن تصاحبه «تربية الضمير»، كذلك عرفنا أن العمل العقلى النظرى وحده لا يكفى، وإنما يجب أن «ندرب اليد» التى يسميها غيرنا من رجال التربية فى الغرب (وفرنسا بصفة خاصة) «باليد المفكرة» ولحسن الحظ أننا لمسنا منذ يومنا هذا فى الصعيد أن أهل هذا الإقليم الذى أخرج لمصر قياداتها فى عهد قدماء المصريين وغيرهم.. هذا الإقليم قد اعتاد أهله دائما العمل اليدوى الذى لا يستنكفونه.. ونحن نعلم أن عمال الصعيد هم الذين بنوا الكثير من مدن مصر المعاصرة فى الشمال.. وأبرزها مدينة الإسكندرية المعاصرة، وذلك بفضل هجرة اليد العاملة من الصعيد الذى قاسى دائمًا من ضيق أراضيه».

«وأما عن «أدب النفس» فقد كان يمثل أشق النواحى وأصعبها فى محاولاتنا التربوية. وهذا أمر طبيعى وإن كنا قد وجدنا فى «موروث» المجتمع المصرى ذخيرة منذ أن جمع المصريون من سجايا «الانتماء» لمصر ولمجتمعهم وجماعاتهم البشرية ما قوى فيهم روح «العصبية» التى إذا ما أتقن استغلالها وأحسن

توجيهها فإنها تخرج بنا إلى التكافل الاجتماعي.. ولكن إهمالها هو الذى أدى بنا فى كثير من نواحى أرض مصر - لاسيما فى الصعيد - إلى قيام لون جديد لا نزال نقاسى منه وهو «التعصب» الذى حل محل «العصبية».

....

ثم يختم سليمان حزين كلامه فى هذا الموضع بقوله:

«هذه بعض جوانب العملية التعليمية وفلسفتها كما مارسها العاملون فى بناء جامعة أسيوط، ولكنها مع ذلك تزودنا بدرس كبير هو أن عملية بعث الشخصية المصرية على أساس من العلم والتعليم والثقافة، هى عملية تربوية شاقة، وإن كانت تستأهل كل ما يبذل فيها من عرق وعمل، بل ومعاناة».

(٣٣)

ومع كل هذا النجاح فى أسيوط فإن سليمان حزين يشير إشارة سريعة إلى بعض المصاعب التى صادفته هناك حتى دفعته للاستقالة:

«قدمت استقالتى من رياسة جامعة أسيوط حين جاء محافظ لمحافظة أسيوط واختلف مع رئيس الجامعة فى بعض الشأن، ولكن رئيس الجامعة استمسك برأيه وعرض استقالته فرفضتها الدولة وانتصرت لرأى الجامعة على المحافظ الذى لم يلبث أن نقل إلى عمل آخر فى محافظة أخرى بشمال مصر، تاركا مدير الجامعة (رئيسها) لينفرد بشئون العلم والثقافة بالصعيد الذى كان قد اختاره لينشئ به جامعته الجديدة!».

ومن الإنصاف للتاريخ أن نشير هنا إلى رؤية مخالفة ذكرها المستشار محمد عصام الدين حسونة الذى كان محافظا لأسيوط، وقد تناولنا هذه الرواية فى كتابنا «مذكرات رجال القانون والقضاء».

(٣٤)

ومما تتميز به هذه المذكرات، ولا نقول تنفرد، ما نراه من أن صاحبها كان على الرغم من المناصب الدولية التي نالها حريصًا على أن ينظر إلى هذه الإنجازات الشخصية في إطار انتمائه ومحبته لوطنه وعمله من أجله وفي خدمته، وعلى سبيل المثال فقد تولى سليمان حزين إنشاء وإدارة المركز الديموجرافي في القاهرة، ولكن إنشاءه المركز الديموجرافي لا يأتي في هذه المذكرات إلا في سياق حديثه عن العمل العام والوظيفي الذي أداه لوطنه بعد خروجه من الوزارة:

«وبعد أن انقضت خدمة وزير الثقافة في وزارته (هكذا يعبر عن نفسه في هذه الفقرة)، ولما خرج من الوزارة في سبتمبر عام ١٩٦٦ تكرر السؤال من رئيس الدولة جمال عبدالناصر عن العمل الذي سينقل إليه صاحبكم (أي سليمان حزين) بعد الوزارة وكانت هناك محاولات لترشيحه رئيسًا لجامعة الأزهر أو جامعة القاهرة.. ولكن حدث أن اعتذر صاحبكم اعتذارًا رقيقًا عن عدم العودة إلى الجامعات وبقي زهاء خمسة عشر شهرًا في بيته يمارس العمل العلمي الخالص.. حتى خلا مكان للعمل في الأمم المتحدة مديرًا تنفيذيًا للمركز الديموجرافي بالقاهرة (الذي أشير إليه من قبل) وكان الصديق زكريا محيي الدين واسطة الدولة في ترشيحه لهذا المنصب بالأمم المتحدة،وتم ذلك، وشاءت الأقدار أن يبقى صاحبكم مديرًا للمركز الديمغرافي (ومقره القاهرة) لمدة ١٣ عامًا كاملة من أول يناير ١٩٦٨ وحتى ٣١ ديسمبر ١٩٨٠. وهي فترة انتقال نشاط عملي إلى ميدان الخدمة الدولية حيث افتتحت معهدًا للبحوث والدراسات السكانية العالمية شاركني فيه علماء وباحثون وطلاب من قرابة ستين دولة متقدمة ونامية».

(٣٥)

وهو حريص على أن يلخص إنجازاته فى المركز الديموغرافى بالقاهرة (الذى تولاه فى أول يناير ١٩٦٨) بعد سنوات من نشأته:

«ولكنه بقى محليًا ومقتصرًا على مجموعة صغيرة من الدول العربية حتى تولاه صاحبكم فتحول إلى مركز دراسة وبحوث فى شئون «السكان والتنمية» واتسع نطاق عمله ليشمل ستًا وخمسين دولة فى مختلف أقطار العالم النامى (وتشمل أيضًا بلادًا من الدول المتقدمة هى انجلترا وفرنسا واليابان وأمريكا)وعدلت مناهجه فأصبح يمنح الدبلوم العالية والدبلوم الخاصة والماجستير والدكتوراه (متعاونًا مع جامعة القاهرة) وأصبحت هيئة التدريس مكونة من كبار الأساتذة والخبراء من نحو عشر دول، كما تخرج على يدى صاحبكم فى هذا المعهد الدولى الكبير للبحث والتدريس أكثر من خمسمائة من الخريجين الذين بلغوا أكبر المناصب فى بلادهم وعلى النطاق الدولى من الخدمة».

وفى موضع آخر يشير سليمان حزين إلى بعض إنجازات المركز:

«ويبلغ عدد المنح التى قدمتها الأمم المتحدة خلال إدارة صاحبكم للمركز نحو ستمائة منحة، وأخرج المعهد عشرة مجلدات ضخمة فى بحوث السكان، ووضع المعهد برنامجا ضخما لعمل الأمم المتحدة فى مجال الدراسات التى تجمع بين السكان والتنمية البشرية والاقتصادية، وشغل خريجو المعهد مناصب شئون السكان والتنمية فى بلادهم، وفى عدد من المنظمات الدولية فى كثير من جهات العالم. كذلك فقد بلغ عدد الباحثين على مدى ١٣ عاما أدار فيها صاحبكم شئون هذا المعهد بضع عشرات من الباحثين والأساتذة من اثنتى عشرة دولة. كما عقد عشرة مؤتمرات دولية لهذه الدراسات».

(٣٦)

وقبل هذا بكثير، فإن صاحب المذكرات يذكر بشئ من الاعتزاز (والفخر بالطبع) أنه كان واحدًا من مؤسسى منظمة اليونسكو، ومع أنه لا يحدثنا عن طبيعة الدور الذى قام به فى هذه النشأة، فإنه يلمح إلى دوره التالى فى استقطاب فكرة إنشاء مركز التربية الأساسية فى سرس الليان:

«وفى هذه الأثناء اتصل صاحبكم بعدد من الأساتذة والعلماء اللاجئين إلى انجلترا ولندن من أقطار أوروبا ودول الحلفاء بها.. فتدارس معهم مشروع فكرة إنشاء هيئة للثقافة العالمية هى التى أصبحت فيما بعد (وابتداء من عام ١٩٤٥) هى هيئة اليونسكو التى نعرفها الآن، وبذلك كانت مصر من أوائل الدول التى فكر واحد من أبنائها فى موضوع إنشاء تلك الهيئة العالمية. وشاء ربك أن يتصل صاحبكم اتصالاً وثيقًا بأعمال تلك الهيئة بعد أن تم إنشاؤها فى ذلك العام (١٩٤٥) وأصبحت باريس مقرًا لها بل إن صاحبكم أصبح المسئول المصرى عن صلاتنا بتلك الهيئة. فكان له دوره فى إنشاء ثانى مركز للتربية الأساسية فى سرس الليان (بالمنوفية) عام ١٩٥١ حين كان المعاون لأستاذه طه حسين فى مؤتمر اليونسكو الذى انعقد بباريس عام ١٩٥١».

(٣٧)

وعلى صعيد ثالث يتحدث سليمان حزين بشئ غير قليل من الفخر عن دوره فى إنشاء المركز الثقافى المصرى فى بريطانيا وهو ما يعرفه هو باسم «معهد لندن»، وتشغله تفصيلات الحديث عن مخاطر السفر لأجل هذه المهمة عن الحديث عن المشكلات السياسية والحضارية والبيروقراطية التى صادفته فى إنشاء معهد لوطن محتل فى بلد المحتل نفسه، ويبدو أن سليمان حزين لم يكن

واعيًا بالقدر الكافى لمثل هذه التناقضات، وبخاصة أن ما حققه من العلم كان كفيلا بأن يرفع من قدره أمام الموظفين الإنجليز والعلماء الإنجليز والمسئولين الإنجليز بحيث كان يتحدث إلى كل نظرائه من الإنجليز حديث الند للند:

«... وكان أول تلك المعاهد هو «المعهد المصرى للثقافة» الذى أنشأه فى لندن عام ١٩٤٣، وجاء إنشاؤه ليكون مناظرا للمعاهد التى أنشأها المجلس البريطانى فى القاهرة وبعض مراكز الفكر فى العالم العربى وخارجه على نطاق عالمى. وكانت دول أوروبا قد عمدت إلى إنشاء مراكز للفكر والثقافة خارج تلك القارة فى وقت لم تكن هيئة اليونسكو العالمية قد ظهرت إلى الوجود بعد، وكانت مقتضيات الحرب العالمية تستلزم أن تقوم كل دولة بالتعريف بحياتها وفكرها فى العالم على أوسع نطاق، سعيا وراء ما كانت بعض الدول السابقة فى مجال التحضر والثقافة قد قامت به من قبل، ومنها فرنسا بالذات، فأنشأت بريطانيا ما عرف باسم «المجلس البريطانى» الذى سعى خلال الحرب فى إنشاء مجموعة من المعاهد الثقافية خارج بريطانيا، وكان نصيب مصر ظاهرا لأنها كانت الدولة الأساسية التى نالت استقلالها فى العالم العربى وأصبحت مركزا للفكر والثقافة العالمية».

«وقد رأت مصر أن تقابل ذلك بإنشاء معهد مصرى للثقافة فى لندن. واختير صاحبكم لينشئ ذلك المعهد وليرسى قواعد التعريف بمصر المعاصرة فى فكرها وثقافتها. ورغم ظروف الحرب القاسية فقد سافر مدير المركزالمصرى المعين ومعه زوجته الشابة ووليده الرضيع بأول قافلة للسفر تعبر البحر المتوسط من الإسكندرية وأبحرت ضمن مجموعة من السفن،تجمعت على طول الطريق فى البحر لتبلغ الثلاثين سفينة، ثم تسافر عبرالمحيط الأطلنطى إلى إحدى موانئ

انجلترا. وكانت الرحلة غير مأمونة مع وجود خطر «الغواصات» المعادية (غواصات «المحور» المعادى لطريق مواصلات «الحلفاء» كما كان الاصطلاح خلال الحرب العالمية الثانية)،وقد قضت القافلة نحو شهر كامل لتصل من الإسكندرية إلى ميناء ليفربول فى انجلترا، فى طريق متعرج ليتفادى الغواصات المعادية، فوصلنا إلى شاطئ أمريكا الشمالية قبالة كندا،ثم سرنا شرقًا حتى بلغنا شمال أيرلنده ثم ميناء ليفربول بعيدًا عن مجال الغواصات الخطيرة، وقد أصبح عدد سفن القافلة تسعة وعشرين، لأن إحداها تعطلت فى الطريق ولم نستطع أن نعرف شيئًا عن مصيرها».

«وكان صاحبكم قد حمل معه من مصر مكتبة تبلغ ١٢,٠٠٠ (إثنى عشر ألفا) من المجلدات عن مصر والعالم العربى وحياتها ومعالم ثقافتها. واستطاع أن يشترى بيتًا كبيرًا من بيوت أحد أغنياء بريطانيا الذين فرضت عليهم ظروف الحرب أن يهجروا العاصمة البريطانية ويتركوا بيوتهم للإيجار أو البيع. وكان المنزل ضخمًا ومكونًا من أربعة طوابق ويقع فى حى فى قلب العاصمة. وتم افتتاح المركز الذى أخذ يؤمه الباحثون من بريطانيين ومصريين وعرب (طلاب البعثات العلمية المصرية والعربية)، بل لم يلبث المعهد أن أصبح منتدى لكل الساعين إلى التعرف على الثقافة المصرية والحياة المصرية والعربية ودور مصر فى مجال الثقافتين المصرية والعربية بعامة، بما فى ذلك تعليم اللغة العربية لكل الساعين إلى تعلمها».

(٣٨)

وعلى صعيد رابع يتحدث سليمان حزين حديثًا مشابهًا عن مساهمته فى إنشاء المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد:

«... ومن المراكز الثقافية الأولى التى أنشأها صاحب هذه السيرة معهد مدريد للثقافة الإسلامية، وقد كان صاحبكم مديرا عاما للثقافة فى مصر، فعهدت إليه الدولة فى إنشاء المركز الإسلامى فى مدريد - غير بعيد عن أرض الأندلس الإسلامية - وجاء المعهد إحياء لصلات العروبة والإسلام والشرق العربى بعالم الأندلس وأسبانيا فى العهد الوسيط. وقد أقام صاحبكم بمدريد لمدة شهر كامل عام ١٩٥١ واستطاع أن يجند طائفة من معاونيه الشبان لإنشاء مكتبة بدأت بأربعة آلاف مجلد عن الثقافة الإسلامية، ثم اتسعت الآن لتكون مقرا لطائفة من أعضاء البعثات المصرية الذين التحقوا بالمعهد وعادوا بعد ذلك تباعا إلى مصر والبلاد العربية، وشغل نفر منهم بعض مراكز الثقافة العليا فى البلاد».

(٣٩)

ويتحدث صاحب هذه المذكرات بقدر غير قليل من الفخر عن دوره فى تطوير جامعة الأزهر كيما تكون قريبة من الجامعات الأخرى، ويكاد يقرر أنه هو الوحيد الذى تولى هذه العملية لأنه كان واحدًا من ثلاثة كلفوا بها ثم بقى هو بينما تركه زميلاه الآخران، ومع أن الرواية التى سمعناها من كثير من الذين عاصروا تلك الفترة تنسب الدور إلى الأستاذ سعيد العريان، إلا أن سليمان حزين يغفل، إلا قليلاً، الحديث عن دور الأستاذ العريان فى إخراج الفكرة إلى حيز التنفيذ، ويقصره على استعانته به فى المراحل الأخيرة.. مع أن سعيد العريان كان وكيلا لوزارة التربية والتعليم فى عهد كمال الدين حسين، ثم أصبح وكيلا لوزارة شئون الأزهر عند إنشائها:

«... وهنا اتجهت القيادة المصرية إلى أحدث الجامعات فى مصر وهى جامعة أسيوط لتدرس إدخال النظام التعليمى الجديد إلى جامعة الأزهر (هكذا يلجأ

سليمان حزين إلى تصوير تكليفه بالمهمة على أنه تكليف للجامعة التى أسسها لا لشخصه، وهو أسلوب جميل يحفظ لصاحبه دوره فى الإنجاز ويضاعف من قيمة هذا الدور حين ينسبه إلى إنجاز آخر، مع أن الدولة لم تكن لتصدر قرارا تكليفيا على هذا النحو)، واختارت صاحبكم (رئيس جامعة أسيوط إذ ذاك) للقيام بهذه المهمة. وعهدت إلى وزير التربية والتعليم فى ذلك الوقت (السيد كمال الدين حسين نائب رئيس الجمهورية) ليرتب أمر وضع هذه التوصية موضع التنفيذ. على أن تتم العملية فيما يشبه السرية حتى لا يثار أمر تغيير الأحوال فى الأزهر أو غيره، وخشية الخوف من أن يتصور بعض الناس أن يؤدى الاهتمام بالدراسات العلمية والعملية الحديثة إلى صرف العناية عن الكليات والدراسات التقليدية فى أصول الدين أو الشريعة أو اللغة العربية».

(٤٠)

هكذا يعترف سليمان حزين بكل صراحة بما استقر فى الوجدان الشعبى دون اعتراف رسمى من أن صدور هذا القانون تم فى شبه سرية، وتم بليل، ومن الإنصاف أن نشير إلى أن الدكتور محمد البهى فى مذكراته قد أشار إلى هذا المعنى بوضوح وصراحة أبلغ من صراحة الدكتور سليمان حزين ووضوحه، ونستأنف قراءة رواية الدكتور سليمان حزين حيث يقول:

«وعندما عرض الأمر على صاحبكم فى جامعة أسيوط كان أول اشتراطاته للقيام بهذه المهمة أن يبقى الاهتمام الأصيل فى الأزهر للكليات والدراسات التقليدية، وأن يهدف التنظيم الجديد للجامعة إلى الاحتفاظ بكل العناية لتلك الكليات، فلا يحدث التطوير على حسابها، وإنما يجىء دعمًا لها وإحكامًا للصلة بين الدراسات الدينية واللغوية من جهة، والدراسات العملية والتطبيقية بالكليات

الجديدة للعلوم والطب والهندسة والزراعة والتجارة والمعاملات، وأية كليات تنشأ خصيصًا للطالبات بالأزهر أو لبعض الدراسات الاجتماعية والإنسانية. وبدأ العمل بتكوين لجنة ثلاثية من صاحبكم والدكتور محمد كامل حسين، والدكتور محمد مهدى علام، ولكن الزميلين الكريمين ما لبثا أن تقلصت مشاركتهما فى اللجنة بعد فترة قصيرة وتركز العمل فى جامعة أسيوط بعيدًا عن القاهرة، حيث قضى صاحبكم بضعة أشهر فى ترتيب التغييرات الجديدة فى ضوء تجربة جامعة أسيوط ذاتها. وإن كان قد استعان ببعض الاستعانة فى أواخر أشهر العملية بالأستاذ سعيد العريان ذى التجربة القديمة فى التعليم بالأزهر ودار العلوم وهمزة الوصل مع السيد كمال الدين حسين وهو الوزير ورجل الثورة الذى كان اعتزازه بالإسلام وإخلاصه للثورة واتجاهاتها الإسلامية الواسعة والمستنيرة، خير سند لأعمال اللجنة».

«وانتهى الأمر إلى إنجاز العملية التى رضى عنها الأزهريون لدى علمهم بأعمالها واتجاهاتها، وعلى رأسهم شيخ الأزهر الجليل الشيخ محمود شلتوت الذى كان صاحبكم يعتز به باعتباره فى حكم أحد أخواله».

(٤١)

وفى موضع آخر من مذكراته (وهو موضع أسبق من الموضع الذى نقلنا عنه فقراته السابقة) يتحدث الدكتور سليمان حزين عن بعض تفاصيل الدور الذى قام به من خلال اللجنة التى تولت صياغة ملامح قانون تطوير الأزهر فيقول:

«... لقد صدر القانون الجديد، وهو يمثل الدورة الثالثة فى تطوير العمل العلمى الكبير بالجامع الأزهر وجامعته. وقد كانت الدورة الأولى فى العقد الأول من هذا القرن على أيام محمد عبده، ثم أتت الدورة الثانية فى العقد الرابع من

القرن، ثم ها هى الدورة الثالثة، فى مطلع العقد السابع منه، وإن كانت العبرة فى عمليات التطوير الكبير كلها لا تكون بمجرد تعديل القانون، وإنما تكون بإتقان إعداد لوائحه التنفيذية (وهو ما تأخر كثيرًا بالنسبة للقانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١) وبالجدية الصادقة (بل والصارمة أحيانًا) فى اتخاذ خطوات التنفيذ وتوجيه إمكانات الدولة لتساند الأزهر وجامعته، كما تكون بحشد جهود رجال الأزهر جميعًا للنهوض بالعمل الكبير، حتى تساير الجامعة خطوات الزمن، وحتى ينهض الأزهريون أنفسهم شيوخًا وطلابًا، برسالتهم التاريخية فى خدمة الإسلام والعالم الإسلامى الكبير.. وهذا كله لا يزال الأزهر وهيئاته المعاهد والجامعة ومجمع البحوث الإسلامية الذى خلف هيئة كبار العلماء، بسبيل تحقيقه على وجه أكمل وأشمل وأعمق وأبعد أثرًا فى حياة الجامع العتيد وحياة مصر والعالم الإسلامى مما تيسر تحقيقه حتى الآن. وتلك رسالة جد ثقيلة، ولا مفر من أن ينهض بها الأزهريون أنفسهم، ومن ورائهم سند الدولة ومعونة نفر من رجال الجامعات الحديثة، ممن سبق إليهم الأزهر بشىء من الفضل المباشر أو غير المباشر فى تكوينهم ونماء حياتهم الفكرية والروحية والدينية تحت ظلال شجرة الجامعة الكبرى على أرض الكنانة».

(٤٢)

ومن المهم أيضًا لتاريخنا التعليمى والاجتماعى أن نقرأ ما يرويه صاحب هذه المذكرات (فى موضع ثالث) فى فصل مطول من كتابه عن المبررات التى كان يعتقد فى أهميتها وإمكانية تحققها من خلال العمل الجاد على تطوير الأزهر ولائحته حيث يقول:

«... حتى إذا ما جاءت الستينيات من هذا القرن حدث تطوير «جذرى» للأزهر وجامعته، وأعيد تنظيم هيئاته بالقانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١، وكان الدافع إلى هذا التطوير أن مجموعة من البلدان الإسلامية التى يخدمها الأزهر - لاسيما فى إفريقيا الغربية - قد تقدمت إلى مصر لتعيد نظم الدراسة والتعليم فى الأزهر: هيئاته وجامعته بصفة خاصة، بحيث تخرج من أبناء إفريقيا وبعض البلدان الآسيوية الأخرى مَنْ يصلحون للمشاركة الفاعلة فى حياة المستعمرات التى بدأت تجد سبيلها إلى الاستقلال، وكان أهل تلك المستعمرات قد استشعروا أن وظائف الحكم والإدارة فى بلادهم تذهب إلى مَنْ تعلم على أيدى جماعات المستعمرين والمبشرين من رجال الدين المسيحى لأنهم أصلح لتولى مناصب الحكم الحديث من خريجى الأزهر الذين يمضون فى مصر سنوات طويلة فى طلب العلم الدينى، دون العلم الحديث الذى يؤهلهم لوظائف الحكم بعد عودتهم إلى بلادهم».

«ورأت دولة مصر أن تستجيب لهذا الرجاء، وعهدت إلى إحدى الجامعات الحديثة فى مصر (وهى جامعة أسيوط التى أنشئت فى عام ١٩٥٧ بصعيد مصر) بمهمة إعداد القانون الجديد للأزهر (أشرنا من قبل إلى حرص سليمان حزين على أن يشير إلى أن التكليف كان لجامعة أسيوط .. كأن الجامعة تمثلت فى مديرها الذى هو)، وتم ذلك فى عام ١٩٦١ حين صدر القانون رقم ١٠٣ وأعيد تنظيم الكليات التقليدية كأصول الدين والشريعة واللغة العربية، وهيئت لها أسباب النماء واليسر على أساليب الدراسات والبحوث الحديثة والمستحدثة، وأنشئت كليات جديدة للطب والهندسة والعلوم والزراعة وغيرها، فكانت إضافة جديدة استكملت بها جامعة الأزهر صورتها الحالية».

«ودخلت المرأة إلى مجال العلوم والبحث العلمى الحديث فى جامعة الأزهر، وبعد أن كانت زميلاتها قد سبقنها إلى رحاب جامعة القاهرة قبل ذلك بأكثر من ثلاثين عاما».

(٤٣)

ولا يفوت سليمان حزين أن يتحدث بفخر واعتزاز عن دوره المهم فى تحقيق هدف اجتماعى وتعليمى عظيم وهو تعليم البنات فى الأزهر، وهو يركز على صدى هذه الخطوة على المجتمع وعلى صورة إنجازات الأزهر كمؤسسة تعليمية عريقة:

«... ولكن قانون تطوير الأزهر وجامعته فى عام ١٩٦١ أضاف خطوة جديدة على الطريق بأن فتح الباب أمام الطالبات فى التوجه إلى الدراسات الجامعية فى كليات الأزهر المستحدثة، حتى إنه أنشئت لهن كلية خاصة بالبنات، فضلاً عن التحاقهن ببعض الدراسات الجامعية فى الطب واللغات والترجمة الفورية وغيرها. بل إنه ظهر اتجاه بالسعى إلى تحويل كلية البنات إلى فرع خاص بالبنات فى جامعة الأزهر، حيث إن هذه الكلية اشتملت على أكثر من تخصص واحد، وإنه لمن الخير فى ظروف هذه الجامعة الإسلامية الكبرى أن تُخصص للبنات كلية أو فرع قائم بذاته، وأن يشارك فريق من الأستاذات المسلمات الفضليات فى القيام على التعليم والبحث العلمى بهذه الكلية أو الفرع الخاص، ومن هنا تضيف جامعة الأزهر إلى أمجادها السابقة مجدًا جديدًا تتكامل فيه جهود الرجال والنساء فى العمل العلمى والدينى الكبير، وفى تكوين الجيل الجديد من نساء الإسلام، خصوصًا بعد أن يزداد إقبال البلاد الإسلامية على إيفاد الفتيات إلى الأزهر وجامعته، وذلك فتح جديد وتوسيع لنطاق الدين وعلوم الدنيا على المستوى الجامعى».

(٤٤)

ويحرص سليمان حزين على أن ينبه المؤرخين والباحثين والمحللين إلى حقيقة مهمة، وهى أنه لا يجوز الحكم على التطوير (الذى أجرى فى الأزهر) على نحو متعجل، بينما التطوير بطبعه يتطلب قدرا من الصبر فى تنفيذه:

«... ومع ذلك فقد كان علينا أن نصبر سنوات طويلة حتى يؤتى التطوير الجديد ثماره فى جامعة كانت تحتاج إلى عقدين أو ثلاثة عقود من الزمن ليستقر الاتجاه الجديد فى عملها العلمى، الذى أخذ يجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا، وكلاهما بحاجة إلى عوامل الوقت والزمن ليستقر فى أوضاعه الجديدة، بما يصون للجامعة أصولها التقليدية الراسخة فى علوم الدين، وإضافاتها الحديثة فى علوم الدنيا على نحو يجارى جامعات مصر المعاصرة فى القاهرة و سائر الأقاليم. ولكننا نستشعر، فى ضوء تجربة ثلاثين عامًا مضت على التطوير الجديد للأزهر، بأن العمل فى الجامعة الجديدة لا يزل بحاجة إلى جهد كبير واعتبارات يجب مراعاتها وسلبيات لا تزال بحاجة إلى تصحيح».

... ...

وهو يشير فى اقتضاب إلى بعض المشكلات التى لا تزال (من وجهة نظره) تواجه عملية التطوير، ومن الحق أن نقول إن الأزهر مطورًا قد أثبت نفسه رغم كل الصعوبات وبأسرع مما كان سليمان حزين يتصور:

«... لا يزال بعض آثار الثنائية التى أدخلها محمد على إلى منظومة التعليم المصرية قائمًا حتى يومنا الحاضر، فالأزهر، وتعليمه وجامعته، له مساره، والتعليم المدنى الحديث وجامعاته فى مصر المعاصرة له أيضًا مساره الخاص، واللقاء بين المسارين لا يزال فى أضيق الحدود. ومن ثم نوصى بأن يعمل كل من الأزهر وجامعته ووزارة التعليم والجامعات ومجلسها الأعلى وأمانته الفنية، على

التقارب الناجز بين الهيئآت جميعًا، فيكون للأزهر وجامعته ممثل فى المجلس الأعلى للجامعات، ولا يكتفى بما هو قائم من تعاون محدود جدًا بين كليات الأزهر الحديثة وكليات الجامعات المصرية المعاصرة، ولا بالجهد المحدود الذى تبذله الكليات الأزهرية التقليدية من أجل النهوض ببعض ما أوصى به المجلس القومى للتعليم منذ سنوات، من مشاركة هذه الكليات فى بعض ما يسن للدراسات الدينية والأخلاقية والإسلامية واللغوية بالجامعات، خصوصًا فى مجال التربية الدينية بل والتربية القومية».

(٤٥)

ويبدو سليمان حزين فخورا بالتقدم أو التوسع الذى أحرزته جامعة الأزهر بعد تطويرها حيث يقول:

«لقد اتسع العمل فى جامعة الأزهر حديثًا، حتى سعت إلى أن تغطى أرض مصر كلها بالفروع والكليات الأزهرية. وصحيح أن جامعة الأزهر هى جامعة إسلامية (للعالم الإسلامى كله)، ولكن الاتساع الكمى هنا سيكون على حساب التجويد الكيفى. وهو أمر ينطوى على خطورة يدركها كل من مارس العمل الجامعى فى مصر وغيرها، ونوصى بأن توضع لهذا التوسع خطته المحكمة».

ونراه بحكم اهتمامه القديم (منذ مرحلة الليسانس) بالدراسات الاجتماعية حريصا على أن يقترح على الأزهر إنشاء كلية للخدمة الاجتماعية، وربما نقف لنتساءل عن السبب الذى جعله لا يدرج مثل هذه الكلية فيما اقترح من كليات جديدة عند تطوير الأزهر فى بداية الستينيات:

«... كذلك فإننا نوصى فيما يختص ببعض الدراسات الجديدة فى جامعة الأزهر، ألا يقف الأمر عند الحدود التقليدية من إنشاء «كليات للدعوة» وهذه

تسمية مقبولة وعليها أن تواجه الموقف الحالى بالنسبة للتعريف بالإسلام دينًا ومعاملة، وكذلك الواقع العملى من أن البلاد الإسلامية التى تحررت من الاستعمار، هى بحاجة إلى أن توسع جامعة الأزهر نطاق تخصصها ليشمل الدور القومى فى الفكر العالمى من جهة، والدور الوطنى القومى فى خدمة المجتمع الإسلامى من جهة أخرى. وقد اتجه الرأى فى الجامعات إلى إنشاء «كليات الخدمة الاجتماعية» التى تربط الدعوة بخدمة الناس ومصالحهم الواقعية. وما أجدر الأزهر وجامعته أن يبحثا أمر إنشاء كليات (واحدة أو أكثر) من كليات الخدمة الاجتماعية ليكون عملها أقرب إلى خدمة الناس ومراعاة مصالحهم. فضلاً عن أن خريجى هذه الكليات سيكونون أصلح وأقدر على العمل فى مجال الخدمة الاجتماعية بمدارس التعليم العام المدنى».

(٤٦)

ومما يجدر بنا قراءته فى هذه المذكرات ما يتحدث به صاحبها، بقدر معقول من الفخر وإقرار الواقع، عن انتقاله المبكر من الجامعة إلى العمل التنظيمى والقيادى فى وزارة التربية والتعليم حتى أصبح بمثابة الرجل الفنى الأول فى هذه الوزارة، والواقع أن هذه الخطوة كانت بمثابة بداية طريقه إلى الإنجازات التى حققها، ومن الطريف أن نكتشف أن هذه الخطوة تمت على يد أستاذه طه حسين وهو وزير للمعارف، ليخلف أستاذا آخر له هو محمد عوض محمد أصبح هو الآخر وزيرا للمعارف:

«... وحدث فى خريف عام ١٩٥٠ أن جاءت الفرصة لينتقل صاحبكم من مجال الجامعة إلى مجال التربية والتعليم، معارًا من عمله الجامعى إلى العمل بوزارة المعارف (إذ ذاك) فى وظيفة مدير عام الثقافة التى كان يشغلها من قبل

(بطريق الانتداب) أحد أساتذته بالجامعات وهو أستاذى محمد عوض محمد الذى أراد أن ينتهى عمله بها ليعود إلى عمله الأصلى بالجامعة. فاقترح علىّ أستاذى طه حسين (وكان وزيرًا للمعارف إذ ذاك) أن أحل محله، فاشترطت أمرين لقبول ذلك: أولهما أن يكون أستاذى عوض هو الذى طلب نقله منها، وثانيهما ألا تترتب على نقلى إليها أية ترقية مادية لى، لأنى كنت أكره أن يقال إننى تركت الجامعة من أجل «ترقية» مهما كانت. ولكننى اشترطت أيضًا أن يكون عملى مع الوزير مباشرة بحيث لا يكون هناك وكيل وزارة أعمل تحت إشرافه. وقد ضحك الوزير كعادته وأكد لى أن محمد عوض محمد هو الذى طلب إعفاءه من العمل بالوزارة، كما أعرب فى الوقت ذاته عن استنكاره لعدم رغبتى فى الترقية التى كان مجالها مفتوحًا ولكنه قال إنه «كبرياء» الأساتذة واستمساكهم «بالمثل» التى تحكم قواعد العمل وأخلاقياته فى ارتباط الأساتذة «بالجامعات» وتحرجهم من أن يقال إنهم يفضلون أى عمل آخر على عمل الأستاذية!».

(٤٧)

هكذا نفهم من فقرة صاحب المذكرات أن أمرًا ما جعل محمد عوض محمد يؤثر العودة إلى الجامعة، ومع أن سليمان حزين فيما يرويه عن نفسه وعن طه حسين يشير إلى أن محمد عوض محمد هو الذى طلب ذلك، فإننا لا نستطيع الاطمئنان إلى هذه الرؤية دون أن نعرف أسباب طلبه مثل هذا الطلب بعد أن عمل شهورا مع طه حسين.

ومن الجدير بالملاحظة أن هذا المنصب وهو ما يوازى منصب وزير الثقافة فيما بعد، بل هو ما يوازى منصبى وزيرى الثقافة والعلاقات الثقافية الخارجية، لم يكن يكلف الدولة أكثر من وظيفة مدير عام، لكن الذين كانوا ينتدبون لهذا

المنصب كانوا من طبقة لا تقل عن طبقة مَنْ يختارون لموقع الوزراء، والدليل واضح فى حالة هذين الرجلين اللذين تعاقبا على هذا المنصب، وأصبحا كذلك وزيرين فيما بعد، بل أصبحا مديرين للجامعة قبل أن يصبحا وزيرين(!!)

«وكان من نتيجة ذلك أن أصبح صاحبكم المسئول المباشر عن المشكلات (ربما لو أنه استعمل لفظ الشئون لكان أفضل) الثقافية لوزارة المعارف (إذ ذاك) بمؤسسات الدولة من جهة، وبالدول الشقيقة والصديقة من جهة أخرى، وكذلك بالهيئات العالمية وأولاها هيئة اليونسكو التى كنت قد شاركت فى ترسيخ فكرتها قبل سنوات خمس والتى امتد اتصالى بها لسنوات طويلة بعد ذلك».

(٤٨)

ويمضى صاحب هذه المذكرات فى حديث ممتع عن خبراته البيروقراطية الوظيفية فى هذا المنصب فى هذه الوزارة، ونحن نراه بيروقراطيًا تمامًا وبورجوازيًا تمامًا فى هذا الحديث، ولكن ربما أن هذه الصورة كانت بمثابة الصورة الوحيدة الكفيلة بأن تقدم لنا فكرة صادقة عن عمله فى ذلك الوقت فيقول:

«... وصل (الحديث عن نفسه) وهو فى سن النضج والتجربة إلى المشاركة فى الحياة التعليمية لبلاده فكان بين أعوام ١٩٥٠ و١٩٥٥ مديرًا عامًا للثقافة،ثم وكيلاً مساعدًا لوزارة المعارف (التى أصبحت منذ عام ١٩٥٤ وزارة التربية والتعليم). ولكن صاحبكم كان قد اشترط لدى نقله إلى وزارة المعارف عام ١٩٥٠ أن يكون اتصاله المباشر بالوزير فلا يرأسه أحد من وكلاء الوزارة (المساعدين) إذ ذاك، فهو بذلك كان فى وضع وكيل للوزارة. كذلك فإن عمله لم يقتصر على شئون الثقافة فى الوزارة وإنما امتد بالتدريج إلى سياسة التعليم العامة خصوصًا

ابتداء من عام ١٩٥٤. بل إنه أصبح فى آخر الأمر أقدم وكيل مساعد للوزارة فشملت مسئوليته الشئون المالية والإدارية العامة للوزارة وأصبحت سلطته تالية لسلطة الوزير فى الوزارة التى لم يكن لها وكيل «ولا وكيل أول» فى تلك المرحلة، وبعبارة أخرى فقد وقع عليه عبء التوسع فى الخدمات التعليمية فى ديوان الوزارة وفى الأقاليم والمناطق الريفية البعيدة من القاهرة».

«وليس هذا مجال التوسع فى مشروعات الوزارة فى تلك المرحلة. ولكن الذى حدث أنه فى عام ١٩٥٤ تولى الوزارة أحد رجال الثورة وهو السيد كمال الدين حسين الذى شغل منصب نائب رئيس الجمهورية لبعض الوقت فتوسعت اختصاصات صاحبكم ومسئولياته فى الوزارة، ويذكر أنه أمضى صيفًا بكامله كان هوالمسئول الوحيد عن حركة ترقيات هيئة قيادات الوزارة والعاملين بها فى القاهرة والأقاليم جميعًا، وكذلك حركة تنظيم بدء الدراسة فى طول البلاد وعرضها.. وأكسبت ممارسة تلك المسئولية القائم بها خبرة فى أكبر وزارة من حيث هيئة العاملين بها وانتشارهم فى كل البلاد قبل أن يوضع فيه نظام للإدارة المحلية أو الحكم المحلى فى البلاد. وهى خبرة كان لها أبعد الأثر وأبقاه عندما عاد صاحبكم إلى مجال العمل الجامعى وقت إنشاء جامعة أسيوط ابتداء من عام ١٩٥٥.

(٤٩)

ويبدو صاحب هذه المذكرات حريصًا على أن يدلنا على بعض المساهمات ذات القيمة فيما يتعلق بتطوير التعليم العام فى مصر على الرغم من أن أحدًا لم ينسب إليه تقصيرًا أو إهمالاً فى هذا المجال، وفى هذا الصدد فإن سليمان حزين يحرص كل الحرص على إثبات أنه كان أول من اعترض على نظام

التشعيب إلى أدبى وعلمى فى مدارسنا الثانوية، وأنه منذ تأسس المجلس القومى للتعليم أخذ يقترح نظام الاختيار بدلا منه.

وهو يشير إلى تقارير المجلس القومى للتعليم فى عامى ١٩٧٥ و١٩٧٦، بيد أنه أصبح يظن أن نظام الثانوية العامة الذى أقر فى سنة ١٩٩٠ قد تبنى أفكاره، بينما الحقيقة أن هذا النظام كان قد اشتمل على كثير من التعديلات التى لم يتطرق إليها سليمان حزين أبدًا، ولا أظنه يوافق عليها ولا على بحثها، ولكنه مع ذلك يبدى سعادة بهذا التعديل، وقد انقضت سنوات منذ تم إقرار هذا التعديل والعدول عنه دون أن يتحقق أى شىء مما ظن سليمان حزين أنه قد يتحقق، ولنقرأ هذه النصوص المفعمة بالأمل الذى لم يتحقق:

«... وعندما جاء المجلس القومى للتعليم أعاد البحث واقترح، فى عام ١٩٧٦ وما بعده، هل يعاد النظر فى التخصص المبكر، وأن يصرف النظر عن نظام «التشعيب» إلى قسم «أدبى» وقسم «علمى» ويستعاض عن ذلك بنظام «الاختيار» بين المواد، كما هو معمول به فى دول العالم الغربى (وفى انجلترا التى نقلنا منها نظام التخصص بالذات). وبذلك يصح أن يجمع الطالب الواحد، فى أواخر دراسته الثانوية، بين بعض المواد الأدبية أو الاجتماعية التى تدرس «الإنسان» وبين بعض المواد «العلمية» التى تدرس «الطبيعة» فى دراسة «نظرية»أو «تطبيقية»، وفى ذلك ما يوسع أفقه وينفعه فى دراساته الجامعية المتنوعة فيما بعد. وقد بدأت وزارة التعليم تأخذ - ولو على استحياء - ببعض هذا الرأى، حتى انتهى الأمر إلى إقرار نظام يجمع بين «التشعيب» و«الاختيار» وصدر القرار الوزارى رقم ٣٧٤ بتاريخ ٢٠ نوفمبر ١٩٩٠ بأن يدرس جميع الطلاب، وأن يمتحنوا فى شهادة الدراسة الثانوية العامة، ثلاث لغات (العربية والأوروبية

الأولى والأوروبية الثانية)، ثم يدرس كل من طلبة القسم الأدبى والقسم العلمى ست مواد تخصصية، ثم يختار طلاب كل من الشعبتين مادتين اختياريتين من مجموعتى أ، ب من المواد الأدبية والعلمية المبينة فى اللائحة، وتحسب درجات كل هذه المواد جميعا ضمن المجموع الذى يحصل عليه الطالب. وكذلك فإن الطلاب جميعًا يدرسون ثلاث مواد أخرى فى التربية الدينية والوطنية والفنية، ولكنها جميعًا لا تحتسب ضمن المجموع، وإنما يكفى فيها النجاح فقط».

«وكانت اللائحة تحتوى على بعض مواد اختيارية تضاف إلى المجموع، وتحتسب على أنها من مواد «المستوى الرفيع» والتى تؤهل للقبول فى بعض الكليات التى تشترطها. ولكن هذا النظام الإضافى كان يؤدى إلى مفارقات ظاهرة، يستند الامتياز فيها إلى ما يحصله بعض الطلاب دون سواهم فى سنوات سابقة عن الدراسة، وفى ظروف مدرسية لم تكن متاحة لأغلبية الطلاب (خصوصًا طلاب المدارس الريفية)، ولذلك اتجه الرأى إلى العدول عن تلك المواد «المؤهلة» من الامتحان، لتعارضها الظاهر مع مبدأ تكافؤ الفرص بين المتسابقين فى الامتحان».

(٥٠)

ويحرص سليمان حزين على أن يظهر اعتزازه بما يسميه مشاركته من خلال موقعه المتقدم فى المجالس القومية المتخصصة فى إصلاح التعليم الثانوى من خلال تعديل نظام الثانوية العامة لتكون على مرحلتين، ويجدر بنا أن نشير إلى أن سليمان حزين كان حريصا على أن يضمن كتابه تفصيلات الاقتراحات التى انتهت إليها المجالس القومية المتخصصة فيما يتعلق بنظام الثانوية العامة، وتتضمن هذه الاقتراحات كثيرا من الجزئيات التى لم تأخذ بها وزارة التربية

والتعليم فى إعدادها للقانون، كما تتضمن كثيرا من الحديث الطوباوى عن توفير أجواء نفسية وتربوية بينما يرى المواطنون (سواء فى ذلك الطلاب والأهلون) أن الأمور تتفاقم، وأن الأزمة تصبح أزمتين، وأن المشكلات تتشعب مع كل زيادة فى التشعيب، ولنطالع ما يرويه سليمان حزين:

«... وأخيرًا وبعد انقضاء ثمانى عشرة سنة كاملة على بداية الحوار حول ضرورة تعديل نظام امتحان الشهادة الثانوية العامة.. بعد هذه الفترة الطويلة من الجدل بين أهل التربية بصفة عامة أو بين وزارة التعليم والمجالس القومية المتخصصة بصفة خاصة، انتهى الأمر فى وزارة التعليم إلى التقدم لمجلس الشعب بقانون جديد لتنظيم هذه العملية (فى يناير ١٩٩٤) ولا مفر من تنفيذ هذا القانون حسمًا لموقف قومى مثير للجدل ولا صالح لأحد فى الاستمرار فيه خصوصًا أن القانون الجديد ينطوى على إيجابية متفق عليها بين الجميع، وهى أنه سينهى ما أصبح يشبه «المحنة القومية» فى أداء هذا الامتحان، وهى إيجابية تجب كل صعوبات أو مشكلات لابد أن تكتنف تنفيذ مثل هذا القانون فى مراحله الأولى. ولذلك فإننا نوصى بالأخذ بهذا القانون الجديد فى ضوء ما يقضى به من إجراء امتحان الثانوية العامة على مرحلتين فى نهاية السنة الثانية الثانوية ثم فى نهاية السنة الثالثة الثانوية، أى أنه يختصر السلم التعليمى العام بمقدار سنة كاملة ويتيح تقديم الامتحان (امتحانًا مبدئيًا) فى بعض المواد إلى نهاية السنة العاشرة من بداية السلم التعليمى بوضعه الحالى. وهذا يقتضى وضع احتياطات ضرورية لضمان مستوى الأداء فى الامتحان وفقًا للقانون الجديد لعل من أهمها ما يأتى:

«أولاً : التثبت من مستوى الدراسة فى امتحان شهادة تمثل قمة الدراسة التى تؤهل للقبول بالجامعات، والانتقال من مرحلة التعليم العام إلى مرحلة التعليم

الجامعى المعتمد. بل التثبت من مستوى امتحان يحمل خاتم الدولة، ويرتبط بالاعتراف «الدولى» بقيمة شهاداتنا المؤهلة للقبول فى جامعاتنا وجامعات العالم».

«ثانيًا : هو توفير الظروف النفسية والمناخ السليم الذى لا يجعل من امتحان الشهادة الثانوية العامة «ضغطًا نفسيًا عامًا» يشمل الطلاب وأهلهم، خصوصًا وإنه لا تكاد توجد أسرة ليس لها ولد أو بنت أو قريب يدخل هذا الامتحان فى كل سنة، ويترقب الأهل مثل هذا الامتحان، وكأنه آخر الدنيا من حيث مستقبل الولد أو الفتاة بل ومستقبل مكانة الأسرة الاجتماعية على أبواب مستقبل يكتنفه الخوف والرهبة، ولتحقيق هذين الغرضين معًا، فإننا نوصى بأن يراعى فى الدراسة بالمدارس الثانوية اتباع نظام «العام الدراسى الكامل»، وهو الذى يبدأ فى السبت الأول من شهر سبتمبر من كل عام، ولا يبدأ امتحان الشهادة الثانوية قبل منتصف شهر يونية من العام التالى. وأن يتم تطبيق «نظام اليوم المدرسى الكامل» وتخصص الأسابيع الثلاثة الأخيرة منه للمراجعة تحت إشراف المدرسين وبذلك يصرف النظر عن العرف الذى جرى العمل عليه فى السنوات الأخيرة من تغيب التلاميذ عن المدرسة».

(٥١)

ومن الإنصاف أن نشير هنا إلى أن المجالس القومية قد نجحت فى دفع الوزارة إلى الالتزام ببداية مبكرة للعام الدراسى بعد أن وصل الحال فى تأخر هذه البداية فى بعض الأحيان إلى شهر أكتوبر، بيد أن بقية المقترحات التى يلخصها الدكتور سليمان حزين فى الفقرات التالية قد استعصت على التنفيذ، وعلى كل حال فلنقرأ مقترحاته:

«... بأن تضع الوزارة، قبل بدء العام الدراسى، الخطة التفصيلية لكل «مقرر» دراسى، وتوزيعه على المدرسين والطلاب فى كل عام، مع بيان كتب القراءة والاطلاع (إن وجدت) خارج الكتب المدرسية المقررة. ولا يجوز بحال التغيير أو الحذف من خطط هذه المقررات أثناء العام الدراسى، أو التوجيه إلى أن بعض أجزاء المقرر لن تشملها الامتحانات. ويقتصر تعديل تفصيلات المقررات على فترة العطلة الصيفية السابقة، وقبل بدء الدراسة بشهرين على الأقل».

«تعمل الوزارة والمناطق التعليمية والمدارس على التقليل من الأهمية الظاهرية للدروس الخصوصية» التى تتم خارج المدرسة، ليحل محلها «تدريجيًا» نظام مجموعات التقوية التى تبدأ خلال العام الدراسى، وتمتد الدراسة للمدة التى تسمح بها إمكانات المدرسة بعد انتهاء اليوم المدرسى المعتاد. وتضع المدرسة نظام المصروفات التى تراها مجزية للمدرسين ومحتملة للطلاب وأهلهم».

«وعلى إدارة المدرسة أن تتحمل كل نفقات تنظيم هذه المجموعات وصرف الحوافز للقائمين عليها وعلى تنظيمها وإدارتها، خصما على الباب الثانى من موازنة المدرسة، وذلك بالإضافة إلى المصروفات والرسوم التى يؤديها الطلاب عن هذه المجموعات».

«أن يبقى امتحان الشهادة الثانوية العامة موحدًا على مستوى الدولة، وذلك من حيث أداؤه فى اللغات الثلاث والمواد التخصصية والاختيارية، وأن يجرى تطبيقه بأعلى مستوى من الدقة والرسمية».

(٥٢)

ومع وضوح هذه المقترحات، ووضوح أهدافها وجدواها، فإننا لم نر لها تطبيقا ذا بال، ومع هذا فإننا نواصل مع كتاب سليمان حزين قراءة مقترحاته ومقترحات المجالس القومية:

«أن يجرى تصحيح الأوراق وتقدير الدرجات وفق نظام موحد، يراعى فيه حصول الطالب على ٥٠٪ من النهاية العظمى بالنسبة لكل مادة على حدة، ومستوى ٦٠٪ بالنسبة للمجموع العام الذى لا يعتبر الطالب مؤهلاً للقبول بالمرحلة الجامعية إلا إذا حصل عليه، أما من يحصل على أقل من ذلك وعلى ٥٠٪ أو أكثر من المجموع العام، فإنه يعتبر مؤهلاً للقبول بمعاهد التدريب الفنى أو الدراسات التكميلية العالية».

«يصرف النظر عن العمل بنظام المواد «المؤهلة» لبعض الكليات دون سواها، وإنما يكتفى بالمفاضلة بين الطلاب على أساس المجموع الكلى، وإن كان لبعض الكليات أو أقسامها أن تشترط مجموعًا «خاصًا» فى بعض المواد».

«أن تكون امتحانات الشهادة الثانوية العامة موحدة على مستوى الجمهورية وتحت إشراف وزارة التعليم بالقاهرة، وإن جاز للوزارة أن تبحث إمكان إجراء عملية التصحيح على أساس إقليمى، بشرط توحيد نظام تقدير الدرجات وجبرها، مع العمل بنظام «انتداب» الممتحنين من خارج المنطقة، ومن الجامعات القريبة من منطقة التصحيح».

«أن يكون تقدم الطالب لامتحان هذه الشهادة لأول مرة على أساس دخوله فى كل المواد «دفعة واحدة» لضمان تكافؤ الفرص بين الطلاب. ولكن ضمانًا لتيسير عملية امتحانات الشهادة الثانوية العامة، تنظر الوزارة فى إمكان اعتماد النظام المعمول به فى امتحان الشهادات البريطانية، وفى بعض جامعاتنا فى السنوات الأخيرة، من أن الطالب لا يعاد امتحانه فيما سبق أن نجح فيه من مواد (وبمستوى لا يقل عن ٦٠٪ من النهاية العظمى بكل مادة)».

«أن يعاد النظر فى السلم التعليمى بحيث يحقق ما سبق أن أوصينا به من اعتبار مرحلة رياض الأطفال مكملة للسلم عند قاعدته وبحيث تعمم فتشمل جميع تلاميذ سن الرابعة أو الخامسة إلى السادسة، وبذلك يستعيد السلم التعليمى وضعه السابق فيصبح ١٢ سنة أو أكثر بدلاً من الوضع الحالى (١١ سنة)».

(٥٣)

أما عن أدوار سليمان حزين التنظيمية أو البيروقراطية فى إدارة أو تسيير التعليم العام فإنه يكتفى بأن يقدم ذكريات قليلة عن مساهمات قليلة، ومن هذه الذكريات حديثه عن دوره فى تنظيم ما سمى بالشهادة الثانوية المعادلة:

«... وقد حدث فى عام ١٩٥٦ أن جاء العدوان الثلاثى على مصر فتولت وزارة التربية والتعليم أمر المدارس الإنجليزية والفرنسية، بعد أن انقطع نظام استجلاب لجان الامتحان من الخارج لتشرف على امتحان طلاب تلك المدارس فى شهادة إتمام الدراسة الثانوية، ولكن الوزارة، حفاظًا على حقوق تلاميذ المدارس الأجنبية، عهدت إلى صاحبكم (رئيس جامعة أسيوط إذ ذاك) فى أن يتولى تنظيم امتحانات «شهادة إتمام الدراسة الثانوية المعادلة» وفق النظام الذى كانت تتولاه لجان جامعتى أكسفورد وكامبردج التى كانت تحضر إلى القاهرة فى كل عام، كما تولت جامعة أسيوط أيضًا (يقصد بجامعة أسيوط الحديث عن شخصه هو الذى استعان بمن شاء فآثر أن يكونوا من مساعديه فى جامعة أسيوط) الإشراف على امتحانات المدارس الفرنسية وفق نظام مشابه. وقد نجحت هذه التجربة نجاحًا كاملاً واستمرت تسع سنوات ابتداء من عام ١٩٥٧، وحتى عادت المدارس الأجنبية إلى إشراف أصحابها وجامعاتهم الأجنبية».

ثم يعقب سليمان حزين على هذه الجزئية باقتضاب فيقول:

«لقد كان من الممكن أن تفيد وزارتنا من هذه التجربة الفريدة، فتحاول تطبيقها فى بعض مدارسنا المصرية، ولو على سبيل التجريب تمهيدًا لتعميمها، ولكنها لم تفعل».

وربما أن الوزارة لم تفعل لأن سليمان حزين نفسه لم يقترح عليها ولا علينا ما نفعله.

(٥٤)

ونرى سليمان حزين وهو يقدم فى هذه المذكرات تفسيره الخاص لاختياره كوزير للثقافة، وهو يرى أن هذا الحدث لا يمثل المعلم البارز فى حياته وانما يأتى فى السياق الطبيعى لسيرة حياة رجل اهتم بالتعليم والروابط الثقافية:

«... وكان رئيس الدولة (الرئيس الأسبق جمال عبد الناصر) قد زار جامعة أسيوط فى ١٩٦٤/ ١٩٦٥ وحضر أكبر اجتماع عقد لاستقبال الرئيس فى جامعة أسيوط لمبايعته رئيسا للجمهورية، وحضر الاجتماع الذى نظمته الجامعة زهاء ٩٠،٠٠٠ مشاهد، جلس بعضهم فوق أرض الملعب الكبير وفى المدرجات الدائرية حوله، ووقف بعضهم حول الأستاد الكبير يستجدون بمكبرات الصوت، فأنهى الرئيس إلى بعض جلسائه أن رئيس الجامعة إذ ذاك (أى سليمان حزين نفسه) لابد أن يشغل عملا وزاريا فى التعديل القادم للوزارة، بعد أن أتم عشر سنوات كاملة فى إنشاء جامعة أسيوط وإدارتها بعد أن وضع خطة إنشاء الحرم الجامعى الكبير الذى يكاد أن يكون الحرم الجامعى المتكامل الفريد على أرض مصر، والذى صمم ليشمل زهاء الثلاثين ألفا فى عدد من الكليات الجامعية المتكاملة.. وفعلا جاء الوقت فى خريف عام ١٩٦٥ ليعين صاحبكم وزيرا للثقافة فى وزارة السيد زكريا محيى الدين».

... ...

هكذا نفهم من رواية سليمان حزين أنه كان يعرف أنه سيتولى الوزارة قبل عام ونصف من حدوث هذه التولية:

«... واتفق صاحبكم مع رئيس الوزراء الصديق القديم عند أول اجتماع، وكان المرشح يعرفه منذ سنوات حين تعاونا فى سبيل إحكام الصلة الثقافية بين مصر وشقيقاتها العربيات. وكل ما فعله صاحبكم هو أن تفاهم مع رئيس الوزراء على أن تترك حرية العمل لوزير الثقافة فى أن يوجه الرأى القومى فى مجال الثقافة والعمل الثقافى توجيهًا معتدلاً يحفظ للبلاد شخصيتها وهويتها الفكرية ويصونها من الانحراف والسير نحو اليسار المتطرف أو اليمين المتزمت، وإنما يكون الفكر والثقافة مصريين عربيين فى طبيعتيهما ومحورهما العام. ويبدو أن صاحبكم نجح فى تحقيق هذا الاتجاه الوطنى والقومى العربى العام».

(٥٥)

وعلى النقيض من مرور سليمان حزين العابر على دوره كوزير للثقافة، وعلى اختياره لهذا المنصب فإننا نلمس اعتزازه بمنصبه فى المجالس القومية المتخصصة حيث اختير عند تكوينها عضوا، ومقررا عاما للمجلس القومى للتعليم، ويبدو سليمان حزين حريصا على أن يصور لنا حياته وهى تتمحور حول دوره كخبير وطنى فى التعليم، وهو الدور الذى اعترفت له به الدولة (هذا هو تعبيره بالضبط) عندما اختارته بقرار خاص مقررًا عامًا وعضوًا فى المجالس القومية المتخصصة:

«... ثم عندما أصبح صاحب هذه السيرة أكثر الجامعيين خبرة بما ينبغى أن تكون عليه الصلة بين التعليم الجامعى والتعليم قبل الجامعى. واستمرت هذه الخبرة حين أصبح صاحب السيرة مقررًا عامًا للمجلس القومى للتعليم والبحث

العلمى والتكنولوجيا من مجالس مصر القومية المتخصصة ابتداء من عام ١٩٧٤ وحتى كتابة هذه السيرة بقرار خاص من رئيس الجمهورية. فصار مقررًا لذلك المجلس الذى أصبح المجلس القومى الوحيد الذى له مقررعام يتعاون مع مقررى شعب ذلك المجلس وشعب بعض المجالس القومية الأخرى ويكون مسئولاً عن إعداد التقرير السنوى عن التعليم الذى يقدم إلى رئيس الجمهورية عن كل دورة من الدورات السنوية العشرين التى أتمها المجلس القومى للتعليم حتى الآن».

(٥٦)

وفى فصل مهم يلخص سليمان حزين تاريخ حياته الجامعى من خلال تأريخه لحياة جامعة القاهرة وكلية الآداب بالذات، وهو يهدى هذا الفصل أو التقرير إلى جامعة القاهرة فى احتفالها بمرور ٧٥ عامًا، وقد اختار له عنوان «شجرة الجامعة فى مصر» وكتب فى هامشه ما نصه:

«هذا تقرير أعده المؤلف كإهداء لجامعة القاهرة فى عيدها الخامس والسبعين (١٩٠٨ - ١٩٨٣)»، ودخل إلى جامعة القاهرة فى مطلع عهدها مع الدولة (١٩٢٥)، وسار مع جامعة أسيوط فى طليعة عهد الجامعات الجديدة (١٩٥٥)، وأوجز حصيلة مسيرته ستين عامًا مع جامعات مصر (١٩٨٥)».

(٥٧)

ولسليمان حزين آراء قيمة وتتميز بحيوية عالية فى المجتمع الجامعى وتكوينه الثقافى والتعليمى، وقد أفرد لها فصولاً مهمة من كتابه، وليس من شك أن قراءة هذه الفصول كفيلة بأن تنمى معارف وخلفيات الجامعيين الطموحين إلى تطوير التعليم، وعلى سبيل المثال فإن سليمان حزين يجيد الحديث عما يسميه «بيئة الجامعة» وما تقتضيه من إعداد وتكوين، وهو يقول:

«... ومن المسلم به أن الجامعة «بيئة» و«حياة» قبل أن تكون مجرد مكان لتحصيل العلم والمعرفة. ومع ذلك فإن الجو السائد فى الجامعة عندنا يكاد أن يعتبرها «مقرًا» أو «معهدًا» للتعليم قبل أن تكون «بيئة» يحيا فيها الطالب مع الأستاذ فى أسرة كبيرة، تسودها روح الريادة، والتعاون وتبادل الفكر والرأى والمشورة والتماس النصح والتوجيه فى كل ما تزدحم به حياة الشباب من شئون وشجون وخواطر، فضلاً عن روح الاحترام المتبادل بين الجنسين من الطلاب. ومن هنا كان من الخير، فى مثل هذا التنظيم المختلط، أن تشترك النساء فى وظائف هيئة التدريس والإشراف إلى جانب الرجال، وأن يكون التعليم والبحث الجامعى تعليمًا وبحثًا يشارك فيهما الذكور والإناث من الطلاب، لأن الجامعة هى البيئة التى يتعايش الناس فيها تعايشًا فكريًا إنسانيًا متكاملاً ومتعاونًا، استعدادًا لأن يخرج الشباب آخر الأمر إلى الحياة العامة والعاملة، حيث يعيش الجميع فى رحاب التعاون الإنسانى السوى والسليم».

وهو يستطرد ليقول:

«ولكن جامعاتنا لا تعنى مع الأسف بهذا الجانب إلى القدر الكافى. وقد تكون معذورة فى ذلك. فالمبانى والمعامل والمرافق الجامعية تكاد تضيق بالنشاط التعليمى دون سواه. وعدد أعضاء هيئة التدريس ومساعديهم أقل فى كثير من الأحيان من النسبة المتعارف عليها فى الجامعات بين عدد أعضاء الهيئة وعدد الطلاب، والرعاية التى تقدمها الجامعة للطالب خارج قاعة الدرس تكاد أن تقصرعن الحد الأدنى الضرورى. ولا مفر لجامعاتنا من أن تتدبر الأمر قبل أن يزداد سوءا».

(٥٨)

كذلك يحرص صاحب هذه المذكرات على أن يسجل فى فصول كتابه انتقاده لنظام الترقيات المعمول به الآن، وذلك حيث يقول:

«... وقد رسم قانون الجامعات ولوائحه أسلوب الترقى فى سلم هيئة التدريس، وهو يشترط دائمًا توفر أعمال بحثية أو إنشائية مميزة للترقى من مرتبة إلى مرتبة، حتى يصل عضو هيئة التدريس إلى مرتبة الأستاذية، ويشغل تخصصًا معينًا فى مادته.. ومع ذلك فإن هناك مأخذًا واحدًا لا يزال يثير التفكير، وهو أن الأستاذ متى بلغ الأستاذية بعد فترة زمنية معلومة، وبعد أن يكون قد قام ببحوث مؤهلة، فإنه ليس فى قوانين التوظف والعمل الجامعى ما يحفزه بالضرورة إلى مزيد من هذه البحوث، أو إلى أن يضيف إلى العلم جديدًا. فإذا ما لاحظنا أن عضو هيئة التدريس يصل عادة إلى مرتبة الأستاذية قبل سن الأربعين أو حولها، فإن أكثر من نصف حياته العلمية العاملة فى الجامعة يبقى بعد هذه السن دون أن تنظمه قواعد أو اشتراطات فى متابعة البحث العلمى، كما يحدث فى بعض الجامعات فى الخارج (خصوصًا فى دول الكتلة الشرقية) حيث تراجع أعمال الأستاذ مرة كل فترة معينة (خمس سنوات مثلاً) ليتكشف إن كان قادرًا على أن يخطو خطوات أخرى على سلم الأستاذية، وعلى كل حال فإن مثل هذا الأمر يستحق أن يُنظر فيه بالنسبة لجامعاتنا، بحيث يمكن على الأقل أن توضع بعض الضوابط لإمكان الاختيار من بين الأساتذة لشغل بعض المناصب الجامعية العالية، ويصح أن يكون أساس الاختيار للترقية فى مثل هذه الأحوال أساسًا مركبًا، فتؤخذ فى الاعتبار الأقدمية والمساهمات العلمية المستمرة والأعمال الإنشائية والتنظيمية داخل قسمه أو كليته ومساهماته فى الخدمة القومية العامة ودوره القيادى بين جيله وتلاميذه، وغير ذلك من الأمور التى يبدو أن بعضها يراعى حاليًا، ولكن على أساس فردى، وبصورة جزئية دون ضوابط واضحة أو متعارف عليها على الأقل».

«والذى يحدث الآن هو أن الأستاذ إذا أراد أن يحصل على مزيد مما يستحق من تقدير، فالسبيل التى أمامه هى أن يجتهد ليحصل على جائزة تقديرية من خارج الجامعة، أو ينتقل إلى خارج الجامعة ذاتها ليشغل منصبًا فى الجهاز الحكومى التنفيذى أو فى هيئة غير حكومية، وبذلك تفقده الجامعة كأستاذ كان يمكن أن يقضى حياته كلها فى الجامعة، ويؤدى للجامعة والبلاد والعلم أخلد ما يستطيع أستاذ أن يؤديه للعلم والوطن ولبناء جيل المستقبل فى مصنع الرجال والنساء».

(٥٩) .

ويعبر سليمان حزين فى وضوح لا يقبل اللبس عن فهمه العميق لدور الجامعة فى العمل الثقافى فهمًا جيدًا وهو يتحدث عن هذا الدور فى كتابه فيقول:

«... ومع أن الجامعات الجديدة، وأولاها أسيوط، قد عنيت بجانب التثقيف فيها عناية خاصة، فانشات جامعة أسيوط - على سبيل المثال - أربعة مسارح كبيرة بين أبنية حرمها (ومنها مسرح مخصص للموسيقى)، إلا أن هذا التقليد لم يتبع مع الأسف الشديد حين أقيمت الأحرام الجامعية الجديدة فى مدن الريف. بل إن جامعة القاهرة ذاتها، وهى التى أقامت قاعة كبرى فى عام ١٩٣٠، لم تفكر فى أن تحول هذه القاعة إلى «مسرح» للتمثيل والنشاط الثقافى الكامل إلا بعد انقضاء أكثر من ثلاثين سنة على إنشاء القاعة!».

«إن تكوين الطالب الجامعى والخريج المثقف صاحب الأفق الواسع لا يمكن أن يتم إذا اكتفينا «بالتعليم» وتكوين الباحث المنكب، ولم نعن كل العناية منذ البداية «بتثقيف» الطلاب وإضافة عنصر الثقافة العامة إلى حياتهم بل وحياة الأساتذة فى الجامعة. ولعل جامعاتنا وكلياتنا أن تجد سبيلها إلى الضياء الحق والنور

الشامل فتضاعف من اهتمامها بالنشاط الثقافى العام والخدمة الثقافية المستنيرة فيما نحن مقبلون عليه من أيام».

(٦٠)

وفى بعض الفصول التى سبقت الفصل الكبير الذى خصصه لمذكراته يتأمل صاحب هذه المذكرات نظام تعليمه وحياته، ويحدثنا عما خرج به من هذا التأمل فيقول:

«... ولقد تأمل صاحبكم مسار حياته بعد أن تقدمت به السن. فهاله أنه لم يمارس شيئًا يذكر مما تعرض له بعض أقرانه فى حياتهم التى خالط بعضها التعثر وسوء الحظ. فهو قد طلع على الحياة فى بيئة ذات صلة بالعلم، فكانت نقطة بدايته أسبق من غيره. ثم تعلم بالداخل والخارج ونال حظه الموفور من التعليم الذى كان أغلبه أو كله تقريبًا على حساب الدولة، ثم أتم الجامعة بين أول دفعة دخلت إلى «الجامعة المصرية» فى أول عهدها بالدولة، ثم ابتعث إلى الخارج فى ثلاث دول هى انجلترا وفرنسا والنمسا وحصل على أعلى الدرجات والجوائز العلمية، وعاد فدخل الجامعة ووصل فى مراتبها إلى مركز القيادة وإنشاء جامعة من الألف إلى ما يليها من أحرف، ثم نال فرصة سياسية فتولى الوزارة، ثم انتقل بسند من الدولة إلى مجال الخدمة العلمية الدولية، ليعود مرة أخرى إلى شغل أعلى المناصب فى رياسة الجمعيات والاشتراك فى المجامع والمجالس القومية، وشاء الله أن يطيل مدة اتصاله بالجامعات فخدم وكتب ووجه وأشار. وكانت هذه كلها فرصًا، بل إن فرصة واحدة من هذه الفرص هى تولى إنشاء جامعة، كانت فرصة لا تسنح إلا فى أقل القليل وأندر النادر بالنسبة لأقرانه من رجال الجامعات».

... ...

ويصل الدكتور سليمان حزين فى تقدير الفرص السانحة التى أتيحت له أن يعتبرها بمثابة ألف وخمسمائة فرصة من فرص زملائه:

«وفى كلمة موجزة فإن صاحبكم هاله أن يعيد حساباته فيدرك أن محصلة الفرص التى نالها تعادل أكثر من ألف فرصة (وربما بلغت ألفًا وخمسمائة فرصة) مما ناله (أو لم ينله!) أغلب أقرانه الذين ولدوا معه فى جيله ثم تفرقت بهم السبل، فلم ينل منهم نعمة التعليم الابتدائى إلا فئة قليلة جدًا، ولم ينل فرص التعليم العالى إلا أقل القليل، ولم ينل فرصة الوظيفة والعمل القيادى والخدمة إلا أصحاب الحظ الفريد.. بل إن الأمر قد انتهى بالكثير من أقرانه الأوائل إلى أن تركتهم الحياة قبل أن يتذوقوها أو يشاركوا فيها بنصيب متواضع أو قليل. وقد حاول صاحبكم - وهو جامعى قديم أيضًا - أن يحسب حساب ما قد يناله يوم يلقى ربه بعد أن أخذ نصيبه كاملاً من الدنيا. وتصور أن حساب أمثالنا لابد أن يكون حسابًا عسيرًا، إن لم نقدم فى دنيانا ما يكافئ بعض ما سبق به إلينا مجتمع المحرومين من فضل فى الحياة!».

ويستطرد الدكتور سليمان حزين ليؤكد على المعنى الذى يتمسك به فيما يتعلق بتاريخه العلمى أخذا وعطاء، ويقول:

«... لعل حكمة هذه الرواية الشخصية تكمن فى أن رجال الجامعات قد نالوا أعظم الفرص فى حياتهم، فحق عليهم (كل بقدر ما ناله) أن يؤدوا حق الأمانة، وأن يردوا إلى الوطن بعض ما سبق به إليهم. ومن هنا فإن الجزاء الذى طالبنا به من أجلهم... لابد أن يتبعه هذا النذير بأن مثل هذا الحق يجب أن يقابله واجب ثقيل، وأمانة تكاد أن تقصم الظهور...».

والشاهد أننا نجد صاحب هذه المذكرات وهو حريص كل الحرص على التأكيد على معنى الامتنان للمجتمع، فضلا عن الإيمان بهذا المعنى الإنسانى والثقافى، وهو يضرب المثل لهذا الامتنان ولهذا الإيمان بما نجده فى حديثه عن تكوينه الشخصى فى مراحل حياته المختلفة، حيث يحرص على ذكر كل صاحب فضل عليه لكنه يحرص أكثر من هذا على الإشارة إلى ما كانت نظم البعثة أو الدراسة أو الجامعة تهيئه له.

وهو يتحدث عن حياته فى فترة طلبه العلم فى انجلترا فى أثناء البعثة فيقول:

«أما خارج الجامعة فقد كانت حياتى أيضًا غنية بالتجربة والعمل الجاد، وكان النظام إذ ذاك أن يقيم الطالب مع أسرة إنجليزية فى بيتها، وتخصص له غرفتان من البيت واحدة للعمل والمعيشة والثانية للنوم. وسكنت فى ثلاثة بيوت خلال العامين اللذين أمضيتهما فى ليفربول، وقضيت منهما عاما ونصف عام فى البيت الأخير حيث كان يزورنى أستاذى ليطمئن على أن تكون معيشتى راضية. وكنت طالبًا جادًا فى حياتى إلى حد ظاهر، اشتهرت به بين زملائى المصريين والعرب حتى اعتبرونى فيما أظن نموذجًا للمبعوث المصرى العربى الذى لا يعرف إلا العمل والعمل، ولا يرضى لنفسه أن يكون فى تصرفه ما يمس سمعة مصر والعرب بحال».

«كذلك فإن أستاذى كان يدعونى من وقت لآخر لزيارته زيارة عمل فى المدينة الجامعية التى كان هو يقيم بها، حيث إنه كان أعزب يتفرغ للعلم تفرغًا يكاد يكون تامًا. فكنت أراجع مسودات رسالتى للماجستير معه حتى فرغت منها فى وقت مثالى كما كان يقول لى».

أما تعليمه الذى تلقاه فى الخارج فهو يحكى عنه بقدر كبير من التفصيل مبديا السعادة بما تحقق له من وظيفة هيأته لهذه البعثة، والحق أنه تفوق تفوقًا ملحوظًا فى هذا الحديث الذى يقدم لنا من خلاله تجربته الدراسية الجادة فى بعثته التعليمية، وهى تجربة مثمرة لم تحل، رغم جديتها، بينه وبين التزود بمنابع الثقافة الحقة، ولم توقعه فى أسر الغرب، بل على العكس فإنها كما نرى نمت وقوت من ثقته بنفسه وبما حصّل من علم فى بلاده وجامعته الأم قبل أن يسافر، وهو، على نحو ما نرى، يعتقد أن بعثته إلى الخارج لم تبدأ بسفره فى البعثة وإنما بدأت قبل ذلك حين كان طالبا فى الجامعة المصرية، وكان أساتذته من الأساتذة الدوليين عالميِّى المستوى:

«... وأذكر أننى كنت قد شاركت فى أول رحلة تعليمية كبيرة قام بها قسم الجغرافيا إلى منخفض الواحات الخارجة فى صحرائنا الغربية، وعدت فنشرت أول بحث علمى لى باللغة العربية فى المجلة الجديدة التى كان يصدرها سلامة موسى وذلك بعنوان «فى منخفض الواحات الخارجة»، وقد أعجب أساتذتى المصريون وزملائى فى الكلية بذلك البحث، ثم طلب إلى القسم أن ألقى محاضرة فى موضوع على هامش برنامج «قاعة البحث» وكان الأستاذ روكسبى قد وصل إلى الكلية أستاذًا زائرا فرأيت أن ألقى البحث باللغة الإنجليزية بعد أن كانت تجربتى مع «قاعة البحث» قد عودتنى على أن أرتجل البحث الذى ألقيه ارتجالا».

«وقد رأيت على سبيل التجربة أيضًا أن أجازف فأرتجل بحثى عن منخفض الواحات ولكن باللغة الإنجليزية التى كنت قد أتقنتها بعد متابعة العديد من

المحاضرات وحضور الامتحانات والإجابات بتلك اللغة. وكان أن أعددت البحث باللغة الإنجليزية ولكننى عند الإلقاء سرت على عادتى المكتسبة بارتجاله ارتجالاً بلغة لا بأس بها، يبدو أننى استرعيت نظر الأستاذ الزائر الذى جاهر فى نهاية البحث، موجهًا كلامه إلى أساتذتى المصريين بأننى أصلح لأن أكون«محاضرًا» من طراز طيب».

«بل إنه يبدو أن أستاذى البريطانى الزائر قد اقتنع بأننى أصلح لأن أسافر إليه فى جامعة ليفربول ليسجلنى معه للإعداد لدرجة الماجستير مباشرة. وكان جميع من أوفدوا فى بعثات من قبلى، وبعض من أوفدوا بعدى، يضطرون إلى التسجيل من جديد لدرجة البكالوريوس..».

«وهكذا كانت حالتى أول حالة تعترف بها جامعة بريطانية بمعادلة درجة الليسانس التى حصل عليها أول خريج من الجامعة المصرية معادلة لدرجة البكالوريوس من جامعة بريطانية، وأتيح لى أن أتقدم لدرجة الماجستير مباشرة. وكان هذا مكسبًا كبيرًا للجامعة المصرية الناشئة إذ إن نفرًا ممن سافروا بعدى قد استفادوا من هذا الاعتراف بالدرجة الجامعية المصرية الأولى».

(٦٣)

ويبدو أن سليمان حزين كان حريصًا على أن يشير إلى ما كرر الإشارة إليه من أن فضل الاعتراف بشهادة كلية العلوم المصرية كان راجعا إلى مشاركة الممتحنين الخارجيين من الإنجليز فى تقييم أوراق شهادتها، على حين أن الاعتراف بشهادة الآداب كان ناشئا فى المقام الأول عما ظهر من تفوقه هو شخصيا:

«وهكذا أسفرت السنة التى قضيتها طالبًا للبحث بعد الليسانس عن فائدة كبيرة بالنسبة إلىّ من جهة، وإلى كلية الآداب والجامعة المصرية من جهة أخرى،

وقد استطاعت كلية العلوم فى الجامعة أيضًا أن تستفيد من هذه السابقة فأذنت بعض جامعات بريطانيا لخريجى كلية العلوم بالتقدم إلى الماجستير مباشرة».

«ولكن الفرق بين كلية العلوم وكلية الآداب أن الأولى كانت قد اتخذت عدتها من قبل فأرسلت أوراق الطلاب فى سنتهم الأخيرة إلى انجلترا حيث قام «الممتحنون الخارجيون» الإنجليز بمراجعة تلك الأوراق فى معادلتها من حيث المستوى العلمى بما يحصله طلاب البكالوريوس فى بعض الجامعات البريطانية».

(٦٤)

ومن حسن الحظ أن سليمان حزين كان حريصا على أن يروى لنا فى مذكراته تفاصيل كثيرة عن أساتذته فى بعثته بالتفصيل ذاكرًا فضل كل منهم فى مجاله:

«... وكان نظامى الذى اتفقت عليه مع كلية الآداب وقسم الجغرافيا قبل سفرى والذى حرص مكتب البعثات على أن أسير عليه بكل دقة هو أن أرسل بنفسى تقريرًا كل شهرين عن سير عملى ودراستى ومدى التقدم الذى أحققه. وأظن أننى وافيت إدارة البعثات وكلية الآداب بنحو ثلاثين تقريرًا خلال خمسة أعوام ونصف العام قضيتها عضوًا بالبعثة فى كل من انجلترا وفرنسا والنمسا وألمانيا وحصلت فيها على الماجستير ثم الدكتوراه، وأمضيت فى آخرها ستة أشهر كطالب بحث (فى انجلترا) لما بعد الدكتوراه».

«وبدأت بعثتى مع أستاذى روكسبى فى ليفربول، وكان قد اتفق معى بمصر قبل السفر على أنه سيحصل على إعفاء من إعادة الدراسة للبكالوريوس والتقدم مباشرة للتحضير لدرجة الماجستير. وبعد وصولى نصحنى بأن أقضى بقية الصيف فى زيارات خارج ليفربول ثم أحرص على حضور عدد مختار من المحاضرات أثناء العام الدراسى على أساس أن يكتفى بحضورى دون الجلوس لأية امتحانات فيما أدرس، وذلك أسلوب جديد فى الدراسة البحثية «الحرة»».

«وهو الذى جعل لى مكانًا خاصًا بين الأساتذة والطلاب فى مدرسة الجغرافيا «بجامعة ليفربول». وكانت تشغل منزلاً كبيرًا مستقلاً عن مبنى الجامعة وكلية الآداب هناك، كما كان يحتوى على مكتبة قيمة تفيد من يعد نفسه فيما بعد ليصبح عضو هيئة تدريس فى الجامعة. وكان صاحبكم قد قرر أن يتفرغ لجمع المادة لموضوع الماجستير(فى الجغرافيا التاريخية للعالمين العربى والإسلامى) فى كل من ليفربول ولندن وكامبردج ومانشستر وغيرها، وهذا فتح أمامى أفقًا واسعًا فى مجال البحوث العلمية، فضلاً عن أن أستاذى وجهنى إلى أن أوسع نشاطى بين الطلاب بصفة عامة، وطلاب البحث بالجامعة منهم بصفة خاصة».

«كذلك فإننى خرجت عن مجال الجامعة المحدد منذ اليوم الأول، فرتب لى أستاذى مع مكتب البعثات المصرية فى لندن أن أحضر اجتماع «الجماعة البريطانية لتقدم العلوم» فى لندن. وهومؤتمر كبير يحضره العلماء والمفكرون فى مختلف مواد المعرفة وأذكر أنى لقيت فيه طائفة كبيرة من المفكرين والعلماء والأساتذة كنا نسمع عنهم فى الصحف من أمثال برنارد شو».

(٦٥)

ويروى الدكتور سليمان حزين أنه ابتعث مرة أخرى من خلال البعثة نفسها، حيث سافر من خلال البعثة إلى اجتماع علمى فى الدنمارك، وفيه تعرف على أستاذه البريطانى الذى لازمه بعد ذلك، كما أنه سافر من خلال البعثة إلى عدد آخر من الدول الأوروبية:

«وبعد انقضاء اجتماع الجماعة البريطانية لتقدم العلوم سافرت إلى مدينة هلزنجور فى الدانمارك لحضور اجتماع خاص نظمه بعض كبار الأساتذة المفكرين الدانماركيين. وكان معنا الأستاذ البريطانى الكبير هربرت جون فلير من

جامعة مانشستر.. وهو الأستاذ الذى كان من حظى أن أتعرف عليه وأن ألحق بمدرسته فى هذه الجامعة الأخيرة وأقضى أكثر من ثلاثة أعوام دارسًا وعاملاً فى كنفه ورعايته، وكان فلير قد نشأ أستاذًا لعلم «الحيوان» فى جامعة ويلز ولكنه تحول من ذلك إلى دراسة الانثربولوجيا وعلم السلالات، وكذلك الاثنولوجيا وعلم الحضارة. فبدأت معه فى رحلة الدانمارك تلك، ولعل أسلوبه من الفكر والبحث العلمى قد بدأ يستهوينى، كما أنه على ما يظهر توسم فى أنى أصلح لأكون أحد الدارسين والباحثين معه فى يوم لعله أن يكون قريبًا».

«وهكذا كانت الشهور الثلاثة الأولى من سفرى فى البعثة شهورًا «موجهة» فى برنامج عمل ودراسى بانجلترا وما جرتنى إليه من دراسة فى بلدان أخرى فى غرب أوروبا امتدت إلى الدانمارك ثم فرنسا والنمسا وألمانيا وغيرهما من بلدان كثيرة انتقلت إليها فى زيارات علمية خلال بعثتى التى امتدت إلى خمسة أعوام ونصف العام،كنت فيها موفقًا والحمدلله فى كل ما هاجرت فى سبيله من علم ومعرفة وبحث علمى وتعرف على أهل الفكر والمعرفة فى طائفة من البلاد.. فأثرى ذلك كله معارفى وتجاربى».

«وزرت فيه طائفة من الجامعات والمعاهد العلمية المتفرقة التى امتدت إلى إسبانيا وإيطاليا وبولندا وغيرها، كما عدت خلال ذلك كله إلى مصر لأجمع البيانات وأقوم بالدراسات الميدانية عن مصر ونشأة حضاراتها الأولى قبل التاريخ. بل إننى اتبعت البعثة كلها بعد الحصول على الدكتوراه بفترة ستة أشهر امتدت بعد ذلك إلى سنة كاملة قمت فيها بالدراسات الميدانية فى جنوب بلاد العرب فى اليمن وحضرموت، وذلك قبل أن أبدأ مهنة التدريس فى كلية الآداب بالقاهرة ابتداء من خريف عام ١٩٣٦».

ويحرص سليمان حزين على أن يشير فى مذكراته إلى بعض تفصيلات الفترة التى توج فيها بحوثه الأولى بإعداده للماجستير وانتهائه من الرسالة قبل موعدها مما مهد له أن يسجل لدرجة الدكتوراه فى جامعة أخرى:

«وانتهيت من إعداد رسالتى للماجستير فى خريف عام ١٩٣٢ ولكن قواعد التسجيل فى الجامعة كانت تتطلب انقضاء ثلاث سنوات دراسية على الأقل من تاريخ التسجيل قبل التقدم للامتحان، فاتفقت مع أستاذى أن أغادر ليفربول إلى مانشستر لأسجل فيها الدكتوراه التى تستلزم التسجيل أيضًا لثلاثة أعوام اتفقنا على أن تبدأ فى خريف عام ١٩٣٢ وتستمر إلى صيف عام ١٩٣٥ نهاية فترة بعثتى الأصلية.. ثم شاء ربك أن تمتد البعثة نصف عام آخر بعد الدكتوراه لإجراء بحوث ما يعرف باسم «ما بعد الدكتوراه».

... ...

على أن سليمان حزين يحرص فى خضم كل هذا الحديث على أن يذكر بالخير وبالتفرد مستوى دفعته وهى أولى دفعات كلية آداب القاهرة، وهو يذكر مزايا كثيرة لهذه الدفعة التى أدت الامتحان بثلاث لغات، والتى كان من المتاح لأفرادها أن يحصلوا على أكثر من درجة من درجات الليسانس، وعلى سبيل المثال فإنه هو نفسه حصل على ليسانس الاجتماع والفلسفة بعد شهور من حصوله على ليسانس الجغرافيا، وقد حصل على الدرجتين بامتياز، وهو يشير دون أن يذكر الأسماء إلى أن بعض زملائه كان بإمكانهم الحصول على ليسانس الحقوق أيضا، وهو حريص على الحديث باعتزاز متواصل عن مستوى كليته الأم: كلية الأداب فى جامعة القاهرة :

«بل لعل هذا أن يكون السبب كما قدمنا كل الحرص فى نجاح جامعتنا تلك ونجاح كلية الآداب التى بدأت ببضعة وعشرين من الطلاب وبضعة عشر من الأساتذة الكبار من المصريين والأجانب، وكانت دراساتها وامتحاناتها بثلاث لغات.. تجربة لم يكن من الميسور أن تتكرر فيما لحق ذلك من سنوات فى تاريخ جامعاتنا المصرية. ولم يكن غريبًا بعد ذلك أن تكون امتحانات الليسانس الأولى فى عام ١٩٢٩ قد جاءت بنتائج باهرة لم تكن تقاربها امتحانات السنوات اللاحقة، فضلاً عن أن بعض الخريجين من الكلية قد حصلوا على الليسانس فى أكثر من قسم واحد فى كلية الآداب أو من كلية الآداب وكلية الحقوق فى الوقت ذاته. وكان نصيب صاحبكم أن حصل على الليسانس بامتياز من قسم الجغرافيا فى يونية من عام ١٩٢٩ الدراسى ثم عمل الليسانس بامتياز من قسم الاجتماع (والفلسفة) فى أكتوبر من ذات العام».

(٦٧)

ويختتم سليمان حزين حديثه عن تكوينه العلمى بالإشارة إلى أن هذا التكوين كان ذا نفع كبير له فى أعظم مهامه، وهى تأسيس جامعة أسيوط:

«بل لعل تلك التجربة الجامعية الأولى أن كانت من وراء مسيرة صاحبكم مع الجامعة والتعليم الجامعى فيما جاء بعد ذلك من سنين فى مصر والخارج حتى أتيحت له الفرصة أن يكون أول خريج للجامعة المصرية كى «ينشئ» جامعة جديدة لمصر فى قلب الصعيد (فى أسيوط) بعد تخرجه من كلية الأداب بالقاهرة بستة وعشرين عامًا، وتلك كانت فرصة ما نعرف أنها أتيحت لغيره من خريجى الجامعة.. بل تلك نعمة كبرى ينبغى أن نتحدث بها كما نتحدث بما أنعم به الله على ندرة نادرة جدًا من خريجى الجامعات!».

(٦٨)

ومن حسن حظنا أن صاحب هذه المذكرات قد تحدث فيها بدقة شديدة عن الاضافة التى أضافها للعلم الذى تخصص فيه، وعن منهجه العلمى فى تناول المعارف المتعلقة بتخصصه، وهو فى هذا الحديث لا يصور نفسه فلتة ولا ظاهرة، وإنما يصورها ضمن تيار علمى فرض نفسه نتيجة تطور العلم نفسه فيقول:

«وعلى هذا النحو ظهر بين الجغرافيين فى العقود الثانية والثالثة والرابعة من هذا القرن.. وفيما تلا ذلك من عقود.. ظهر بينهم أن علم الجغرافيا يواجه أزمة خطيرة لا يخرج منها إلا بالخروج من «التركيب» إلى «التحليل»، ومن مجرد «الأخذ» الفكرى عن غيره من العلوم إلى «العطاء» الفكرى للعلوم الإنسانية الأخرى، بل وبعض العلوم «الطبيعية» التى كانت تعطيه ولا تأخذ منه شيئًا. والواقع أن صاحبكم كان من حسن حظه أن عاش وبدأ «تكوينه» الفكرى والعلمى فى هذه المرحلة من تطور علم الجغرافيا».

....

وهو يشير باعتزاز إلى أنه ربما مثل امتدادا طبيعيا، مع انقطاع فى الزمان، للعالم العربى الكبير عبد الرحمن بن خلدون الذى أثبت عبقرية مبكرة فى ربط التاريخ والعمران بالبيئة الجغرافية، وهو يقول فى هذا المعنى:

«بل إن صاحبكم ما لبث أن راجع ما كان قد تعرف عليه من علوم العرب الأسبقين فى كتاباتهم التى بدأ بالرجوع إليها وهو فى مصر، ثم تابعها فى المرحلة الأولى من بعثته العلمية بالخارج (مرحلة ليفربول) فذكر بينه وبين نفسه أن عبدالرحمن بن خلدون كان من أوائل من ابتدعوا ربط التاريخ والعمران بالبيئة الجغرافية. ولولا أنه جاء فى أواخر عهد الفكر العربى (أوائل القرن الرابع عشر)

وبداية عهد الاضمحلال بالنسبة لهذا الفكر.. لولا ذلك لما توقف تيار البعث الفكرى العربى، ولوصل علم «العمران» الذى ابتدعه إلى مرحلة علمى الاجتماع والجغرافيا التاريخية، بل الجغرافيا التى أسماها صاحبكم فيما بعد باسم «الجغرافيا الحضارية».. بل لوصل هذا التاريخ «الجديد» فى توجيه المعرفة الإنسانية إلى مداه الذى نحاول أن نتطلع إليه اليوم. بل هكذا كان الفكر العربى فى دراسة «العمران والبيئة» قد سبق عالم الغرب والنهضة الغربية المعاصرة بقرون.. ولكنها كانت «إرهاصة» لم تلبث أن خبت وتوقفت فى انتظار أن تبعث من جديد».

«هكذا أحس صاحبكم فى الثلاثينيات من القرن العشرين، وفى طور تكوينه كباحث جغرافى أتيحت له الفرصة لأن يخرج من الفكر التقليدى للجغرافيا إلى «فجر جديد لهذا الفكر..» بل أتيحت له فرصة مضاعفة قل أن تُتاح لكثير من أمثاله، فهو قد استطاع أن يستند إلى «بذور فكر عربى» تمثل فى تراث عبدالرحمن بن خلدون وغيره وأن يفيد من اتصاله بطائفة ممتازة من علماء الغرب وأصحاب الفكر الجغرافى المتفتح فى عدد من ثقافات أوروبا المعاصرة».

(٦٩)

وعند هذا الحد يستطرد سليمان حزين إلى الحديث عن أبرز أساتذته وتكوين هؤلاء الأساتذة العلمى الذين تعددت مشاربهم واهتماماتهم الأولى حتى أصبحوا رءوس المدرسة التى ينتمى إليها سليمان حزين:

«كان أبرزهم الأستاذ هربرت جون فلير الذى بدأ حياته مع علم الحيوان ثم انتقل سريعًا إلى الانثربولوجيا التى اختار اسمها ليطلق على مدرسته التى أنشأها بهذا الاسم فى جامعة مانشستر، وعرف فيها كيف يضع الفكر الجغرافى فى خدمة علوم الإنسان والسلالات البشرية وأصول الحضارات القديمة».

«ثم كان فى مقدمة أولئك العلماء الأب هنرى برويل الفرنسى الذى نشأ فى علم اللاهوت ولكنه انطلق سريعًا فى طريق دراسات علم ما قبل التاريخ والعصور الحجرية، وعرف كيف يضع دراسة البيئة الطبيعية القديمة فى خدمة فهم تطور الحضارات الحجرية فى غرب أوروبا ثم فى غيرها من البلاد البعيدة، حتى بلغ شمال الصين وإنسان الصين القديم».

«ثم كان منهم أيضًا الأستاذ منجين الذى نشأ فى دراسة حضارات الإنسان الأوروبى فى نهاية العصر الحجرى وبداية عصر المعدن وانتقل من ذلك إلى المشاركة العملية فى دراسة آثار مصر فى المعادى، حيث كانت نهايات عصر ما قبل الأسرات، وهى الحضارة التى ربطت إذ ذاك بين الحياة فى وادى النيل والحياة عبرالصحارى المجاورة حتى امتدت إلى الربط القديم بين سوريا ومصر قبيل أن يبدأ فجر التاريخ».

«وغير هؤلاء جميعًا طائفة من علماء الجغرافيا المتطورة والمتوسعة فى اتصالاتها بعلوم الإنسان والآثار القديمة وعصر ما قبل التاريخ».

«وقد وجد صاحبكم فى هذا الجو المتسع الآفاق فرصة العمر فى أن يكوّن نفسه وأن يسير على النهج الجديد فى علم الجغرافيا. وهو النهج الذى شاء الله أن يمتد فيه الطريق.. وفى حياة ناشطه فى الجامعات وخارج الجامعات وفى خدمة مصر وخدمة العروبة وخدمة العمل الدولى على نطاق يكاد يكون عالميًا بالمفهوم الحديث، حتى استطاع آخر الأمر أن يخصص حياته لما أصبح يطلق عليه باسم «الجغرافيا الحضارية» التى تمتاز بأنها الجغرافيا التى تقوم أساسًا على «العطاء» لغيرها من العلوم دون الوقوف عند مرحلة «الأخذ» من تلك العلوم».

(٧٠)

ويتحدث سليمان حزين بنفس الروح المنصفة للذات عن تلاميذه ويصف مدرسته بأنها مدرسة واسعة النطاق، على الرغم من أننا نعرف أنه لم يقض فى الجامعة وقتًا طويلاً، ولكنه يعتبر أستاذيته مرتبطة بأدائه فى خارج الجامعة فيقول:

«بل لعل هذا أن يكون مرجع الفضل الأول لأننى استطعت أن أكوّن مدرسة واسعة النطاق من الطلاب والتلاميذ.. بل والأصدقاء والأحباب فى العلم خلال السنوات الطويلة التى شاء الله أن يمتد بى العمل فيها مع جيل الطلاب الناشئين..وتلك صلة توطدت وازدادت رسوخًا على مر الزمن، بحيث إننى أعدها «فرصة» أتيحت لى كأستاذ فتح أمامه باب العمل مع طلاب من نحو خمس وخمسين دولة، بخلاف بلدى مصر دخلوا علىّ فى «الفصل» أو فى قاعة البحث وامتدت بى الصلة معهم عبر العالم كله لاسيما فى دول العالم العربى كله فى إفريقيا وآسيا والبلاد النامية، بل وفى عدد صغير من الدول المتقدمة فى أوروبا وأمريكا الشمالية وشرق آسيا».

(٧١)

أما عن الجانب الإنسانى فى هذه المذكرات فإنه يمكن القول لنا بأنه حافل على الرغم من أن صاحبه كاد يواريه فى تلال العلم والفكر التى هو حريص على الحديث عنها، ولعل أول ما نلاحظ اهتمامه بالحديث عنه بدقة هو حديثه المستفيض عن الأمراض التى تعرض لها فى طفولته، وعن حالته الصحية، ولربما كان هذا أمرا طبيعيا، فقد كانت الرعاية الصحية فى ذلك الزمان ضعيفة إلى الحد الذى لابد فيه من حدوث مثل هذه الإصابات وهذه الأمراض لمثل هذا الفتى، بل ربما كان من حظ الفتى أن يواصل الحياة وأن يمتد به العمر، بل إن

من الطريف لنا نحن الأطباء الذين نقرأ مذكراته أن نلاحظ أنه شفى تماما من البهارسيا عندما عولج منها بعقار الطرطريك وهو العقار الذى كان متاحًا فى ذلك الوقت .

ولنتأمل هذه الفقرات الخمس التى وردت فى مواضع متفرقة من كتابه حيث يتحدث عن المعاناة مع المرض ومع الموت.

هذه هى الفقرة الأولى التى يحكى فيها عن مرض أصابه هو وأخوته وقضت أخته ضحية له:

«... جرب الطفل فى هذه السنوات القليلة جميع أمراض الطفولة وعولج منها بوصفات التداوى البلدية أو فى مستشفى المدينة القريب. ولعل أول ذكرياته وهو فى الرابعة أن شقيقته الأصغر منه «انشراح» أو «شرح الصدور» كما كان يسمعهم يدعونها قد مرضت أيضًا بالسعال الديكى الذى يبدو أنه تطور معها إلى نزلة صدرية شديدة، وهو لا يذكر ما حدث لها بالضبط ولكنه عرف أن الأسرة حين عادت إلى مصر فى أوائل الصيف لم تكن «شرح الصدور» معنا، وإنما خلفناها وراءنا فى تراب وادى حلفا الذى ضمها إلى صدره، وكانت تلك أول صدمة غير واعية يلقاها صاحبكم الصغير».

وبعد صفحات عديدة يذكر لنا ذكريات شبه كاملة عن قصة إصابته بالملاريا، وهو يلخص قصته مع هذا المرض فى قوله:

«وهو يذكر أيضًا أنه خلال الدراسة بالصفين الأول والثانى كان قد أصيب بمرض الملاريا مما أضعف صحته إلى درجة أن أحد الرجال العاملين بالمدرسة كان يحضر فى صباح بعض الأيام ليحمل الصبى جانبًا من الطريق.. يحمله على كتفه بعض المسافة بين منزله القريب من المدرسة وباب المدرسة الخارجى..».

وهو فى موضع ثالث يروى بدقة شديدة قصة إصابته بلدغة عقرب وكيف كان تصرف والده تصرفًا حكيمًا وقادرًا على ممارسة الإسعاف الأولى له من فوره:

«... كذلك فإن الصبى يذكر أنه على الرغم من أن والده قد اختار مسكن أسرته منزلاً نظيفًا تملكه إحدى الأسر الكبيرة من تجار السودان (أولاد طلعت) بجوار المدرسة الجديدة.. رغم ذلك فإن كل سكان أم درمان كانوا يحذرون من «العقارب» التى يقال إن تيار الريح كان يخرجها من مكانها ويحملها إلى أحراش البيوت الجديدة فتبقى بين حجراتها.. وكان الصبى فى ليلة مظلمة قد نزل عن سريره ليلتمس الماء من طاولة قريبة وداس حافيًا فكان من سوء حظه أن لمست قدمه طرف العقرب فلدغته فصرخ صرخة عالية أفزعت والده الذى أسرع إلى موس الحلاقة «وشرط»به قدم الطفل وعصرالدم والسم الزعاف، ثم حمل الصبى إلى المستشفى ليُسعف ببعض الترياق بعد أن أثنى الطبيب المقيم على الوالد أنه أسعف صبيه بسرعة فائقة.. فى ليلة كانت فيها طفلة أخرى قد نقلت إلى المستشفى بعد أن فات أوان إسعافها مع الأسف الشديد».

أما حديثه عن علاجه من الإصابة بمرض البلهارسيا فيأتى ضمن ما يرويه لنا من الاستعدادات التى خاضها من أجل التحاقة بالتعليم الحديث، ويبدو لنا مما يرويه صاحب المذكرات أن إصابته بالبلهارسيا كانت طفيفة أو خفيفة ولم تصل إلى مراحل متقدمة:

«ولكن هذا التعليم الحديث كان يستتبع كشوفًا طبية واشتراطات خاصة للقبول فيه تزيد على الشروط التعليمية الخالصة. وقد تنبه والدى إلى هذا واتخذ عدته له. وكان يعرف أن الفتى اليافع لا يزال يقاسى من آثار البلهارسيا

التى دخلت جسمه منذ كان يقضى الصيف فى قريته وينزل إلى الترعة يطفئ فى مائها حرارة الصيف، كما يفعل سائر الصبية. فخرج الوالد ومعه الفتى إلى مستشفى المنشاوى فى طنطا بمديرية الغربية حيث إن قريتنا هى وقرية الدلنجات (عاصمة المركز) لم يكن بهما مستشفى صالح لمثل هذا العلاج. ويذكر الفتى أن الأمر اقتضى أن تجرى له عملية صغيرة فى المستقيم لأن البلهارسيا كانت من النوع الشرجى، كما أن الصبى أعطى ما يناهز الإثنتى عشرة حقنة من «الطرطير» المؤلم، حتى انتهى به الأمر إلى الخلاص من البلهارسيا اللعينة فى سن مبكرة. ولولا ذلك لتطور بها الأمر كما تطور فى حالة شقيق له أصغر منه (عبدالكريم)، كان أكثر ولعًا بالاستحمام فى الترعة والعودة إليها بعد كل علاج.. حتى استمرت البلهارسيا معه إلى سن الرجولة حيث أثرت فى كبده تأثيرًا بالغًا، وغلبت حياته آخر الأمر مع الأسف الشديد».

(٧٣)

وفى موضع خامس نجد سليمان حزين وهو لا يزال، بعد ثلاثة أرباع قرن على الأقل، يذكر تفاصيل علاجه من قصر النظر، وما حدث له عندما ارتدى النظارة لأول مرة:

«كذلك فإن والدى، رحمه الله وجزاه عن تربيتى أحسن ما يكون الجزاء، كان يعرف أن نظرى به قصر واضح، وكان يخشى ألا أجتاز الكشف الطبى للالتحاق بالمدرسة الثانوية فأخذنى فى رحلة إلى القاهرة، وعرضنى على أكبر أطباء العيون فى ذلك الوقت وهو المرحوم سيد عبد الحميد سليمان، فعمل لى نظارة طبية وخرجت بها فى صحبة والدى إلى مسجد السيدة زينب نصلى العشاء. وحدث لى ما حدث لكل من يلبسون نظارة طبية لأول مرة. فلما دخلت إلى

متوضأ المسجد انزلقت رجلى على المياه التى تغطى الرخام الأبيض وانزلقت إلى الأرض المبللة، وطارت النظارة عن وجهى.. ولكن الله سلم.. فلم ينكسر زجاجها ورفعتنى يد أبى الرحيمة الحانية فقمت وأتممت الوضوء وخرجنا معًا للصلاة.. وتلقيت الدرس، فلم يتكرر معى دوار النظارة أبدًا بعد ذلك».

(٧٤)

كذلك فإننا نرى سليمان حزين حفيا بالحديث عن أساتذته فى الجامعة وقبلها، ولكنه شأن المثقفين المصريين المعاصرين فى مذكراتهم مولع بالحديث عن المشاهير بأكثر مما هو مولع بالحديث عن أكثر الأساتذة تأثيرًا فى حياته، ولنقرأ حديثه عن تلمذته لاحمد لطفى السيد وطه حسين فى أول عهد الجامعة نفسها بقصر الزعفران (الذى هو الآن مقر لرئاسة جامعة عين شمس):

«... فنحن أبناء الشعب بل وأبناء الفلاحين ندرس الآن فى قصر منيف يجلس فى طابقه الأسفل كبير علماء مصر ومفكريها إذ ذاك وهو أحمد لطفى السيد، الذى نمر أمامه كل صباح لنصعد إلى الطابق العلوى حيث قاعات الدراسة والأساتذة وهى قاعات جميلة رسمت على سقوفها صور زيتية للسماء والسحب التى يسرح فيها خيال بعض الطلاب حتى أثناء الاستماع للمحاضرات، ومع ذلك فإن كلام أولئك العمالقة من العلماء وأحاديثهم كانت تعرف كيف تستهوى عقولنا وخيالنا فى الوقت ذاته. وما آية ذلك إلا ما استطعنا أن نحصله خلال سنوات قليلة كانت هى سنوات العمر كله بالنسبة لطائفة منا على الأقل».

«وكان صاحبكم بالذات حريصًا على أن يحضر أكبر عدد من المحاضرات، حتى ولو لم تكن فى نطاق تخصص قسمه أو قسميه، بل إنه كان يحرص على أن يتابع محاضرات لطفى السيد القليلة ومعظم محاضرات طه حسين الذى حاول

بل وجاهد فى أن يستهوينى للالتحاق بقسم اللغة العربية وأن أستبدله بقسم الاجتماع. ولكننى اعتذرت له واكتفيت بأن يأذن لى بالاستماع إلى محاضراته دون أن أرتبط بالامتحان أو الاندماج فى سلك قسم اللغة العربية والأدب العربى، ومع ذلك فإننى أفخر بأن أعتبر نفسى واحدًا من تلاميذ طه حسين ولو فى غير ميدان الأدب العربى».

(٧٥)

وفى الفصل الذى عنوانه «شجرة الجامعة فى مصر» يتحدث سليمان حزين بتفصيل معقول عن ذكرياته كطالب فى كلية الآداب، والواقع أنه لا يقف عند تاريخه الشخصى وإنما هو يقدم صورة تاريخية يوثق بها أحد الشهود ما وعته ذاكرته عن فترة بداية الجامعة، وقد كان من حسن حظه أن يكون من أوائل طلبتها وأوائل خريجيها:

«ولكننا نحب أن نركز بعض الشىء على كلية الآداب ودورها فى تطوير الجامعة المصرية إلى صورتها الجديدة. ذلك أنها كانت الكلية الوحيدة التى ورثتها الجامعة المصرية الجديدة عن الجامعة الأهلية القديمة، ولكن الدراسة فيها وسعت فى عام ١٩٢٥ بصورة كبيرة، وقسمت إلى أقسام متعددة تشمل اللغات والمواد، وأولها قسم اللغة العربية وآدابها وقسم اللغات الشرقية، ثم أقسام اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية واللغتين اللاتينية واليونانية، وأقسام الجغرافيا والتاريخ والفلسفة والاجتماع والآثار والمكتبات».

«وكان بعض الأساتذة الأجانب قد جاءوا من أكثر من دولة واحدة (فرنسا وبلجيكا وإيطاليا وروسيا وألمانيا)، كما كان بعض المواد يدرس باللغة الإنجليزية أو الفرنسية، ولكن الأساتذة المصريين كان لهم نصيبهم الموفور من التعليم بالعربية

فى ذلك العمل التأسيسى الرائد، ونذكر منهم الآن المرحومين أحمد لطفى السيد (أول مدير للجامعة) وطه حسين ومنصور فهمى وأحمد أمين ومصطفى عبدالرازق ومصطفى عامر ومحمد عوض محمد وغيرهم ممن كان لجيلنا شرف التلمذة عليهم».

«وعندما افتتحت الدراسة بالكلية لم يلتحق بها فى يومها الأول غير طالبين اثنين (وكان الكاتب أحدهما)، ولكن العدد لم يلبث أن بلغ ٢٧ طالبًا، كما ضم إليها بعد قليل طلاب معهد الدراسات الأثرية (وكان قائمًا من قبل بذاته) هكذا يشير سليمان حزين... لكنه يبخل علينا بما ينبغى له أن يدلنا عليه من قصة وجود هذا المعهد ونشاطه وتبعيته ونهايته، ثم لم يلبث العدد أن تضاعف خلال بضع سنوات قليلة، وإن كان بعض الفضل فى ذلك يرجع إلى أن الجامعة سمحت إذ ذاك بأن يجمع بعض الطلاب بين الدراسة فى كلية الآداب والدراسة فى كلية الحقوق، خصوصًا وإن بعض مواد الدراسة كانت فى السنتين الأوليين مشتركة بين الكليتين».

(٧٦)

وهو حريص على الإشارة إلى ما امتازت به الجامعة فى عهدها الأول من الالتفات إلى إمكانية التعاون بين كليات مختلفة، بما يمثل إرهاصا لما نعرفه الآن على أنه دراسات بينية:

«كذلك فإن الصلة توثقت بعد سنة من بدايتها بين كلية الآداب وكلية العلوم، فكان بعض أساتذة العلوم ومن بينهم المرحوم حسن صادق يقومون بتدريس بعض مواد العلوم (كالجيولوجيا) لبعض طلاب كلية الآداب (قسم الجغرافيا الذى قام فيه أيضًا بعض أساتذة الهندسة، فيما بعد، بتدريس مادة المساحة

الطوبوغرافية). وكان هذا ربطًا مفيدًا بالنسبة للكليتين، بل كان نوعًا من الدراسة «البينية» التى عرفها التعليم الجامعى بالخارج منذ أن كانت جامعات أوروبا تعتمد فى نشأتها على أن تأتلف نواة الجامعة من كليتى الآداب والعلوم، بوصفهما كليتى «الأساس» بالنسبة لكثير من الجامعات الحديثة».

... ...

وهو حريص أيضًا على أن يكرر الإشارة (بلحن مختلف) إلى ما لقيته شهادتا كليتى الآداب والعلوم من الاعتراف بهما من الخارج:

«ومن حق كلية الآداب علينا وعلى الجامعة أن نذكر أنها منذ يومها الأول قد أرست قواعد للعمل الجامعى فى الدراسة والبحث المتكاملين، على أساس ارتباط أقسام الكلية ودراساتها بعضها ببعض، بل وارتباط بعض أقسامها بالعمل فى بعض أقسام الكليات الأخرى، تمامًا كما وجده خريجوها الأوائل عندما أوفدوا فى بعثات إلى بعض الجامعات بالخارج. بل إن درجة الليسانس التى منحتها بعض أقسام كلية الآداب (كقسم الجغرافيا) لأول دفعة من خريجيها فى عام ١٩٢٩ لقيت الاعتراف بها فى بعض جامعات أوروبا معادلة للدرجة الجامعية الأولى فى تلك الجامعات، وبعد أن كان خريجو المدارس العليا السابقة فى مصر لا يلقون مثل هذا الاعتراف، وكذلك الحال بالنسبة لدرجة «البكالوريوس» التى منحتها كلية العلوم من الجامعة المصرية، فإنه قد تم الاعتراف بها فى الخارج من أول سنة تخرج فيها طلاب العلوم، وإن كانت كلية العلوم إنما حصلت على مثل ذلك الاعتراف بفضل إدخال نظام «الممتحن الخارجى» (المنتدب من إحدى الجامعات البريطانية) منذ تخرج الدفعة الأولى عام ١٩٢٩».

(٧٧)

ويتحدث سليمان حزين باعتزاز شديد عن اثنين من أساتذته فى كلية الآداب وهما مصطفى عامر ومحمد عوض محمد، ولست أدرى لماذا تغاضى عن

الحديث الموازى عن عباس عمار الذى كان عديلا له(!!) لكننا على أى حال لابد أن ننقل للقارئ بعض هذا الامتنان الذى يتحدث به عن أستاذيه:

«وكان لى فى كلية الآداب أستاذان مصريان أثر كل منهما فى حياتى ومستقبل عملى تأثيره الخاص، وإن اختلف كل منهما عن الآخر فى الأثر، وكان أستاذى مصطفى عامر أستاذا هادئ الطبع، له ميوله الخاصة فبما أصبحنا نسميه معه بالجغرافيا التاريخية، وقد أثر فىّ أسلوبه المبسط فى عرض أفكاره إلى حد أننى انجذبت إليه فى دراسة هذه المادة فى السنة الثالثة من الدراسة بالكلية، وأخذت طريقها عنه ثم توسعت فيها بعد ذلك عندما سافرت إلى الخارج، وأخذت أدرس الآلات الحجرية القديمة التى كان الإنسان يستعملها فى العصور الحجرية القديمة والحديثة، كما توسعت فى تطبيقاتها التى كان هو صاحب الفضل الأول فى إدخالها إلى مجال الدراسة الجغرافية فى مصر، وكذلك فى مجال تطبيق أسلوب البحث التاريخى فى الجغرافيا القديمة، مع البحث فى ظروف الحياة الحديثة والجارية. ومن هنا فإن مصطفى عامر كان واضع أسلوب البحث الجغرافى التطبيقى الذى يربط الحياة المعاصرة والمستقبلية لمصر بدراسات العصور التاريخية المتتابعة، وهو ما سارت عليه مدرسة الجغرافيا المصرية سنوات امتدت إلى وقتنا الحاضر، لاسيما فى مجال دراسة «الجغرافيا السياسية».

«أما الآخر فهو الدكتور محمد عوض محمد، الذى جاء بعد مصطفى عامر بسنتين اثنتين وجاء حائزا لأول درجة للدكتوراه فى الجغرافيا بمصر، وإن كان قد حصل عليها من ذات المدرسة الجغرافية التى درس فيها مصطفى عامر (ليفربول بانجلترا)، وكان فى حياته الأولى قد مارس فيها العمل السياسى منذ ثورة ١٩١٩،

ونفى بسبب ذلك إلى مالطة، ثم سافر فى البعثة إلى انجلترا، وكان عالما باللغات الأجنبية التى أمضى مدة نفيه فى مالطة فى تعلم بعضها (ومنها الألمانية). كما كانت له ميول أدبية واضحة فترجم رواية «فاوست» وغيرها عن الألمانية، وكانت ظروف حياته السياسية والقومية قد علمته شيئا عن «الجدية» فى المعاملة، وطبق هذا الأسلوب فى عمله بقسم الجغرافيا الذى أصبح من سماته أن الأساتذة يتشددون فى تحديد المستوى العلمى المطلوب، وانجذب صاحبكم إلى أستاذه الشاب وأعجب بأسلوبه وسار على وتيرته فى «الجدية» خلال حياته وعمله فى قسم الجغرافيا، ثم خلال حياته بعد ذلك فى الجامعات الأخرى، وما أظن إلا أنه لا يزال يحتفظ بالأسلوب ذاته حتى الآن!».

(٧٨)

وعلى هذا النمط نفسه يتحدث صاحب هذه المذكرات باعتزاز عن بعض زملائه فى الدراسة الثانوية واقعًا فى نفس الخلق الذى أشرنا إليه فى الفقرة السابقة من الحرص على الحديث عن المشاهير وإغفال من هم أقل شهرة، وكأن التلمذة والأستاذية هى الأخرى أصبحت نوعًا من أنواع النجومية :

«... لقد كان معنا فى المرحلة التعليمية الثانوية كثرة من الزملاء والأخوة، كان أغلبهم من أبناء «الريف» والفلاحين، كما هو المنتظر فى مدرسة تقوم فى قلب البيئة الريفية المصرية. ولكننى أكتفى الآن بأن أذكر من هؤلاء جميعًا اثنين فقط. أولهما المرحوم محمد مندور الذى كان معنا ضمن جماعة طلاب «جمعية الفضيلة» وهى جماعة من الشباب تسعى لنشر روح الفضيلة والأخلاق فى المدرسة. وقد زاملنى مندور بعد ذلك فى الدراسة بكلية الآداب بالجامعة المصرية، ثم التحق بالبعثة إلى فرنسا، ثم عاد ليكون أستاذ الآداب والنقد الأدبى الممتاز فى جيله».

(٧٩)

فإذا ما انتقلنا إلى الزميل الآخر لسليمان حزين راعنا أن نجد صاحب المذكرات مؤمنا بأن طعام الريف الدسم يسبب قوة البنية الكفيلة بخلق بطل رياضى(٤٤) من طبقة سيد نصير:

«وأما الثانى فقد كان المرحوم سيد نصير، وقد كان أيضًا واحدًا من أبناء الريف، الذين تربوا على «القشدة» وطعام الريف، فكان صاحب بنية قوية».

وهو بدافع تربوى ودافع تاريخى أيضا ينتبه إلى الحديث عن بدايات سيد نصير نحو المجد فى رفع الأثقال، والدور الذكى الذى لعبه ناظر مدرستهم فى بناء هذا المجد:

«وأذكر أن مجموعة منا كانت تهتم بالرياضة البدنية، وحاولت أن تقيم ناديًا صغيرًا للمران على حمل الأثقال (ولم أكن واحدًا منهم لأننى كنت أهتم بأسباب أخرى من الرياضة) وأخذ بعضنا يعالج رفع قضبان الحديد التى تضاف إليها أثقال جانبية متدرجة فى الوزن. وكنا نفعل ذلك فى جزء من حوش المدرسة يطل عليه منزل الناظر. وبعد فترة وجدنا ناظرنا الجليل (الأستاذ الحسينى مصطفى) ينزل إلينا قبل الغروب مرتديًا «روبه» القرمزى، فسأل عن أمرنا وأعجب كل الإعجاب بسيد نصير. فأمر فى الحال بشراء مجموعة كبيرة من الأثقال لكى يتدرب عليها فريق حمل الأثقال وعلى رأسهم سيد نصير.وهكذا لم يلبث الفريق بعد أشهر قليلة أن شارك فى مباريات الأثقال فى مصر كلها.. وخرج منها سيد نصير بطلاً لمصر.. ثم تدرج بعد ذلك حتى أصبح بطل الأثقال فى العالم. والفضل فى ذلك كله إنما يرجع إلى حصافة الناظر العظيم رحمه الله».

(٨٠)

ويستطرد سليمان حزين من هذا المثل إلى الحديث عن برامج الرعاية التربوية والتعليمية التى كانت المدرسة الثانوية فى ذلك الوقت تقدمها لطلابها:

«... كذلك فإن «الحياة المدرسية» فى عهدنا كانت أرحب مما عرفته مدارسنا بعد ذلك بجيل أو جيلين. وعلى الرغم من أن جملة تعداد مدرستنا الثانوية قد كاد أن يبلغ الألف تلميذ أو ما يزيد، فإن فصولنا ندر أن يزيد تلاميذها على الثلاثين تلميذًا أو نحو ذلك. وكان مدرسونا متفرغين تمامًا للعملية التعليمية، وما أظن أننا سمعنا بشىء اسمه «الدروس الخصوصية» فى تلك الأيام. كذلك فقد كانت هناك حياة رياضية ناشطة، وكان لمدرستنا حوش كبير للعب الكرة وغيره أحواش لممارسة النشاط الرياضى فى «الجمباز» أو لعب التنس (بالنسبة لبعض القادرين من التلاميذ والمدرسين يلعبون معا). وكان اليوم الدراسى يبدأ قبل الثامنة صباحًا فى طابور منتظم ويمتد هذا اليوم إلى ما بعد الثالثة أو ما يقارب الرابعة فى المساء. وذلك بالإضافة إلى مسجد المدرسة ومكتبتها وناديها المسائى بالنسبة لطلاب الأقسام الداخلية».

(٨١)

وقد أشرنا من قبل إلى أن سليمان حزين كان حريصا كل الحرص، وفى أكثر من موضع، على أن يذكر أنه ترك الفرصة لأستاذه السيد يوسف ليترقى وكيلا للوزارة، وهو نوع من التزيد فى الحديث، وبخاصة أننا نعرف أن هذا الأستاذ كان عديل رئيس الدولة الرئيس عبدالناصر نفسه، وقد كان واصلاً لا محالة إلى وكالة الوزارة وما هو أرفع منها، بل إنه وصل بالفعل إلى منصب وزير التربية قبل

أن يصل سليمان حزين إلى منصب الوزير بأكثر من ٣ سنوات، ولو أن صاحب هذه المذكرات قال إنه واءم نفسه وصبرها لكان هذا أولى له عن هذا العنت الذى أوقع نفسه فيه:

«أذكر أن بعض مدرسينا الشباب كانوا يستمرون معنا فى المدرسة والنشاط المدرسى إلى المساء. وأذكر أن واحدًا منهم وهو المرحوم السيد يوسف كان صغير السن موفور النشاط، فكان يشاركنا فى حوش الكرة ويلعب معنا حتى ساعة الغروب. ولقد كان من حظى أن زاملته بعد سنوات طويلة حين أصبحت الوكيل المساعد لوزارة التربية والتعليم (منتدبًا من أساتذة الجامعة) وكان هو مديرًا عامًا معى. وكنت فخورًا به كما كان هو أيضًا سعيدًا بى. فلما جاء وقت ترقيته ليحل محلى فى وكالة الوزارة سعيت أنا إلى أن أنهى انتدابى وأعود إلى الجامعة لأخلى له المكان.. ثم شاء ربك أن يجمعنا الأستاذ والتلميذ فى مجلس وزراء واحد.. وتلك صداقة بدأت بذورها فى تلك المدرسة الثانوية بل فى الحياة المدرسية الصالحة التى عرفتها مدارسنا فى عقد العشرينيات البعيد».

(٨٢)

ويخص سليمان حزين اثنين آخرين من أساتذته فى المرحلة الثانوية بحديث ممتن ومقدر:

«ولكننى لا أريد أن أختتم حديث المدرسة الثانوية دون أن أذكر فضل اثنين من المدرسين علىّ، أولهما المرحوم الأستاذ السباعى بيومى، وقد كان أستاذا قويا فى اللغة العربية وتعليمها وأسلوب الكتابة والتحرير والخطابة بصفة خاصة، وأظن أنه مع والدى كان لهما الفضل الأول والأكبر فيما استطعت أن آخذ به نفسى فى

اللغة والأسلوب والتعبير، وذلك فضل بقى معى إلى يومنا هذا والحمد لله. أما الأستاذ الثانى فهو المرحوم يوسف مجلى، وكان أول أستاذ تتلمذت عليه فى علم الجغرافيا كما عرفته معه، وكانت مادة الجغرافيا غير محببة بين التلاميذ، ولكن أسلوب يوسف مجلى قربها إلى نفسى، خصوصا أنه كان يتحدث إلينا فى ربيع عام ١٩٢٥ عما قال عنه المؤتمر الجغرافى الدولى الحادى عشر الذى كان أول مؤتمر ينعقد فى مصر المستقلة، وكان انعقاده بمبنى الجمعية الجغرافية المصرية الملكية وقاعاتها التى أنشأها ملك مصر فؤاد الأول، وكان كما قلنا أول مؤتمر دولى عرفته بلادنا. وكان المؤتمر مخصصا لمادة الجغرافيا وعلمها.. ومن هنا فقد كان لأستاذى ذاك الفضل الأول فى ترسيخ هذا المعنى فى نفسى، وبناء هذا التعلق بمادة شاء الله أن ترتبط بها حياتى العاملة أعواما طويلة والحمد لله. بل لعلى أذكر أن زياراتى السريعة لقاعة الجمعية الجغرافية الكبرى و«التفرج» بضع دقائق مع أستاذى يوسف مجلى على جانب من اجتماعات علماء الجغرافيا العالميين بالقاعة، قد تركا فى نفس الفتى الطالب ما جعله يوطد العزم فى أن تكون سبيل دراسته فى الجامعة هى سبيل علم الجغرافيا، وأن ترتبط حياته بالجمعية الجغرافية المصرية فيما بعد، ما شاء الله لها أن ترتبط!».

(٨٣)

وقبل هذا يتحدث سليمان حزين بامتنان واحترام عن الفترة الأولى من حياته التى قضاها فى الكتاب:

«... وأرسل الطفل الصغير خلال بقائه فى كنف الجدين إلى «كتّاب القرية» وكان يقع فى بطن حارة «الثعالبة» (ويبدو أن بعض سكان الحارة فى مطلع وصول الإسلام إلى المنطقة، كانوا من بنى ثعلب) بجوار زاوية السيدة قمر. وكان يقوم

على الكتّاب شيخ جليل هو الشيخ «عبد ربه» يعاونه عريف هو الشيخ عبد السلام الحدينى. فأما الشيخ فكان صاحب مهابة غامرة ووقار سابغ، ومع أنه كان ضريرًا إلا أن الطفل كان يتصور دائمًا أنه مبصر، ولم يصدق أبدًا أنه كان غير ذلك، فإن الشيخ كان يجمع فى معاملتنا بين القوة واللين، كما كان يمتاز بقدر لا حدود له من الصدق فى القول والعمل، وكان لا يقبل أية صورة من صور الكذب أو المداراة فى الحق.. فهذه أمور لا يغتفرها أبدًا.. ولعل هذا الشيخ قد ترك فى نفس الطفل الغضة ما يشبه ما تركه والده من غرس لصفات الصدق والاستمساك بكل ما هو حق فى الحياة».

(٨٤)

ولأنه أستاذ الجغرافيا الحضارية فإن الحديث عن الأماكن التى تلقى فيه العلم لا يفوته، ونحن نراه وهو يصف قصر الزعفران حيث كانت الجامعة المصرية فى نشأتها الأولى وصفًا دقيقًا موحيًا، وقد رأينا فى مطلع هذا الباب من كتابنا ما نقلناه من حديثه عن مدرسة طنطا الثانوية بكل ما فى هذا الحديث من لمحات جغرافية، كذلك فإن لمدرسته الابتدائية فى السودان ذكريات لا تزال عالقة فى ذهنه حتى بعد نصف قرن، وهو سعيد بأن يروى أنه زار هذه المدرسة وهو مسئول كبير فى صحبة مدير اليونسكو:

«... ولعل مما ثبت فى جنان الطفل الصغير من تلك الحقبة أنه بقى متعلقًا بانطباعاته عن مدرسة حلفا ذات البناء الجيد (وإن كان من اللبن) وذات الشبابيك الخضراء النظيفة التى تركها لتقوده الأقدار إليها ليحج إلى مسقط رأسه وإلى مدرسته الأولى فى عام ١٩٥٤، وكان صاحبكم إذ ذاك قد صار وكيلاً مساعدًا

لوزارة التربية والتعليم المصرية بالقاهرة وعاد فى صحبته الصديق المستر آرثر إيفانز مدير عام هيئة اليونسكو إذ ذاك، فبلغا حلفا بالطائرة فى ربيع العام ونزل الرجل المسئول ليقبل (ثرى) حلفا فى مطار لا يقع بعيدًا عن تراب شقيقته «شرح الصدور» فى مقابر حلفا، فقرأ فاتحة الكتاب فى تأثر بالغ لاحظه المستر إيفانز، ثم توجه فى اعتزاز ليطلع مدير عام هيئة اليونسكو على المبنى الذى تلقى فيه أول درس نظامى له فى مدرسة. وحز فى نفسه يومذاك أنه لن تنقضى سنون طويلة قبل أن تكون مياه بحيرة السد العالى قد ارتفعت عند وادى حلفا بمقدار ستين مترًا لتغطى بقايا مبنى مدرسته وتغطى ما بقى من شقيقته عند قاع بحيرة لن تلبث طويلاً حتى تملأها مياه النيل الطيب بطميها الخصب الرطيب».

... ...

وهو يعتبر تكرار زيارته لمدرسته الابتدائية نوعًا من الصدف السعيدة ويقول:

«... ولعل من محاسن الأقدار مرة أخرى بالنسبة لصاحبكم أن تتاح له مناسبة ثانية ليزور المعبدين مع صديق وزائر آخر فرنسى كبير. ففى عام ١٩٦٦ كان صاحبكم يشغل منصب وزير الثقافة المصرى، فاستضاف قرينه الفرنسى وكان فى ذلك الوقت هو المسيو مالرو رجل الفكر والثقافة والقلم الفرنسى، والذى أعاد إلى باريس عاصمة فرنسا وجهها الناضر النظيف أيام ديجول.. وكانت فرنسا واليونسكو (ومقرها باريس) تعاونان فى مشروع تقطيع معبدى أبى سمبل ورفعهما إلى مستوى عال عند قمة واجهة الهضبة الواسعة غربى مجرى النيل».

(٨٥)

ويحرص سليمان حزين على أن يدلنا على دور حضارى مهم أتيح له أن يقدم له من أجل حماية معبدى أبى سمبل من أية ظروف مناخية طارئة:

«... ونزلت الطائرة الصغيرة بنا إلى مطار صغير قريب من أبى سمبل حتى استقبلنا مدير شركة «نيف هوخ» الألمانية التى تقوم على المشروع الهندسى الكبير. ونزلنا إلى موقع المعبدين اللذين قطعت أجزاؤهما فى كتل ضخمة كانت الشاحنات تنقلها تباعًا إلى مكان فسيح فوق سطح الهضبة حيث يوضع لكل قطعة منها رقم معين يبين مكانها وموقعها تمامًا من جسم المعبدين. ثم نزل صاحبكم منفردًا مع مدير الشركة الألمانية حيث عاين الموقع الذى تصب فيه الشركة الخرسانة التى تمثل قاعدة المعبدين بعد نقلهما وإقامتهما على مستوى يعلو مستوى بحيرة السد العالى بعد تمام ملئها بالمياه. فسأل صاحبكم مدير العمل عن المستوى الذى تصب عليه القاعدة الخرسانية الجديدة فعلم أنه لا يزيد على مستوى ١٨٠ مترًا المقدر للبحيرة القادمة إلا بحد ثلاثة أمتار أو أقل، فأزعج ذلك صاحبكم وكان إذ ذاك جغرافيًا يعلم ظروف المنطقة وما قد يعترى سطح البحيرة العريضة والطويلة والمحصورة فى نطاق ضيق والتى قد تتعرض فى ظروف مناخية أو طقسية طارئة لبعض الأنواء والزوابع الشديدة التى قد يضطرب معها سطح البحيرة ويزمجر بالأمواج التى يخشى أن ترفع مستواها إلى ما يغرق أبواب المعبدين حتى بعد إعادة إقامتهما، لاسيما أن موقع الخرسانة كان على قيد أمتار قليلة من شاطئ البحيرة القادمة. وهنا أدرك مدير الشركة مبلغ الخطر المحتمل على المشروع كله واتخذ مع الوزير المصرى المسئول قرارًا فوريًا، وعلى الطبيعة وفى موقع العمل، أن ينقل الموقع المختار لإقامة المعبدين إلى بقعة أعلى ببضعة أمتار أخرى، وأن يراعى أن يكون موقع معبد الفرعون أعلى نحو ثلاثة أمتار عن موقع معبد زوجته.. تمامًا كما كانت الحال فى المعبدين القديمين».

وللعروبة فى تفكير سليمان حزين وفى مذكراته قدر كبير جدًا لا يقف عند ورود وصف مصر بالعروبة فى عنوان المذكرات، وإنما يتعدى هذا إلى مواضع كثيرة جدا، وسوف نجتزئ للقارئ بثلاثة مواضع مهمة من هذه المذكرات.

فنحن نراه يتحدث - على سبيل المثال - عن إرهاصات مبكرة دعا فيها فى مجال محدود إلى القومية العربية، متخذا من مادة درسها فى الجامعة مدخلاً إلى هذا الحديث، ويشير إلى مدى اليقظة التى كانت دار المندوب السامى البريطانى تتمتع بها، حتى إنها انتبهت للآثار البعيدة لمثل هذا التصرف، وهو يروى كيف انتقل الحديث عن الأمر من البريطانيين إلى رئيس الوزراء إلى وزير المعارف إلى مستشاره الفنى، بيد أننا نلاحظ أن هذا الذى يتحدث عنه سليمان حزين لا يمكن أن يكون قد حدث على هذا النحو وبالأسماء التى ذكرها إلا فى وزارة الوفد التى لم تتول الأمر إلا فى ١٩٤٢ (بعد حادث ٤ فبراير)، أما منذ نهاية ١٩٣٧ وحتى فبراير ١٩٤٢ فقد تعاقبت على الحكم وزارات غير وفدية، وربما أن سليمان حزين كان يقصد العام الدراسى ١٩٣٨/٣٧ حين كان الوفد لا يزال فى الحكم حتى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧، وكان الهلالى وزيرا للمعارف:

«ولم يلبث صاحبكم منذ عام ١٩٣٨ أن عرض مع تلاميذه درسًا خاصًا أسماه إذ ذاك «بالقومية العربية».. وكانت تلك أول مناسبة تذكر فيها هذه التسمية بنصها وتطلق على أحد المقررات العامة والرسمية فى كلية الآداب من الجامعة المصرية. ونذكر أنه فى ذلك الوقت كانت مصر قد حصلت على استقلالها الفعلى فى معاهدة ١٩٣٦، ولكن السفارة البريطانية (دارالمندوب السامى البريطانى

سابقًا) كانت تراقب عن كثب ما يجرى فى الجامعة المصرية من دروس وآراء تتصل بالسياسة المصرية الوطنية، فكتب السفيرالبريطانى (اللورد كيلرن فى ذلك الوقت، إلى رئيس الوزارة المصرية إذ ذاك (مصطفى النحاس باشا) يسترعى نظره إلى أن شابًا فى هيئة التدريس بكلية الآداب يتحدث عن «القومية العربية» وحركة «الوحدة العربية» أمام تلاميذه من العرب والمصريين ويلقنهم بعض ما يثير أفكارهم ويحرضهم ضد التدخل الأجنبى فى شئون مصر وصلاتها بالعالم العربى (الذى لم يكن أغلبه قد حصل على استقلال بعد فى تلك الأيام)، وأن فريقًا من تلاميذ ذلك المحاضر فى كلية الآداب هم من شباب الأمة العربية من بلاد مثل سوريا والعراق وبعض بلدان شمال إفريقيا. وأن هذه الدروس إذا استمرت فسيكون لها أثرها فى الفكر السياسى لدى الشباب العربى».

«وأحال رئيس الوزراء مذكرة السفارة أو فحواها إلى وزير المعارف المصرى إذ ذاك أحمد نجيب الهلالى الذى لم يفعل أكثر من إحالة الأمر إلى عميد كلية الآداب طه حسين الذى لم يفعل من جانبه أكثر من أن استدعى صاحبكم وسأله عن حقيقة الأمر، فكان رد صاحبكم أنه لم يفعل أكثر مما علّمه أستاذه طه حسين حين كان يحضر بعض دروسه. وزاد صاحبكم على ذلك أن طه حسين كان أول من نشّأه على «حرية الرأى» ولقنه دروسه الأولى فيها. فضحك الأستاذ العميد وكاد أن يقهقه قهقهة ساخرة عرفناها عنه فى مثل هذه المواقف.ولم يزد أن نصح بأن يستمر المحاضر على طريقته فى مثل هذه الدروس ولكن بشىء من الرفق والحرص فى عدم الإثارة،مما قد يثير عليه وعلى الكلية مزيدًا من التدخل من جانب أهل الشر الاستعمارى! وهكذا مرت قصة دخول قضية «القومية العربية» وسياسة «الوحدة العربية» كما أثارها صاحبكم لأول مرقفى تاريخ

التدريس الجامعى المصرى، على نحو جعل منها ما يشبه «الإرهاصة»، مما سينتهى إليه أمر القومية العربية فيما بعد بين أهل الفكر وأهل العلم وأهل السياسة الوطنية فى أرض العروبة».

....

ويستطرد سليمان حزين ليتحدث عن لقائه فى فترة لاحقة بالدكتورين سامى الدروبى وعبد الرحمن البراز المفكرين السورى والعراقى الكبيرين:

«ودارت الأيام والتقى الأستاذ المحاضر ببعض تلاميذه الذين يذكر منهم تلميذه الدكتور سامى الدروبى (سوريا) ثم بعض زملائه من دعاة القومية العربية ومنهم الدكتور عبد الرحمن البراز (العراق) الذى وضع كتابه عن «القومية العربية» وقام صاحبكم بكتابة مقدمته ذاكرًا أن القومية العربية أصبحت «عقيدة وحركة» فى الوقت ذاته».

(٨٧)

وهو يحدثنا فى تيار ذكرياته حديثا مقتضبا عن رحلته العلمية إلى اليمن، وقد فصل حديثه العلمى عنها فى فصل مهم من كتابه الكبير:

«وعاد صاحبكم فى أول عام ١٩٣٦.. ولكنه لم يلبث أن وظف جائزة مالية كان قد حصل عليها من جامعة مانشستر (جائزة لانجتون) ومنحة إضافية مماثلة قدمها له ورشحه لها أستاذه لطفى السيد رأس الجامعة المصرية إذ ذاك (جامعة القاهرة فيما بعد) فقاد بعثة علمية مصرية إلى اليمن وحضرموت، ورجع بما حصل عليه بالخارج من خبرة علمية ليقود هذه البعثة الدراسية الميدانية لمدة سبعة أشهر من عام ١٩٣٦. وسار على قدميه أو على الظهور البغال والجمال أكثر من ألف وخمسمائة كيلومتر فى فيافى تلك البلاد وفوق جبالها وهضابها

العالية. وأدخل ذلك صاحبكم فى احتكاك مباشر بالحياة العربية فى البادية القديمة وفى مهد من مهاد الحضارة العربية القديمة وكان لذلك كله أثره الباقى فى قرارة نفس صاحب الرحلة ومسئولها الأول.. بما فى ذلك من اتصال مباشر بالحياة والفكر العربى فى بادية عريقة من بوادى بلاد العرب ذات التاريخ المجيد».

(٨٨)

وتتضمن المذكرات إشارات سريعة إلى الدور الذى أتيح لسليمان حزين أن يلعبه فى تأسيس بعض الجامعات العربية فى الأوطان العربية، وكانت العراق بمثابة أول الميادين التى أدى فيها دوره التأسيسى:

«وكانت العراق أسبق من غيرها فى بناء واحدة من تلك الجامعات، وطُلب إلى صاحبكم أن يعاون فى إنشاء جامعة بغداد وتكوينها، فدعاه زميله الدكتور فاضل الجمال لزيارة بغداد لهذا الغرض عام ١٩٥٤، لكن الأمر لم يتحقق، ثم دعته الثورة العراقية فى عام ١٩٥٨ لمعاودة الكرة فتوجه إلى بغداد بعد خمسة عشر يوما من ثورة عبد الكريم قاسم وحرر مسودة قانون الجامعة، وجاء فى المادة الثانية من المسودة نص جديد من ثلاث كلمات هو «الجامعة حرم آمن»، لكن رجال تلك الثورة لم يكونوا (فيما ظهر بعد ذلك) مخلصين فى طلبهم المشورة من صاحبكم، فلم تمض أشهر قليلة على إقرار القانون حتى كان أساتذة جامعة بغداد «يُسحلون» على ظهورهم فى «الحرم الآمن» لتلك الجامعة مع الأسف الشديد!».

«وجاء الدور بعد ذلك على جامعة بنغازى فى ليبيا، وكان فى عام ١٩٥٩، وعاون صاحبكم فى إنشاء كلية الآداب بتلك الجامعة وكانت فى قصير «الجنرال

جراسيانى» حاكم ليبيا الإيطالى السابق، وعاون فى اختيار بعض أعضاء هيئة التدريس ثم فى إختيار الطلاب وتقويمهم فى نهاية سنتهم الدراسية الأولى حين أعاد توجيه الدراسة ومقرراتها.. ثم تابع هذا العمل بعد أن وسعت الثورة الليبية عملها بعد بضع سنين».

«ثم جاء دور جامعة الكويت فى عام ١٩٦١، وكان صاحبكم قد اتصل بدولة الكويت قبل ذلك بنحو عشر سنين أو أكثر لاختيار المدرسين المصريين والمساهمة فى رسم خطط التعليم وافتتاح عدد من المدارس الكويتية الجديدة، وفى عام ١٩٦١ اختارت حكومة الكويت ثلاثة من الخبراء الجامعيين كان صاحبكم أحدهم، فرسمنا سياسة إنشاء الجامعة الجديدة، وكان لصاحبكم رأيه الذى رأى المسئولون إذ ذاك أن يرجحوه على غيره، والذى استند إلى تجربته فى إنشاء جامعة أسيوط فى مصر قبل ذلك بنحو ست سنوات».

«ثم جاء دور المساهمة فى إعادة تنظيم بعض الجامعات السعودية، لاسيما فى الرياض، ودعى صاحبكم مع عدد من زملائه رؤساء الجامعات المصرية لزيارة الرياض فى عام ١٩٦٤، وأبدى رأيه فى إعادة تنظيم الجامعة الجديدة هناك، ويذكر صاحبكم أنه كان من بين الأمراء الكبار والمهتمين بالتعليم والجامعة هناك فى ذلك الوقت المرحوم الأمير عبد الرحمن الذى يبدو أنه تأثر بما استمع إليه من آراء صاحب هذه السيرة، وأعرب عن رأيه فى أن صاحبكم قد يكون من أفضل مَنْ يمكن الإفادة منه فى مرحلة إنشاء الجامعات بالسعودية، لكن صاحبكم كان مرتبطا أشد الارتباط بجامعة أسيوط التى لم تكن قد اكتملت بعد، فاعتذر شاكرا ومقدرا».

«وأخيرا جاء دور جامعة بيروت العربية حيث طلبت جمعية المعاهد الإسلامية التى كان صاحبكم قد عاونها قبل ذلك بسنوات طويلة فى تزويد مدارسها بالمدرسين المصريين.. فطلبت الجمعية من وزارة التربية والتعليم المصرية أن تنتدبه مع زميل له للمشورة فى شأن إنشاء تلك الجامعة، وربطها بجامعة الإسكندرية ضمانا لحسن سيرها فى العمل بين الجامعات الأجنبية الأخرى بلبنان».

«وبالإضافة إلى تلك الجامعات فقد عاون صاحبكم، ولو بالمشورة الطارئة، فى قيام بعض الجامعات الأخرى بالخليج والسعودية واليمن وغيرها».

(٨٩)

وفى موضع سابق يشير سليمان حزين إلى علاقته بالكويت والسعودية داعما لحركتهما التعليمية الثقافية منذ مرحلة مبكرة على حد تعبيره:

«فأما الكويت فقد بدأت قصة التعاون معها قبل أن تظهر نعمة البترول فى ذلك البلد الذى أهله موقعه الجغرافى عند رأس الخليج لأن يكون له فى عهد البترول دوره البالغ الأهمية بالنسبة لنهضة منطقة الخليج كلها. وكانت مصر قد أتيح لها أن تأخذ دور المبادأة مع الكويت فى السنوات الأخيرة من الأربعينيات، حين كانت بوادر موارد البترول قد ظهرت، لكنها لم تكن قد بدأت تسبغ نعمتها على هذا البلد بعد، فتولت مصر جانبا كبيرا من نفقات البعثة التعليمية المصرية التى لم تكن الكويت لتستطيع مواجهتها بمواردها الذاتية، ولكن حدث بعد أن بدأ البترول يغل غلته ويجرى خيره على البلاد ظهر شىء من الخلاف بين إدارة البعثة المصرية والسلطات المحلية، وبلغ الخلاف وزارة المعارف بالقاهرة فرأت أن

تعيد النظر فى عمل البعثة وملابساته، ووافق الوزير إذ ذاك على التريث فى تجديد عمل البعثة حتى يتم الاتفاق على قواعده ومعاملاته، وكان عدد البعثة المصرية بضعة وستين ومائة مدرس معار، وتصادف ذلك مع بداية تولى صاحبكم العمل مديرا عاما للثقافة بالوزارة، ووجد نفسه أمام موقف غريب هو الرغبة الصادقة من ناحية القائمين على الأمر فى الكويت فى بناء العلاقات الثقافية والتعليمية مع مصر، وموقف غير معقول من جانب سلطات وزارة المعارف المصرية تخدم به بلدا عربيا طالعا ومتطلعا إلى مستقبل علمى وثقافى يضيف به منارة جديدة للعلم والمعرفة والثقافة عند رأس الخليج العربى. ومع ذلك فإن وزارة مصر تريد أن تتجاوب فى يسر وتيسير مع رغبة القطر العربى الصغير الشقيق لكنها لا تكاد ترى طريقها إلى ذلك، وفى هذا الموقف رأى صاحبكم أن يبادر من ناحيته إلى موقف المبادرة، وكان المسئول عن التعليم بالكويت إذ ذاك، ولحسن الحظ، أستاذا فاضلا مستنيرا يؤمن بقيمة العلم والثقافة وضرورتهما لتواجه الكويت بشبابها المتعلم والمتطلع إلى العلم عهد البترول الجديد، الذى إما أن يصبح نورا يضىء، وإما يصبح نارا تحرق - لا قدر الله، وتم الاتصال والتجاوب السريع بين الأستاذ عبد العزيز حسين مسئول التعليم بالكويت وبين صاحبكم الذى عرف عبد العزيز حسين أنه تلميذ لطه حسين! ولم يلبث صاحبكم أن تقدم بكل التصحيح والإصرار إلى أستاذه شارحا أن واجبنا ومسئوليتنا نحو الثقافة العربية التى نريد لها أن تنتشر، يقضيان بألا يحرم شباب الكويت من فرصة التعليم فى رعاية مصر التى سبقت إليها الظروف التاريخية بنعمة التعليم والتثقيف، ونعمة السبق فى مجال خدمة الثقافة العربية. وتم المراد لحسن الحظ، فوصل عبد العزيز حسين إلى القاهرة برغبة الكويت

الأكيدة، ورتب صاحبكم اللقاء بين طه حسين وعبد العزيز وتم حل العقدة فى دقائق معدودات من اللقاء، وعادت البعثة المصرية مضاعفة الود على الفور إلى الكويت».

«وتكررت زيارات صاحبكم إلى الكويت ليتابع النقاش والاتفاق مع زميله وصديقه عبد العزيز حسين بعد أن التقت رغبة الطرفين وفهمهما لقيمة إحياء الثقافة وتوسيع نطاقها ومتابعة التشاور المستمر، ليس فقط فى شئون إعارة المدرسين الأكفاء وإنما فى حسن اختيارهم ولو كان ذلك على حساب العمل فى بعض مدارسنا ومعاهدنا المصرية، ومضت سنوات قليلة كانت همة عبد العزيز حسين وزملائه فى بناء المدارس الكويتية الجديدة على أحدث طراز وأجمله، وكانت عمليات إعداد البرامج والخطط ووضع تقاليد العمل التعليمى والتربوى المتكامل قد بلغت ذروتها وفعاليتها، وكذلك عمليات تمكين أسباب الثقافة والتثقيف وإعداد نهضة فنية فى المسارح ونهضة ثقافية فى إصدار المجلات وترتيب المواسم الثقافية التى يدعى إليها علماء العالم العربى من مختلف أقطار العروبة بحيث أصبحت الكويت الملتقى الفكرى والثقافى الذى يظاهر مراكز الفكر والثقافة فى مصر ولبنان وغيرهما من مراكز العروبة والثقافة العربية».

«ويذكر صاحبكم أنه تردد على الكويت خلال سنوات مع شيخ من شيوخ الثقافة العربية والعمل العربى المشترك إذ ذاك، هو المرحوم محمد حسن العشماوى، وكان يعمل فى جامعة الدول العربية، ثم جمع بيننا الاهتمام المشترك فى مجال العملين التربوى والاجتماعى، ثم كان أن خلف صاحبكم أستاذه العشماوى رئيسا للجنة الشئون الاجتماعية بمجلس جامعة الدول العربية، وكانت

اللجنة تتشكل بالانتخاب، وكان من حسن حظى أن أجمعت الدول العربية بمجلس الجامعة العربية على انتخاب صاحبكم بالإجماع رئيسا للجنة الشئون الاجتماعية، واستمر تكرار انتخابه زهاء عشرين عاما متصلة، وفى إحدى زياراتنا للكويت سعى بنا الصديق عبد العزيز حسين إلى أن نلقى أحد شباب القيادة العربية الكويتية إذ ذاك، وهو سمو الأمير جابر الأحمد الصباح، وكان إذ ذاك حاكما لمنطقة الأحمدى (منطقة إنتاج البترول مصدر النعمة الجديدة)، ولعل من أجمل ذكرياتى إذ ذاك أننى ذكرت لأستاذى محمد حسن العشماوى أننى أتنبأ للأمير الشاب بأن يصبح فى يوم من الأيام على رأس قيادة الكويت الدولة الشابة، وقد تحقق ما انتظرته للأمير الشاب الذى أصبح فيما بعد أميرا لدولة الكويت».

«وفى أوائل الستينيات من هذا القرن جاء دور بحث إنشاء جامعة الكويت ودعيت أحد ثلاثة من الخبراء لوضع خطة إنشائها، ثم كان من دورى أيضا معاونة الجامعة الشابة باختيار أعضاء هيئة التدريس والقيادة فيها، ثم متابعة اتساع نشاطها بتوسيع رعايتها للعمل الجامعى فى الخليج كله وحتى فى امتداده ليشمل أرض اليمن السعيد بعيدا فى جامعة صنعاء».

(٩٠)

وهو يتحدث حديثا مشابها عن تعاونه مع الحكومة السعودية حيث يقول:

«أدرك منذ البداية أيضا أنه وإن كان الحجاز مهبط الدين أولى بالعناية، فإن انتشار التعليم والمعرفة والثقافة إلى قلب نجد وأطراف المملكة الواسعة لا يجوز أن يتأخر عن أرض الحجاز».

«وقد سارع صاحبكم إلى أن يضع برنامجا ناشطا للتعاون مع القائمين على التعليم فى السعودية وتكوين بعثة تعليمية مصرية من كبار رجال التعليم وحكمائهم وأهل الخبرة منهم والصالحين بصفة خاصة للعمل بالسعودية، وفى خدمة المجتمع السعودى. ومن ذكريات هذه المرحلة أن رجال الحكم والكثيرين من قادة السعودية وأمرائها كانوا سباقين إلى العناية باختيار المعلمين والمثقفين لتعليم أبنائهم إلى جانب أبناء الشعب بعامة، وإن كان تعليم الفتاة اقتضى أن نعد له ترتيبات خاصة تلائم الظروف الاجتماعية. ومن بين ما يعتز صاحبكم بذكره أنه لقى قدرا خاصا من التعاون من جانب أمير لم يكن يعرفه بعد، وكان الأمير فيما انتهى إليه إذ ذاك مسئولا بصفة خاصة عن التعليم والتثقيف فى بلاده، وكان ذلك مدخلا شجع صاحبكم على أن يزيد من العناية بالتعاون فى مجال التعليم والتربية فى تلك البلاد الشقيقة، ويبدو أن ما توسمه وتفاءل به إذ ذاك عن مستقبل ذلك الأمير الحصيف هو ما زاد من قدره ومن محبته ولو عن بعد، حتى دارت الأيام ولقيه فى الرياض فى موقع أعلى من المسئولية، ولم يكن ذلك الأمير الحصيف إلا مَنْ أصبح فيما بعد هو خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز».

«واتسع نطاق تعاون صاحب هذه السيرة مع العاملين فى مجال التربية والتعليم والثقافة بالسعودية، حتى تصاعد عددهم حتى بلغ الألوف على جميع المستويات، وتكاثر عدد المدارس للبنين والبنات وشمل أرجاء المملكة (يذكر صاحب السيرة صديقا سعوديا كريما تعاون معه إلى أبعد الحدود وهو الأخ الأستاذ ناصر المنقور، وكان مسئولا عن التعليم العام ثم التعليم الجامعى، وهو الذى حاول أن يعرفنى بالأمير عبد الرحمن الذى توسم أن يدعونى للالتحاق

بالجامعات السعودية ولم يمنعنى من الاستجابة إلا ارتباطى الشديد بإنشاء جامعة أسيوط (للمصريين والعرب جميعا فى مصر، وقد انتقل الأخ ناصر فيما بعد للخدمة الدبلوماسية سفيرا لبلاده فى السلك السياسى بانجلترا واليابان) وتخرج الكثير من الطلاب فسعوا أول الأمر إلى جامعات مصر، ثم تكاثرت الجامعات بالسعودية وتخرج منها الطلاب ثم ارتحلوا إلى مصر لمتابعة البحوث، أو سافروا إلى الخارج فى أمريكا وأوروبا لمتابعة الدراسات العليا. وعاد الكثير منهم إلى وطنهم ليشاركوا مع الأعداد الكبيرة من الأساتذة المصريين بجامعات السعودية المتعددة».

«وهذه الجامعات أصبحت تشمل الآن بعض الجامعات العامة التى تخرج الطلاب فى التخصصات الحديثة، وبعض الجامعات ذات التخصص التطبيقى التكنولوجى، لاسيما فى مجال البترول، ثم بعض الجامعات ذات الصفة والطبيعة الخاصة وتختص بالدراسة الدينية والتقليدية الإسلامية».

(٩١)

وعلى نفس الصعيد كان سليمان حزين فخورًا إلى أبعد الحدود بتوليه رئاسة لجنة الشئون الاجتماعية للجامعة العربية:

«... ثم انتقل صاحبكم آخر الأمر من مجال العمل العربى القومى إلى مجال العمل الدولى على نطاق جامعة الدول العربية أول الأمر، ثم الأمم المتحدة وبعض وكالاتها المتخصصة (لاسيما اليونسكو) من جهة أخرى، فجعل من التربية الجغرافية الحضارية ديدنا له يدعو إلى أن تكون المعرفة (والعلم) فى خدمة المجتمع، أى أن يكون لأسلوب الدراسة التى يدعو صاحبكم إليها قيمة «نفعية»

وأن تكون «التنمية» غاية كل علم وتعليم، بل والغاية النهائية لكل بحث علمى. ولقد انتخب صاحبكم من الدول العربية ليكون رئيسًا للجنة الشئون الاجتماعية للجامعة العربية واستمرالانتخاب متجددًا حوالى العشرين عامًا عقد فيها نحو عشرين مؤتمرًا لخبراء الشئون الاجتماعية ووزرائها فى البلاد العربية، وكان المؤتمر ينعقد ويصدر تقريره القيم فى القاهرة أو فى غيرها من العواصم العربية، كذلك فقد تعاون صاحبكم مع اليونسكو (فى باريس وخارجها) من خلال طائفة من المؤتمرات واللجان وكان يشغل مركز الأمين العام للشعبة المصرية لليونسكو خلال عدد من السنين، وكان فى ذلك عاملاً فى ربط العمل العربى بعمل اليونسكو وبعض منظمات الأمم المتحدة الأخرى، حتى عين بعد خروجه من الوزارة، وفى أول يناير من عام ١٩٦٨ مديرًا للمركز الديمغرافى بالقاهرة».

(٩٢)

ويعتز الدكتور سليمان حزين بالأدوار التى قدر له أن يؤديها فى الجمعية الجغرافية المصرية، كما يعتز بالجمعية نفسها وبمقرها وبنشاطها وبأعضائها الذين وصلوا الوزارة وحازوا جوائز الدولة التقديرية ورياسة الجامعة بأكثر من غيرهم فى أى جمعية أخرى (أو تخصص آخر):

«... وقد ضربت هذه الجمعية المثل فى صفاء جو التعاون بين أعضاء مجلسها، وترابطهم فى كل شىء. ويذكر صاحبكم أن رئيس الجمعية (يشير إلى أستاذه مصطفى عامر) كثيرا ما كان يعهد إليه بالقيام ببعض مهام العمل فيها (ومن ذلك القيام بعمل الأمين العام) دون حرج. كما أن صاحب هذه السيرة يذكر بالخير وكل الاعتزاز ما كان يقوم بين أستاذيه فى الجمعية (وهما مصطفى عامر

ومحمد عوض محمد) من صلات الود والتعاون الكامل (حيث لم يقم بينهما مثلا أى تنافس فى يوم من الأيام على رياسة الجمعية)، وذلك مثل آخر بل درس تعلم عنه وجرى على ممارسته فى التعاون مع باقى الزملاء فى مجلس إدارة الجمعية خلال السنوات الطويلة التى جرى فى أثنائها العمل فى رياسة الجمعية التى انتخب لها فى عام ١٩٦٨، ولا يزال الزملاء أعضاء الجمعية العمومية يجددون تكليفه بها كل ثلاثة أعوام (كما هو حادث فى المجمع العلمى المصرى)، وهى ثقة لا يمكن أن تقابل بغير التفانى الكامل فى خدمة الجمعية وأهدافها ودورها الرائد فى الجمعيات العلمية فى مصر».

«ويرجع إنشاء الجمعية فى عام ١٨٧٥ على عهد خديو مصر إسماعيل، فهى إذن ثانية الجمعيات العلمية فى مصر عموما، وقد منحها إسماعيل مقر نظارة الحربية لتقيم فيه، وأكمل ولده الملك فؤاد الأول مبنى الجمعية حيث أنشأ فى ساحتها الداخلية الفسيحة قاعة كبرى للمحاضرات، وتوالت رعاية الدولة للجمعية منذ أن أوقف عليها محمد راتب باشا سردار الجيش المصرى (وبأمر ومنحة من الخديو إسماعيل) وقفا خاصا يزيد على خمسمائة فدان من أجود أراضى الدلتا (قرب طنطا فى وسط الدلتا.. بخلاف وقف خيرى آخر). وقد عاد ريع ذلك الوقف كل عام وبانتظام إلى الجمعية للإنفاق على نواحى نشاطها العلمى، وقد بلغ إيراده فى أول الأمر نحو خمسة آلاف جنيه فى السنة، ثم انخفض إلى أقل من ذلك حين رأت الدولة فى الستينيات من هذا القرن تعديل مصارف الوقف، وكان صاحبكم قائما على الأمور المالية للجمعية فتقدم بشكوى إلى رئيس الدولة إذ ذاك (المرحوم جمال عبد الناصر) وإلى وزير الأوقاف (المرحوم المهندس أحمد الشرباصى)، وعرض الأمر على لجنة الأوقاف بالوزارة

وتفضل المرحوم الشيخ محمد (يقصد: أحمد) هريدى مفتى الديار المصرية إذ ذاك فشهد أن تغيير مصرف الوقف يعتبر مخالفا لشرط الوقف الذى نص على الجمعية الجغرافية المصرية نصا صريحا، وقد انتهى الأمر بأن ردت لجنة الأوقاف الحق المطلق للجمعية فى تسلم ريع وقفها كاملا، وهو يزيد الآن (وبعد تعديل القيمة الإيجارية للأطيان الزراعية) يزيد على مائة وخمسين ألف جنيه سنويا، مما يغطى نفقات الجمعية بما فى ذلك البحوث الميدانية التى تقوم عليها».

«وقد ازداد نشاط الجمعية فى السنوات الأخيرة وتضاعف حتى أصبحت فى واقع الأمر أكبر بل وأهم جمعية علمية ذات نشاط ملحوظ فى البلاد».

«والواقع أن قاعتها الكبرى التى كانت مقرا للنشاط الثقافى ومواسم المحاضرات فى مصر قبل ثورة ١٩٥٢، احتفظت بمكانتها بعد الثورة وإلى يومنا هذا، حيث يلتقى فيها نشاط الجمعية الجغرافية مع نشاط المجمع العلمى المصرى».

«ويكفى للتدليل على مكانة هذه الجمعية أنها أهدت إلى الدولة تسعة ممن شغلوا منصب الوزارة أو ما يعادله أو يزيد عنه، وعشرة ممن حازوا جائزة الدولة التقديرية (وهذا عدد لم يتوفر لأية جمعية علمية أخرى)، وأربعة من رؤساء الجامعات، وعددا كبيرا من عمداء الكليات وكبار الأساتذة والمفكرين والعلماء. وقد أصدرت الجمعية حتى الآن ما يزيد على المائة مجلد من مجلتيها الإفرنجية والعربية، بخلاف عدد كبير من الكتب والمراجع، ومن بينها مراجع كان أصحابها من أعضاء الجمعية يتبرعون بعائدها للجمعية جريا على تقليد كان صاحب هذه السيرة من أوائل من أرسوا قواعده».

«كذلك قد بذلت الجمعية أقصى جهدها للحفاظ على رونق مبناها الذى يقع فى سرة مدينة القاهرة، والذى يعتبر من أبهى مبانى العاصمة، وأمكن تجديده أكثر من مرة بمعاونة من الدولة ومن بعض الهيئات الدولية التى استفادت من المبنى كمقر لبعض نشاطها، لاسيما فيما يتصل بدراسات البيئة ودراسات السكان».

«وتحتوى الجمعية ثلاث مكتبات مفتوحة للجمهور يؤمها الطلاب والباحثون من جامعات مصر كلها، وكذلك من بعض الهيئات الدولية التى توفد بعض باحثيها إلى مصر للدراسة والبحث، ويجدون فى الجمعية الجغرافية المصرية مقرا يرحب بكل تعاون دولى وكل نشاط علمى. كذلك فإن بالجمعية متحف اثنوغرافى للدراسات المصرية (لاسيما مدينة القاهرة) والدراسات السودانية (التى تبرز وحدة وادى النيل)».

«وختاما فإن صاحب هذه السيرة قد أرسى قواعد تقليد جديد، فمنذ نحو عشر سنوات كانت قد تجمعت لديه مكتبة خاصة بدأ يجمع محتوياتها من الكتب والنشرات والمستخلصات من المجلات الدولية، وذلك منذ عام ١٩٣٠، أى منذ تخرجه، وقد رجع منذ سنوات إلى ولديه ووريثيه (الدكتور أحمد والدكتور على أستاذى الهندسة بالجامعة) وسألهما: ماذا نفعل بهذه المكتبة؟ فقالا (فى نفس واحد كما يقال) «نهديها للجمعية الجغرافية المصرية» لتكون أول مكتبة خاصة تهدى إليها وتبقى على الأيام ذكرى من صلة صاحبها بالجمعية أكثر من ستين عاما، ولتكون «صدقة جارية» فى مجال العلم والمعرفة الجغرافية ومجال الثقافة العامة جميعا».

بقى أن نشير إلى ما يذكره لنا الدكتور سليمان حزين من أنه هو الذى تولى كتابة مذكرة ترشيح الرئيس السادات لنيل جائزة نوبل، وهى الجائزة التى فاز بها السادات بالفعل فيقول:

«... ولعل من أبرز ما قام به صاحبكم كعضو فى المجلس الأعلى للثقافة ما كان فى أعقاب حرب ١٩٧٣ وبداية إقامة السلام بين مصر وإسرائيل فى أواخر السبعينيات من هذا القرن، حين ظهرت فى المجلس الأعلى للثقافة فكرة منح (يقصد ترشيح لأن المجلس الأعلى للثقافة وسلفه المجلس الأعلى للفنون والآداب لا يمنح جائزة نوبل وإنما يرشح لها) جائزة نوبل للسلام إلى صانع السلام الأول فى الشرق الأوسط وهو المرحوم الرئيس أنور السادات. ولما مرض وزير الثقافة إذ ذاك وهو واحد من ألمع تلاميذى المرحوم الأستاذ عبدالمنعم الصاوى الذى لم يجد أمامه من الأعضاء الذين رشحوا اسم الرئيس السادات.. لم يجد إلا صاحبكم ليطلب إليه كتابة مذكرة الترشيح التى يتقدم بها المجلس إلى السلطات النرويجية التى تشرف على إجراءات منح الجائزة العالمية القيمة».

«وقد كتب صاحبكم هذه المذكرة التى استند فيها أساسًا إلى أن السادات كان صاحب حجة عالية ومبادأة فى طرق سبيل السلام. فقد كانت سياسة قادة مصر قبله تقوم على أساس أن تقوم قرارات مصر وتوصياتها على مبدأ «رد الفعل»، فكانت بعض الدول الغربية تمتنع عن تمويل أحد المشروعات المصرية وتقديم العروض اللازمة لذلك فتقوم مصر بتأميم قناة السويس كرد فعل لذلك وحتى تستطيع تمويل مشروعاتها.. أو كانت بعض البنوك الأجنبية تتجاوز حدودها

وتستغل عملها فى مصر فتقوم بتأميمها كرد فعل أيضًا. أما الرئيس السادات فقد قرر أن يقيم السلام فأخذ «المبادأة» وكانت لديه الشجاعة الأدبية فى أن يسافر هو إلى إسرائيل ويواجه الكنيست الإسرائيلى بمبدأ إقامة السلام. وهذا عمل قام به على أساس «المبادأة» وليس على أساس «رد الفعل».

«وقد حرر صاحبكم مذكرته وقدمها المجلس إلى سفارة النرويج بالقاهرة وهى التى أبلغتها إلى البرلمان النرويجى الذى اتخذ القرار ومنح الجائزة، ولكن بعض علماء إسرائيل وهيئاتها أبت إلا أن تتبع أسلوب «رد الفعل» فقدموا مذكرة مناظرة إلى النرويج.. وتدخلت عراقيل السياسة الدولية وملابساتها.. فتقرر أن تمنح الجائزة مناصفة بين الرئيس السادات وبين مناحم بيجين رئيس وزراء إسرائيل إذ ذاك، وذلك على أساس أن إقامة السلام لا تتأتى إلا من طرفين!».

الباب الثانى

من حياتى مع الموسيقى

مذكرات الدكتورة سمحة الخولى

(١)

لست أبالغ إذا قلت إن إنجاز سمحة الخولى فى التاريخ الحضارى لأمتها يتوازى تماما مع إنجاز أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد، وربما يفوقه قدرًا من حيث كان إنجاز سمحة الخولى نحتا فى الصخر، على حين كان إنجاز لطفى السيد نحتًا فى الحجر، وربما لايمكن لنا أن نتبين قيمة هذه المقارنة اليوم، ولكننا عن قريب سنشهد قيمة جهد هذه الأستاذة الرائدة حين نرى ما كتبته على الصخر منقوشًا وخالدًا على نحو ما رأينا من قبل ماكتبه لطفى السيد ونقشه على الحجر. وعلى الرغم من أن المناخ الليبرالى كان يرحب بجهد لطفى السيد وإخوانه فى الجامعة المصرية وكلياتها فان المناخ المتقلب على الدوام فى العصر التالى كان يشتت كثيرا من جهود سمحة الخولى فى أكاديمية الفنون ومعاهدها... لكن الزمن فى الحالين كان يلعب لصالح الريادة والتقدم .

تتمثل فى شخصية الدكتورة سمحة الخولى ريادة حضارية ذات مغزى خاص وذات دلالات متعددة، والواقع أنها بشخصها وبإنجازاتها وبتاريخ حياتها قد عبرت عن إمكان نجاح وطنها وشعبها فى العبور إلى عصر النهضة بطاقات ذاتية وبروح قومية أصيلة كما عبرت عن تفوق واضح المعالم والسمات فى تحقيق

مستوى رفيع من النمو الحضارى الذى يدل فى جوهره ومخبره على إمكانية اللحاق بركب الحضارة الحديثة والمشاركة فى هذا الركب ثم فى تطوير مساره .

وتتميز مسيرة سمحه الخولى بالإضافة إلى هذا كله بقدرتها الفائقة لا على تنمية الموهبة الفردية فحسب، ولا على التوليد المثالى للمواهب الفردية فحسب، وإنما على تطوير الآلية الكفيلة بتوليد وتخريج المواهب الدارسة بصفة مستمرة.. وهكذا فإن سمحة الخولى على امتداد حياتها قد انتقلت فى مدارج الريادة من مستوى صاحبة الموهبة إلى مستوى الموهبة الرائدة ثم إلى مستوى أستاذة الموهوبين والموهوبات ثم إلى مستوى الأستاذة المسئولة عن تكوين الأساتذة والمدرسين ثم إلى مستوى الصانعة والصائغة المطورة والمرتقية بمؤسسة الموهبة كلها.

ولا شك أن هذا الانتقال المتوالى قد كلفها على الدوام أداء وعطاء لا ينقطعان كما كلفها فى الوقت ذاته تركيزا ودأبا جعلاها لا تلتفت إلى الحديث عن الذات ولا إلى استثمار التفوق الفردى، لكنها فى واقع الأمر كانت من أولئك الذين يستعذبون العطاء المتصل ولا يتعجلون ثمار هذا العطاء على المستوى الفردى، ليقينهم أن الزمن وحده هو الذى سيكفل لعطائهم أن يزدهر وأن يثمر فى تعاقب واتصال وفى صورة طبيعية تستعصى على الوأد أو التبوير، وتعلى من قدر الحضارة والتنوير .

(٢)

ويخطئ من يتصور أن جهد سمحة الخولى كان ميسرًا بفضل روح المؤسسة فى العهد الذى تولت فيه مسئولياتها، ومن الإنصاف أن نشير إلى أن هذا الجهد قد اعتمد واستند على اسم هذه الرائدة وشخصيتها وسلوكها وزهدها ومثابرتها

وتبتلها من أجل تحقيق ما كان الوطن يصبو إليه وما كانت هى الأخرى تصبو إليه لوطنها أولاً، ولنفسها ثانيًا .

نشأت سمحة الخولى فى أرقى بيئة ثقافية مصرية ممكنة متاحة فى الوقت الذى نشأت فيه، فقد كان والدها أحد أبناء المؤسسة العلمية الكبرى فى مصر،وهى الأزهر، وقد أصاب هذا الوالد أقصى درجات التقدم الفكرى والحضارى على مرحلتين أو درجتين لم تتوافر إلا لقلائل، فقد كان أولاً من الذين تم اصطفاؤهم للدراسة فى مدرسة القضاء الشرعى، ثم كان ثانيا من الذين تم اصطفاؤهم ليمثلوا الركن الدينى فى سفاراتنا فى أوروبا حين أصبح من حظنا الأخذ بنظام التمثيل الدبلوماسى والقنصلى، ومن المدهش أن يصل التنور الفكرى عند أولى الأمر فى بداية العشرينات ذلك الحد الذى يجعلهم يفكرون فى أن يكون ضمن السلك الدبلوماسى الممثل لوطننا من يمثل شعائره الدينية إمامًا للقنصلية، وهو تقليد جميل وجد فى عهد العلمانية والليبرالية ولم يكن من الغريب (بالطبع) أن يختفى فى عهود الشمولية والتظاهر بالإسلامية الشكلية ... وفى بيت هذا العالم الفاضل نشأت سمحة الخولى : تفتح أعينها وتتفتح حواسها ومداركها على الالتزام والرقى ونشدان الأفضل .. وكان ذلك الأب الذى خرج من سلالة أو من سلسلة آباء نُذروا للعلم الدينى حفيًا على الدوام بأن يصل بنفسه إلى مدارك أوسع وإلى مدارج أرفع، وكان من الطبيعى أن يتمنى الأبناء أن يصلوا أيضا إلى هذه المدارك الأوسع والمدارج الأرفع.. وهكذا عمل هذا الرجل المستنير على أن يتيح لابنته تعلم العزف على البيانو، وبحكم السليقة التربوية فى شخصيته فانه كان حريصًا على أن يجعل لتعلم الهواية الذى وفره لابنته هدفًا حتى لاتصبح الهواية جهدًا عشوائيًا غير منظم أقرب إلى

العبث منها إلى اللعب وكان يدرك أنه يعلمها الهواية ولكنه كان فى الوقت ذاته حريصا على أن يدفعها فى اتجاه بلورة الهواية نحو غاية مستهدفة، ولم يكن صعبا عليه أن يحدد هذه الغاية بما كان النظام الاجتماعى قد تعارف عليه من أن تكون لبنات الطبقة الموسرة المستنيرة القدرة الحقيقية على عزف المقطوعات الكلاسيكية الشهيرة على البيانو .

لكن الموهبة الالهية سرعان ما تفرض نفسها على صاحبتها المسكونة بها، فإذا بها لا تقف عند حدود اداء الواجب المرتجى من فتاة عادية، ولكنها تتعلق بالنغم وبالعزف وإذا تعلقها بهذا وذاك يسيران فى خطين متوازيين، فإذا هى تمضى فى سبيل الإجادة والتجويد وتنمية الموهبة، وإذا بها أيضا ترتقى يوما بعد يوم بذوقها القادر على الاستماع وعلى انتقاء ما تستمع اليه .

(٣)

وتمضى فتاتنا فى تعليمها حتى تدرك نهاية المرحلة الثانوية فإذا بها وهى التى نمت وقد نمت معها ثقتها فى نفسها تصل إلى القرار الذى يفشل كثيرون من النوابغ فى الوصول إليه، وتفشل الأغلبية الساحقة فى مجرد التفكير فى الوصول إليه وإذا بهذه الفتاة فى عصر كان يعلى من قيمة المهن البرجوازية ومن قيمة الوظيفة الحكومية ومن قيمة العمل الحر تترك هذه الميادين الثلاثة جميعا وتلبى الهاتف الذى يهتف بها من داخلها أن تهب نفسها للموسيقى علما وتعليمًا، ولم يكن لمثل هذا التوجه من القوة ما يساعد صاحبته على أن تفخر به ولا حتى أن تجهر، لكن الهاتف كان أقوى من أن تتجاهله صاحبته، وكان فيما يبدو لها أو فيما بدا لها أقوى منها، ولكنه فى الوقت ذاته لم يكن قادرًا على أن يكتسب قوته

إلا بأن تهتف به صاحبته، ولم تبخل سمحة الخولى على هاتف نفسها بما كان يستحق، فإذا به يظهر على لسانها، وفى قرارها، وإذا هى تتخذ قرارها بالاندفاع إلى دراسة الموسيقى دراسة عالية بدلا من أن تدرس أى دراسة تقليدية من المتاحة للفتاة المصرية فى ذلك العهد.

(٤)

كانت سمحة الخولى تدرك أن المحيط الذى نشأت فيه لن ييسر لها مثل هذه الرغبة، فلم تكن الحياة العامة قد أدركت من النهضة ما يسمح لمثل هذا التفكير بما يستحقه من الاحترام والتقدير لكن سمحة الخولى كانت تنظر إلى داخلها، وتقرأ وجدانها الذى عبر لها عن ضرورة الاستجابة لهاتفها الداخلى .. وكان وجدانها يطمئنها إلى أن هذا الطريق الذى تفكر فى السير فيه، ليس طريق الضياع ولا التيه، وكيف يكون كذلك وقد وضع والدها بنفسه أقدامها الصغيرة عليه منذ كانت طفلة ؟

هكذا عادت سمحة الخولى إلى مخزونها الثقافى الروحى ووجدته يدفعها إلى الاقتناع بصواب قرارها الذى اتخذته استجابة لهاتفها الداخلى الذى ناداها، وهى الابنة المصرية الفذة لأبوين مصريين، بعيدين عن التفرنج وقريبين من جوهر التقدم وهكذا أتيح لها، أن تنهض وتمضى قائدة ورائدة ليسير من بعدها جمع طويل من أكاديميات مصريات مقتدرات يعلمن الفن العالى الرفيع لأجيال متلاحقة من راهبات الفن العالى الرفيع. ومع هذا التصميم ووضوح الرؤية فإنه لم يكن من اليسير على سمحة الخولى أن تواصل خطواتها الأكاديمية المتقدمة فى هذا المجال، لكنها كانت تعرف بحكم تربية مثالية أن بحور العلم الواسعة لا

تقف عند حدود الشاطئ وأن السباحة العلمية لا تكتمل إلا بالوصول إلى مراحل متقدمة والانتصار على الموجات التى تفرض على السابحين الوقوف عند حدود الأمان والتراجع عن مناطق الإرهاق .

(٥)

كانت سمحة الخولى تستشعر على نحو عبقرى حقيقة أن العلم كفاح متصل لابد أن يستعذبه طالب العلم حتى يصل إلى غايته فيه، وإلا فانه يصبح واقفا عند حدود خطرة قد تجعله فى مرحلة من المراحل نصف متعلم، وفى مرحلة تالية نصف عالم، وفى مرحلة ثالثة نصف أستاذ، وفى مرحلة رابعة نصف أكاديمى، وفى مرحلة خامسة نصف رائد أو نصف عميد أو نصف شيخ طريقة .. وإذا بسمحة الخولى وهى تتنقل من مدار إلى مدار لاترضى بهذا النصف، وإنما تصمم على أن تصل إلى إطار الكمال فى كل مستويات الفن الرفيع والعلم الأكاديمى، وإذا هى تسبق كل قومها رجالا ونساء إلى مكانة أستاذ الجيل فى الفنون بكل ما أدته لوطنها فى مجالات الفنون من أستاذية، وتعليم وبحث، وإشراف، وتقييم، وإدارة، وتحرير، وتأليف، ونقد، وتشريع، وتوجيه، وتنظيم .

وفى كل هذه الخطوات كانت سمحة الخولى تدرك أن هناك طابعا قوميا لابد لها أن تتمثله وأن تمثله وتعبر عنه فى حياتها ونشاطها العلمى والأكاديمى والفنى وهى تلخص علاقتها بالموسيقى القومية (العربية) على مدى سنوات دراستها للموسيقى الغربية فتقول فى مقدمة كتاب لها :

«قصتى مع الموسيقى بدأت فى الثامنة : طفلة أراد لها والد مستنير أن تتعلم عزف روائع الموسيقى الغربية على البيانو (بعد سنوات عمله فى أوربا) وبعد

سنوات طويلة من دراسة الهواية «المريحة» للعزف، لاحت لى فرصة الالتحاق بمعهد الموسيقى بعد الدراسة الثانوية، ولكن كان على أن أخوض معركة مع «نفور» هذا الوالد نفسه ومعارضته لفكرة الاحتراف، واحتراف الموسيقى بالذات! وفى معهد معلمات الموسيقى (كلية التربية الموسيقية حاليا) لقيت من أساتذته المصريين والأجانب (وعلى رأسهم عميدته الألمانية د. بريجيت شيفر) تشجيعا فجر طاقات أوسع كثيرا من مجرد العزف، لم أكن على وعى بها، إذ وجهتنى دراساته للإطلاع على جوانب تربوية وفكرية وعملية وتاريخية لموسيقات مختلفة، كما عاونت على ترشيد وتعميق عشقى لعزف البيانو».

وتعترف سمحة الخولى، فى ثقة شديدة بالنفس وبالقدرة الذاتية، أن معرفة موسيقى الآخرين هى التى قادتها إلى معرفة التراث الموسيقى لقومها، وهى لا ترى فى هذا تناقضًا ولا عجبا، وهى تضيف إلى هذا الاعتراف اعترافًا آخر بفضل المعلمة فى تفتيح المدارك فى هذا الاتجاه وهى تذكر كيف كان للعميدة الالمانية الفضل فى هذا التوجيه وتقول :

« ... ولكن ظهرت المعجزة الكبيرة فى تكوينى السابق، حين اكتشفت - للمرة الأولى - عالم الموسيقى العربية، أثناء دراساتى لعزف العود، وعندما تلمست طريقى عبر أوتاره إلى روائع تراثه التقليدى، شعرت بأن عالمًا آخر قد انفتح على مصراعيه أمامى، وهو عالم كان غائبا عنى تماما طوال سنوات الشباب المبكر، والتى استغرقتنى فيها تماما انبهارى بالموسيقى الغربية وروائعها وأعلا مها - مع أن عميدتنا الألمانية كانت حريصة دائما على تأكيد انتمائنا الموسيقى القومى، وهى صاحبة الفضل فى غرس بذرة التوازن الروحى بين الموسيقتين فى نفوسنا.

(٦)

ولست أجاوز الحق إذا قلت إن سمحة الخولى تمثل واحدة من العلامات فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ذلك أنها كانت من القلائل الذين انتبهوا إلى محاولة تقنين الجزء الإبداعى فى الفنون أو ذلك الجانب الذى نعبر عنه بألفاظ أخرى فنصفه بأنه «اكتشاف العنصر العلمى فى الفن» وقد أنجزت سمحة الخولى هذا العطاء الجوهرى فى كثير من بحوثها وكتبها، ولكنها امتدت بهذا النشاط إلى الموسيقى العربية نفسها حين كتبت بحثًا بعنوان «تقاليد الارتجال فى الموسيقى العربية» وهى تروى كيف دارت بنفسها فكرة هذا البحث فتقول :

«ومن التجارب الراسخة فى ذاكرتى تجربة امتحان الدبلوم النهائى فى عزف العود، حين جلست بين يدى لجنة على رأسها الفنان الكبير صفر على، الممتحن الخارجى، وعندما انتهيت من العزف عبّر لى عن إعجابه بعزفى، فرجوته أن يتكرم بأن يعزف لى بعض تقاسيمه، فإذا به يأخذ عودى المتواضع ويعزف لى عليه «تقاسيم» لازالت محفورة فى وجدانى، نموذجا متفردا لقدرات فنان الأداء الملهم فى ابتكاره اللحظى فى الموسيقى العربية».

وتعبر سمحة الخولى بذكائها وقدرتها البيانية عن مدى الأثر الإيجابى الذى تركه توجيه والدها لها فى مرحلة تالية من شبابها حين قدر لها أن تنال بعثة موسيقية بعد تفوقها فى الشهادة الجامعية الأولى ... وهى تدرك أن ذلك الهدف الذى وضعه والدها أمام عينها كان بمثابة ضوء هداها إلى الطريق الذى سارت فيه ووصلت إلى القمة، وكأنها تريد أن تقول إنه بدون هذا «الهدف / التحدى» ما كان لها أن تمضى فى هذا الطريق الصخرى الصعب بل كان من السهل عليها أن تقنع بما يقنع به الآخرون (الآن) أو بما قنع به أترابها فى وقتها:

«... وسافرت دون أن تحدد لى دراسة معينة بل أوصتنى عميدة المعهد الجديدة حينئذ أن أقوم بدراسة «التذوق الموسيقى» باعتبارها مادة مرتبطة بهدف المعهد .. وبطبيعة الحال لم أجد شهادة تمنح فى التذوق، فكان علىّ أن أختار وحدى طريقى للمستقبل، فإذا بى أسعى للجمع بين أمرين، أولهما : الإلمام بالإطار التاريخى والفكرى والدينى للموسيقى فى حضارتنا وهو ما حصلت فيه على الدكتوراه من جامعة إدنبره، ولم أكن مدفوعة لذلك فقط بكلمات الوالد الذى قال لى عند توديعه لى فى بورسعيد : «إذا ما أخدتيش الدكتوراه ماتبقيش بنتى ! بل جاء ذلك أولا استجابة لحاجة نفسية حقيقية لدىّ، أذكتها سنوات الدراسة بالمعهد، وفى نفس الوقت لم أقنع بالتقوقع فى الماضى والدراسة النظرية وحدهما، ولذلك جمعت - قدر المستطاع، بينهما وبين الموسيقى الغربية التى سحرتنى منذ طفولتى، فدرست تخصص «عزف البيانو»، وما يحيط به من دراسات موسيقية، وحصلت فيها على دبلوم الأكاديمية الملكية للموسيقى بلندن».

(٧)

تروى الدكتورة سمحة الخولى هذا كله باختصار ثم تبلور رأيها فى تكوينها الأكاديمى فتقول :

« ... وأظننى بذلك قد وضعت أساسا متوازنا لمستقبلى الموسيقى، ما كان ليتحقق لى لو اقتصرت على أحدهما فقط».

... ...

وسرعان ما تلتفت سمحة الخولى إلى الآثر السلبى الذى حرمها من ممارسة هوايتها على نحو ما كانت تتمنى وتتوقع :

«غير أن شواغل الحياة الوظيفية، ثم مسئوليات الإدارة التعليمية، وملابسات واقعنا الموسيقى بثغراتها التى فرضت علىّ الظروف أن أسدها ـ أقول تضافرت كل هذه العوامل على تغيير مسار حياتى بما قلص نشاطى فى عزف البيانو كثيرا، حتى أصبحت لا أمارسه إلا كوسيلة إيضاح فى تدريسى للتاريخ وللتحليل الموسيقى بخاصة! وهكذا أفلت منى حلم شبابى الغالى، ولم تبق منه الا أصداء باهتة !».

... ...

وتصل سمحة الخولى إلى نقطة من نقاط التعادل فى تكوين فلسفتها فتقول :

« ... وإذا كانت الحياة الموسيقية لم تفقد شيئا بغياب عازفة، فلعلها أفادت من أنشطتى الأخرى فى المجالات المختلفة!».

... ...

هكذا تدرك سمحة الخولى بكل تواضع أنها قد شغلت نفسها بأمور تتعلق بالفن والموسيقى فى إطار خدمة وطنها عن أن تنمى موهبتها ولكنها فى الوقت ذاته لاتعتبر أن قراراتها فى هذا الصدد كانت بمثابة الاختيار الخاطئ، ولكنها تنظر إلى المحصلة النهائية من وجهة نظر مصلحة وطنها لا من وجهة نظر مصلحة ذاتها فحسب.

(٨)

وتدرك سمحة الخولى أيضا أهمية وضرورة التعبير عن الذات لكل أكاديمى مسكون بالفن، وهى لحسن الحظ تدرك منذ مرحلة مبكرة فى حياتها أن التعبير عن الذات والأفكار والطموحات يتطلب ممارسة أخرى غير تلك التى تتيحها الأستاذية . وها هو القدر يقف إلى جانبها مرة أخرى حين ييسر لها ثلاثة من رؤساء التحرير الفرصة للتعبير عن الذات والأفكار والطموحات الموسيقية، وهم

والدها الشيخ أمين الخولى فى مجلة الأدب ثم الدكتور حسين فوزى (فى الأهرام وغيرها) والأستاذ يحيى حقى (فى مجلة المجلة).

وهى تتحدث عن هذا الجانب من حياتها باعتزاز فتقول :

«... وعندما عدت لوطنى ومعهدى انهمكت فى عمل شيق محبب، هو تدريس تاريخ وتحليل الموسيقى من جانب، وتدريس عزف البيانو والتربية العملية من جانب آخر ...ومع ذلك شعرت بأنه ينقصنى شئ لا أجده فى التدريس لأننى كنت افتقد فرص التعبير عن ذاتى وأفكارى وطموحاتى الموسيقية لى ولمصر .... وهكذا بدأت أخطو خطواتى الأولى فى الكتابة عن الموسيقى على صفحات مجلة «الأدب» منذ أواخر الخمسينات وكان لرئيس تحريرها - والدى - فضل كبير فى معاونتى على استعادة وضوح التعبير وسلاسته، بعد سنوات انغماسى فى اللغة الإنجليزية، وعلى صفحات مجلة «الأدب» نشرت لى كتابات من التعريف والنقد الموسيقى لكتب رأيتها تنشر أفكارا سلبية خطرة، ثم جاءت فرصة الأحاديث الإذاعية (العربية والإنجليزية) وقدمت منها سلسلة «مع المؤلفين المصريين». وفى أوائل الستينات بدأت خطواتى الأولى فى الكتابة فى الصحف اليومية : الأهرام والأخبار والجمهورية - وهى خطوات يعود الفضل فيها لأستاذى د. حسين فوزى، الذى دعانى «لأشاركه» فى الكتابة عن الموسيقى فى ملحق أهرام الجمعة . وعندما دعيت للكتابة فى مجلة المجلة "انفتحت أمامى آفاق أوسع بفضل رعاية رئيس تحريرها الأديب الكبير يحيى حقى، وإنى لأعتز كثيرا بالسنوات التى عملت فيها بالقرب منه وبحماسه وتشجيعه لى، وهى التى نشرت لى فيها على صفحات " المجلة " مقالات طيبة، فى موضوعات بالغة التنوع، وهكذا بدأت أتجه إلى مزيد من الكتابات الرصينة، فبجانب «المجلة» نشرت لى كتابات ذات طابع خاص فى

مجلة العربى الكويتية الراسخة ومجلة عالم الفكر العريقة، فقد كان فيها مجال آخر للتعبير بكتابات متخصصة قد لا تهم القارئ العادى».

(٩)

و تتحدث سمحة الخولى باعتزاز شديد عن عبقرية والدها الشيخ أمين الخولى فتقول :

..."خرج من قريته لينهل من عالم المعرفة، ولكنه أقبل بعقله المتوقد وروحه الوثابة على العلم والمعرفة، فلم يقنع بالمسلك التقليدى الذى سلكه أغلب معاصريه وأبناء طبقته من الاكتفاء بالتعليم الدينى، ولكنه استطاع بطموحه وسعة أفقه أن يغزو آفاقا جديدة، آفاق حضارة الغرب، وعندما سافر بعد تخرجه فى مدرسة القضاء الشرعى إلى أوروبا حيث عين إماما فى المفوضية المصرية فى روما ثم فى برلين، كانت السنوات الخمس التى قضاها هناك فى العمل والدراسة لقاءه الأول والمباشر مع الحضارة الغربية.

وعند هذا الحد تجد سمحة الخولى أنه من الأبلغ أن تقتبس من عبارات تلامذة والدها ما يعبر بدقة عن المعنى الذى تريد توضيحه فتنقل عن صلاح عبد الصبور قوله عن والدها :

«كان يحترم الحضارة الغربية فى مظاهرها الثقافية والفكرية، دون أن يستخذى أمامها، ويرى أن من واجبنا ان نفيد منها فى تنقيح مفهوماتنا وتصحيح نظرتنا وإثراء أرواحنا، حتى تضيف إلى تقاليدنا الناضرة تقاليد جديدة، ولعله حين رحل إلى أوربا استطاع بهذا الذكاء الملهم أن يضم إلى وجدانه أثمن ما فيها من فكر وفلسفة وفن، ثم مزج ذلك كله بتراثنا الممتد على طول الزمان».

كذلك تنقل سمحة الخولى عن الدكتور أحمد كمال زكى تقييمه للمنهج الفكرى لوالدها، وهو النهج الذى أسهم بقدر وافر فى تكوينها على هذا النحو العبقرى الذى عرفناه، وقد تنبه أحمد كمال زكى بذكاء شديد إلى جوهر التفرد فى حياة والدها ومربيها الشيخ أمين الخولى حيث يقول :

« ... لقد بنى أمين الخولى حياته على مبدأ الحرية، وهو كرجل دين، كوّن موقفه أولا امتدادًا للأفغانى ومحمد عبده، ولكنه يختلف عنهما فى قدر الحرية الذى جعله يتخطى الدين إلى الفن، وبين الطرفين حكم عقله، مستندا إلى ثقافات العصر ولغاته الحية».

(١٠)

وتنطلق سمحة الخولى من هذه الجزئية إلى الحديث عن التفرد والتميز الذى تمثل فى شخصية والدها الذى جمع فى رأيها فى مثالية بين الأصالة والحداثة، وهى تقول :

«... ظل أمين الخولى طوال حياته محافظا على زيه الاسلامى، فى اعتداد عميق به، ولعله كان الوحيد من أبناء جيله من خريجى مدرسة القضاء الشرعى فى احتفاظة بزيه هذا)، فى تأكيد عملى لحقيقة كبرى، وهى قدرة الانسان المصرى على أن يجمع بين الأصالة والتفتح، وبين الانتماء القومى وبين التحرر الفكرى فى آن واحد».

وتلفت سمحة الخولى أنظارنا إلى إيمان والدها العميق بمصر وبالشخصية المصرية وبالإنسان المصرى الأصيل، وبقدرته اللانهائية على التقدم والتطور، وبحقه الأصيل فى التمتع بأفضل منجزات الإنسانية وبكل ثمار الحضارة وهى

ترى أن هذا الإيمان كان بمثابة الدافع الذى مكنه من أن يصوغ رؤيته الفكرية التى أسهمت فى تكوين ابنته كأستاذة أكاديمية للفن، وهى تقول فى هذا المعنى :

« ... ومن هذا المنطلق استطاع، وهو ابن القرية المصرية، أن يوثق صلته بمناهل العلم والفن فى أوربا، ولم تشغله ثقافته العربية الإسلامية عن تلمس أسباب الحضارة والفنون فى أوربا، ووقف بين الحضارتين والثقافتين شامخ العقل، متميز الفكر، مصرى الوجدان، لم يفقد يوما هويته ولا صدق انتمائه ولم يبتعد عن منابعه وجذوره، واستطاع أن يوفق بين دعوته للتجديد والتطور، وبين احترامه للقديم والموروث وثقته بقدرته على التجدد والنمو، واستطاع أمين الخولى أن يوفق بين هذا كله بروح «مثقفة» بأعمق معانى هذه الكلمة».

ثم تؤكد سمحة الخولى هذا المعنى بأن تقتبس من كلام والدها فى مجلة الأدب (ديسمبر ١٩٥٧) قوله :

«إنه لشرٌ من أن يموت الناس جوعا، أن يموتوا كبتًا، أو أن يموتوا بلادة إحساس!».

(١١)

وتؤسس سمحة الخولى على ما تقدم تأملها لفلسفة والدها الشيخ فى تربيتها على هذا النهج الحضارى الرائع فتقول:

« ... ومن هذا المنطلق كانت اتجاهاته التربوية فى تربية أبنائه، فتحولت تلك المبادئ والأفكار إلى ممارسات عملية فى حياته، حياة تجمع فى سخاء بين الدين والعلم والفن وتؤلف بينها، فقد تفتحنا فى طفولتنا على ذكريات تجاربه مع المسرح، ليس كعاشق للمسرح فحسب، بل كمؤلف مسرحى مارس الكتابة المسرحية فى بداية حياته» رغم ما كان يحف بالمسرح حينذاك من محظورات

الدين والتقاليد وخاصة بالنسبة لطالب يدرس الشريعة الإسلامية، وتشربنا فى طفولتنا ذكريات أسفاره، ومشاهدته للأوبرا فى إيطاليا، وحفلات موسيقية حضرها، ومعارض فنية زارها، بل شهدنا امتدادا عمليا لنزعة الفن الأصيلة فى طبعه متمثلة فى شغفه بالزهور واهتمامه بفلاحة البساتين وتنسيق الحدائق . وكانت كل هذه الاهتمامات الفنية تثرى حياتنا، وتشكل جزءًا من زادنا فى طفولتنا وصبانا وشبابنا . وأذكر من أبرز ذكريات الطفولة أنه كان يردد أمامى بإعجاب اسم عازفة بيانو مصرية، سمعها تعزف فى أوروبا موسيقى كلاسيكية، وكان شديد الإعجاب بفنها ـ ولعلها كانت أول فتاة مصرية تظهر فى مجال الموسيقى والعزف فى الخارج ـ وكان حديثه هذا عنها عنصرا جوهريا فى اختيار طريق حياتى فيما بعد، فقد كان النموذج الذى اختاره والدى ليحدثنى عنه كقدوة هو هذه العازفة المصرية، ونمت معى تلك الهالة التى نسجها عقلى الصغير حول « عايدة علم » وامتدت بعد ذلك إلى عشق أصيل للموسيقى، وإلى تبجيل لكل ما هو أصيل فى الموسيقى».

ولا يفوت سمحة الخولى أن تشير إلى ما كانت والدتها، هى الأخرى تتميز به من حب للموسيقى وإحساس بها وهى تقول :

« ... جاء حديث والدى عن «عايدة علم » وعزف البيانو مقرونا بنزعات موسيقية أصيلة عند والدتى رحمهما الله، فوجد لدى تربه خصبة من استعداد موسيقى طبيعى أنعم الله به على ابنتهما الصغيرة».

(١٢)

وتروى سمحة الخولى بسعادة بالغة ذكرياتها عن طفولتها الباكرة وعن اللحظة التى أصبحت فيها تمتلك جهاز البيانو وتقول :

...«قبل أن أبلغ الثامنة عاد والدى إلى البيت متهللا وبشرنا بأنه قد اشترى لى بيانو ! وافرحتاه ! .. هل يمكن حقا أن أصبح فى يوم من الأيام عازفة بيانو حقيقية، مثل عايدة علم ؟ وواحدة من الشهيرات ؟! وعندما احتل البيانو مكانه فى حجرة الصالون بدأت حياتى تدور حوله، فبدأت الخطوات الأولى على طريق الموسيقى .. ولا بأس إذا كانت تلك الخطوات مترددة متعثرة، فما أكثر الدموع التى انهمرت تحت وطأة عبوس المدرسة المسنة الأجنبية وما أثقل التمارين السقيمة التى كانوا يثقلون بها كاهل الطفل فى بداية طريق العزف والتى تخلو من الفن والجمال .. وكادت مدرستى اليونانية العجوز ان تقضى بكآبتها على بهجة اكتشاف عالم الموسيقى السحرى .. وأدرك الوالدان بحكمتهما وخبرتهما التربوية أن الأمور لاتسير كما ينبغى .. وجاء الفرج عندما انتقل سكن الأسرة إلى حى جديد، وهناك وضعوا الطفلة الصغيرة (هكذا تتحدث سمحة الخولى عن نفسها) بين يدى أستاذ إيطالى فاضل، لديه من حب الموسيقى والفن أكثر مما لديه من خبرة تدريس البيانو، وانضم الأخ الأكبر أسامة إلى دروس الموسيقى الأسبوعية صباح الجمعة، فكان يدرس الكمان » وما لبث والدنا أن أسند إلى معلمنا تعليم الأخ الاصغر أكثم (الذى كاد يتحول) إلى دراسة الموسيقى وإن لم يطل صبره عليها طويلا، ولكنه تحول فيما بعد لواحد من أكبر هواتها ومحبيها، واستمرت تلك الدروس أعواما طويلة وأصبحت من معالم حياة الأسرة».

(١٣)

وتستطرد سمحة الخولى إلى الحديث عن منهج والدها فى متابعة تعلم أبنائه للهواية فتدلنا على مدى جديته فى كل ما هو تربوى، وهى لاتغفل الاشارة إلى أن والدها كان يحسن التحدث بالايطالية، وكان يستخدم هذه اللغة فى الحوار مع

أستاذ الموسيقى فى حضور الأبناء حتى لايجرحهم بتقييم أستاذهم لهم، ولا يمنع الأستاذ من أن يشير إليه بما يجده من انتقاد لأدائهم أو تحصيلهم وهى تقول :

«... ولم يكتف والدى أمين الخولى، بتحمل نفقات التعليم الموسيقى لأبنائه، بل كان دائم المتابعة لها حريصا على أن يباحث الأستاذ الايطالى، من وقت لآخر، حول تقييمه لما أحرزته من نجاح، وكان يثير إعجابى أنه يحسن التحدث إليه بالإيطالية، وبدأت ألتمس طريقى إلى فهم شذرات منها عبر اللغة الفرنسية، وعلى كل حال لم يكن فى حديث الأستاذ عنا ما ينبغى إخفاؤه، فقد كان فخورًا بتلاميذه حريصا على تقديمهم فى مجالات محلية ليعزفوا ويمارسوا هوايتهم الأثيرة، ولم يقف دور الوالد عند الإنفاق والمتابعة، بل ما أكثر ما طالبته به من نوتات ومدونات، كان يحملها لى من كل البلاد التى يسافر إليها، وأذكر أنه فى رحلته للصين سنة ١٩٥٢ عاد ومعه بعض النوتات الموسيقية لى، فقد كان يرى هذا أمرًا لايقل أهمية عن حمل الهدايا التى تعجب بها الفتيات» .

(١٤)

وتلقى سمحة الخولى بكثير من الضوء على جوانب أخرى فى منهج والدها فى رعاية موهبتها الفنية بل صنع هذه الموهبة إن جاز هذا التعبير فتقول :

«حرص على أن يبصرنا بجوانب الجمال فى فنون بيئتنا ولغتنا ولهجتها وآدابها الشعبية، ومنه تعلمنا كيف نقدر كل ما هو مصرى شعبى تلقائى بسيط، فهو الذى فتح أذانى ووجدانى لجمال إنشاد شاعر الربابة، وعزف الأرغول والناى والمزمار وروعة المواويل نظما ولحنا وغناء، وهو الذى بث فى نفسى الحماس للتحطيب ورقص الخيل بما فيها من فروسية وجمال ..وذلك من خلال

زيارتنا وإقامتنا الصيفية فى قريتنا فى المنوفية، حيث كنا نتعرض لتيار ثقافى وفكرى مصرى خالص، يتولى تحقيق التعادل الفكرى والثقافى فى شخصياتنا.
ومن خلال حديثه الساحر عن انطباعاته عن المسرح عرفت الكثير عن سلامة حجازى، وعن عظمة الفن حين كان (أى سلامة حجازى) فى أخريات حياته يصعد للمسرح متوكئا على عصاه بعد شفائه من الشلل، وسرعان ما ينقلب ضعفه وعجزه إلى شعلة من الفن حين يجلجل صوته القوى، فيملأ أركان المسرح ويسحر الحاضرين .. ومعه (أى مع والدها) وبصحبته اكتشفت متعه المسرح وعمق تأثيره، وعرفت كبار فنانيه، ومنه سمعت تقييمه لفن الراحلين منهم والذين لم تتح لجيلنا فرصة اللقاء المباشر بفنهم».

(١٥)

وبعد كل هذا الحديث عن هذه المؤثرات الثقافية المتعددة تلتفت الدكتورة سمحة الخولى إلى الحديث عن جانب مهم فى تكوينها، وهو قدرة والدها على مزج التربية الفنية بالوجدان الروحانى فى تربيته لها، و هى تقول :

« ... فتح قلبى وعقلى لموسيقى القرآن الكريم واعجاز بنائه اللغوى، وصوره البيانية المعجزة ليس فى بلاغة تصويرها فحسب، بل فى ملاءمة جرسها للمعنى وللصورة الفنية .. ومنه تعلمت كيف ألاحظ وأحلل وأعجب ببساطة الموسيقى فى الشعائر الإسلامية، وهو الذى نمى لدى الإحساس بقيمة التلاوة المعبرة بصوت مؤمن خاشع مثل صوت الشيخ محمد رفعت والشيخ على محمود، وكانا من أحب المقرئين إليه صوتا وأداء وفهما، وهو الذى لفت نظرى إلى القيم الموسيقية الصوتية فى التواشيح الدينية، وهو الذى حبب إلىّ وإلى إخوتى جميعًا القراءة،

ومهما اختلفت مناهج حياتنا فلا يزال الأدب والقراءة أنيسين لكل منا فى حياته عبر السنوات .. وما أكثر ما أدين له به من المتع الفنية والثقافية الرفيعه التى وجهنى لتقبلها وأثرى حياتى بها، وكان بذلك يمنحنى عطاء لايقدر بمال ويفتح عينى وقلبى وعقلى لكل معانى الجمال والحق والخير فى الحياة».

(١٦)

بعد هذا كله تصل الدكتورة سمحة الخولى إلى نقطة المفارقة فى توجيه والدها لها وهى تورد رأيه المعارض لها بكل أمانة بل تبدو، وكأنها على وشك الانحياز إلى هذا الرأى فى لحظات نفسية معينة .

« ... وعندما طلبت منه أن ألتحق بمعهد الموسيقى ثارت ثائرته، وهو الذى ظل ينفق على تعليمى الموسيقى فى إطار الهواية أعواما متصلة ! فقد كان يريد لى الموسيقى هواية ومتعة وليس احترافا، وكان لايزال يريد لى حياة منزلية هادئة بعيدة عن صخب العمل والوظيفة» ...

وهنا تعقب سمحة الخولى فتقول : «ولا أنكر أننى أحيانا أظنه كان على صواب»!؟.

وتحرص سمحة الخولى على أن تروى أحد المواقف النبيلة التى وقفها والدها فى سبيل تشجيعها حتى بعدما تقدمت به السن :

... «وعندما أقام معهد جوته فى مايو سنة ١٩٥٩ حفلا موسيقيا قدم فيه مؤلفا مصريا شابا عائدا من دراسة للتأليف الموسيقى فى أوروبا، كان والدى من أوائل من حضروا هذا الحفل، وكان حضوره تشجيعا لى، إذ عزفت فى ذلك الحفل ولأول مرة فى مصر مؤلفات جمال عبد الرحيم على البيانو، وعندما

استمع إلى صوناته الفيولينة لجمال عبد الرحيم، بأسلوبها الحديث البعيد تماما عن خبرات والدى الموسيقية ما كان أشد دهشتى لتأثره العميق بها وتقبله التلقائى لرسالتها الفنية . وهكذا قاده حسه الفنى الأصيل إلى تقبل عمل موسيقى حديث سمعه لأول مرة دون تمهيد أو تعريف مسبق تقبله بقلبه الذكى وروحه المرهفة، كما لم يتقبله بعض المتخصصين الموسيقيين، إلا بعد ذلك بسنوات .. وهو الذى شجع جمال عبد الرحيم فى اختياره لقصيدة «الملك لك» لصلاح عبد الصبور ليلحنها فى غنائية ظهرت باسم « الصحوة ».. وعندما وافاه القدر فى ٩ مارس ١٩٦٦ لم يكن مؤلفها (أى زوجها جمال عبد الرحيم) قد أنجزها بعد، فأهداها إلى روح «أمين الخولى »، فكان هذا الاهداء تأكيدا لوحدة الفنون التى آمن بها أمين الخولى ودعا إليها، وتكريما لهذه النفس المرهفة الذكية التى طالما قدست الابداع الفنى فى كل صوره».

(١٧)

تعبر سمحة الخولى عن عشقها الأزلى والأبدى للموسيقى فى كثير من فقراتها وهى تتحدث عن هذا العشق بعبارات متيمة حافلة بالدلالات ومن هذا قولها:

«كان رفيقى الأثير الحميم المؤنس هو الموسيقى، أستمتع بها وأسعى لنقل هذا الاستمتاع وهذه الخبرات الجميلة إلى غيرى، فى قاعات المحاضرات، أو على أمواج الأثير والتليفزيون، لكى أقربها للجماهير العريضة .. وعبر كل هذه السنوات كنت أكتب وأكتب عن الموسيقى، سعيا لنشر ثقافة موسيقية مفتقدة، أو تأصيلا لمفاهيم موسيقية قومية وعالمية أو تعريفا بأعلام واتجاهات مصرية وغربية، أو إبرازًا لأحداث ومواقف موسيقية وإنسانية أو دفاعا ضد آراء أجدها متحيزة أو سلبية».

ومنذ مرحلة مبكرة كانت سمحة الخولى تدرك حقيقة الدور الوطنى الذى يمكن للموسيقى أن تلعبه فى إذكاء الروح الوطنية والتبصير بحقيقة السياسات الاستعمارية والحركات التحررية فضلا عن دور الموسيقى فى الوعى العام، وهى، على سبيل المثال، تتحدث عن سيد درويش فتقول :

«ولعل أروع ما وفق فيه سيد درويش فى أوبريتاته هو تجسيده الموسيقى الفذ للشخصيات الاستعمارية والاستغلالية المرفوضة، والتى عبر عنها بألحان تقطر تهكما وسخرية، بما شفى غليل المستمع المصرى وأضحكه من القلب، وأطلق آلامه وجروحه الدفينة».

(١٨)

تدرك سمحة الخولى مكانة الموسيقى فى البنيان الفكرى والفنى لأمتها وهى بحكم ثقافتها الرفيعة لاتنظر إلى الموسيقى نظرة منعزلة عن الفنون الأخرى على نحو ما ينظر كثير من الأكاديميين، ولكنها ترى أصداء للنهضة الموسيقية فى فروع أخرى من الفن، كما ترى النسيج القومى للفنون وهو يرتبط بعضه ببعض بأدق الروابط، ونحن نراها عند حديثها عن سيد درويش تنتبه إلى ما قد نسميه « ظاهرة تزامن مولد الفنون الجديدة» فى المجتمع المصرى فى مستهل القرن العشرين، وهى تعبر عن هذا المعنى بعبارتها الواضحة فتقول :

«...أسفرت المواجهة بين الحضارة الغربية والمجتمع المصرى، فى مستهل القرن، عن مولد فنون جديدة لم تعرفها البلاد فيما ورثت عن الماضى، فشهدت مصر مولد حركة مسرحية واسعة تقبلها الجمهور بحفاوة أدت لازدهار عدد من فرق المسرح اللامعة، كما ظهرت الفنون التشكيلية لأول مرة فى المجتمع المصرى،

واحتل مبدعوها مكانة قومية نعرفها فى فن محمود مختار، مثال مصر العظيم، وتصوير محمود سعيد وراغب عياد وصبرى وناجى وغيرهم، وكان المناخ السائد فى مطلع القرن وما بعده ينبض بالوعى القومى والرغبة فى تأكيد الشخصية المصرية، من خلال فنون أرحب وأحدث وأصدق تعبيرًا عن الانسان المصرى الجديد .. وكان الاتصال بالغرب، بين يدى بعض هؤلاء الرواد وسيلة لإثراء الثقافة المصرية وفتح آفاق جديدة لها .. وفى ظل هذا المناخ ازدهرت موسيقى سيد درويش بجناحيها : التقليدى المتمثل فى أدواره العشرة الشهيرة والموشحات والطقاطيق، والمستحدث متمثلا فى المسرح الغنائى الذى فتح آفاقًا هائلة للغناء المصرى والموسيقى المصرية، بل ولوجدان الانسان المصرى . وأخذت مصر، على يديه، تنتقل بالتدريج من جو مغانى الطرب والاطار النغمى الرتيب، المرتبط بكلمات فجه خليعة، لاتواكب تأجج المشاعر الوطنية ولا تتصل بها من قريب أو بعيد .. وأحدث هذا الفنان العبقرى فى حياته القصيرة التى مرت كالشهاب تحولا موسيقيًا واجتماعيًا هائلاً، ألا وهو اقتراب الموسيقى المصرية لأول مرة، من نبض المجتمع وآماله وطموحاته، وبذلك رفع الغناء والموسيقى فى مصر إلى مرتبة جديدة بين الفنون الجادة المعبرة عن فترة الانتقال الحاسمة فى مطلع القرن».

(١٩)

وبعد فقرات طويلة من الحديث عن أثر سيد درويش فى الثقافة المصرية تتأمل سمحة الخولى فيما اكتشفته من «التوافق» الذى حدث ما بين إنجاز الموسيقيين المصريين وإنجاز الشعراء المصريين المعاصرين لهم وتقول :

« ...وإذا كنا نعتبر الموسيقى المصرية المتطورة مناظرة ومواكبة للشعر العربى الحديث فى مصر، فان ذلك يرجع إلى الحاجة النفسية المشتركة للشعراء والموسيقيين لتوسيع آفاق تعبيرهم الفنى وإثراء إبداعهم بتجارب نفسية عميقة جديدة فرضتها حياة الانسان المصرى فى هذا القرن، وليس من قبيل المصادفة أن الشعر الحديث والموسيقى المصرية المتطورة (للمؤلفين القوميين) قد ظهرا فى فترة متقاربة، وأن كلاً من الاتجاهين لاقى مقاومة شديدة من السلفيين ورافضى التجديد فى حد ذاته، ولعل الشعر الحديث فى مصر قد نجح فى تثبيت أقدامه فى الحياة الثقافية بأفضل مما أتيح للموسيقى المصرية المتطورة، رغم اتساع تجارب الجيلين الثانى والثالث من المؤلفين، ومن هذا المنطلق نشعر أن سيد درويش ليس بعيد الصلة عن العوامل التى أنتجت الشعر الحديث بحكم تأثيره غير المباشر على الموسيقى المصرية المتطورة التى تعتبر صنو الشعر الحديث، وربما توأمه ».

(٢٠)

ولعل هذا المعنى نفسه هو الذى كان وراء موقف سمحة الخولى فى الالتفات فى حديثها عن الفنان أبو بكر خيرت إلى تسجيل اكتشافها للأثر الاجتماعى فى موسيقى هذا الرائد الموسيقى، وهى تلمح هذا الأثر، وتقارن فى ذكاء بينه وبين الآثار التى وجدت فى الفنون الأخرى فتقول :

«عندما بدأ خيرت كتابة مؤلفات موسيقية بعد عودته من فرنسا، كان مثله الأعلى هو الموسيقى الكلاسيكية والرومانسية الغربية التى بهرته وخاصة منها مؤلفات البيانو، وكان هو من المحظوظين الذين أوتوا سلاسة وبراعة طبيعية

نادرة فى عزف البيانو، آلته الأثيرة، ولذلك جاءت مؤلفاته المبكرة للبيانو شديدة التأثر فى ألحانها وهارمونياتها وصياغتها بتلك النماذج الأوروبية من موسيقى شوبان بالذات، وكان من حسن حظه أن حفلات الجمعية المصرية لهواة الموسيقى أتاحت له فرصة عزف مؤلفاته للبيانو بنفسه».

«وكانت أغلب هذه الأعمال المبكرة «دراسات» للبيانو، أسماها «دراسات شاعرية Etudes Lyriques»، وهى تعتمد عادة على لحن بارز سلس بمصاحبة آربيجيه (مع تقابلات إيقاعية فى أحيان نادرة)، ويمكن القول بأنها كانت صورا مبسطة من بعض «ليليات» ودراسات شوبان. وجدير بالذكر أن خيرت ليس المؤلف الوحيد الذى بدأ حياته الموسيقية مقلدا لمؤلفين آخرين، فهذا شأن المبدعين جميعا، وإن اختلفوا فى طول الفترة التى يستغرقونها لاكتشاف أسلوب شخصى مميز لكل منهم».

«ومن بين مؤلفات البيانو المبكرة أبدع خيرت عملا أطول وأكثر تركيزا من الدراسات الشاعرية، هو القصيد Poéme للبيانو، وهو عمل كبير لم ينل حظه من الانتشار، رغم أنه بلا شك من أهم كتابات الفترة المبكرة وأقيمها . ويمكن القول بأن البيانو كان المحور الرئيسى لتعبير خيرت فى تلك الفترة، رغم ما كتبه فيها من بعض أعمال أخرى لموسيقى الحجرة وقد كنت خيرت من موسيقى الحجرة عددا محدودا لم ينل انتشارا كبيرا، وهى تنتمى كلها للمرحلة «قبل المصرية» فى إبداعه، ومن الأغانى الفنية (الليدر Lieder)، وهو نوع من الأغانى الفنية على شعر رصين يلحن للغناء والبيانو، وأفضل نماذجه عند شوبيرت وشومان وبرامز وبعض الفرنسيين فى «الميلودى»). وظلت السمة الغالبة على

أعمال الفترة السابقة للخمسينات سمة أوروبية، تفتقر لأى ملامح مصرية أو لملامح أسلوب شخصى».

«ومن الظواهر الغريبة هنا أن الفنون التشكيلية ـ وهى الأخرى قد كانت جديدة على المجتمع المصرى ـ لم تقع فى دائرة التقليد المطلق للغرب لفترات طويلة، ولعل ذلك راجع لرسوخ التكوين الفنى للتشكيليين الأوائل، مثل محمود مختار ومحمود سعيد وراغب عياد وصحبهم (وهو ما لم يتيسر للمؤلفين الموسيقيين من جيل الرواد)، كما كانت أعمالهم مستندة إلى مرجعية تاريخية مصرية شامخة فى هذا المجال، مهدت لهم طريق الإبداع المصرى الأصيل والصادق. أما فى «التأليف الموسيقى» فإن مرجعية التراث الموسيقى الغنائى التقليدى كانت على العكس تقود لاتجاه مضاد لمفهوم التأليف الموسيقى بمعناه الغربى المركب، ولذلك جاءت الإبداعات المصرية الموسيقية الأولى فى هذا المجال هشة، وهو ما يجب أن يؤخذ فى الاعتبار عند محاولة تقييم إنتاج مؤلفى جيل الرواد فى الموسيقى المصرية وخاصة فى مراحل «البدايات» ».

(٢١)

وتصل سمحة الخولى إلى النقطة التى تبلور فيها الحديث عن التحول الفنى الهائل فى مسيرة أبو بكر خيرت فتقول:

«مر أبو بكر خيرت حوالى منتصف القرن بتحول روحى وفنى هائل حين مسته روح ثورة سنة ١٩٥٢ بالمشاعر الوطنية الفياضة التى أذكتها فى المجتمع، وبالوعى القومى الجديد الذى فتح عيون المصريين لطموحات سياسية وثقافية دفعتهم لمحاولة اكتشاف الذات المصرية والتعبير عنها بصدق. ولاح أن الطريق لتحقيق

هذه الطموحات يمر عبر التراث الشعبى المصرى ـ الذى كان هامشيا فى ظل الحكم الملكى ـ فأصبح الإنسان المصرى البسيط ـ بحكمته وتعبيره عن ذاته فى الحقول وفى المدن الصغيرة ـ خارج دائرة الأرستقراطية الثرية ـ هو الدليل والرمز للثقافة المصرية المنشودة».

«وإذا كان الوعى بالخصوصية المصرية قد بدأ مبكرا فى الفنون التشكيلية وربما فى المسرح، إلا أنه لم يبدأ فى مجال التأليف الموسيقى ـ بمعناه المركب (من اللحن والإيقاع والتكثيف النغمى والتلوين ـ والمختلف عن الموسيقى العربية أحادية اللحن) ـ إلا على يد خيرت وجيله، كان على هذا الفن الوليد، فن التأليف الموسيقى، أن يتلمس طريقة نحو تعبير ينبىء بخصوصية مصرية قومية يمكن أن تفرض نفسها رغم استخدامها لتقنيات غربية. وكان أبو بكر خيرت فى طليعة الركب، بل كان أول وأهم من حمل لواء الموسيقى القومية المصرية، فجاءت مؤلفاته، بعد منتصف القرن، متسمة بصبغة مصرية واضحة استمدها من استلهامه المبسط والمباشر لعناصر شعبية، وتجلى هذا الاتجاه الجديد فى موسيقاه بدءًا من السيمفونية «الشعبية» (الفولكلورية مصنف ٢١) وفى المتتابعة الشعبية Suite Folkorique مصنف ٢٤ فى مقام دو الكبير، وفى حركة التنويعات على لحن لسيد درويش كان يغنيه زعبلّة بطل أوبريت شهرزاد، وربما تجلى هذا الاتجاه نحو المصرية بشكل أوضح فى أعماله الشهيرة للكورال والأوركسترا، أما الأعمال الأوركسترالية ذات الطابع المصرى فقد جاءت فتحًا حقيقيًا للجمهور المصرى الذى رحب أشد الترحيب بأن تتردد أصداء موسيقاه فى أعمال للأوركسترا السيمفونى، إذ كان فى تلك الفترة قد بدأ يسمع ويتذوق الموسيقى الغربية «الكلاسيكية» (والمقصود هنا الفنية الجادة) من خلال أحاديث د. حسين

فوزى فى الشرح والتحليل البارع فى الإذاعة، ومن خلال حفلات أوركسترا القاهرة السيمفونى الذى تبلور وجوده الثقافى فى مصر منذ أواخر الخمسينات، وكانت حفلاته فى الأوبرا القديمة صباح الجمعة للطلبة مدرسة حقيقية للاستماع والتثقيف الموسيقى».

وتستطرد الدكتورة سمحة الخولى فى هامش كتابها إلي ملحوظة مهمة لتاريخ ثقافتنا الموسيقية فتقول:

«كانت حفلات صباح الجمعة هذه فى حقيقتها بروفات نهائية لحفلة مساء السبت الرسمية ولكنها اشتهرت بين القادة بأن جمهورها أدفأ وأفضل تقبلا للموسيقى من حفلات السبت، وكان الدخول لحفلات الجمعة بخمسة قروش!!»

(٢٢)

وتشير صاحبة الذكريات إلى أن الوفاء قد دفعها إلى تحمل المعاناة وبذل الجهد من أجل تدوين التراث الموسيقى الذى خلفه الفنان أبو بكر خيرت، وهى حين تلخص بعض المتاعب التى صادفتها فى هذه المرحلة تدلنا على بعض آثار حريق الأوبرا (١٩٧١) التى لم نكن نعرفها، كما تدلنا من ناحية أخرى على ما يمكن للجهود الصادقة أن تحققه فى مثل هذا السبيل، ونرى أنفسنا وهى تحدثنا بالحظ الذى صادفه أبو بكر خيرت بعد مماته حين رزق بوفاء هذه الأستاذة ودأبها من أجل تحقيق غايتها فى إحياء تراثه، والشاهد أن بذل الجهد فى مثل هذا الميدان ينم بوضوح عن مدى الإخلاص للفن، ذلك أن بعض الجانب الإنسانى فى الفنان يدفعه إلى أن يهمل تراث غيره قدر ما يستطيع، إلا أن تتاح للأنا العليا الفرصة لتفعل مثل هذا الذى فعلت مع تراث أبى بكر خيرت، ولنقرأ ما ترويه الدكتورة سمحة الخولى عن هذه التجربة حيث تقول:

«... ولكن الصعوبات التى أحاطت بمدونات تلك الأعمال - منذ أتت عليها نيران حريق الأوبرا سنة ١٩٧١ - كانت أشق مما يُتصور. فقد كان المكان الطبيعى لهذه النوتات النادرة (بحكم صعوبة التصوير الضوئى فى تلك الفترة، وبحكم أنها كانت مخطوطة ولم تنشر) هو مكتبة دار الأوبر القديمة، وعندما شب الحريق الذى دمر البناء التاريخى، دمر معه جُل مدونات موسيقى خيرت واسطواناتها، ولم يكن هناك من أقاربه مَنْ يرعى تراثه بعد رحيله، فليس له أبناء، وأرملته البولندية غادرت البلاد، ولذلك أودعت نوتاته فى الأوبرا، حيث التهمتها النيران!! واضطررنا إلى عملية أشبه بالتنقيب عن الآثار بحثًا عن تلك المدونات التى ضاعت معالمها وتناثرت، واستطعنا أن نجمع لدينا مدونات لبعض مؤلفاته، ولكن كان هناك عمل واحد تعذر الحصول على نوتاته، وكان قد أدرج فى برنامج إحدى الرحلات الفنية لأوركسترا الكونسرفتوار فى أوربا فلم نجد وسيلة غير تكليف طلاب التأليف والنظريات بالكونسرفتوار باستكمال تدوينها من الاسطوانة تدوينا سمعيا!! وهكذا أمكن التغلب على ما خلفه حريق الأوبرا من خراب، وعادت أحد أعمال أبو بكر خيرت للحياة من جديد».

(٢٣)

أما الوفاء الإنسانى فى أروع صوره فنراه فى حديث الدكتورة سمحة الخولى عن زوجها الراحل المؤلف الموسيقى جمال عبدالرحيم، وهى حريصة فى تصويرها لشخصية هذا الرجل العظيم على أن تصور ملامحه النفسية قبل أن تصور ملامحه الفنية، وهى تصفه فى فقرة من فقرات كتابها بما لم تصف به غيره، و هى تجيد هذا الوصف لاجئة إلى الجمع بين الصفات البدنية والصفات

الروحية وبين الانطباعات النفسية والعقلية، وتنطق عباراتها فى وصف هذا الرجل العظيم باجتماع الحب والتقدير والوفاء، وهى تستهل هذا الوصف بقولها:

«نفس صافية رقراقة كنفس الطفل، وحكمة عميقة، وذكاء حاد يختفى وراء نظرة هادفة حالمة.. وإرادة صلبة حصنته ضد إغراء الكسب السريع والانتشار السطحى ومنحته القدرة على متابعة البحث الشاق على طريق الموسيقى المصرية الجديدة، طريق يجعل العالم الخارجى يصيخ السمع لموسيقى النيل، حين تأتيهم متدثرة فى أساليب عالمية معروفة، ولكنها تتحدث بنبرة شرقية أصيلة المقامات والإيقاعات، تفرض نفسها على المستمع فى أى مكان فى العالم، بكل الوضوح والطلاقة.. عُدَّتَه فى ارتياد هذا الطريق الشاق ثقافته الواسعة واهتمامه الكَبير بحضارات الشرق ودياناته وفلسفته، وتعمقه فى التاريخ، وهداه فى تحقيق أهدافه فهمه العميق ودراسته الجادة الطويلة للموسيقى فى واحدة من أعرق أكاديمياتها فى ألمانيا (أكاديمية فرايبورج)».

(٢٤)

وتجيد الدكتورة سمحة الخولى تلخيص مسيرة حياة جمال عبدالرحيم العملية على نحو مركز يكفل تصوير إبداعه وتفرده على نحو يليق بهذا الإبداع وذلك التفرد، وهى تكتب عباراتها بأسلوب علمى دقيق لكنه فى الوقت ذاته محمل بكل ما يمكن للوجدان الصادق أن يضفيه على عبارة علمية دقيقة مركزة.

تقول الدكتورة سمحة الخولى:

«سلك جمال عبد الرحيم هذه الطريق الشاقة من البداية وهو يعلم تماما أنها ليست معبدة، وأن الالتزام بمُثلِه ومبادئه الفنية سيحمله تضحيات كبيرة، ولم

يتردد أبدا، فقد كان مدفوعًا بقوة أكبر، إذ كان يؤمن من البداية أن الموهبة التى أغدقها الله عليه تلزمه بأن يخلص للإبداع الموسيقى، وأن يكرس حياته لإبداع موسيقى مصرية تفرض نفسها على عالم الموسيقى الكبير بنفس معاييره وقيمه، ولكن بلهجة مصرية صادقة. وكان يعلم أنه لابد من جهد شاق طويل ورهبنة فى محراب الموسيقى لكى يحقق هذا الهدف، ولكى ينتج موسيقى مصرية تسلك طريقها فى عالم الموسيقى الكبير دون التمسح بنعرة قومية زائفة، أو الاختفاء وراء اتجاهات محلية تُتخذ ذريعة لتبرير القصور أو البدائية!. لم تكن الدولة قد أوفدت أى بعثة للتأليف الموسيقى قبل جمال عبدالرحيم... وهو قد بدأ يواجه صعوبة الهدف ووعورة الطريق قبل أن يحقق أمله فى الحصول على بعثة لدراسة التأليف الموسيقى فى ألمانيا، فقد بدأ يكافح كفاحا مستميتا لتهيئة نفسه لهذه الدراسة، منذ أن كان طالبا بقسم التاريخ بكلية الآداب، وعاونته جمعية الجرامافون على تلقى دروس البيانو والهارمونى، على يدى هكّمَانُ، على نفقتها»...

«وفى العام الأخير قبل تخرجه توفى والده الموسيقى الشرقى الأصيل عبدالرحيم محمد، فوجد جمال عبدالرحيم نفسه مسئولا عن أسرته، وكان مخرجه الطبيعى الوحيد أن يسارع لوظيفة حكومية تمده بالمال، لكنه رفض الرضوخ لقيود الوظيفة، وهو على أبواب الأمل فى حياة مختلفة... فقضى ثلاث سنوات فى التدريس الحر، ولم يقتنع بقبول وظيفة حكومية؛ إلا عندما شعر بأنها ستقربه من هدفه للإيفاد فى بعثة لدراسة الموسيقى فى ألمانيا، فعمل أمينا مساعدا لمكتبة كلية الفنون الجميلة، حيث روى ظمأه للمعرفة والقراءة وانكب على مواصلة دراسته للغة الألمانية فعلمها لنفسه.. وهو يفخر دائما بأن معلمه

للغة الألمانية هو شاعرها ومفكرها الكبير«جوته».. وبمثاليته وإصراره العجيب أتقنها إتقانا لا يتوافر إلا لأبنائها، حديثا وكتابة، حتى أن أحد وزراء الثقافة الألمان حيّاه فى خطاب قال فيه «لم ألتق فى حياتى بأجنبى أتقن اللغة الألمانية مثل جمال عبدالرحيم»!»

(٢٥)

وتلقى الدكتورة سمحة الخولى بعض الضوء على عبقرية جمال عبد الرحيم فى التأليف الموسيقى، وهى تصور هذه العبقرية باتجاهاتها المتعددة من أصالة تلزم صاحبها بمستوى معين من الفن الأصيل الراقى، وتجعله يتردد فى تقديم ما دون هذا المستوى، ومن ارتياد للمجهول ومن قدرة على فرض أسلوب الذات، ومن قدرة على الاتيان بغير المألوف، ومن صبر على عدم التقدير أو عدم الفهم، ومن إيمان بالمستقبل، وهى تجمل الحديث عن كل هذه المكونات العبقرية فى عبارات موجزة وموحية فتقول:

« ... كان شغله الشاغل (الحديث عن جمال عبد الرحيم) فى عمله الشاق فى التأليف ليجد لنفسه أسلوبا شخصيا - حديثا ومصريا فى آن واحد - كان شغله الشاغل أن يُرضى نفسه وأن يحصل على موافقة ذلك الرقيب الداخلى الصارم الذى يشعر به فى داخله..! فهو لا يسمح ولم يسمح لنفسه أبدا، بتقديم أى عمل موسيقى إلا إذا كان راضيا عنه تماما، سواء كان هذا العمل أغنية شعبية للأطفال يصوغها بأسلوب الألحان المتشابكة لكورال الأطفال، أو كان «صوناتة» سيعزفها أشهر العازفين العالميين مثل صوناتة الكمان (التى عزفها له عازفون من عشر دول أوروبية خلال العشرين عاما الماضية). وبهذه المثالية والإصرار استطاع أن يواجه الدهشة والاستغراب، بل وربما «الاستنكار» أحيانا لفنه الجديد الجرىء»...

«وعندما أبدى أحد الأدباء رأيا شخصيا سلبيا فى موسيقاه (ربما عن نقص فى الخبرة الموسيقية) لم يغضب جمال عبدالرحيم ولم يتألم بل ابتسم فى تسامح وثقة وقال: «سيثبت الزمن قيمة موسيقاى، ولا يضيرنى أن يأتى الاعتراف بها بعد عشرة أعوام أو بعد خمسين عامًا، فأنا أكتب موسيقى للغد المشرق وللبقاء وليس للانتشار السريع والانطفاء السريع... وكل فن جديد يجب أن يتوقع بعض المقاومة إذا كان جديدا حقا. وهذا شأن أعرق الحضارات الموسيقية... وتاريخ الموسيقى زاخر بهذه الأمثلة، فقد كان معاصرو بيتهوفن يتهمونه بالجنون لأنه أدخل بعض التجديدات الهارمونية...! وسيد درويش كان ممنوعا من دخول معقل الموسيقى العربية... وهكذا. وأنا واثق من أنه سوف يأتى اليوم الذى تستعيد فيه مصر حضارتها العريقة، وسوف يكون للموسيقى شأن كبير فى هذا».

(٢٦)

وتتحدث سمحة الخولى باعتزاز شديد عن أستاذها العظيم الدكتور حسين فوزى، وهى تصفه بأنه «الرجل الذى كرَّس حياته لتعريف مواطنيه بفنون الموسيقى الغربية، وظل يكافح بكل طاقاته لإثراء حياة مواطنيه والارتقاء بخبراتهم الموسيقية، من خلال الكلمة المسموعة، والكلمة المقروءة»، كذلك تصفه بأنه «المثل والقدوة فى التخطيط والتنظيم والمتابعة طوال ما يزيد على نصف قرن - فهو من أعلام التنوير الموسيقى، حيث حمل على عاتقه، بكل صدق وتفانٍ، الجانب الموسيقى ضمن التيار الشامل فى المجتمع المصرى للاقتراب من منجزات الإنسانية الكبرى فى الفنون، فى الأدب والمسرح والتشكيل».

والحق أن حديث الدكتورة سمحة الخولى عن هذا المفكر العبقرى العظيم يحفل بكثير من الوفاء والامتنان والتقدير والإعجاب وكل ما كان هذا الرجل العظيم يستحقه.

ولست أستطيع أن أمنع نفسى من الاستطراد إلى ذكر موقف شهدته بنفسى حين كان هذا الرجل العظيم وهو فى الثمانين حريصا على أن يدفع عن هذه الأستاذة العظيمة بعض الظلم والجحود اللذين لقيتهما فى فترة من الفترات، وقد دفعه خلقه النبيل إلى أن يتأبى على حضور مجلس من المجالس المهمة احتجاجًا على موقف رئيس هذا المجلس الظالم للدكتورة سمحة الخولى، وعندما سألته فى هذا الموقف كانت إجابته بالنص وباختصار شديد: «إذا أضيمت سمحة فكأنما أضمت أنا تمامًا بتمام» ومن الإنصاف أن نشير إلى أن الدكتورة سمحة الخولى كانت تبادل هذا الأستاذ احترامًا وتقديرًا واعتزازًا باحترام وتقدير واعتزاز، وهو ما تنطق به عباراتها حيث تقول:

«إن حياة هذا الرائد والفنان والعالم والمفكر تستحق أكثر من وقفة تأمل، فهى قد كانت سلسلة متصلة الحلقات. بجانب أعماله العلمية الأكاديمية فى تخصصه. للتعريف بالموسيقى الرفيعة ونشر تذوقها وتوجيه مسار منشآتها المصرية ورعايتها رعاية رشيدة مخلصة دءوبا، متجردة عن أى مطمع مادى لكسب المال، أو معنى لتقلد منصب» .

(٢٧)

وتلقى الدكتورة سمحة الخولى الضوء على هذه الجزئية من تكوين هذا الرجل العظيم وإنجازاته بذكاء شديد فتقول:

«... وجدير بالذكر أن أعظم ما حققه د. حسين فوزى فى حياة مصر الموسيقية لم يكن من خلال وظائفه الرسمية التى تقلدها لفترات محدودة بعد الثورة، حين دعاه الأستاذ فتحى رضوان وزير الإرشاد القومى ليكون وكيلا دائما لوزارته، ثم دعاه د.ثروت عكاشة وكيلاً أول لوزارة الثقافة والإرشاد القومى، ولكنه ترك المنصب الحكومى بعد فترة، ومضى ليكمل رسالته التى أخذها على عاتقه حتى آخر حياته، أستاذًا ومعلما وكاتبا وفنانا، ترك فى حياة مصر الموسيقية بصمة لن تنسى».

وتؤكد الدكتورة سمحة الخولى على أنه لولا اجتماع الوطنية الصادقة وحب الموسيقى فى شخصية الدكتور حسين فوزى ما أمكن لوطنه مصر أن ينجز كثيرًا مما أنجز فى ثقافتنا المصرية المعاصرة:

«كما أن للدكتور حسين فوزى كذلك دورًا موسيقيًا عميقًا بعيد الأثر، مارسه فى كتاباته، كما مارسه أحيانًا فى رعاية منشآت موسيقية، كالكونسرفتوار، من وراء الكواليس. وكان مدفوعًا فى جهاده الثقافى الموسيقى الممتد عبر قرابة ثلثى قرن - بعاطفتين هما: عشقه الحقيقى للموسيقى، وشعوره الوطنى الصادق. وهذا الدور العميق الذى قام به حسين فوزى فى نسيج الثقافة المصرية لم تُسلط عليه الأضواء بما يستحقه من تقدير وعرفان».

(٢٨)

ومن المهم أن نلتفت إلى ما تصف به الدكتورة سمحة الخولى طبيعة علاقتها هى وزملائها وتلاميذها بالدكتور حسين فوزى، وهى تقدم لنا فى كتابها وصفا دقيقًا تضرب به المثل على مدى ما يمكن لمثل هذه العلاقة أن تثمره على المستوى الاكاديمى فى المجالات الفنية:

«حَدَث مَنْ مارس العمل معه عن قرب، فى كل مجالات الموسيقى على اتساعها، وحَدَث من ارتبط به بصداقة امتزجت فيها بعض ملامح الأستاذية والبنوة، وهو حديث مَنْ تطلع إليه واسترشد بخبراته، وحاول أن يقترب من عالمه الثقافى الواسع».

وتلقى سمحة الخولى بعض الضوء على عبقرية الجانب الموسيقى فى تكوين الدكتور حسين فوزى وهى حريصة على أن تلخص القدرات العقلية الفائقة لهذا الرجل التى مكنته من أن يقوم، وحده، بدور تعجز الهيئات عن القيام به:

«وهو بحكم الدراسة الشخصية والهواية والاطلاع والممارسة العملية فنان موسيقى متعمق، أوتى بصيرة موسيقية وحساسية فنية لم تتهيأ إلا للمعدودين من صفوة معاصريه، ولا نجاوز الحقيقة إذ اقررنا أنها لا تتهيأ لكثير من المتخصصين. وهو بجانب هذا أديب وكاتب بارع يتميز بأسلوب جزل يتسم بروح الفكاهة حتى فى تناوله لأعقد الموضوعات، وهو ما تشهد به كتبه «السندباديات»، أو كتبه فى الموسيقى أو تاريخ الحضارة، وتشهد به كذلك مقالاته التى نشرت، على مدى حقب ثلاث، فى جريدة الأهرام، وهى كتابات باقية، ستظل مصدرًا بالغ الثراء لتنوير أجيال وأجيال من قراء العربية المتطلعين للمعرفة فى ميادين العلم والفن».

«قام د. حسين فوزى وحده، أو بكثير من جهده الشخصى، بدفع حركة التأليف والترجمة فى الموسيقى بشكل غير مسبوق، وسوف يذكر له التاريخ أنه ألف أول كتاب بالعربية عن الموسيقى السيمفونية، وهو الذى صدرت طبعته الأولى عن دار المعارف سنة ١٩٥٠ وهو أمتع وأشمل كتاب تناول مؤلفات سيمفونية بالشرح».

(٢٩)

والشاهد أن سمحة الخولى تصل فى إيمانها بالموهبة الموسيقية، أو بالفطرة الموسيقية على حد تعبيرها فى بعض الفقرات، إلى آفاق لم يصل إليها دراويش الموهبة أنفسهم، ولننظر على سبيل المثال إلى تقييمها للدور الموسيقى الذى لعبه الفنان سيد درويش حيث تراه صاحب الفضل فى تأصيل الغناء الكورالى البوليفونى المتعدد الألحان في موسيقانا العربية، وهى لا تجد حرجا في أن ترجع السبب فى هذا الإنجاز الكبير إلي فطرة سيد درويش الموسيقية وهى تقول:

«... ولد سيد درويش فى عصر لا يعرف من الموسيقى غير المغنى الفرد فيمجده ويقدسه ويخضع له الموسيقى، كما يخضع له البطانة (الكورس) الصغيرة التابعة له، وعندما مات كان قد أصل غناء الثنائيات بأسلوب الحوار الغنائى، بل وطرق مجالاً أكثر صعوبة هو مجال الغناء عن موقف مسرحى مركب بإسناد ألحان مختلفة لشخصيات المسرحية، ليعلق كل منها على الموقف من زاويته الخاصة فى الوقت نفسه».

وتردف سمحة الخولى حديثها هذا ببلورة لرأيها فى إنجاز سيد درويش فتقول:

«وإذا كان (أى سيد درويش) قد توصل إلى هذا الغناء البوليفونى بفطرته دون تعليم خاص فى هذا المجال بالذات، فإنما كان ذلك مظهرًا آخر من مظاهر تفتحه الفنى ورغبته فى توسيع آفاق الموسيقى فى مسرحياته الغنائية».

●●

ولا يقف تقدير سمحة الخولى لسيد درويش عند هذا الحد لكنها بالاضافة إلى هذا تشير إلى دور هذا الرائد الموسيقى العظيم فى توسيع دائرة المستمتعين بالموسيقى، وتوسيع دائرة اهتمام الموسيقى بالحياة كذلك، ثم فى تطويع الموسيقى للتعبير والتأثير النفسى، وهى تلخص حديثها هذا فى عبارة أدبية جميلة تقول فيها:

«عندما ولد سيد درويش كانت الموسيقى المصرية والغناء فنًّا للخاصة، وعندما مات كانت موسيقاه وألحانه تتردد فى أنحاء البلاد ملكا للعامة من أبناء الشعب كله».

(٣٠)

على هذا النحو تدرك سمحة الخولى أو تصور مكانة سيد درويش فى التاريخ القومى لموسيقى وطنه، ولا أظن أحدًا غيرها وصل بتقييم هذا الرجل إلى هذه الذروة من التقدير العميق، وهى تعزف عبارات أخرى على هذا اللحن نفسه فتقول:

«وعندما بدأ سيد درويش حياته كانت الموسيقى المصرية الغنائية لا تعرف غير الشجن والوجد للهيام، وعندما انتهت حياته كانت الموسيقى تغنى للوطنية، وتعبر عن طائفة العمال،وتوحى بجو الريف وتسخر من الحكام الطغاة».

«وجد سيد درويش والموسيقى المصرية الغنائية بطيئة رتيبة حافلة بالتكرار المعطوط، تعتمد اعتمادًا كليًا على الزخرف النغمى الخارجى، وليس لها أى نصيب من التعبير العاطفى أو التأثير النفسى المباشر. ومات سيد درويش بعد أن فتحت موسيقاه، وخاصةً المسرحية منها، آفاقًا جديدة فى مجال التعبير والتأثير النفسى حين وثق ارتباط الألحان بمعانى الكلمات وأجواء المشاهد. وحل النشاط والصدق والحركة محل البطء والتكرار والرتابة».

... ...

وبعد خمس وعشرين صفحة من الفقرات السابقة التى كتبتها الدكتورة سمحة الخولى تعود الأستاذة الأكاديمية إلى هذه المعانى فتزيدها عمقًا وتأصيلاً وهى تصف الإنجاز الموسيقى لسيد درويش فتقول:

« ... وأخذت مصر، على يديه، تنتقل بالتدريج من جو مغانى الطرب والإطار النغمى الرتيب، المرتبط بكلمات فجة خليعة، لا تواكب تأجج المشاعر الوطنية ولا تتصل بها من قريب أو بعيد».

«وأحدث هذا الفنان العبقرى - فى حياته القصيرة التى مرت كالشهاب - تحولاً موسيقيًا واجتماعيًا هائلاً، ألا وهو اقتراب الموسيقى المصرية لأول مرة، من نبض المجتمع وآماله وطموحاته وبذلك رفع الغناء والموسيقى فى مصر إلى مرتبة جديدة بين الفنون الجادة، المعبرة عن فترة الانتقال الحاسمة فى مطلع القرن».

(٣١)

وتشير سمحة الخولى إلى الدور الذى لعبه الفنان سيد درويش فى بث الصدق الفنى فى فن الدور فتقول:

«ترك - سيد درويش بصمة رومانسية خاصة على فن الدور، فعلى المستوى التعبيرى نلمس فى كلمات وتلحين بعض أدواره نبرة صدق تنبئ عن واقع حياته الشخصية، حوّله بفنه إلى غناء شجى «متقن»، ارتفع عن مجرد التغليف النغمى لكلمات لا حياة فيها تفتقر إلى الشاعرية وإلى الحس المرهف، فطرق فى هذه الأدوار عالم الصدق الفنى، الذى لم يشتهر به الغناء المصرى التقليدى، لا فى مطلع القرن ولا بعده».

كذلك تشير الدكتورة سمحة الخولى إلى تفوقه سيد درويش فى أداء أدواره الشهيرة:

«وحتى على الجانب التقنى لفن الغناء التقليدى، جاءت أدواره الشهيرة اختبارًا ومقياسًا لقدرات المغنى على الأداء المترامى الأبعاد، المتقن فى الانتقالات المقامية، ولا زالت هذه الأدوار حتى اليوم (تمثل) تحديًا واختبارًا صعبا للقدرات الحقيقية، الصوتية والنفسية، لأى مغنّ محترف، وخاصة إذا كان المرجع فيها هو تسجيلاته لها على الإسطوانات بصوته الرجولى الخشن، الخالى من بهرجة ونعومة الصوت الغنائى المألوف. فقد كان أداؤه لها تأكيدًا أكبر لطاقاته الخلاقة، بما أضفاه عليها من تعبير، وزخرف موسيقى متجدد لايتاح إلا لفنان موهوب مقتدر».

(٣٢)

وتجهر سمحة الخولى بالقول بأن جيل المؤلفين الموسيقيين المصريين ليسوا إلا امتدادًا لسيد درويش على الرغم من اختلاف اللغة الموسيقية التى تعاملوا بها، وهى تقيم أدلتها العلمية على صوابٌ هذا الرأى فتقول:

«... يدهش القارئ إذا قدمنا له جيل الرواد من المؤلفين القوميين المصريين: أبو بكر خيرت (١٩١٠ ـ١٩٦٣)، و يوسف جريس (١٨٩٩ ـ١٩٦١)، وحسن رشيد (١٨٩٦ ـ ١٩٦٩)، على أن فنهم الموسيقى المتطور يمكن اعتباره امتدادًا للاتجاه الذى بدأه سيد درويش فى تطوير الموسيقى المصرية. هذا على الرغم من الاختلاف الجوهرى فى معاملاتهم مع موسيقى مركبة العناصر (اللحن والإيقاع وتكثيف النغم: هارمونيا وبوليفونيا)، وهى لغة تختلف عن اللغة الموسيقية الشرقية الثنائية العناصر (اللحن والإيقاع) التى تعامل بها سيد دويش. إن نظرة شاملة لتطور الموسيقى المصرية فى النصف الأول من هذا القرن لتدلنا على أن

المؤلفين القوميين المصريين بأجيالهم الثلاثة: جيل الرواد والجيلان التاليان له، ليسوا إلا امتدادًا منطقيًا وجماليًا لما بدأه سيد درويش من تطوير للموسيقى المصرية، هذا رغم أن المؤلفين القوميين يسعون إلى خلق موسيقى مصرية الجوهر، مصاغة بلغة مستمدة من الغرب وبأدواته الفنية، وقابلة للانتشار خارج الحدود المصرية معبرة عن روح البلد الذى أبدعها. فالتطوير من الخارج، أى بعناصر موسيقية خارجة عن لغة الموسيقى المصرية الموروثة ليس إلا الخطوة الطبيعية التالية للتطوير من الداخل والذى بدأه فارسنا سيد دويش وسار على نهجه فيه فطاحل الملحنين فى النصف الأول من القرن».

(٣٣)

وتزيد سمحة الخولى هذه النقطة إيضاحًا بما تورده من أمثلة من أعمال أبو بكر خيرت السيمفونية وهى لا تتناول التأثيرات الظاهرة فحسب، وإنما تلفت النظر إلى التقارب فى الأسلوب اللحنى:

«وربما كان من المفيد أن نشير هنا إلى قدر من التشابه الموسيقى والروحى بين سيد درويش وأبو بكر خيرت ولا نقصد هنا أن أبو بكر خيرت استلهم ألحانًا لسيد درويش (فى المتتابعة الشعبية للأوركسترا)، أو بنى تنويعات على لحن من أوبريت شهر زاد (فى سيمفونيته الثالثة) ولكنا نشير إلى ما أكاد ألمسه بينهما من تقارب فى أسلوب الابتكار اللحنى ذى الاستدارة المصرية الشرقية، فلكل منهما طريقته فى التعامل مع الخط اللحنى تشبه الآخر، بل أكاد ألمس آثار هذه الطريقة فى لغة خيرت الهارمونية والبوليفونية وعذوبة زخارفه اللحنية، خاصة فى الكتابة لآلات النفخ الخشبية».

(٣٤)

ومع هذا الإيمان الشديد بالتطور الموسيقى نرى سمحة الخولى فى الوقت ذاته قادرة على أن تكتشف مواطن التفوق فى أعمال الملحنين الشرقيين المحافظين، وعلى رأسهم الفنان زكريا أحمد وهى تتحدث عن تكوين هذا الفنان وجهوده فى التأليف الموسيقى فتصفه بأنه: «صاحب الفطرة الموسيقية» وبأنه «الفنان الذى دخل ميدان الموسيقى العربية من أوسع الأبواب، إذ حفظ القرآن الكريم، فاستقامت له موسيقى اللغة العربية، ورتله فتمكن من روح اللحن العربى، وزاده أداؤه للقصائد الدينية تعمقًا فى أسرار الروح العربية الموسيقية، وعندما انتقل بعد ذلك إلى التلحين كان مزودًا بتلك النشأة التقليدية العريقة التى أثبتت الكثير من المواهب الموسيقية، فكانت له ألحان مطرية مشجية بلا تكلف أو إسراف، اختار لها مقامات تلائم جوها العاطفى، وكانت له أغان فيها من الحيوية والنخوة العربية والبدوية ما ميزها عن كثير من ألحان العصر، وعبر عن الأرومة العربية التى كان يعتز بانتسابه إليها ، وهداه إحساسه الموسيقى الفطرى فى كثير من ألحانه إلى التوفيق بين روح الكلمات واللحن وذلك داخل حدود السياق النغمى العذب الذى هو عماد الغناء العربى».

«وكان زكريا أحمد صادقًا فى فهمه لطبيعة موهبته فلم يحد بها عن طريق التقاليد الغنائية التى نشأ عليها ولم تجرفه تيارات التجديد والاقتباس التى انجذبت بالغناء نحو عرض سطحى تافه من الموسيقى الغربية وانغمست به فى تيار من الرخاوة والليونة».

(٣٥)

وتشيد سمحة الخولى بالدور الفنى الذى لعبه الفنان محمد القصبجى على مدى تاريخه الموسيقى إلى أن تصل إلى تحديد دقيق لإنجاز القصبجى تعبر عنه بقولها إنه:

«ارتفع بدور ووظيفة الفرقة الموسيقية فى تلحينه بشكل فريد».

وهى تشير إلى طبيعة الإنجاز المتميز الذى أنجزه الفنان محمد القصبجى فتشير إلى تميز بعض ألحانه حيث:

«تقوم المقدمة الموسيقية للفرقة بتمهيد الجو النفسى للنص الغنائى، وقد بلغ ذروة حقيقية فى هذا الميدان فى مقدمته لأغنيته الرائعة «رق الحبيب» فهو قد أضفى عليها طابع التلهف والترقب المتوتر، بتكوينات لحنية وإيقاعية قلقة وغير منسابة توحى بميزان خماسى، وبذلك تخدم تماما محور النص الغنائى وهو الترقب المتلهف على لقاء موعود، وهنا ابتعد تماما عن التلحين النمطى المعروف حيث الجمل الموسيقية مبسطة متراصَّة النغمات (بما يسمى الحركة المتصلة فى اللحن) ومتعادلة فى طولها وتعتمد على التكرار أو التسلسل دون النظر إلى طبيعة الجو النفسى للنص الغنائى».

(٣٦)

وتشير الدكتورة سمحة الخولى إلى جانب ثان من جوانب التميز فى موسيقى الفنان محمد القصبجى فتقول:

«...... وللقصبجى فى فواصله الموسيقية (اللازمات) لمسة خاصة تتجح كثيرًا فى الخروج على الكليشيهات شبه المحفوظة، وغالبا ما تكون متصلة اتصالاً عضويا بالتلحين الغنائى ذاته».

وتذهب الدكتورة سمحة الخولى إلى أن ترجع إلى الفطرة الموسيقية جزءًا كبيرًا من عبقرية إنجاز القصبجى وذلك على نحو ما أثبتت هذه الفكرة من قبل فيما يتعلق بسيد درويش، وهى ترى أن الموسيقار محمد القصبجى قد اهتدى بفطرته إلى مبدأ التلحين المنفصل، وذلك على الرغم من أنها لا تنفى تفتحه ولا فهمه للموسيقى الغربية حيث كان يحرص على ارتياد حفلات الأوبرا وهى تقول:

« .... وقد ارتفع القصبجى فى تلحينه بشكل عام عن الالتزام بالنمط «الشعبى» الذى يقتصر على لحن واحد لكل «مذهب» ولحن ثان يتكرر لكل «دور»، مهما تغيرت المعانى والأجواء النفسية، بل هدته فطرته إلى المبدأ الآخر فى التلحين الغنائى، وهو الذى يسمى فى الغرب «التلحين المتصل» ـ Through Composed، وفيه يصوغ الملحن لكل بيت أو مقطع شعرى لحنا خاصا به مسايرًا لمعانيه وأجوائه. وقد كان هذا المبدأ سر نجاح ملحنى الأغانى الفنية (الليدر Lieder) فى الغرب فى أهم أعمالهم، من أمثال شوبيرت وشومان وهو جو فولف. ولا نظن أن القصبجى قد اطلع على نماذج من «التلحين المتصل» واقتدى بها، وإن كان معروفا عنه تفتحه لكل ما هو جيد وقيم فى الموسيقى، وكان يحرص على حضور عروض الأوبرا الإيطالية، وإن لم يتأثر كثيرًا بتقاليدها أو أساليبها، بل هو قد توصل لهذا المبدأ فى التلحين بوحى من فطرته الموسيقية وحساسيته المرهفة وروح التطلع التى سادت خلال حياته».

(٣٧)

وترى الدكتورة سمحة الخولى أن القصبجى قد استطاع أن يطور الموسيقى العربية من الداخل، وهى تشرح معنى هذا المصطلح النقدى الذى صكته للتعبير عن إنجاز القصبجى فتقول:

«.... كان (أى القصبجى) حريصا على توسيع إطار الألحان بما يبرز العنصر النفسى فيها، ويحرص على إثراء ألحانه بفكر مبتكر غير مقيد بالأساليب النمطية الموروثة، كما أنه وظّف أدواته الموسيقية الموروثة: اللحن والإيقاع وحدهما للتوصل إلى أسلوب أكثر صدقا وتعبيرا وحيوية فى التلحين، ولكن بنفس الأدوات الفنية الأصلية».

... ...

وعند هذا الحد تردف سمحة الخولى برأيها فى قيمة هذا الاتجاه الإصلاحى مقارنة بينه وبين اتجاهات أخرى لا تذكر اسماء أصحابها ولكنها تدرك أن من السهل على القارئ أن يكتشف اسماءهم واتجاهاتهم، وهى تقول:

«.... وهذا فى تصورى هو الاتجاه الصحى الرشيد الذى حماه من عدوى الاقتباس والتطعيم والنقل، وأسعفته مواهبه على تجديد التلحين بأسلوب طبيعى غير مفتعل، فيه صدق وابتكار، وهما صفتان ميزتا شخصية القصبجى الإنسان والفنان على السواء».

(٣٨)

وتولى سمحة الخولى عناية خاصة للحديث عن علاقة القصبجى بآلة العود وتطويرها من أجل رفع كفايتها الصوتية، وهى تردف حديثها عن هذا الجانب بشهادة لها من واقع ذكرياتها القديمة عن هذا الفنان القدير.

«... وما دمنا نتحدث عن التطوير من الداخل فلا بد لنا أن نشير إلى دراسات القصبجى لآلته المفضلة: العود، وما أجراه عليها من محاولات لتعديل مقاييس صنعها وصولاً بها إلى أقوى وأرخم صوت: فهو لم يكن مجرد عازف ڤيرتيوزى (وهذا وصف العازفين الذين بلغوا قمة البراعة فى الغرب) بل عالم وباحث وخبير بصناعة الآلة كما هو خبير بعزفها».

«كان يحضر لمعهد «معلمات الموسيقى» - بناء على دعوة من عميدته الألمانية - لكى يقضى معنا ساعة يفيض علينا فيها بما يشاء من عزف وتقاسيم وألحان وملاحظات ومناقشات، كان لها أكبر الأثر فى توازن نظرتنا للموسيقى وازدياد احترامنا لفطاحل الموسيقى الشرقية. وكانت لديه مجموعة عالية القيمة من العيدان، بل كان يخص كل آلة بنوع معين من العزف، فهذا عود التقاسيم، وكان يزيده وترا سادسًا، لكى يوسع إطارًا أكثر للترديد بين ديوان وآخر فى عزف التقاسيم، وهذا عود لتلحين الطقاطيق وآخر للأدوار والأغانى الطويلة..».

(٣٩)

على هذا النمط من التحليل الموسيقى العلمى والأخذ بأيدينا نحو فهم الفن تمضى الدكتورة سمحة الخولى فى تعاملها مع أعلام الموسيقى العربية المعاصرين الذين ترى لهم مكانة فنية تستحق الدراسة والكتابة والتعليق وهى، على سبيل المثال، تكشف لنا عن سر نجاح الموسيقار سيد مكاوى وهو، فى رأيها، وصوله إلى السر القادر على صدق التعبير. وهى تعبر عن هذه الفكرة فتقول:

« ... لعل ارتباط سيد مكاوى بالتلحين للمسرح هو الذى هداه، كما هدى سيد درويش من قبل، إلى نبذ الأنغام المرصوصة والتخلص من المحسنات اللحنية الجوفاء، ومحاولة النفاذ إلى جوهر معنى الكلمات مباشرة، وبالرغم من سلاسة ألحانه وبساطتها البادية، إلا أنها دائمًا تعبر عن جو الكلمات بأمانة وصدق غير مألوفين فى التلحين الغنائى عندنا. وهكذا نجح هذا الفنان بحساسيته الموسيقية وحدها، فى خلق الجسر الذى يقرب بين فن الشعب والفن الثقافى الرفيع».

«.... وقيمة ألحان سيد مكاوى الناجحة إنها تعود المستمع على أن يتطلب؛ فى أبسط الألحان الغنائية نفس القيم الفنية التى لا غنى عنها فى كل عمل موسيقى رفيع، ألا وهى الأصالة وصدق التعبير».

••

وتلخص الدكتورة سمحة الخولى بعض آرائها فى قيمة ألحان الموسيقار سيد مكاوى فتقول:

«.... فكانت ألحانه لأغانى «الليلة الكبيرة» «لمسرح العرائس» من أجمل ما سمع من هذا النوع، كما أن تلحينه لأغانى الكورس والرجال فى مسرحية بريخت «الإنسان الطيب»، وخاصة أغنيتى دخان أزرق، والحصان الثامن، كان خطوة كبيرة لإثبات قابلية الألحان العربية للتعبير الصادق».

(٤٠)

وتعود الدكتورة سمحة الخولى إلى طفولتها لتعبر عن الامتنان للاسهامات الموسيقية التى تضافرت على تكوين شخصيتها الفنية، وهى تشير إلى عبقرية المناهج المدرسية فى ذلك الوقت حيث اعتمدت هذه المناهج على مختارات وأمثلة من أناشيد الهراوى وألحان أحمد خيرت، وهى تكتشف، بعد عقود من الزمن، فى ألحان أحمد خيرت بعدًا ثقافيا وفنيا ذا قيمة كبيرة تقول:

«... تحية لخيرت أفندى الذى أضاء طفولتنا بأغانيه المعبرة الجميلة... وياليتها تعود للمدارس وبرامج الإعلام لتقومّ ألسنة الأطفال وترسخ انتماءهم لبلادهم ولغتهم، وتؤكد فى نفوسهم المعانى التربوية الجميلة التى ينبغى أن تتعاون عليها كل عناصر التعليم فى الطفولة».

... ...

وتفصل سمحة الخولى القول العلمى فى قيمة أناشيد خيرت والهراوى فتروى تجربتها الشخصية مع هذه الألحان التى كانت قادرة على أن تحقق الأهداف التربوية والتعليمية بنجاح منقطع النظير، وهى تروى هذه التجارب الشخصية التى عايشتها على مدى سنوات متباعدة فى مراحل دراستها المختلفة، ثم وهى جدة تغنى للأحفاد بعض هذه الألحان التى احتفظت بها ذاكرتها:

«... عندما التحقنا، أنا وزميلاتى، بمعهد معلمات الموسيقى (كلية التربية الموسيقية بجامعة حلوان حاليًا) وجدنا فى أناشيد الأطفال والنشء التى أعدها أحمد خيرت والهراوى أكبر معين لنا لأن رسالتها نَيِّرة وواضحة وتصل إلى القلوب مباشرة. ولا أترك هذا الحديث قبل أن أشير إلى واحد من أرق أناشيدهما هو:

يا عم يا خبَّاز — يا بائع الفطِير
اصنع لنا فطيرة — تهدي إلي الأمير
واكتب عليها اسمي — واسم أخي سمير
وهاتها نأكلها — في الطريق الكبير

وناهيك عن سعادة الأطفال عند أدائهم لحركات تمثيلية منطلقة معبرة عند غناء هذا النشيد، ومجالها فيه واسع حقًا، من استدارة الفطيرة، إلى حركة الإهداء للأمير، وتقليد كتابة الأسماء، وأخيرًا: نأكلها فى الطبق الكبير..!»

«ولعل أناشيد خيرت أفندى الوطنية كانت أقرب من غيرها من هذا النوع من الأناشيد الوطنية «والملكية» لقلوبنا، فهى من الحالات القليلة التى كان لها انعكاس نفسى على الأطفال، على عكس الكلمات النمطية الجوفاء التى كانت تشعرنا بالفتور (وبالنفور أحيانا)، وكانت أول ما تمحوه الذاكرة من الذكريات الموسيقية

لطفولتنا. أما أناشيد خيرت الأخرى فقد اكتسبت حياة جديدة فى تجاربنا مع أجيال الأبناء ثم الأحفاد، فقد كانت محفورة فى خيالنا وذاكرتنا، وكانت تلقى من هذه الأجيال قبولاً فوريا، ويكاد لا يضارعها فى هذا النجاح إلا بعض أغانى ذلك الفنان المبدع محمد فوزى للأطفال».

«وأجمل ما فى أناشيد خيرت والهراوى أن كثيرين منا يغنونها لأحفاد مغتربين يعيشون فى بيئات أجنبية لا تمت لمصر ولا للعروبة بصلة، وأظن أن هذه الأغانى البسيطة المعبرة سهلة الحفظ، هى أول ما يطرق أسماعهم ويرسخ فى ذاكرتهم من تجارب موسيقية من موطنهم الأصلى مصر».

(٤١)

وتلتقط الدكتورة سمحة الخولى الخيط لتعبر عن رؤية تربوية واعية بقيمة العناصر القومية فى تكوين الوجدان الفنى لأبناء الجيل الجديد، وهى تأسى وتتألم لحال الموسيقى فى المدارس المصرية المعاصرة: الأجنبية والوطنية على حد سواء وتقول:

«... وفى هذا المجال، فلا يسعنى إلا أن أتأمل أطفال مصر من الأجيال الجديدة التى تتباهى بأنها تدرس «إنجليش»! أو فى مدارس ألمانية أو فرنسية، حيث يتشكل وجدانها بأغان للطفولة غريبة عن بيئتهم ولغتهم ومجتمعهم.. ولا عجب أن يضعف الانتماء لمصر، وتصبح اللغة العربية كأنها «لغة أجنبية» عند أطفال المدارس الأجنبية فى مصر الآن، وهم أغلبية!!».

«أما أطفال المدارس الحكومية المصرية، فما أتعس الموسيقى فى تكوينهم، وما أشقاهم بما يلقاه هذا الفن فى أغلب هذه المدارس من الاحتقار والنكران، إن لم

يكن التلويح بالتحريم وغير ذلك من أساليب الظلام والتخلف، وإذا كان هذا الحال ينطبق على الأغلبية الساحقة من المدارس المصرية الحكومية فى المدن الكبرى، فلنا أن نتخيل مدى الجدب الموسيقى الذى ينشأ فيه الأطفال فى مدارس القرى والأقاليم!!، ولهذا يرتمون أمام شاشات التليفزيون ويلتقطون منها ما لا علاقة له بالخيال والحساسية «الموسيقية» ولا بالطبع، ولا بالتربية. والجهود المتفرقة فى بعض برامج التليفزيون قد تكون موفقة أحيانا، ولكن قدرة الأسر على الانتقاء والاختيار والتوجيه التربوى تتناقص بسرعة كبيرة!»

(٤٢)

على هذا النحو لا تكف سمحة الخولى عن تأمل تجربتها فى الحياة الموسيقية منذ كانت طفلة تتفتح مواهبها للموسيقى وللعزف الموسيقى، وحتى أصبحت «شيخة الطريقة» المسئولة، بحكم عمادتها وأستاذيتها، عن تقييم الأدوار الفردية والمراحل الفنية فى موسيقانا القومية، والحق أنها تجيد تقييم الأدوار، وتجيد أيضًا رسم التاريخ الفنى القومى من حلقات متصلة، وهى على سبيل المثال تروى ذكرياتها عن أول حفل استمعت فيه إلى ألحان المؤلف المصرى العبقرى يوسف جريس فتقول:

«... فى شتاء ١٩٤٢ أقيمت فى إحدى قاعات القاهرة الكبرى حفلة موسيقية سيمفونية عزف فيها الأوركسترا أعمالا من موسيقى «لوللى» وبيتهوفن، ومالبييرو، وشوسون، ويوسف جريس». وكان بين جمهور المستمعين فى تلك الحفلة فتاة صغيرة كانت تلك الحفلة بالنسبة لها حدثًا لا ينسى، فهى أول مرة تتاح لها فيها فرصة إشباع شغفها البالغ بالموسيقى فى حفلة حية ترى فيها عازفى الأوركسترا رأى العين! ولفت نظر الفتاة الصغيرة اسم «جريس»، وهو

مطبوع فى البرنامج باللغة الفرنسية وتساءلت: أيمكن أن يكون مصريًا؟ وهل فى مصر مؤلفون تعزف لهم الأوركسترات؟ وماذا يكون نوع مؤلفاتهم تلك؟ وعندما عزف القصيد السيمفونى (مصر)، وصعد المؤلف على المسرح لتحية الجمهور وجدت الفتاة الصغيرة الإجابة عن كل أسئلتها، بل ووجدتها من قبل فى الموسيقى ذاتها، فقد كانت موسيقى ذلك القصيد السيمفونى تختلف تمامًا عن موسيقى شوسون ولوللى أو بتهوفن بطبيعة الحال، وكانت فيها أصداء قريبة إلى النفس المصرية. وقد كان برنامج تلك الحفلة منوعًا وكان الأداء جيدًا (أو هكذا خيل إلى المستمعة الصغيرة)، وظلت ذكرى هذا الحفل السيمفونى الأول عالقة فى ذهن الفتاة، ولكن أقوى ما برز فيها هو اسم المؤلف الموسيقى يوسف جريس».

(٤٣)

وتلخص سمحة الخولى ـ بعد هذا التقديم المعتمد على استدعاء الخبرة الشخصية الجميلة من ذاكرة حية ـ ملامح التميز فى موسيقى يوسف جريس... هذا المؤلف المصرى فتقول:

«.... وليوسف جريس فى موسيقاه أسلوب شخصى واضح المعالم، وليس من السهل أن نرجعه إلى تأثير هذا المؤلف أو ذاك. و هو أسلوب يمكن وصفه بأنه قومى تسود فيه روح مصرية حية تنبع من إحساس طبيعى مخلص يبدو غير مقصود، فهو لا يستخدم ألحانًا شعبية مصرية، ولا يرتبط فى ابتكار ألحانه بمميزات شعبية محددة، فقوميته من نوع تلقائى. فإذا تناولنا عناصر ذلك الأسلوب وجدنا الناحية الميلودية (اللحنية) شرقية المزاج بشكل واضح لا فى تفاصيلها من حيث المقام ذو الأبعاد الخاصة ـ فحسب ـ فهو لا يلتزم المقامات

ذات الأبعاد الشرقية - ولكن نستطيع أن نعبر عنها بأنها شرقية الإيحاء بما فيها من انسياب واسترسال وغناء وزخرف».

وتزيد سمحة الخولى هذه الجزئية إيضاحًا بعبارات ذكية قادرة على الاقتراب بنا من عالم النقد الموسيقى العلمى فتقول:

«.... وعنصر الإيقاع الشرقى يبرز فى موسيقاه بصورتين، فهو يستخدم الإيقاعات الشرقية المحددة شبه الراقصة فى بعض أعماله الأوركسترالية، كما أنه متأثر فى كثير من مؤلفاته المنفردة (وخاصة للكمان) بعنصر الإيقاع المسترسل المتغير فى أسلوب الموال. أما أسلوبه الهارمونى فيغلب عليه نوع من البساطة والاتساع والغنى، وله فى هذه الناحية اتجاه خاص هو الذى يميز أسلوبه بصبغة شخصية، فهو يبتعد عن الالتزامات التقليدية للغة الهارمونية الأوروبية فى كثير من الأحيان، ويدخل فى هارمونيته شيئًا من عنصر التنافر الذى يقربه من روح الموسيقى المعاصرة، بما لها من جرأة هارمونية مميزة، فمن ذلك مثلاً استخدامه للخامسات المتوالية فى أكثر من موضع، حتى لتبدو سمة مميزة لموسيقاه».

(٤٤)

وتؤكد سمحة الخولى على ما ترى أنه يمثل جوهر العظمة فى حياة موسيقار مصرى عظيم آخر هو الفنان يوسف السيسى وهى تتحدث بفخر عن أدائه الموسيقى فتقول:

«... ولكن القمة العليا فى مساره هى أولا وأخيرا صدق انتمائه المصرى ووطنيته، فهذا المعنى هو الذى أضاء حياته ووجهه فى كل أعماله: فى وضع برامج حفلاته التى اهتم فيها اهتماما صادقا بالمؤلفات المصرية فى فترة كانت

فيها الموسيقى المصرية ومؤلفوها بحاجة إلى رعاية ومساندة حقيقية للقضية، فلا بقاء ولا نمو لأى حركة موسيقية تفتقر إلى التواصل والألفة مع الجمهور».

... ...

وتثنى سمحة الخولى على روح الإيثار والمودة والأبوة فى شخصية يوسف السيسى فتقول:

«كان السيسى يحرص على أن يصطحب معه الفنانين المصريين فى مجالات العزف والغناء، بل وفرقة الباليه أيضًا ولم يخطر بباله أن يستأثر وحده بالمغانم الأدبية والمادية، بل كان شغله الشاغل أن يقدم صورة مضيئة لمصر ولموسيقييها».

«وهو الذى فتح ذراعيه بكل الرعاية والترحيب لكل الفنانين المصريين الشبان سواء فى قيادة الأوركسترا، أو فى العزف أو الغناء واحتضن كل المواهب المصرية بدءا من الإبداع إلى الأداء، وبذلك كسب احترام الجميع، وأكد لنفسه مكانا باقيا فى تاريخ الموسيقى المصرية».

... ...

وهى تنحو المنحنى نفسه فى تعاملها مع كثير من الأعمال الموسيقية المعاصرة، وهى على سبيل المثال تثنى على أوبرا «أنس الوجود» لعزيز الشوان فتقول:

«عزيز الشوان واحد من أهم شخصيات المؤلفين المصريين القوميين من الجيل الثانى (١٩١٦ - ١٩٩٣)، وهو صاحب أكبر عمل موسيقى مأخوذ عن قصة من ألف ليلة وليلة وهو أوبرا «أنس الوجود».

(٤٥)

وتحتفى الدكتورة سمحة الخولى بكل إبداع فنى مصرى على أرض الوطن أو فى خارج الحدود وهى على سبيل المثال تقدم موسيقى حليم الضبع من خلال

هذه الرؤية المنحازة للوطن ولخصوصياته، وتتحدث بحب وإعجاب عن إنجازه فى العالم الجديد فتقول:

«... وحليم الضبع، ككل مؤلف موسيقى مصرى جديد، ظاهرة فنية ينبغى تناولها بكثير من التبصر وتقويمها على أساس من العلم الموسيقى العميق، وخاصة فى هذه المرحلة الدقيقة التى بدأت موسيقانا تتلمس فيها طريقها إلى العالمية، لتتخلص من إسار المحلية الراكدة، وتواجه تحدى الموسيقى العالمية فى عصر زاخر بتيارات التجديد الثورية. وحليم الضبع الذى يقيم ويعمل فى أمريكا، لابد أن نتتبع من بعيد إنتاجه الوفير من الموسيقى الأوركسترالية وموسيقى الباليه، ومؤلفات البيانو، ولمجموعات صغيرة وغريبة أحيانا من الآلات، وكذلك محاولاته فى الموسيقى الإلكترونية».

••

وهى، بعد هذا، تلخص رؤيتها لأعمال حليم الضبع الجانحة إلى التجريب فى قولها:

«... ولا شك أن مثل هذا الاحتكاك والتفاعل بين موسيقانا وبين التيارات العالمية الخصبة علامة على طريق المستقبل، فبهذا تتفتح أمامها مجالات جديدة غنية للبحث والنمو الحر المنطلق فى سبيل خلق الموسيقى المصرية الجديدة، سواء كان مؤلفها مقيما بجسده فى مصر، أو مغتربا ولكنه مقيم بروحه فى مصر، مثل حليم الضبع فى كثير من إبداعاته».

(٤٦)

ولا تبخل علينا الدكتورة سمحة الخولى بذكريات مفصلة أو تفصيلية عن الجهود التى شاركت فيها من أجل إنشاء معهد الكونسرفتوار الذى أصبحت بعد

فترة من الزمن عميدة له، وهو المعهد الذى وهبته معظم ثمرات حياتها العلمية ونشاطها الأكاديمى، وهى تروى تفصيلات مهمة فى مقدمة حديثها عن ذكرياتها مع المهندس أبو بكر خيرت وتقييمها لجهوده فى التأليف الموسيقى وفى عمادة الكونسرفتوار وذلك حيث تقول:

«كنا أربعة أعضاء يمثلون الفنون المختلفة فى مكتب وزير الثقافة - د. ثروت عكاشة - فى أواخر الخمسينات، وكان مقر الوزارة حينذاك فى قصر عابدين الفسيح. ولفت انتباهى رجل مهيب طويل القامة، ذو وجه مجدور وأنف كبير وعينان صغيرتان ولكنهما ثاقبتان، وكان فى مشيته زهو واعتداد، وسألت زميلاً أقدم منى، فقال لى: هذا هو المهندس أبو بكر خيرت!»

«وبالطبع كنت سمعت عنه وعن شهرته كمهندس معمارى مبتكر، وعرفت أنه يمارس التأليف الموسيقى وإن لم أكن قد استمعت لأى من مؤلفاته، وكنت أعلم أنه عازف بارع للبيانو يعزف مؤلفاته للبيانو بنفسه. وكان خيرت يتردد كثيرًا على مكتب وزير الثقافة، الذى كان يكنُّ له تقديرًا كبيرًا شعرنا به جميعا. والتقينا بعد ذلك فى اجتماعات لجنة الموسيقى بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، وكان من أوائل مشروعاتها إيفاد مجموعة مختارة من الموسيقيين المصريين الواعدين لدراسة قيادة الأوركسترا السيمفونى المصرى الجديد، الذى كان قد انفصل أخيرًا عن الإذاعة وتحول إلى «أوركسترا القاهرة السيمفونى»، ولكن أهم مشروعات اللجنة وأبعدها مغزى، كان التفكير فى إنشاء معهد موسيقى ثالث، فقد كان فى القاهرة معهدان للتربية الموسيقية، أحدهما يخرج معلمات الموسيقى، والآخر وهو الأحدث بكثير - كان يتولى تخريج معلمى الموسيقى».

(٤٧)

وتلخص سمحة الخولى قصة الجهود «الحكومية» التى بذلت من أجل إنشاء معهد الكونسرفتوار ذاكرة بالأسماء الكاملة كل مَنْ كان له فضل فى هذا العمل العظيم:

«... كان هذا المشروع الحيوى مطروحا للبحث بهدف «تخريج فنانى الأداء الموسيقى طبقا للمستويات الأوروبية فى مجالات العزف والغناء وقيادة الأوركسترا والنقد الموسيقى» (وهذا الهدف الأخير لم يتحقق حتى الآن!)، ومنذ أن لاحت الفكرة فى آفاق وزارة الثقافة شُكِّلت لجنة لتدارس أنظمة معاهد «الكونسر فتوار» فى عدد من الدول الغربية والشرقية (أى الاشتراكية)، وبطبيعة الحال كان أبو بكر خيرت من أبرز أعضائها، وكان من بينهم محمود النحاس مدير الأوبرا حينئذ، وصالح عبدون سكرتير لجنة الموسيقى بالمجلس الأعلى، ود. محمود الحفنى رائد التعليم الموسيقى فى مصر، ود. بريجيت شيفر العميدة السابقة لمعهد معلمات الموسيقى (التربية الموسيقية الآن) وبييرو جوارينو الموسيقى الإيطالى الشهير ومدير كونسرفتوار الإسكندرية، وإينياس تيجرمان مدير معهد الموسيقى المعروف باسمه - ومن الموسيقيين المصريين: جمال عبد الرحيم العائد حديثًا من بعثته فى ألمانيا الاتحادية، وكاتبة هذه السطور العائدة من بعثتها فى بريطانيا».

«وقام مقرر اللجنة والدينامو المحرك لنشاطها الدكتور حسين فوزى بتوفير ما تطلبه العمل من معلومات أخرى مكملة للنظم الإيطالية والألمانية والبريطانية وما إليها، كما أضاف لنا الدكتور فوزى بيانات تفصيلية عن التعليم الموسيقى

المتخصص فى روسيا السوفييتية والمجر وغيرهما من البلاد التى زارها. وبعد عملٍ نشطٍ حثيث، بلورت اللجنة تقريرها الذى جمع بين بعض الملامح المميزة للتعليم الموسيقى التخصصى فى بلاد الكتلة الشرقية وبين كونسرفتوارات أوروبا الغربية».

«وخُيل إلينا أن الأمور قد استتبت، ولم يبق إلا استصدار القرارات الرسمية، ولكنا فوجئنا بأن معارضة قوية أثيرت فى مجلس الوزراء حول الفكرة وجدوى إنشاء معهد ثالث للموسيقى؟».

«وكان من الضرورى إعداد مذكرة «دفاعية» تشرح الفوارق بين المعهدين القائمين (للبنات والبنين) لتخريج معلمى التربية الموسيقية للمدارس وبين معهد «الكونسرفتوار» الذى سيتولى مهمة تكوين موسيقيين متخصصين لسد احتياجات الحياة الموسيقية التى أخذت تنمو فى تلك السنوات.. وتم إعداد المذكرة الشارحة، وتمكن وزير الثقافة بحجته وثقله فى المجلس من التغلب على المعارضة للفكرة، ومن الحصول على الموافقة على إنشاء الكونسرفتوار. وفى أواخر صيف سنة ١٩٥٩ جاءنا النبأ العظيم الذى تهللنا له فرحا واستبشرنا به خيرا لمستقبل مصر. وهو القرار الجمهورى بإنشاء «المعهد القومى العالى للموسيقى الكونسرفتوار» ضمن معاهد الفنون التابعة لوزارة الثقافة. وكان الرأى قد استقر على الاحتفاظ بالنسخة الفرنسية لاسم المعهد الجديد «الكونسرفتوار» تأصيلا للفارق بينه وبين المعاهد القائمة فعلاً».

... ...

ولا يفوت سمحة الخولى أن تعلق على هذه الجزئية المهمة راوية ما فعل التاريخ والاستعمال باللفظة الأجنبية:

«وجدير بالذكر هنا أن تسمية «الكونسرفتوار» هذه كان لها وقع غريب على الآذان المصرية، ولكن أبو بكر خيرت كان مصرًا على الاحتفاظ بها ضمن التسمية الرسمية للمعهد، رغم أن هذا الاسم الأعجمى كان مصدر صعوبة فى النطق بل وتهكم (وهجوم) على المعهد».

(٤٨)

تقدر سمحة الخولى جهد أبو بكر خيرت فى تأسيس وعمادة معهد الكونسرفتوار، وهى تقدم لنا تقييما حافلاً بالإنصاف والفهم، تزداد قيمة الوفاء فيه حين نجده صادرًا عن عميدة لاحقة من أصحاب العلم الموسيقى لعميد سابق من أصحاب الهواية فضلاً عن أنها - كما روت - كانت قد اختلفت مع هذا العميد الرائد اختلافا علنيًا حول إحدى القضايا المتعلقة بالتكوين العلمى لطلاب المعهد، ولكنها مع ذلك تقدم لنا صورة مثلى بل ناصعة بالمثالية لهذا الرائد العظيم فتقول:

«... وبدأ أبو بكر خيرت خطوات التنفيذ ليحول القرار إلى حقيقة واقعة، فى عمل مكثف ومتشعب، واستهله بالبحث عن مقر للمعهد، وقد وجده فى فيلاً فى شارع شجرة الدر بالزمالك (وهى التى تحولت الآن إلى مقر لمكتب وزير الثقافة، بعد انتقال الكونسرفتوار إلى مقره الجديد فى الهرم) - وكان أمر المقر أيسر الأمور بالمقارنة إلى الإجراءات التعليمية التنفيذية التى كان من المحتم إنجازها قبل أن يفتح المعهد أبوابه ويتحول الحلم إلى حقيقة - فكان من أشق الإجراءات إعداد لائحة نظام الدراسة بالمعهد وانتخاب الأساتذة وتنظيم أوضاعهم الوظيفية وشراء الآلات الموسيقية وغيرها من مستلزمات الدراسة. وكنت أعجب كيف

يستطيع خيرت إنجاز هذا كله بجانب عمله المعمارى الذى كان يحمله من موقع لآخر، وكان موعد العمل التحضيرى للمعهد يبدأ فى مكتبه بعمارة الإيموبيليا بعد الظهر ، وقد يستمر إعداد اللائحة إلى ساعات، ودهش عبد المنعم الصاوى وكيل وزارة الثقافة حينئذ حين مر علينا بمكتب خيرت فى ساعة متأخرة من المساء، فوجدنا مستغرقين فى إعداد اللائحة «تمهيدًا لافتتاح الدراسة...»

«ورغم الجهد الضخم الذى تطلّبه افتتاح الدراسة فقد كدنا نطير غبطة وسعادة لشعورنا بأنه قد أتيحت لنا ظروف تاريخية نادرة لمعايشة تطور جذرى فى حياة مصر الموسيقية والثقافية، كلٌّ فى مجاله».

«وكوَّن خيرت هيئة تدريس متينة للكونسرفتوار من أفضل الأساتذة الأجانب المقيمين».

«وقام بنقل العضوين المصريين فى لجنة الإنشاء (جمال عبد الرحيم وسمحة الخولى) للمعهد ، كما استقدم من فرنسا أستاذة أخرى».

«وجاء اليوم الكبير أخيرًا وفتح المعهد أبوابه لعدد من الطلاب الذين تم اختيارهم بعناية على مستوى موسيقى يسمح لهم بالالتحاق بالسنة الأولى بالمرحلة العالية، هذا رغم أن لجنة إنشاء المعهد أشارت بوضوح لتفضيل البدء من الطفولة، ولكن من بين الأسماء اللامعة فى طلاب هذه الدفعة البكر لمعهد الكونسرفتوار اسماء ازدانت بها الموسيقى المصرية فيما بعد، مثل أميرة كامل وفيوليت مقار (فى الغناء) وممدوح أبو حديد وأحمد أبو العيد (تشللو) ونيبال منيب، ومحمد نسيم، وسمير عزيز (بيانو) وليلى الصياد وملك داود (نظريات)... وغيرهم».

(٤٩)

وتجيد الدكتورة سمحة الخولى التعبير عن بعض التجارب التى فرضت نفسها على أبو بكر خيرت فى بداية عهده بعمادة معهد الكونسرفتوار بعد تأسيسه:

«ومن أغرب التجارب التى مر بها أبو بكر خيرت فى السنة الأولى للدراسة فى الكونسرفتوار إقبال عدد من الملحنين المعروفين على الالتحاق بالدراسة به، ورغم تجاوزهم لشروط السن وعدم توافر الدراسات الموسيقية السابقة عند أغلبهم.. فقد استطاع خيرت أن يلبى رغبتهم فى الالتحاق، وأثار التحاقهم بالمعهد الجديد ضجة إعلامية رحب بها خيرت تأكيدًا لأهمية المعهد، ورغم طموحهم إلا أنهم لم يستطيعوا التأقلم بسهولة مع ظروف الدراسة الموسيقية العويصة، وتركوا الدراسة واحدًا بعد الآخر فى شهور قليلة!».

... ...

وتحرص سمحة الخولى على أن تشير إلى نجاح أبو بكر خيرت فى تجربته الجديدة التى لم يكن مؤهلا لها بطريقة مباشرة أو «ميكانيكة».. لكن حياته كلها منذ مولده كانت بمثابة التمهيد الحقيقى والكامل لها:

«... وكانت السنوات الأربع الأولى بالكونسرفتوار نادرة فى ثرائها فى حياة أبو بكر خيرت، وكأن كل ما سبقها منذ مولده (١٩١٠) وحتى تلك السنوات كان تمهيدا أراد به القدر أن يؤهله لمواجهة تحديات ومسئوليات تلك السنوات الخصبة، وكان هو مزهوا بما يحققة يوما بعد يوم فى إدارة المعهد، وهو لم تكن له خبرة حقيقية سابقة بهذه الإدارة التعليمية (إذ كانت دراساته الموسيقية فى باريس أثناء بعثته للعمارة دراسات خاصة مع بعض أساتذة كونسرفتوار باريس)».

كذلك تلتفت الدكتورة سمحة الخولى إلى نجاح أبو بكر خيرت بطريقة عملية فى إدماج طلاب المعهد الجديد فى الحياة المهنية من خلال وظائفه وسلطاته الأخرى، وهو الأسلوب «الذكى» الذى لابد لكل مصرى رائد من اللجوء إليه:

«... واستطاع أن يتيح للطلاب المتميزين بالمعهد سواء فى العزف والغناء فرصا لممارسة العمل الموسيقى والتدريب عليه فى الأوركسترا السيمفونى والأوبرا بحكم وضعه الإشرافى فيهما».

(٥٠)

ومع كل هذا التقدير الذى تسبغه الدكتورة سمحة الخولى على أبو بكر خيرت فإنها حريصة على أن تروى بالتفصيل قصة اختلافها معه، وهو الاختلاف الطبيعى الذى لا مناص له من أن يحدث بين الفنان المخلص الموهوب حسن النية الذى يمثله أبو بكر خيرت، وبين ما تمثله سمحة الخولى على الجانب الآخر كنموذج للفنان الاكاديمى الذى يعرف بالضبط حدود ما تنتجه نظم التعليم والتقييم من أثر فى تكوين دارسى الفن، وفى الحياة الفنية بعد ذلك...

تروى سمحة الخولى بأمانة شديدة قصة خلافها مع أبو بكر خيرت فتقول:

«... وفى أواخر السنة الدراسية الرابعة (١٩٦٣) ظهرت مشكلة ضخمة حين قرر خيرت فجأة إلغاء درجات المواد الموسيقية (مثل الهارمونية والكنترابنطية وتاريخ الموسيقى والتحليل والصولفيج إلخ)، وقرر أن يكتفى فى التخرج بدرجة مادة التخصص (العزف أو الغناء أو النظريات) فقط. واعتبرنا نحن - القلة المصرية المؤهلة فى أوروبا - هذا القرار بمثابة ناقوس للخطر المحدق بمستقبل

الكونسرفتوار، وكان عددنا أربعة، حيث انضمت إلينا فى أواخر السنوات الأولى بالمعهد الزميلة عواطف عبد الكريم (بعد عودتها من دراستها بالنمسا) ثم أميمة أمين (بعد عودتها من دراستها بسويسرا) وأمنّت على موقفنا وشاركتنا فى الدفاع عنه د. بريجيت شيفر. وعبثا حاولنا أن نثنيه عن هذه الفكرة ولكنه صمم على موقفه. ولذلك قدمنا مذكرة ضافية للمشرف الإدارى على شئون المعهد حينذاك أمين حماد - فطلب عقد اجتماع موسع لجميع القائمين بالتدريس بالمعهد لمناقشة هذه المشكلة وتقديم بيان مفصل بالمناقشات فى ذلك الاجتماع وما انتهت إليه...»

«.... وانعقد الاجتماع بمكتب خيرت وضم قرابة مائة شخص (منهم مدرسون للمواد الثقافية كاللغات والمواد الاجتماعية بالمرحلة الثانوية الموسيقية للمعهد والتى كانت قد افتتحت قبل ذلك بقليل)، وظهر أن جبهة «المعارضة». بأعضائها الخمسة - لن تصمد فى وجه هذه الأغلبية الضخمة الحريصة على إرضاء العميد، وكان موقفنا أشبه بقصة داوود وجولييت داوود وجالوت! واستمر النقاش سجالاً لعدة ساعات، وأخيرًا بدأ بعض مدرسى الموسيقى الأوروبيين يتحولون عن المساندة المطلقة لفكرة العميد، بناء على ما قدمناه لهم من وثائق قاطعة، وتحول الموقف ، وأرسلت مذكرة مناقشات الاجتماع فى غير صالح فكرة أبو بكر خيرت، وتقرر الأخذ بنفس النظم السائدة فى أوروبا، (أى الأخذ بمجموع التخصص مع المواد الموسيقية الإجبارية الأخرى!) وبالتدريج اقتنع خيرت بأن هذا القرار كان حماية حقيقية لمستقبل الكونسرفتوار من الانزلاق لتخريج مجرد «آلاتية» كما كان الحال قبله».

(٥١)

ولعل الحديث عن أبو بكر خيرت وأثره فى التعليم الموسيقى المصرى يقودنا إلى حديث الدكتورة سمحة الخولى عن رائد آخر تكن له كل تقدير وهو الدكتور محمود الحفنى الذى تعتبره الدكتور سمحة الخولى رائدًا للتعليم الموسيقى فى مصر، وهى تتحدث عن جوهر أثره العلمى على الأجيال المتتالية من دارسى الموسيقى المصريين فتقول:

«ولقد فتحت محاضراته لنا آفاقًا رحبة من المعرفة العقلية، فتعلمنا منه أولى الحقائق فى علوم الموسيقى، وعرفنا الكثير عن التاريخ ومصادره ومراجعه، وبفضله ازداد احترامنا لتراث أجدادنا، بعد أن عرفنا قيمة كتاباتهم النظرية والتاريخية والفلسفية فى الموسيقى. وبمحاضراته تلك أضفى على الموسيقى طابعًا علميًا وتاريخيًا يدعو للاحترام، كما كانت كتبه التعليمية ترافقنا ونحن نشق طريقنا فى مراحل الدراسة الموسيقية التخصصية، الواحدة تلو الأخرى».

ولا يفوت الدكتورة سمحة الخولى أن تثنى الثناء كله على مؤتمر الموسيقى العربية الذى انعقد فى القاهرة عام ١٩٣٢ وهو المؤتمر الذى لا يزال يعد بمثابة علامة فارقة فى الدراسات التاريخية لهذه الموسيقى، وتلقى سمحة الخولى الضوء على دور الدكتور محمود الحفنى فى هذا المؤتمر فتقول:

«... وعندما أردت أن أعمق دراستى للموسيقى العربية، رجعت من بين ما رجعت، إلى كتاب مؤتمر الموسيقى العربية المنعقد فى القاهرة عام ١٩٣٢. وتمثل لى فى كل صفحة من صفحات هذا السفر الضخم، مدى الإنجاز الذى حققه الدكتور الحفنى بالدعوة إلى هذا المؤتمر. لقد كان هذا المؤتمر عملاً تاريخيًا جليلاً أصبح من معالم حياتنا الموسيقية والثقافية فى القرن العشرين، فقد نقل

الموسيقى العربية من ممارسات العصور الوسطى إلى التناول العلمى الحديث، وهيأ المجتمع ليعدل نظرته إلى الموسيقى وأهلها، باعتبارها فنًا وعلمًا له قيمته وللمشتغلين به دراساتهم ومكانتهم الاجتماعية فى العالم الخارجى».

«لقد استطاع الحفنى بعد عودته من بعثته، مشحونًا بطاقة هائلة من الطموح العلمى، وبمساندة تامة من الملك فؤاد وحكومته، أن ينظم هذا المؤتمر الدولى للموسيقى العربية فى مارس ١٩٣٢، وأن يدعو له حشدًا من أكبر الأسماء العربية والشرقية والأوروبية من علماء الموسيقى ومؤلفيها وباحثيها. وهو حشد لا يزال يتفوق بمراحل بعيدة على كل ما سجله أى مؤتمر دولى للموسيقى العربية، عُقد بعده، وحتى يومنا هذا. كذلك دُعيَتْ له فرق موسيقية مثّلت كل البلاد العربية فى مصر وسوريا ولبنان والعراق وتونس والجزائر والمغرب، فقامت بعزف موسيقاتها التى تم تسجيلها على ٣٧٥ اسطوانة».

(٥٢)

وتنتبه سمحة الخولى إلى الدور المهم الذى يمكن لهواة الموسيقى أن يؤثروا به فى الحياة الموسيقية لأمتهم، وهى تتحدث باعتزاز شديد عن دور الدكتور على مصطفى مشرفة باشا فى الجمعية المصرية لهواة الموسيقى، وتحرص على أن تنقل عنه قوله فى مقدمة الكتاب الأول الذى أصدرته هذه الجمعية بعنوان «عشر أغان ممتازة»:

«... وقد أسرف جمهور من خاصتنا الذين يعتد بقولهم وغلوا فى دعواهم أن اللغة العربية قصيرة الباع واضحة العجز، لا تصلح أن تكون أداة للتعبير الموسيقى، وأقل ما يقال فى هؤلاء أنهم يعيبون لغتهم والعيب فيهم».

... ...

وتعطى الدكتورة سمحة الخولى أهمية كبيرة لدراسة الخلفيات التى كانت وراء الاهتمام الذى تملك الرائدة الموسيقية السيدة بهيجة رشيد كسيدة مصرية من هواة الموسيقى ودفعها إلى العمل على جمع الأغانى الشعبية، وتعترف سمحة الخولى فى كتابها بأن تقييمها العلمى لهذا الجهد قد ازداد عمقًا بعد أن قرأت ما لم تكن قرأته من تراث هذه السيدة المخلصة لفكرتها:

«... أعترف أن مقالى الذى نشر عام ١٩٩١ لم تكن قد أتيحت لى فيه بعدُ النظرة المتعمقة الحكيمة فى تقييم هذا الجهد لبهيجة رشيد بكل أبعاده وانعكاساته وآثار إشعاعه... وعندما أعدت قراءة الملابسات الثقافية والاجتماعية لفترة الخمسينات المتأخرة ـ والتى بدأت فيها جهود بهيجة رشيد فى نشر الأغانى الشعبية ـ أقول عندما أعدت قراءة ملابسات تلك الفترة، وأعدت النظر فى مقدمات كتبها والتفاصيل التى حفلت بها كتب بهيجة رشيد الثلاثة، وجدتها تحمل إلينا رسائل كثيرة، لم تكن اتضحت فى القرب الزمنى منها ومن كاتبتها».

«والآن من منظور خبرة السنوات الطويلة التى مارست فيها العمل الموسيقى تدريسا وتنظيما وتنظيرًا وكتابة، اكتسبت تلك الرسائل التى أودعتها بهيجة رشيد فى كتبها أبعادا جديدة، من الضرورى الالتفات إليها الآن».

«أكدت بهيجة رشيد فى كتابها الأول أن اهتمامها بالأغانى الشعبية يرجع لذكريات طفولة سعيدة فى الريف، حيث كانت تقضى أوقاتا جميلة تستمع لغناء الريفيات: عجائزهن وشاباتهن، فحفظت تلك الأغانى ورددتها هى وأخواتها مع أهل الريف البسطاء، فكان الجميع يشتركون فى غناء تلك الأغانى مما ربط بين القلوب ووحَّد بين النفوس...»

وهنا تلتقط الدكتورة سمحة الخولى الخيط وتعقب قائلة:

«... وهذا معنى كبير ينبغى الالتفات إليه لأنه يكاد يتوارى من حياتنا اليوم، فنحن الآن نكاد لا نشعر بذلك الرباط الروحى من الغناء الشعبى المتوارث، والذى يوجد بين أبناء القطر كله مؤكدًا الجذور المشتركة التى يشترك فيها كل المصريين من أبناء الريف والحضر».

(٥٣)

وتنقل سمحة الخولى عن بهيجة رشيد تصويرها للنجاح الذى أحرزته فى تسجيل الأغانى الشعبية، وهو النجاح الذى يعبر عن شخصية واعية وقادرة على الإنجاز على حد وصف الدكتورة سمحة الخولى:

«جاء فى مقدمة كتاب بهيجة رشيد الأول نفسه سنة ١٩٥٨: «وفى السنوات الأخيرة راعنى أن الكثير من الأغانى الشعبية التى سمعتها فى طفولتى فى طريقها للضياع، فأخذت فى جمع ألفاظها وتدوينها بالنوتة الموسيقية، ورأيت أن أسجل بعض ما تحتويه مجموعتى التى تزيد على مائة أغنية فى كتاب يضمها بين دفتيه».

وتعقب سمحة الخولى فى ذكاء مقترن بالامتنان لجهد هذه الرائدة الهاوية وتقول:

«وهى بهذه الكلمات البسيطة تعبر عن وعيها بأثر المتغيرات المعاصرة على البيئة المعنوية للشعب المصرى، وغيرتها على هذا التراث القيم من الأغانى الشعبية من أن تمتد إليها عوامل النسيان والاندثار، أو على الأقل التحريف والتشويه، والتى تهدد صميم الشخصية المصرية! ولذلك تصدت فى صبر

وتواضع ودأب لتدوين نصوص الأغانى وألحانها، كلما تيسر لها ذلك، ولم تبخل بمالها على نشرها وإتاحتها للمصريين وغيرهم، على نفقتها الخاصة».

(٥٤)

وبعد أكثر من ثمانية صفحات فى التعريف بجهد هذه الرائدة الهاوية تصل سمحة الخولى إلى قمة عبارات الامتنان والتقدير لجهد رائدة خدمت الموسيقى القومية خدمة بالغة المغزى والمضمون، وهى فى عباراتها نشير لها أن هذه السيدة قد وضعتنا أمام مسئولية قومية:

«... والآن وبعد مرور كل هذه الأعوام منذ أن ارتادت لنا هذه السيدة الأرستقراطية المرفهة، بجهدها المفرد، مجال جمع وتدوين الأغانى الشعبية المصرية، فإن تلك الجهود قد وضعتنا جميعا أفرادا وجماعات - علمية وحكومية - أمام مسئولية قومية يجب علينا أن نعيها وندركها حق الإدراك، وخاصة بعد كل ما تحقق لنا خلال هذه الأعوام من رسوخ وتقدم فى التعليم والحياة الموسيقية. لكى نمضى فى السير قدما على نهج بهيجة رشيد، ولكن بالوسائل العلمية لعصرنا، فى جهود جمع وتدوين ونشر وتحليل وتوثيق الأغانى الشعبية المصرية، وذلك قبل فوات الأوان، وقبل أن تضيع منا هذه المعالم القيمة للشخصية والروح المصرية، تحت وطأة هذا الفيضان المنهمر من وسائل الإعلام الحديثة».

(٥٥)

تجيد الدكتورة سمحة الخولى التعبير عن الاعتزاز بالزمالة فى العمل الأكاديمى، وهو خلق لا يتأتى إلا لعظماء هذه الطائفة الذين يبرأون من طبائع النفس البشرية التى تؤثر كراهية أصحاب المهنة الواحدة بعضهم بعضًا، وهى تتحدث عن زميلتها الدكتورة عواطف عبد الكريم بحب وإعجاب فى فقرات ننقل للقارىء بعضها:

«تألقت عواطف عبد الكريم أثناء دراستنا بالمعهد ليس كواحدة من أنبغ الطالبات فقط، بل من أجملهن خَلْقا وخُلُقًا وأكثرهن جدية.. وتقاربت خطواتنا - رغم فارق السن - فربط بيننا خيط ذهبى ألف بين العقول والأفكار».

«أثرها الباقى الذى يجب الوقوف عنده والثناء العيق عليه هو دورها فى تأصيل دراسات التأليف الموسيقى فى مصر - فالفارسان اللذان حملا على أكتافهما أكبر العبء فى دعم حركة التأليف الموسيقى الجاد هما جمال عبد الرحيم فى الكونسرفتوار وعواطف عبد الكريم فى كلية التربية الموسيقية - ولولا عملهما وإخلاصهما وعطاؤهما لما قامت للتأليف الموسيقى الجاد فى مصر قائمة. فهو الذى أسس قسم التأليف الموسيقى فى الكونسرفتوار، وهى التى أسست قسم النظريات والتأليف الموسيقى بعد ذلك فى كلية التربية الموسيقية، التى تولت عمادتها لفترتين. وكان لهما معا دور راسخ فى التدريس فكان جمال عبد الرحيم يدرس علوم الهارمونية والتوزيع الموسيقى وقراءة المدونات والتأليف الموسيقى، وكانت هى تتولى تدريس الكنترابنط والفوجة والتحليل، وقامت بينهما أواصر مثالية من الاحترام والتعاون والتقدير المتبادل. وعندما اختار الله إلى جواره جمال عبد الرحيم - كان الإنقاذ الحقيقى حينذاك لقسمه للتأليف الموسيقى بالكونسرفتوار أن تتولى هى رئاسته».

«هى (أى عواطف عبد الكريم) دائمًا صوت العلم والعقل والتجرد، وهى التى تتصدى لحماية القيم الجادة فى أى مجال تشارك فيه».

(٥٦)

وتشير سمحة الخولى إلى موقف زميلتها الدكتورة عواطف عبد الكريم المبكر فى مشاركتها الاختلاف مع أبو بكر خيرت حول نظم تقييم طلاب

الكونسرفتوار.. ثم تشير إلى أن هذه الأستاذة الفاضلة قد عانت مرة أخرى من موقف مشابه اضطرت بسببه إلى ترك كليتها التى تولت عمادتها لتتضم إلى أسرة معهد الكونسرفتوار.. وتورد سمحة الخولى بعض التفصيلات المهمة عن هذا الموقف «المعاصر» فتقول:

«وفى أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات حدث فى كلية التربية الموسيقية - بعد انتهاء عمادتها (أى عمادة عواطف عبد الكريم) - شىء مشابه حين أراد أحد قيادات جامعة حلوان أن يطبق أوتوماتكيا النظم الجامعية المطبقة بالكليات النظرية ذات الأعداد الضخمة، وبذلك فرّغ الدراسة الموسيقية من مضمونها، وذلك فى سبيل توفير الميزانية! - فانتقص إلى النصف الحصص المخصصة لتعليم العزف، وطلب مضاعفة أعداد الفصول فى دراسات الهارمونية (النظرية والعملية) والتحليل الموسيقى من ٧٥ إلى ١٥٠ طالبا فى الفصل! - بينما هذه الدراسات تُعطى عادة لمجموعات صغيرة ما بين ٦ إلى ١٠ طلاب لإتاحة الفرصة الكافية للتوجيه الشخصى من الأستاذ - وكان هذا النظام المطروح وبالاً على العملية التعليمية لم يتحمله ضميرها العلمى، فأعلنت د. عواطف اعتراضها القاطع على هذا الهدم ومبرراته، ثم تحملت بصبر وشجاعة ما تسبب فيه موقفها الحاسم المشرف من منغصات، أدت إلى ترك موقعها فى كليتها إلى حيث استقبلتها أكاديمية الفنون أستاذة فى معهد الكونسرفتوار بكل الترحيب والتقدير».

(٥٧)

لا تجد الدكتورة سمحة الخولى صعوبة فى أن «تشرك قراءها فى الحكم على الفهم الموسيقى الذى يطالعنا به بعض المهتمين بالموسيقى من المثقفين، وهى

تفعل هذا بقدرة فائقة على مناقشة الأفكار الموسيقية الجديدة والقديمة فى مصر وفى العالم الغربى، وهى على سبيل المثال تورد فى كتابها مقالات كتبتها فى حينها تناقش كتابًا لأحد أساتذة الجامعة المصريين من المشغوفين بالموسيقى، وقد أسماه صاحبه الذى ترمز له بالحرفين الأولين من اسمه ف . ز «التعبير الموسيقى» وهى تصل فى عرض أفكاره ونقد بعضها إلى قولها:

«... والحكم بفشل تجديدات الموسيقى الغربية فى القرن العشرين حكم سريع يفتقر إلى كثير من الإثبات لأنه حكم «ذاتى» صرف، وتفسير هذا «الفشل» المتصور يجرنا إلى مشكلة كبرى هى مشكلة «الجمال» فى الموسيقى».

(٥٨)

وبعد فقرات من التحليل تجهر سمحة الخولى برأيهافى الجمال وهو الرأى النابع من خبرة علمية وفنية رفيعة وممتدة وتقول:

«وما هو الجمال بالمعنى المألوف»؟ ألم تتغير مقاييس الجمال فى المو سيقى الأوروبية تغيرات عنيفة خلال القرون العشرة الأخيرة؟ ألم تتغير معايير الاتفاق والتنافر ذاتها تغيرا سار فى شبه دائرة: ألم يكن المثل الأعلى للاتفاق Conso-nance فى «الأورجانوم» فى القرن الحادى عشر هو الخامسات (والخامسات المتوازية)، وهى التى أصبحت فى نظر الهارمونية «الكلاسيكية» تنافرا قبيحا ينبغى تجنبه؟ ألم يتغير مفهوم الجمال فى الموسيقى الأوروبية عندما عادت فى القرن السابع عشر إلى الغناء الإلقائى اليونانى القديم، لكى تتخلص به من التعقيد البوليفونى المتشابك بشكل مهول، وهو الذى غرقت فيه الموسيقى الدينية حينذاك؟ ومنذ ذلك الوقت حل الأسلوب «الهوموفونى» (المعتمد على لحن واحد واضح تصحبه تآلفات هارمونية)، ألم يحل هذا الأسلوب محل الكتابة البوليفونية

الشديدة التشابك، والتى تقوم على تداخل مجموعة كبيرة من الألحان تُسمع فى وقت واحد؟ أليس كل تجديد فى الفن الموسيقى بعدا عن المألوف؟ فلنعد بالذاكرة قليلا إلى استقبال جماهير أوربا لموسيقى بتهوفن فى بداياته: ألم يقل عنه أحد كبار النقاد «إنه أصبح جديرًا بمستشفى المجانين؟».

«إن تاريخ تطور الموسيقى والفنون جميعا هو تطور بمفهوم «الجمال» ومقاييسه التى تتشكل حسب ذوق كل عصر واحتياجاته النفسية والفنية وتركيبته الاجتماعية! فلماذا إذًا نجزع من هذه اللغة الموسيقية المعاصرة الخشنة ونرفضها ونشجبها، لمجرد أننا لم نتعود عليها؟ وكل تجديد سابق كان وقعه على معاصريه بمثل هذه الغرابة فى أول الأمر».

(٥٩)

وفى فقرات أخرى تناقش الدكتورة سمحة الخولى أفكار أستاذ الفلسفة الشهير الذى ترمز له بالحرفين الأولين من اسمه ولقبه (ف. ز) فيما يتعلق بالموسيقى الشرقية فتبين باقتدار مدى عجز مثل هذه الأفكار المتعجلة عن إدراك الصواب.

«... يعرض المؤلف الموسيقى الشرقية على عناصر اللغة الموسيقية الغربية واحدًا واحدا منتهيا من ذلك العرض، وهذه المقارنة إلى أن «ليس لدينا موسيقى بالمعنى الصحيح» على أنه لا يجرنا إلى هذه المقارنة دون أن يبدأ باختبار المبدأ - مبدأ المقارنة - فى ذاته، وهو يبرره لنا على أنه مبدأ سليم صحيح، إذ أن ما بين الموسيقتين ليس إلا اختلافا فى الدرجة لا فى النوع! ومن خلال هذه المقارنة يستخلص ملاحظات قيمة على اللحن والإيقاع - وهما عنصر «الموسيقى الشرقية

التى لا تعرف التوافق الصوتى، والتى ينفى عنها المؤلف اعترافها بعنصر القالب (الفورم)».

«ويعتبر المؤلف تعدد المقامات الشرقية عيبا ويرى فيه نقصا يجب تلافيه لأن العبرة عنده بالاختصار لا بالتعدد. ثم إنه يفسر «بساطة» الألحان الشرقية وضيق نطاقها بما لاحظه على ذلك اللحن القصير الذى اتخذه مادة لتحليلاته. فهو قد وجد أن أبعاده الصوتية تسير فى تلاصق. أى أنها تتبع فى ترتيبها السلم الأبجدى فى تسلسل صاعد أو هابط. وهو يرجح أن مثل هذا التلاصق يحول دون اكتشاف علاقات صوتية كتلك التى يقوم عليها التوافق (الهارمونى) الغربى، وهذا فى نظره هو السر فى انعدام ذلك العنصر المهم من الموسيقى الشرقية، وإلى جانب التلاصق يرى أن التماثل. الذى يجعل شقى اللحن متطابقين مطابقة تامة. من الأسباب التى تبعد اللحن عن الابتكار والتجدد. وحتى تعدد المقامات الشرقية الذى يعتبر من أسباب الثراء فى موسيقانا. يراه المؤلف نقصا يجب تلافيه، فهو يقول... «إننا إذا تأملنا صوت عربة صدئة لوجدناه يتضمن آلاف السلالم!».

وترد الدكتورة سمحة الخولى على هذه الاستنتاجات السريعة بحسم علمى واضح العبارات فتقول:

«من المعروف علميا أن الصوت الموسيقى Sound يختلف عن غيره من الأصوات غير الموسيقية Noise بانتظام ذبذباته، ولا أعتقد أن أصوات العربات الصدئة تخرج عن هذه القاعدة فتصدر أصواتا منتظمة الذبابات يمكن أن تتكون منها آلاف السلالم!».

وتلخص الدكتورة سمحة الخولى تقييمها لآراء أستاذ الفلسفة (ف . ز) التى أوردها فى أكثر من كتاب من كتبه عن الموسيقى فتشير بتركيز إلى تجاهل هذا المؤلف للفروق البارزة بين الحضارتين الغربية والشرقية الإسلامية، وتلفت النظر إلى أن الفنون الإسلامية قد اتخذت اتجاها متفقًا مع الإطار الدينى والاجتماعى والفلسفى والنفسى لشعوب هذه الحضارة.

وتنبهنا الدكتورة سمحة الخولى إلى أن المقارنة لا تجوز ولا تثمر شيئًا ذا بال إذا لم تنتبه إلى الفروق البارزة بين الحضارتين:

« .... أكتفى بأن أقف قليلاً عند ظاهرة عميقة كامنة وراء كل ما صدر عن المؤلف من آراء: فآراؤه عن المقارنة بين الموسيقتين وأحكامه على كل عناصر الموسيقى الشرقية - من لحنية وإيقاعية وتركيبية - كل هذه الأحكام تدل على تجاهله التام لما بين الحضارتين من اختلافات جوهرية كبرى ميدانها الأول هو التعبير الفنى. والموسيقى الشرقية ليست إلا وجها واحدا من أوجه التعبير الفنى للحضارة الشرقية الإسلامية التى اتخذت فنونها كلها اتجاها خاصا يتفق مع الإطار الدينى والاجتماعى والفلسفى والنفسى لهذه الشعوب، وكل دراسة نقدية أو تحليلية لأى فن من فنون هذه الحضارة يجب أن تضع تلك الاختلافات - بينها وبين غيرها من الحضارات - فى المكان الأول، وبذلك تزول نهائيًا ضرورة إجراء المقارنات الخاطئة بين أسلوب موسيقى وأسلوب آخر، وينتفى التناقض والتعارض الذى يحير الكثيرين منا اليوم».

«فإذا اقتنعنا بأن الأساس لهذه المقارنات أساس خاطىء اجتماعيا استطعنا أن نخرج من ذلك برأى خاص فى النتائج والآراء التى ترتبت على هذا المبدأ، وعرفنا

أن المشكلة ليست مشكلة نقص معين يقصر بالموسيقى الشرقية عن الغربية، بل هى مشكلة قصور هذه الموسيقى الشرقية عن أن تفى بالحاجات النفسية لهذا الجيل من الشرقيين المصريين، وبذلك نجد أننا بهذه المقارنات التى خرجنا منها بانتفاء الموسيقى الشرقية (!) ـ قد بترنا المشكلة قبل أن نحاول النظر فى حقيقتها».

(٦١)

وتنطلق الدكتورة سمحة الخولى من المنهج ذاته فى نقد آراء أستاذ الفلسفة فيما يتعلق بتفريقه بين أنصار القومية والشعبية، وهى تقدم لنا الإطار النظرى الكفيل بالوصول إلى الصواب فى مثل هذه الجزئية، وهى تنتبه بذكائها وعلمها إلى أن ما يجمع بعض الموسيقى الغربية الراقصة وبعض الموسيقى الشرقية الدارجة ليس إلا كونهما موسيقى سطحية تقوم على فن سهل مطرب:

«... أدهشتنى مناقشات المؤلف لمن يسميهم أنصار القومية وأنصار الشعبية. وأنصار القومية هم الذين يظنون أن الموسيقى الغربية بعيدة عن الروح الشرقية، ولا يمكن للآذان أن تستسيغها، والمؤلف يرد على هؤلاء بأن جمهورنا قد استساغ نوعا آخر من الموسيقى ـ هى الموسيقى الغربية الراقصة ـ مع بعدها عن الطابع القومى الشرقى، وهذا عنده يثبت أن مشكلة الطابع لا يمكن أن تكون حقيقية، وأن الجمهور الذى استساغ نوعا غريبا عليه يستطيع أن يستسيغ النوع الآخر؟. وهذه الحجة تتجاهل نقطة التقارب بين الموسيقى الشرقية الدارجة (غير الكلاسيكية) والموسيقى الغربية الراقصة، فكلتاهما موسيقى سطحية تقوم أساسا على فن سهل مطرب، وإيقاع مجلجل رتيب، وليس للهارمونى فى

الموسيقى الراقصة إلا قيمة ثانوية لخلوه من أى تعبير، وكلتاهما تجعل موقف المستمع موقفا سلبيا لا يتعدى نطاق اللذة الحسية المحضة، ويمكن توضيح هذا المعنى بأن موسيقى الأطفال فى كثير من البلاد تتشابه فى جوها وروحها، ولذلك يستطيع الأطفال أن يستسيغوها لقربها من لغتهم الموسيقية الطبيعية».

«وأما رد الدكتور «ف . ز» على أنصار الشعبية فهو الذى يعد بحق من أكبر المآخذ على كتابه، وعلى أسلوب تفكيره. فهو ينصحنا بأن نكون حذرين أشد الحذر فى تقبل المادة التى تقدمها الألحان الشعبية المصرية... فإن فننا الشعبى لا يعكس إلا الظلم والاضطهاد والاستعباد ويزخر بمعانى التواكل والتشاؤم... إلخ».

وتسارع سمحة الخولى إلى الرد على هذه الجزئية بقولها:

«... وهل لى أن أسأل السيد المؤلف: كيف استطاع أن يعمم مثل هذه الأحكام الكبرى على مادة مبعثرة فى أنحاء القطر من صعيده إلى دلتاه ومن سواحله إلى واحاته؟ هل بنى نظراته على استقرائه الخاص لتاريخ الشعب المصرى؟ أليس من حق قرائه عليه أن يناقشوه فى صحة هذا الاستقراء والفهم للتاريخ المصرى، والذى يبدو أنه متأثر بالأزمة الواضحة التى نعانيها اليوم فى ثقتنا بذاتنا؟ وإذا تركنا العاطفة والشعور، وحكّمنا العقل فبماذا يفسر لنا المؤلف نظرته إلينا بأننا كنا وحدنا دون شعوب الأرض فى معاناة الظلم والاستعباد».

(٦٢)

وأخيرًا فان سمحة الخولى بشعور وطنى واثق وبحب قومى تحرص على أن تكرر التصدى لمثل هذه الدعوات، وتنبهنا إلى خطورتها وتقول:

«إن دعوة كهذه كفيلة بأن تقضى على البقية الباقية من ثقتنا فى أنفسنا، فى فترة من أدق فترات حياة هذا الشعب، هو فيها أحوج ما يكون إلى الدعائم التى يؤسس عليها حياة روحية ونفسية سليمة، وإذا كان موقفنا إزاء فننا الشعبى قد تبلور فى أحكام بمثل هذا التحدد والوضوح، حتى قبل أن تمتد يد لجمعه وتسجيله ودراسته، فما حاجتنا إذن لهذه الأموال والجهود التى تسخرها الدولة لهذا العمل؟ وإنى لأهيب بالكاتب أن يتريث قبل أن يذيع مثل هذه الأحكام السريعة، فإننا اليوم أبعد ما نكون عن الإلمام الكامل بمقومات الفن الشعبى المصرى وبخصائصه المميزة».

●●

الباب الثالث

ذكريات عطرة

مذكرات الدكتور عبد الحليم منتصر

(١)

ولد الدكتور عبد الحليم منتصر فى قرية الغوابين مركز فارسكور، وتخرج فى كلية العلوم سنة ١٩٣١ فى دفعة من أوليات الدفعات فى الكلية الجديدة، وتتلمذ على العالم الكبير أوليفر أستاذ النبات فى الجامعة المصرية، وحصل على درجة الماجستير بعد تخرجه بعامين ثم أوفد فى بعثة إلى انجلترا وسويسرا حيث حصل على درجة الدكتوراه فى النبات (١٩٣٨) وكان أول من حصل على هذه الدرجة من خريجى كلية العلوم، وقد تدرج فى وظائف هيئة التدريس حتى أصبح أستاذا ووكيلا لكلية العلوم جامعة عين شمس عند نشأتها فعميدًا لها واختير بعد هذا مديرا مؤسسا لجامعة الكويت، وظل يشغل هذه المنصب حتى عام ١٩٦٤.

وكان للدكتور منتصر نشاط علمى وثقافى واجتماعى كبير، فقد كان نقيبا للمهن العلمية وكان من قبل هذا رئيسا لجمعية خريجى كليات العلوم، كما رأس تحرير مجلة رسالة المعلم التى أصدرتها تلك الجمعية منذ يناير ١٩٣٤، وشغل بالإضافة إلى هذا مناصب الامين العام للاتحاد العلمى المصرى، والعربى،وللجمعية المصرية لتاريخ العلوم .

(٢)

صدرت المذكرات التى بين أيدينا عن دار المعارف، ويهمنى قبل أن أتحدث عنها أن أبدأ فأقرر بأن هذا الكتاب هو أولى كتاب بإعادة الطبع لعدة أسباب: الأول: لمستواه ولمحتواه القيم الحافل بالقيم والمعانى والتجارب السامية، السبب الثانى: هو أنه فى حاجة إلى قدر من تحرير وإعداد وذلك بحذف بعض الفقرات المكررة وبعض الصفحات المكررة مرة واثنتين، السبب الثالث: لتخليصه من الأخطاء المطبعية والإملائية الكثيرة التى لا تتناسب مع اسم صاحبه، ولا مع محتوى الكتاب.

ثم أقول: إن هذه مذكرات من نوع متميز ومبتكر، ذلك أن صاحبها العالم الجليل المتفرد قد صنفها فى قسمين، القسم الأول: روى فيه ذكرياته عن عشرة من أعلام الوطن الذين قدر له أن يرتبط بهم ويتعلم منهم، والقسم الثانى: جعله على هيئة لقطات متتابعة غير مرتبة زمنيا ولا موضوعيا، وإنما هى لقطات موحية تعبر عن تجارب عاشها وعن خواطر عابرة مرت بوجدانه وفكره على مدى السنوات، ومن الطبيعى أن تتكرر بعض هذه الخواطر فى حديثه عن الشخصيات العشر، ثم فى أكثر من موضع فى حديثه عن الخواطر العابرة، بل إنها ربما تتكرر أكثر من مرة فى الحديث عن الشخصيات العشر أيضا لأن بعضها يرتبط بأكثر من شخصية من هذه الشخصيات.

على أية حال فإن اختيار عبد الحليم منتصر لهؤلاء العشرة دون غيرهم يعكس - بصورة ما - موقفه من الحياة ومن العلم، ونظرا لأنه كان من أوائل طلبة وخريجى جامعة القاهرة، فمن الطبيعى أن تمتد مظلة معرفته لتشمل أقطاب الفكر والأدب والجامعة الكبار فى ذلك العصر حين كانت الحياة الثقافية متمركزة إلى حد كبير فى بؤرة واحدة،، لكننا مع هذا نستطيع أن نلمح أن

اختياراته تعكس نوعا واضحا من التعمد، فنحن نراه يختار أكبر عالمين من أساتذة كلية العلوم وهما على مصطفى مشرفة (أستاذ الرياضة) وأحمد زكى (أستاذ الكيمياء)، لكننا لا نجده يختار من هؤلاء العشرة عالما من علوم الحياة، أو من علماء النبات الذى هو تخصصه العلمى، مع أن له أستاذا فى مصر هو الأستاذ أوليفر أستاذ النبات العظيم فى الجامعة المصرية، كذلك نراه يختار الرئيسين الأولين للجامعة التى قدر له أن يكون عميدًا لكلية العلوم فيها بعدما كان وكيلاً للكلية عند تأسيسها (محمد كامل حسين، ومصطفى نظيف)، لكنه لا يختار العميد الذى عمل هو نفسه وكيلا له، كما نراه يختار من بين العشرة أو فى طليعتهم الرئيس الأول لجامعة القاهرة حيث درس وتخرج وعمل لفترة طويلة، لكنه لا يذكر الرؤساء التالين وفيهم بعض رجال العلم، وقد كان الرئيس الثانى على سبيل المثال هو على باشا إبراهيم.

(٣)

وبالإضافة إلى هؤلاء الأساتذة الخمسة نجد الدكتور عبد الحليم منتصر حريصا على اختيار خمسة من كبار الأدباء،أو فلنكن أكثر دقة ولنذكر أنه اختار أكبر خمسة أدباء مؤثرين أو أصحاب نفوذ فى عصره وهم: العقاد، وطه حسين، ومحمد حسين هيكل، وأحمد حسن الزيات، وأحمد أمين، ومنهم اثنان من عمداء الجامعة (طه حسين، وأحمد أمين)، ومنهم اثنان من وزراء المعارف (هيكل، وطه حسين)، ومنهم رئيسا تحرير المجلتين الثقافيتين البارزتين الرسالة والثقافة (أحمد حسن الزيات، وأحمد أمين)، فضلا عن الكاتب الأعظم الذى يغنيه اسمه عن كل وصف آخر وهو العقاد بالطبع، ومع هذا فإن عبد الحليم منتصر آثر ألا يختار أدباء موازين لهم فى القيمة الأدبية ممن عرفهم بلاشك، كما آثر أن يبتعد عن الذين كانت لهم اتجاهات مشابهة لاتجاهاته من السابقين عليه.

ومن بين ذوى النفوذ تعمد الدكتور منتصر ألا يختار محمد حسن العشماوى باشا وزير المعارف الأسبق من بين هؤلاء، مع أنه كان من أقاربه الأقربين، ومع أن المذكرات تفصح عن مناقشات حميمة بينهما.

على هذا النحو نرى عبد الحليم منتصر وهو حريص أو حفى بأن يقدم لنا نفسه بتكوينها المتميز الذى اكتسبه من مباشرة ومخالطة هؤلاء العشرة الطيبة على حد تعبيره.

(٤)

نبدأ حديثنا فى هذه المذكرات بالإشارة إلى الإنجاز الجامعى العظيم الذى حققه كأول مدير لجامعة الكويت، ومع أن الدكتور منتصر لم يحرص على أن يسجل ملامح تجربته فى هذه الجامعة، فإن مستوى هذه الجامعة وصيتها الذائع الآن يدلان على ما بذله هو وخلفاؤه من أجلها، وربما تكتفى مذكرات منتصر بما يرويه صاحبها من وجهة نظر الرئيس الأول للجامعة المصرية (لطفى السيد) أو تشجيعه له على أن يقبل العرض ويكون المدير الأول للجامعة الكويتية:

«فى شتاء سنة ١٩٦٢/٦١ اتصلت بى دولة الكويت عن طريق سفيرها فى مصر، ثم عن طريق وكيل وزارة المعارف بها، كى أكون مديرا لجامعتها التى تنوى إنشاءها،وقابلت السفير فى السفارة، ثم زارنى بالمنزل هو ووكيل الوزارة، لكنى كنت مترددا أو لا أتخيل أن أترك عملى فى الكلية والمجمع والاتحاد العلمى، والمؤتمرات العلمية، والجمعيات العلمية المختلفة التى أشارك فى نشاطاتها، وفى مجلة رسالة العلم التى تصدرها جمعية خريجى كليات العلوم وأتولى رئاسة تحريرها منذ إصدارها فى يناير سنة ١٩٣٤. وتوالت الاتصالات وأنا لا أقطع برأى إلى أن خطر لى أن أستشير أستاذنا لطفى السيد وكنت أجلس بجانبه فى

إحدى جلسات المجمع، قلت له: إنى أريد أن آخذ رأيكم فى موضوع خاص، قال: تفضل، قلت: إن الكويت تطلبنى مديرا لجامعتها المنشأة، فرجع برأسه إلى الوراء قليلا وبعد برهة قال: تقبل، قلت: ولكن عملى هنا سوف يتأثر إلى حد كبير، فأجاب: «عملك هناك نفع عام وعملك هنا عمل خاص، والعام يجب الخاص»، فاعتبرت رأيه أمرا ووافقت وبعد أيام كنت فى طريقى للكويت».

هكذا كان عبدالحليم منتصر يعرف قيمة نفسه كواحد من أركان الحياة العلمية فى مصر، ولهذا كان مترددا فى الذهاب إلى هذا المنصب، لكنه ذهب وعمل هناك وعاد إلى العمل فى وطنه كما أنه ذهب بعد ذلك إلى السعودية وعاد، وظل على الدوام منتجا ومشغولا بالعلم على نحو رائع تميز به هو والأفذاذ من أبناء جيله.

(٥)

والشاهد أن الدكتور منتصر كان من أعلام الجيل الذى كان يعمل باتصال وانتظام ودأب من أجل نهضة بلاده، ويكفى على سبيل المثال أن نرى هذا الرجل وهو يلخص فى إحدى الفقرات (ضمن حديث آخر عن حادثة قطار تعرض لها) كمية العطاء التى كان يعطيها أسبوعيا بعد تقاعده على النحو التالى:

«فى الثالث من أبريل سنة ١٩٧٠ استقللت قطار الساعة الثانية عشرة ظهرا المتجه إلى الصعيد لأكون فى المنيا فى الساعة الثالثة والنصف فأحاضر طلبة البكالوريوس فى كلية التربية حتى السادسة والنصف، ثم لأستقل قطار الصعيد مرة أخرى إلى أسيوط حيث أبيت ليلتى لأحاضر طلبة البكالوريوس فى الصباح لليوم التالى حتى الواحدة والنصف، ثم لأستقل القطار المتجه إلى القاهرة فى الرابعة والنصف، ذلك كان برنامجى طيلة هذا الموسم من السنة مرة فى كل شهر».

وفى موضع آخر من مذكراته يشير الدكتور منتصر إلى بعض الأعباء التى تولاها مع بعضها فيقول:

«وفى نحو عشر سنوات متتالية كنت أجمع بين رئاسة الجمعية والنقابة، ومجلة رسالة العلم».

(٦)

ومن أهم الموضوعات التى عرضت لها هذه المذكرات ما يروى به صاحبها دوره فى إنشاء وزارة البحث العلمى، وإسهامه هو نفسه فى عرض الفكرة، وترشيحه أو توقع ترشيحه ليكون ثانى (أو أول) المسئولين عن هذه الوزارة وهو يرينا ـ بطريقة غير مباشرة ـ كيف كانت محاضر الاجتماعات تفصل طبقا لرغبات الوزراء على الرغم من أن الرئيس جمال عبد الناصر نفسه قد استمع إلى فكرته وناقشه فيها فى المؤتمر القومى:

«منذ نحو ربع قرن من الزمان، كنت قد كتبت مقالا فى مجلة الهلال أطالب فيه بإنشاء وزارة للتعليم أو البحث العلمى، حيث إن هناك فرقا كبيرا بين التربية والتعليم وبين الثقافة والعلم أو البحث العلمى، فقلت إن التعليم يكون وفق مناهج معينة للحصول على مستوى معين من المعرفة فى واحد أو أكثر من فروع «المعرفة»، أما العلم أو البحث العلمى فيحتاج إلى تخصص عميق فى أحد فروع العلم، أما الثقافة فميادينها واسعة وفسيحة، وتتعدد جوانب المعرفة من علم وأدب وتاريخ ودين وفن وحضارة وما إليها».

«ثم سنحت الفرصة لأعيد المطالبة بإنشاء مثل هذه الوزارة فى أحد اجتماعات مؤتمر الاتحاد القومى، وكنت نقيبا للمهن العلمية، ونشرت الصحف أنى تحدثت فى هذا الموضوع فى اليوم السابق، ولما حضر الاجتماع الرئيس

جمال عبد الناصر خطر لى أن أطالب بإنشاء وزارة للبحث العلمى، وفعلا طلبت الكلمة وشرحت وجهة نظرى فى شىء من الإسهاب والتفصيل قائلا: إنه لابد من تدعيم هذه الوثبة بإنشاء وزارة تكون مسئولة عن العلم والبحث العلمى تهيئ وسائله وتعمل على تمويله وتشرف على مؤسساته ومراكزه، وقد قيل فيما بعد إن الرئيس تساءل عمن يكون المتحدث فأجيب بأنه فلان عميد العلوم».

«وتحدث الرئيس فى الرد علىّ قائلا: إنه يعرف قيمة العلم والبحث العلمى، لكن حال البلد وما فيها من فقر وجوع قد يعوق مثل هذه المشروعات البناءة».

«وفى جلسة المساء جاءنى مقرر اللجنة طالبا سحب اقتراحى فسألت لماذا؟ قال: لأن الاقتراح قد أغضب الجماعة، قلت: ومَنْ تعنى بالجماعة؟ قال: السيد كمال الدين حسين، وكان وزيرا للتربية والتعليم أيام الوحدة مع سوريا، قلت: وما شأنه بذلك؟ إنه كلام على مستوى الاتحاد القومى، وإنه قد أبلغ للسيد رئيس الجمهورية ونشرته الصحف، وعلى ذلك رفضت سحب اقتراحى وبالتالى لم يثبت ضمن توصيات مؤتمر الاتحاد القومى».

....

ثم يروى الدكتور عبد الحليم منتصر ما تم من إنشاء وزارة البحث العلمى وما نمى إلى سمعه من الاتجاه إلى تعيينه نائبا لوزيرها:

«ولكن وبعد أسابيع قليلة أنشئت وزارة البحث العلمى، وعين لها السيد صلاح الدين هدايت وزيرا، فهنأته على هذه الثقة وسجلت اسمى بمناسبة الأخذ باقتراحى،وبعدها بأيام كنت مسافرا إلى دمشق فى مؤتمر إذاعى فقيل لى لا تسافر، سيصدر مرسوم بتعيينك نائبا لوزيرالبحث العلمى، فقلت لمحدثى: تستطيعون استدعائى إذا لزم الأمر وحتى تاريخه لم يلزم الأمر».

(٧)

يعتز الدكتور عبد الحليم منتصر بجهوده الرائدة فى نشر الثقافة العلمية بإسهاماته الثقافية المتعددة فى الصحافة والإذاعة والمؤتمرات، وهو يحدثنا عن نشأة مجلة «رسالة العلم» وعن جهوده فيها طوال سنوات، كما يحدثنا عن كثير من جهوده فى هذه المجالات، ولكنه يبدى اعتزازا خاصا بعلاقته بالإذاعة البريطانية، وهو يروى كيف نشأت العلاقة الوثيقة بينه وبين الإذاعة البريطانية:

«فى صيف سنة ١٩٦٩ كنت مع زوجتى وأولادى فى لندن، وإذا بدعوة تصلنى من هيئة الإذاعة البريطانية لتناول الشاى فى الساعة الرابعة بعد ظهر أحد الأيام، وذلك فى القسم العربى بمبنى الإذاعة، فذهبت فى الموعد المحدد واستقبلت من المسئولين استقبالا كريما، وفى أثناء تناول الشاى تطرق الحديث إلى مناح شتى فى العلم والأدب واللغة والترجمة والمصطلحات العلمية وما إلى ذلك، فتساءل أحد المسئولين: هل لديك مانع من أن نحضر الميكروفون ونسجل هذه الأحاديث مباشرة؟ وما إن أجبت بالنفى حتى أحضر الميكروفون وسجل حديثا استمر نحو عشر دقائق، ولما سئلت عما إذا كنت أستطيع الحضور إلى الإذاعة غدا، أى فى اليوم التالى مباشرة قلت: لا مانع، وتكرر هذا اللقاء يوميا على مدى ستة أيام متتابعة، بعضها عن مشاهير العلماء العرب،وبعضها الآخر إجابة عما يوجه إلىّ من أسئلة، وفى اليوم السادس أحضرت السكرتيرة الحسناء المكافأة وكانت ٤٠ جنيها استرلينيا عن كل حديث، وإذا بالإذاعة البريطانية تقول عنى: «إنه موسوعة تمشى على قدمين».

«ومنذ ذلك الحين اتصلت بينى وبين هذه الهيئة الأحاديث والإذاعات، فإذا كنت فى لندن ذهبت لأسجل بعض الأحاديث، وإذا كنت فى القاهرة أرسل

الأحاديث بالبريد المسجل، ليسجلها أحد المذيعين بصوته لتذاع على العالم فى الوقت المناسب، مما يتلاءم مع برامج هيئة الإذاعة البريطانية».

«وفى إحدى المرات طلب إلىّ المسئول إعداد خمسة عشر حديثا دفعة واحدة وإرسالها إلى الهيئة لاعتمادها، ثم تسجيلها بصوتى فى مكتب الهيئة فى بيروت، إلا أن هذا التسجيل لم يتم، فسجلت بصوت المذيع، وأذيعت هذه الأحاديث باسمى، وكان لها صدى جميل فى أنحاء العالم العربى خاصة وكانت تأتينى كتب كثيرة يستزيد أصحابها من الآراء أو المعلومات التى أثيرت، وكانت ترسل الهيئة مكافآت هذه الأحاديث بالعملة الصعبة فى حساب مقيم باسمى كان ينفعنى فى رحلاتى للخارج، أما عندما أكون فى لندن فإنى أجد السكرتيرة الحسناء تنتظرنى خارج غرفة التسجيل لتسلمنى المكافأة، وقد ارتفعت مع ارتفاع الأسعار إلى نحو أربعين جنيها للحديث».

ويختتم الدكتور منتصر حديثه فى هذا الشأن بتكرار التقدير والشكر لهيئة الإذاعة البريطانية:

«وفى الحق أنى أحتفظ لهيئة الإذاعة البريطانية والعاملين فى القسم العربى بخاصة بأجمل الأثر لحسن معاملتهم وكريم استقبالهم وكرم لقائهم، وقد كان لهم الفضل فى إبلاغ صوتى بالاهتمام بالتراث العلمى العربى وأثر العرب فى العصر الإسلامى على الحضارة الإنسانية».

(٨)

وتتضمن المذكرات بعض إشارات مهمة إلى جهود الدكتور عبد الحليم منتصر المعروفة فى العمل على تعريب التعليم الجامعى وهى الجهود التى بدأها ودعمها وواصلها من خلال إشرافه على تحرير مجلة رسالة العلم:

«وأجريت فى العدد الأول (أى من مجلة رسالة العلم) استفتاء أجمع المستفتون على أن العربية قادرة على استيعاب العلوم المختلفة، ومنهم مَنْ ضرب لذلك موعدا أقصاه عشرون عاما، ومنهم مَنْ قال بتشجيع الترجمة ووضع المصطلحات والمعاجم أولا، وكان المرحوم الدكتور محمد والى والدكتور على مصطفى مشرفة والدكتور أحمد زكى من أشد المتحمسين لتنفيذ المشروع، وبخاصة الدكتور محمد والى الذي كان ينادى بأن ينفذ ذلك فى الحال، وأنه كان ينفذه فعلا».

«وقد فعلت نفس الشىء بعد ذلك ببضع سنوات، ذلك حين أثار المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل الموضوع وكان وزيرا للمعارف، فسأل أعضاء مجلس الجامعة ماذا فعلتم فى هذا النص الذى يقول إن العربية لغة التدريس فى الجامعة، وتناولت الصحف الموضوع فنشطت الأقسام المختلفة فى كلية العلوم بخاصة لترجمة المصطلحات العلمية، وكانت مجلة رسالة العلم تنشر فى كثير من أعدادها قوائم بالمصطلحات التى تتفق على ترجمتها الأقسام المختلفة».

«وكنت قد أنشأت جمعية أسميتها «جماعة أنصار اللغة العربية»، أسهمت فى نشر الدعوة للعربية لغة للعلم، وظلت مجلة «رسالة العلم» تصدر مرتين فى العام عدة أعوام».

(٩)

ويشير الدكتور عبد الحليم منتصر إلى الجهد الذى بدأه ولم يستكمله من أجل إنجاز موسوعة علمية، ونعجب من أن يثنيه عن ذلك رائد آخر من رواد الثقافة العلمية، كما نتمنى أن تتاح الفرصة للإفادة مما كتبه فى هذا المجال:

«فى أثناء عملى بالكويت مديرا لجامعاتها المنشأة آنئذ سنة ١٩٦٤/٦٣ فكرت فى كتابة موسوعة علمية وخططت لها هيكلا يضم ثلاثين مجلدا، وبينما أكتب فى

الجزء السادس منها زارنى أستاذنا المرحوم الدكتور أحمد زكى وتساءل: مَنْ ذا سينفق على الطبع والنشر والإخراج، إنه يحتاج إلى نفقة كبيرة؟ ثم قال: إن بيروت قادرة على ذلك، وإن فيها مَنْ يجيد إخراج مثل هذه الموسوعة، ولكنى طويت المشروع ولا تزال الأجزاء الستة مخطوطة بخط يدى، لا أظنها فتحت بعد ذلك».

(١٠)

ويبدو أن توقف الدكتور منتصر عن إتمام الموسوعة لم يكن هو النكوص الأول فى أنشطته التأليفية فى مجال تخصصه، ذلك أنه يروى لنا تجربة سابقة فى بداية حياته العلمية ولكن رائدا آخر من رواد العلم أثناه عن تحقيق الفكرة (أو هو هكذا يصور الأمور) لنفس الأسباب المادية:

«فى أوائل عهدى بالعمل فى كلية العلوم فى الثلاثينيات الأولى، فكرت فى ترجمة كتاب «التاريخ الطبيعى للنباتات» إلى العربية، وقد كان أستاذنا «أوليفر» رحمات الله عليه هو أحد مؤلفيه. واستأذنته فى ذلك، فقد أعجبنى أسلوب الكتاب ولغته».

«وبدأت فعلا فى الترجمة وقطعت شوطا كبيرا فى ترجمة الجزء الأول، ثم خطر لى أن أعرض الفكرة على أستاذنا محمود توفيق حفناوى، وكان يعمل بكلية العلوم آنئذ أستاذا مساعدا بقسم النبات بكلية العلوم، فكان رأيه أن الآحاد الذين يفهمون هذا الكتاب هم أصدقاؤك، وبالطبع ينتظرون منك هدية، فطويت المشروع وما أشك فى أن ما ترجمته من صفحات مازال بين أوراقى هنا وهناك، ولكنى أعترف أنى استفدت كثيرا من هذه المحاولات التى لم تتبلور إلى عمل قائم بذاته».

●●

على هذا النحو نرى هذا الرجل العظيم وهو يعكس طبيعة الشخصية الإنسانية التى لا تستطيع الفصل التعسفى بين العلم والأدب، فهو يعلى من قيمة الأدب والثقافة إلى أبعد الحدود، ويعتز بهما ويوظفهما من أجل رفعة شأن الجيل الجديد الذى هو أحد المسئولين عن نضجه:

ويشير الدكتور منتصر إلى أنه فى إحدى المناظرات الشهيرة التى كانت كلية العلوم تعقدها، أخذ دور الانتصار للأدب على العلم (وسنرى فيما يرويه عن مناظرة أخرى أنه أخذ دور الانتصار للعلم مع طه حسين)، وهو يشير إلى أن إيمانه بالأدب وانتصاره له فى هذه المناظرة كان قويا إلى حد أن انبهر به تلاميذه، وإلى حد أن قال لطفى السيد: إنه كان أكثر إقناعا بحجته!!:

«وفى مناظرة أخرى، وكانت فى كلية العلوم بالجيزة، وكنت أدافع عن الأدب ضد العلم، ورأس المناظرة أستاذنا المرحوم لطفى السيد، وكان دفاعى عن الأدب قويا، حيث تساءل تلاميذى بعد المناظرة: أصحيح أنى مؤمن بقيمة الأدب إلى هذا الحد؟ فأجبت بما سمعته من أستاذنا المرحوم طه حسين حين دافع عن العلم ضد الأدب، فقال: الآن خلعنا ثوب التمثيل، فقد قلت إن الإسلام انتشر بأدب القرآن، وآياته البليغة الرائعة: ﴿وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾ وإن مبادئ عصبة الأمم التى قال عنها كليمنصو إن فيها إطنابا لأنها تزيد على وصايا الله عشرا، وقد علق أستاذنا لطفى السيد عقب المناظرة معجبا بدفاعى عن الأدب قائلا: إن فلانا كان ألحن بحجته».

(١١)

ويبدو الدكتور منتصر حريصا على تصوير طبيعة وحدود المثاليات التى كانت تحكم تفكيره فى مرحلة تكوينه، وهو يشير إلى أن والده - هو الآخر - قد غذى

هذه المثاليات بطريقة فولكلورية طريفة، وأنه لهذا السبب انصرف عن الالتحاق بكلية الحقوق، ونحن بالطبع لا نوافق على محتوى الطرفة:

«أذكر أنى كنت قد أبديت رغبتى فى دخول القسم الأدبى بعد حصولى على الكفاءة، ولما سألنى والدى رحمه الله عن سبب رغبتى تلك، فقلت: لكى أعمل محاميا، أدافع عن المظلومين، وأساعد كل ذى حق على الحصول على حقوقه، فقال رحمات الله عليه: ألا تعلم أن محامى «معناها أفوكاتو»، وأن هذه الكلمة مأخوذة من «الإفك»، إنهم كثيرون ما يأفكون، وهكذا صرفنى عن الالتحاق بالقسم الأدبى».

(١٢)

وهذه فقرة أخرى من الفقرات التى يتحدث فيها الدكتور عبدالحليم منتصر باعتزاز شديد عن مجلة «رسالة العلم» ودوره فيها:

«ولا مراء أن مجلة «رسالة العلم» كانت مدرسة لنا جميعا، حيث نشرت فيها فى هذه الحقبة مئات المقالات فى كل الموضوعات العلمية المختلفة، من كيمياء وطبيعة ورياضيات وفلك ونبات وحيوان وجيولوجيا، وكتب فيها عدد من كبار الشخصيات العلمية، وكان أستاذنا المرحوم الدكتور مشرفة يقول لى: إن هذا العمل الذى تقوم به فى إصدار هذه الصحيفة العلمية باللغة العربية يعتبر عملا ثانويا بالنسبة لك، لكنه أفضل من أعمال أساسية رئيسية لكثيرين، كما كان المرحوم لطفى السيد يثنى عليها ثناء طيبا، وأشار إليها المرحوم الأستاذ مصطفى نظيف بكثير من الثناء والتقدير، ولم تكن المجلة تباع أو تشترى فى الأسواق، لكنها كانت للمشتركين، كما كانت تهدى وتستهدى للهيئات وشخصيات علمية كبيرة فى مصر والدول العربية، وكنت أتناول فى الافتتاحية موضوعات علمية

عامة، وقد نعيت استقلال الجامعة فى أحد الأعداد، حين وكلت رئاسة مجلس الجامعات الأعلى إلى وزير المعارف والتربية والتعليم فصدر العدد وحذفت بعض فقرات المقال (بأمر الرقيب)، ولكنى لم أحدث أى تعديل فيه، وكان قد تسرب نحو مائتى نسخة ظلت الهيئات العلمية تصر فى طلبها».

(١٣)

ونأتى إلى ما تتضمنه هذه المذكرات من تأملات فى تاريخ الجامعة ودورها، ونحن نرى صاحب هذه المذكرات وهو يجأر فى مواضع عديدة بالشكوى مما تصاعد فى عهد الثورة من جور السلطة السياسية على حقوق الجامعة، ويبدو حريصًا على أن تتدعم الروح المؤكدة على استقلال الجامعة التى أرساها أحمد لطفى السيد ومشرفة وأقرانهما منذ نشأة الجامعة فى عصر الليبرالية، وهو يجيد استخدام الأمثلة التى تؤيد وجهة نظره وتدعمها، ومن هذه الأمثلة شكواه من محاولة وزارة التربية (كانت الجامعة حتى ذلك الوقت تابعة لوزارة التربية) التدخل فى شئون الامتحانات، وهو التدخل الذى استطاع هو أن يوقفه بفضل تعاون القيادات الجامعية معه:

«اليوم التاسع والعشرون من رمضان سنة ١٣٨٠هـ (هكذا يذكر الدكتور منتصر التاريخ لأنه لم يكن قادرا على استعادة التاريخ الميلادى ولكن ذكرى نهاية رمضان وحلول العيد فى اليوم الذى وقعت فيه هذه الحادثة كانت ماثلة فى ذهنه)، وكنت عميدا لكلية العلوم بجامعة عين شمس، وقد عدت إلى المنزل عصر ذلك اليوم، وبعد وصولى بقليل وإذا بساع من إدارة الجامعة يركب دراجة بخارية يحمل لى رسالة من مدير الجامعة، لما فتحت الرسالة وجدتها تحوى خطابا موجها من مدير مكتب الوزير إلى سكرتير عام الجامعة يتضمن الخطاب ثلاث فقرات رئيسية».

«تقول الأولى: إنه نمى إلى علم الوزارة أن نتيجة السنة الثانية فى كلية العلوم ضعيفة، وأنحى العميد باللائمة على اللائحة».

«وتقول الثانية: إن قسم الكيمياء قد تعمد التدقيق فى التصحيح لإسقاط أكبر عدد ممكن من الطلبة».

«كما تتساءل الثالثة: لما كان الأمر كذلك لماذا لم تتصل الكلية بالوزارة والجامعة قبل إنزالها للطلبة».

«وحوّل سعادة المدير الخطاب إلىّ على وجه السرعة طالبا الرد».

ويردف الدكتور منتصر بالحديث عن انطباعه تجاه هذه الرسالة ومحتواها وانفعاله بها ومناقشته لجزئياتها:

«لقد ذهلت وحزنت، ووجمت أن تتدنى الأمور إلى هذا الحد، وأن يكتب مدير مكتب الوزير بتوقيعه إلى الجامعة بشأن الامتحانات والنتائج، وقد ظهر أن اليوم التالى هو يوم عيد الفطر المبارك، وأعلنت الإجازة لبضعة أيام ظللت طيلة هذه الأيام واجما أستحى أن أتحدث فى الموضوع إلى أحد، وكل من يرانى يسألنى مالك؟».

«وفى أول يوم بعد إجازة العيد، ذهبت إلى مدير الجامعة فى مكتبه وألقيت بالخطاب الذى حوّله إلىّ قائلا: ما هذا الذى أحلته علىّ؟ وما شأنكم والامتحانات؟ وكنت غاضبا، وفى أشد حالات الانفعال، فاتصل بالوزير تليفونيا أمامى وقال له: إن فلانا عندى، وإنه غاضب وقدم استقالته ويريد أن يراك، فقال الوزير: إنه مرتبط بموعد خارج الوزارة وسيغادرها فورا، وأنه يرى أن يكون موعد المقابلة غدا فى الساعة الحادية عشرة صباحا».

(١٤)

ونأتى إلى ما يرويه صاحب المذكرات عما دار فى مقابلة الوزير، ومن الإنصاف أن نشير إلى أن أداء الوزير كان جيدا لأنه لم يتعنت فى وقت كان تعنت الوزراء يصور على أنه بطولة، كما أنه تفهم الحقيقة واستمع إلى العميد على هذا النحو الذى يصوره صاحب المذكرات نفسه:

«... وقد كان، ففى تمام الساعة الحادية عشرة صباحا كنا مع وزير التربية والتعليم، وبعد التحية سألت معالى الوزير: هل اطلع على هذا الخطاب؟ فأجاب بالإيجاب، فسألته: لِمَ لم توقعه لو أنك فعلت لكان للمسألة وجه آخر، فمن حقك أن تسأل كوزير ومن واجبى أن أجيب، وحتى هذا ينبغى أن يكون عن طريق مدير الجامعة، فقال: «أجيبه يعتذر لك»، قلت: لا أقبل اعتذاره، قال: إذن ماذا تريد؟ قلت: بل تعتذر أنت، واشتعل الموقف وطيب خاطرى كل من الوزير والمدير».

«قلت: أما عن الموضوع فما شأن الوزير أو غيره بموضوع الامتحانات والنجاح والرسوب! إن ذلك كله من اختصاص الأساتذة والأقسام المختصة، وإن النتيجة كانت أحيانا صفرا، وفى الرياضة أيام المرحوم الدكتور مشرفة ولا يتحرك أو يعلق مخلوق. واستمر الحديث نحو ساعة من الزمان، تحدثت فيها عن حق الأستاذ الجامعى ومسئوليته كأستاذ ومرب، وأنه لا يجوز لأية سلطة أن تتدخل فى عمله، وأنه فى العهود الأولى كانت النتيجة أحيانا لا تزيد على عشرة بالمائة، ولما قدم فى ذلك سؤال إلى وزير المعارف فى البرلمان أجاب بأن الجامعة كاملة الاستقلال وليس لأية سلطة أن تتدخل فى اختصاصاتها، وأن نتيجة التوجيهية لم تكن تزيد أحيانا على عشرين أو ثلاثة وعشرين بالمائة، ولا توجد أسئلة أو استجوابات، وكذلك سارت الأمور وقضى الأمر بالنسبة لهذا الموضوع فلم أسأل مَنْ المقصود بكل هذه التساؤلات، ما اسمه».

«لم أعرض الأمر على مجلس الكلية ولا على قسم الكيمياء، ولكن غضبى كان للمبدأ ذاته أن يتدخل كائن من كان فى شأن من أخص شئون الجامعة والجامعيين، وأن يكون التدخل على هذا النحو من مدير مكتب الوزير».

(١٥)

وتحتوى هذه المذكرات إشارة بالغة الأهمية إلى الموقف المبكر للأستاذ أحمد لطفى السيد مدير الجامعة الأول فى رفضه قبول فكرة الحرس الجامعى واعتماده بدلا من هذه الفكرة على إقرار الجدية فى الدراسة والامتحانات:

«فى وقت من الأوقات طلبت الدولة من مدير الجامعة أستاذنا المرحوم لطفى السيد أن يقبل نظام الحرس الجامعى، فقال فى ذلك رده المشهور: «ما أنا بحكمدار، ولكن عندى امتحانًا من نار»، يريد بذلك أنه ليس فى هيئة عسكرية أو بوليسية، وإنما هو أستاذ جامعى، وأن العبرة بالامتحان الذى هو من نار، فليحضر مَنْ يشاء من الطلاب وليتخلف من يشاء».

....

ويبدو عبد الحليم منتصر حريصا على تطبيق فكرة أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد هذه بطريقة أخرى حيث يقول:

«وأذكر أنى بعد أن عملت بالتدريس فى الكلية، كان الأستاذ يصر على رسوب مَنْ عمل أخطاء فاحشة، حتى ولو كانت درجته قد زادت على الستين بالمائة فيقول كيف ينقل إلى السنة التالية من أخطأ فى كذا وكذا .. وكذلك كانت الجدية فى الدراسة وفى الامتحانات، وأذكر أنى رفضت إنقاص نسبة النجاح فى كليات العلوم من ستين إلى خمسين بالمائة، عندما كنت عضوا بالمجلس الأعلى للجامعات، وقلت لا ينبغى لمثل هذا المجلس أن يعمل على تخفيض نسبة النجاح ومستواه».

(١٦)

وتدلنا المذكرات على أن صاحبها كان عميدا يقظا، وأن يقظته امتدت إلى الانتباه إلى أبواب الشر والفوضى التى يفتحها البعض تحت ستار أغراض خيرية فى البداية ثم لا تلبث أن تتحول إلى كوارث تهدد الأداء الجامعى، وهذا نموذج معبر عما يحدث فى بعض الأحيان، ويقف العمداء أمامه بالتشجيع أو بالسلبية وبخاصة مع تسلط أصحاب الاقتراحات (أو المصلحة) واستنادهم إلى مناصبهم:

«بينما أنا فى مكتبى وأنا عميد لكلية العلوم، فى الخمسينيات، إذا بضابط الحرس يستأذن فى الدخول، ثم يطلب أن يعرض أفلاما سينمائية على الطلاب مثل فيلم «شاطئ الغرام» ويبيع التذكرة بقرشين، ويمكن من الحصيلة أن ينفذ بعض المشروعات لصالح الطلبة، فاستمعت إليه بصيغة منتهى الدهشة أن يتدخل فى أعمال الكلية، وقلت له: هذه كلية العلوم بأقسامها، ومهمتى أن أيسر وأهيئ الظروف لكل أستاذ أو طالب أن يؤدى عمله على خير وجه،وأن أحل المشكلات التى تعترض أى واحد حسب رأى القسم والأستاذ المختص، وكذلك الشئون الاجتماعية، عندنا اتحاد الطلبة وبه لجنة اجتماعية وأخرى ثقافية ورياضية.. إلخ. فعملى أن أهيئ الظروف وأحل المشكلات لكى يؤدى كل واجبه على خير صورة، ونحن الآن فى ساعة الظهيرة، نجد أفلاما علمية تعرض فى بعض المدرجات حتى تتيح للطالب أن يرى صورة علمية صناعية، لما سمعه فى المحاضرة نظريا، وما رآه فى المعمل فى أنبوبة اختبار، فيراه فى المصنع على مستوى صناعى تجارى، فخرج الرجل غاضبا، وعلمت فيما علمت فيما بعد أنه قال: كيف للعميد أن يحدثنى بهذه اللهجة وهو ليس رئيسا لى، وهذا البرنامج الذى أعرضه سينفذ حتما، فقلت: إن هذه كلمة حق قالها، فلست رئيسا له لأنه

يحمل نجمتين ولا أحمل ثلاثا، ولكن الهواء الذى يتنفس فيه أنا مسئول عنه والكرسى الذى يجلس عليه والطالب الذى يدربه ولابد أن يعتذر وأن يسحب، وكان لى ما أردت، فبعد أسبوع حضر مع رئيسه واعتذر وعادا من حيث أتيا».

وعلى نفس النحو يشير صاحب المذكرات إلى موقفه فى مجابهة تدخل البعض فى الأنشطة الطلابية.

(١٧)

من ناحية أخرى نرى الدكتور عبد الحليم منتصر سعيدا بما حققه من النجاح فى تمويل مشروعات وأنشطة كليته، ونراه وهو يروى فى أكثر من موضع قصصا عن محاولاته الجادة لتوفير التمويل لكليته، وهو حريص على أن يشيد بأستاذيه (شيخيه) مديرى الجامعة الأولين (محمد كامل حسين، ومصطفى نظيف) اللذين ساعداه فى هذا المجال:

«فى إحدى الجلسات بمجلس جامعة عين شمس، وكان المفروض توزيع مبلغ أربعين ألف جنيه، جاءت دعما لميزانية الجامعة، واحتدم النقاش بين الأعضاء، كل يريد أن يأخذ لكليته أوفى نصيب، وبخاصة الكليات العملية من هندسة وطب وزراعة وعلوم وغيرها، وكان ذلك فى أواسط الخمسينيات، وكانت الجلسة برئاسة أستاذنا المرحوم مصطفى نظيف، واستمر الأخذ والرد بين الزملاء، وأخيرا قلت: ياسادة، لقد بدأنا فى كلية العلوم من الصفر المطلق ولم نتحرك منذئذ، فقال بعض الأعضاء: وماذا عساه يكون هذا الصفر المطلق؟ قلت: إنه ينقص عن الصفر الذى تعرفونه مائتين وثلاثا وسبعين درجة، إنه (- ٢٧٣) كما تعلمون، وفى هذه الجلسة خرجت لكليتى بنصيب الأسد، إذ حصلت على ٢٢ ألفا من الأربعين، حيث قلت إن الأجهزة متوافرة فى السوق ومستعد أن نصرف المبلغ ونقدم الفواتير فى خلال أيام قلائل».

«وفى إحدى المرات قال أستاذنا نظيف: إن الغزالة تستطيع أن تغزل...، فقلت له: هل تستطيع أن تقيس القوة الدافعة الكهربائية بما يمكن أن تغزل به الغزالة؟».

● ●

ويشير صاحب المذكرات إلى موقف آخر تمكن به من دعم موازنات النشر العلمى للكلية:

«وفى إحدى السنوات حصلت على ما فاض لدى الكليات الأخرى من ميزانيات لم تصرف، فأخرجت فى سنة عددين من الحوليات العلمية تكلفا ألفا من الجنيهات، وفى سنة أخرى اشتريت جهازا بألف أخرى، وكل هذا من ميزانيات لم تصرفها كليات أخرى، وكنت أقول أحيانا: افرضوها عارية ترد، أى قرضا، وتضاحك الرئيس قائلا: ولم عارية، قلت: وما عيبها إذا كانت «عارية».

(١٨)

ولا يتوقف تعبير الدكتور منتصر عن فهمه للأبعاد المختلفة للإدارة الجامعية عند مثل هذه الحدود، لكننا نراه منتبهًا إلى ما اكتسبه من خبرة أساتذته من الجيل السابق عليه، وهو يحكى كيف أن أحمد لطفى السيد كان حريصا على أن يضمن خطبته فى حفل افتتاح المدينة الجامعية كثيرا من الشكر للملك بسبب تبرعه بمائة ألف جنيه لإنجاز المشروع، وقد استوعب منتصر ما ألقى إليه به أحمد لطفى السيد من فهم:

«وكان أستاذنا أحمد أمين يراجع نص الخطبة التى يلقيها أستاذنا لطفى السيد فى حفل افتتاح المدينة الجامعية، بين يدى جلالة الملك، وتساءل أستاذنا لطفى السيد موجها حديثه إلى الأستاذ أحمد أمين: هل الخطبة وافية بالغرض؟

وهل ليس فيها ما يستحق التعديل؟ ولما أجيب بأنها وافية وليس فيها ما يستحق التعديل تساءل مرة أخرى: هل فيها ملق كفاية؟ فضحكت أنا بصوت عال، فوجه حديثه إلىّ قائلا: إن الملق لولىّ النعم ما هو إلا شكر، وأن الرجل الذى عمل على إنجاز المشروع الذى نادينا به منذ عشرين عاما وتبرع له بمائة ألف جنيه لا أقل من أن تشكره، فأمنت على كلامه، خاصة وأنا أعلم أنه كان ينادى بأن إنشاء المدينة الجامعية أهم من إنشاء إحدى الكليات الجامعية، لأن للمدينة الجامعية دورها الكبير فى خلق الروح الجامعية، وإشاعة الروح العلمية بين الطلاب، وأننا لا ينقصنا العلم، بقدر ما تنقصنا الروح الجامعية، والروح العلمية، فكل من أسهم فى إنجاح المشروع وإخراجه إلى حيز الوجود جدير بالحمد والشكر والثناء».

(١٩)

ويقدم الدكتور عبد الحليم منتصر فى هذه المذكرات بعضا من خبرته كعضو فى مجلس الجامعة، وهو حريص على أن يشير إلى أنه هاجم كلية التربية فى محاولتها تسجيل ضابط لدرجة الدكتوراه فى التربية على الرغم من عدم حصوله على شهادات سابقة، وهو يروى هذه الواقعة على النحو التالى:

«فى إحدى جلسات مجلس جامعة عين شمس طلب عميد كلية التربية تسجيل أحد الضباط للدكتوراه فى التربية، فقلت للسيد العميد: إن لائحتكم تنص على أن من يسجل للدكتوراه يجب أن يكون حاصلا على الماجستير، ومن يسجل للماجستير ينبغى أن يكون حاصلا على الدبلوم الخاصة، ومن يتقدم للدبلوم الخاصة ينبغى أن يكون حاصلا على الدبلوم العامة، ومن يتقدم للدبلوم العامة ينبغى أن يكون حاصلا على بكالوريوس علوم أو آداب أو ما يعادلها، فأين هو من هذا كله؟! فرد العميد قائلا: إنه حاصل على بكالوريوس الكلية الحربية، قلت له:

أولا إن ما حصل عليه الطالب آنئذ لم يكن بكالوريوس وإنما دبلوما ولم تكن مدته أربع سنوات بل بضعة أشهر، ولو أنها كذلك لوجب أن يعادلها هذا المجلس بما يمنح من بكالوريوسات، ولكن ماذا يعادل؟ وأشرت بيدى إلى حركات الألعاب الرياضية، وأخيرا رفض الطلب وتكرر هذا الطلب عدة مرات فى سنوات متتابعة، وكان مصيره الرفض طيلة عضويتى فى مجلس الجامعة».

«وفى ذات مرة حدثنى رئيس قسم الجيولوجيا فى جامعة القاهرة تليفونيا قائلا: إننى الوحيد الذى أعارض، فقلت له: لست إلا عضوا فى المجلس الذى يقرر الرفض، قال: بل يقولون إنه أنت وحدك، قلت: ولم لا تسجله للدكتوراه فى الجيولوجيا عندك، إن الدرجات الجامعية متماثلة فى القدر والكيف، فقهقه ضاحكا لأن ذلك مستحيل أن يسجل الدكتوراه فى الجيولوجيا مَنْ ليس لديه البكالوريوس على الأقل، ولكن كان كذلك منطق كلية التربية بالنسبة للضباط خاصة».

(٢٠)

كذلك نرى الدكتور عبد الحليم منتصر وهو حريص على أن يعبر فيما يرويه أو فيما يسجله من مذكرات عن فهمه لروح القانون الجامعى وكيف كان الفهم المنصف (المستند إلى فهم طبيعة البحث العلمى وأغراضه) كفيلا بأن يقوده إلى الصواب فيما يتعلق بمعاملة أعضاء هيئة التدريس:

«فى أوائل عهدى بجامعة عين شمس، وعلى ما أذكر سنة ١٩٥٤، وكنت عميدا لكلية العلوم، عقد مجلس تأديبى عال لمحاكمة أحد أعضاء هيئة التدريس بكلية الزراعة وكانت بشبين الكوم، وكان قد حوكم وأدين من قبل أربع هيئات إدارية وقضائية، ثم عرضت القضية على محكمة تأديبية عليا تتكون برئاسة مدير

الجامعة وكان أستاذنا المرحوم مصطفى نظيف، وحضور جميع عمداء الكليات، وكانت التهمة الموجهة إليه أنه استعمل علفا جافا فى زمن البرسيم وهو العلف الأخضر، مما كلف الدولة مالا قدر بنحو أربعمائة جنيه دون داع».

«وعقدت الجلسة فى سراى الزعفران، وتقدم المتهم للدفاع عن نفسه ولم يكن ممن يحسنون الحديث، وإنما هو يبرطم وينفعل، فنهره أستاذنا الرئيس قائلا: إننا نحن الذين نحاكمه وليس هو الذى يحاكمنا، ولكنى أحسست أنه مظلوم، ولم يحسن عميده الدفاع عنه مع أنه لم يثبت عليه أنه اختلس أو سرق شيئا، فتصديت للدفاع عنه من واقع وحى الجلسة ووقائع التهم التى سمعتها، وكلها شكليات وروتينيات فى رأيى لا تمس ذمة الزميل، ولا توحى بأنه ارتكب إثما، فقلت للسادة القضاة: إذا حكمتم على الأستاذ بأى حكم فسيكف كل باحث عن البحث العلمى، إنه يجرى تجارب علمية ويبحث عن أثر العلف الجاف فى موسم البرسيم، وفائدة خلط كمية من هذا مع كمية من ذاك، وإن النتيجة السلبية فى العلم نتيجة، فما بالكم وهى إيجابية، فقد زاد إدرار اللبن مع هذه الخلطة، فرد عميد الحقوق قائلا: لقد أدانته أربع هيئات فكيف تبرئه؟ فقلت: إننا قضاة مستقلون ونحن هيئة عليا ولا شأن لنا بالآخرين، وكان أن حصل المتهم على البراءة بالإجماع، على حين حُكم على آخر بالإجماع أيضا لأنه أهان أستاذه ورئيسه».

(٢١)

ولا تقف الآراء التى يبديها الدكتور منتصر (فى هذه المذكرات) عند حدود الإدارة الجامعية، لكنه شأن كل أستاذ جامعى راشد، يولى التربية والتعليم الأولوية والأهمية اللتين يستحقانهما، وهو معنى على الدوام بالبحث عن كل ما من شأنه أن يرتفع بمستوى التعليم فى بلادنا، وهو حريص فى مذكراته على أن

يشير إلى رأيه المنتقد لما سمى بالطريقة الكلية فى تعليم اللغة العربية، وهو يكاد يعبر عن نفس الرؤية المهاجمة لهذه الطريقة على نحو ما عرضها أيضا كل من رئيس مجمع اللغة العربية الدكتور شوقى ضيف، وعميد أساتذة الفلسفة الدكتور عبد الرحمن بدوى فى مذكراته.

ويروى الدكتور منتصر كيف أنه جاهر بآرائه عندما حضر وزير التربية والتعليم جلسة مجمع اللغة العربية:

«... وفى نهاية إحدى جلسات مجلس مجمع اللغة العربية، عرض أمين المجمع رغبة معالى وزير التربية والتعليم فى حضور إحدى جلسات المجمع لمناقشة موضوع تيسير الكتابة العربية، قائلا: إن الأمر هو.. فقاطعه الرئيس - وكان أستاذنا لطفى السيد - قائلا: أمر إيه؟ فقال الأمين: الأمر بمعنى الموضوع أن سيادة الوزير يريد أن يحضر جلسة المجمع، فأجابه الرئيس: فليتفضل، وفعلا حضر الوزير فى موعد الجلسة التالية وفتح باب المناقشة فى موضوع تيسير الكتابة العربية».

(٢٢)

ويجاهر الدكتور منتصر برأيه فى فشل ما يسمى بالطريقة الكلية فى تحقيق ما كان مستهدفا منها فى تعليم اللغة العربية:

«... ومازلت أذكر كيف كان حماسى بالغا فى الدفاع عن اللغة العربية، وعن طريقة كتابتها الحالية، وكيف أن العيب ليس فى اللغة ولا فى الحروف، ولكن فى طريقة تعليمها، تلك الطريقة التى أطلق عليها اسم «الطريقة الكلية» أو طريقة شرشر، وقلت: كيف يمضى الطفل سنوات متتابعة من عمره وهو لا يقرأ إلا قصة «شرشر»، وكيف نط ونط، وهذا هو وذاك نو وإنه يرى صورة الأرنب مثلا يتعرف

أنه أرنب، ولكن إذا سألته أين الراء فإنه لا يعرف، وتساءلت: كيف نترك طريقة ثبت نجاحها وعملت أجيالا متتابعة كان الطفل يقرأ ويكتب فى مدى شهور قليلة، وهو يمضى الآن بضع سنوات بطريقة «شرشر» لكنه لا يحسن القراءة ولا الكتابة، وقد نشرت الصحف أنه من بين مائتين لم ينجح واحد فى كتابة اسمه».

(٢٣)

ويعود الدكتور عبد الحليم منتصر إلى تجلية أفكاره فى هذا الصدد داعيا إلى العودة إلى الطريقة الأبجدية التى نشأت عليها أجيال سابقة:

«أذكر أنى فى هذه الجلسة كنت عنيفا فى مهاجمة المسئولين فى وزارة التربية والتعليم عن تدهور تعليم اللغة العربية فى المدارس، وأنه ينبغى أن تلغى هذه الطريقة الكلية التى يثبت فشلها، وأن نعود إلى الطريقة الأبجدية التى كانت متبعة قبلا، وأن أبناء هذا الجيل لا يعرفون الكشف فى المعاجم، ولا البحث فى دفاتر التليفونات، ولا يعرفون النطق الصحيح للحروف والكلمات العربية، وأن من الواجب العناية بتعليم اللغة العربية، وأن الطفل يجب أن ينشأ على حفظ آيات من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة وخطب أبى بكر وعمر وعلىّ والحجاج ومن إليهم من فصحاء العرب بدلا من أن يمضى سنين متتابعة فى قراءة سخافات وتفاهات مصورة لا تضيف إلى معلوماته، ولا تزيد إلى حصيلته من الألفاظ العربية والجمل المفيدة والقصص الجيدة والشعر الرصين الجميل مما يتلاءم مع أسنانهم ودرجة تحصيلهم، ومما يحببهم فى اللغة العربية ولا يجعلهم يستصعبونها ويزورون عنها».

«وفى آخر الجلسة بدا الغضب على معالى الوزير، وقال لمساعديه مغمغما: ياناس خلصونا من طريقة «شرشر» دى».

(٢٤)

ويبدو الدكتور عبد الحليم منتصر حريصا على أن يضمن مذكراته بعضا من القصص المهمة للتاريخ الجامعى، وإن كان يقدم هذه القصص غير كاملة، من ذلك ما يشير به إلى استقالة الرئيس الثانى لجامعة عين شمس الأستاذ مصطفى نظيف، وهى استقالة غير مشهورة لكنها تقف شاهدا على أن علماء مصر وأساتذتها لم يكونوا جميعًا ـ كما يحرص البعض على تصويرهم ـ خاضعين تماما للسلطة خائفين منها:

«فى رثائى لأستاذنا المرحوم مصطفى نظيف، وكنت أتحدث عن شجاعته ودقته وعلمه وحفاظه على كرامته إلى أبعد الحدود، وكيف أنه عندما جاءه وهو مدير للجامعة خطاب من مدير مكتب الوزير، فأصر على أن يحضر مدير المكتب بنفسه ليعتذر ويسحب الخطاب، وكان له ما أراد، وكيف أنه بعد أن قرأ حديثا صحفيا لأحد عمداء كليات جامعة عين شمس ورأى فيه تعريضا به، وكان ذلك الحديث منشورا فى إحدى الصحف الصباحية قرأه وهو يتناول إفطاره، فما كان منه إلا أن ذهب رأسا لمقابلة الوزير، وعرض عليه نقل العميد المذكور، فلما رفض الوزير طلبه أخرج من جيبه استقالته وخرج مستقيلا فى الحال».

(٢٥)

وتكاد مذكرات الدكتور عبد الحليم منتصر تدلنا على أن الأمراض الجامعية التى استفحلت طوال السنوات الماضية لم تكن أمرًا حتميًا، وأنه كان من الممكن التغلب عليها مبكرا بفضل الحزم ووضوح الرؤية قبل أن تصبح أمرا عاديا طبيعيا، لكننا نستطيع أن نلاحظ بوضوح أن الحلول التى تصدى بها الدكتور عبد الحليم منتصر للمشكلة فى بدايتها كانت تعتمد على قوة شخصيته هو وعلى

قدرته هو على اتخاذ القرار وعلى القيام بأداء المهمة بنفسه حيث نحى المدرس المسئول وتولى التدريس مكانه، وهى صفات يندر وجودها فى عمداء الزمن الحالى الذين هم فى الغالب مشغولون عن مثل هذا الأداء المتميز لوظيفة العميد بأمور مهنية وسياسية أخرى:

«فى السنوات الأخيرة لرئاستى لقسم النبات وعملى بالكلية، كانت قد بدأت ظاهرة طبع الكتب والاتجار فى الكتب والمذكرات، فنشط بعض مدرسى القسم فى طبع ثلاثة كتب تتناول ربع المقرر اللازم للسنة الإعدادية، وجعلوا ثمن الكتاب الواحد جنيها مصريا واحدا، بمعنى أن الطالب تكلف ثلاثة جنيهات ثمنا لهذه الكتب، وبمعنى أنه يلزمه كتب باثنى عشر جنيها للمقرر كله، فطلبت المسئول عن هذه العملية من المدرسين، وقلت له: أليس عندكم أولاد؟ كيف تبيحون تكليف الطالب كل هذه التكلفة، ولم يكن للقسم طوال عملنا به أن يبيع كتبا أو مذكرات،وطلبت إليه أن يعتذر عن عدم تدريس هذا المقرر، فتشنج وأغمى عليه فى مكتبى، وبعد إسعافه نحيته عن تدريس المقرر، وقمت أنا بتدريسه دون أن أكلف الطالب مليما واحدا فلم أبع مذكرة أو كتابا».

(٢٦)

ويبدو الدكتور عبد الحليم منتصر فيما يرويه عن علاقته بتلميذاته ومرءوساته واعيا بدرجة كبيرة لحدود هذه العلاقة، ونحن نراه قادرا على أن يتصدى بنفسه للمشكلات الحساسة أو الحرجة فى معاملة عضوات هيئة التدريس، وقبل أن نذكر ما يرويه عن توجيهه لإحدى العضوات بضبط مظهرها، ننقل للقارئ هذه الواقعة التى تدلنا على أن صاحب المذكرات لم يكن عدوا للجمال ولا منصرفا عن تقديره، وهو يروى ما حدث عند مناقشته لإحدى رسائل الماجستير فيقول:

«... كنت أمتحن إحدى الطالبات فى جامعة الإسكندرية، مناقشا رسالتها للماجستير، وبعد أن انتهيت من سؤالها ومناقشتها، قلت لها: هل تحبين أن أمنحك الماجستير أو شهادة بأنك ملكة جمال، فأى الشهادتين تفضلين؟ فقالت فى ثقة وثبات: بل شهادة بأنى ملكة جمال، وكانت هذه مداعبة بطبيعة الحال، ولكنها تدل على عقلية المرأة وأنها تفضل الجمال ولعله أربح كثيرا من العلم، قلت لها: إن شهادتى لك بالماجستير ستعتمد فورا أما شهادة ملكة الجمال ففضلا عن أنها لن تعتمد فقد يساء تأويلها أو يختلف عليها».

(٢٧)

ونأتى بعد هذا إلى القصة التى يرويها الدكتور منتصر عن رأيه وتوجيهه لإحدى المعيدات فى كلية علوم عين شمس، وهو يصف مظهرها بأنه كان أقرب إلى التبرج الممقوت، ثم يفاجئنا بأنه لم يجد أى حرج فى أن يطلب منها لقاءه بمفردها على الرغم من حرصها على اصطحاب زوجها معها، ويدلنا هذا المسلك من الدكتور منتصر على أن العميد أو الأستاذ الطاهر الذيل القوى الشخصية قادر على أن يتخذ أصعب المواقف فى سهولة ويسر دون أدنى تحرز أو خوف:

«فى أوائل عهدى بعمادة كلية العلوم، وقفت فى صباح أحد الأيام عند باب الكلية، أراقب دخول الطلبة، وإذا بإحدى المعيدات مقبلة فى أبهى حلة وفى زينة أقرب إلى التبرج الممقوت، والذى لا يليق بطلب العلم داخل الكلية، فاستوقفتها وطلبت إليها أن تقابلنى فى المكتب، وإذا بها تقبل مع زوجها، ويدخلان علىّ معا فى المكتب، وكان كلاهما قد انتقل حديثا من كلية العلوم بالإسكندرية إلى كلية العلوم بجامعة عين شمس، فقلت لها: أريد أن ألقاك وحدك، فخرج زوجها، ثم وجهت إليها حديثى عنيفا جادا ومرشدا: ما هذا الذى تعملينه بنفسك؟ إن

جمالك فى غير حاجة إلى مزيد، ثم إن هذا مكان عمل وهذا مظهر وملبس لا يليق به، إن لك أن تلبسى ما تشائين فى الخارج، ولكن العمل له حرمة، والعلم له قداسته، فهذا الماكياج الصارخ لا لزوم له، وهذا اللباس الخارج لا يتناسب وجو العمل، ولا القدوة الحسنة التى نتيحها لطلابنا».

ثم يعقب الدكتور منتصر فى أسف وأسى ويقول:

«وما أظن هذه النصيحة قد أدت إلى نتيجة».

ثم يردف الدكتور منتصر بتعقيب ثان ويقول:

«وعندما كنت أقص القصة على المرحوم نظيف بك مدير الجامعة كان ينتفض عند قولى: «أريد أن ألقاك وحدك».

(٢٨)

وعلى الرغم مما تمتع به الدكتور منتصر من سمعة وصيت وما عرف به من الحسم والحزم اللذين يكادان يقتربان من القسوة، فإننا نستطيع أن نكتشف ما يرويه فى مذكراته أنه كان عطوفا حانيا إلى أبعد حد فيما يتعلق بشئون الحياة، لكنه كان حاسما حازما فيما يتعلق بالعلم والأداء الجامعى، وهذا هو عين العقل، وهو قمة المثالية فى الأداء الجامعى والإدارة الجامعية، ونحن نرى فى مذكراته قصة مهمة يرويها عن إحدى تجاربه فى مواجهة ما سمى بقرارات التطهير فى بداية عهد الثورة وحرصه على أبوبته لخريجى العلوم، وهو يجاهر بأنه فى أثناء التطهير تمكن من إنقاذ ثمانية عشر عضوا كان من المفروض أن يشملهم التطهير، وهو عدد كبير جدا بمقياس ذلك الوقت، ومن الجدير بالإشارة أن الدكتور منتصر قد أفاد من هؤلاء الإفادة المثلى دون أن يجعلهم بمثابة عبء على العملية التعليمية أو المهنة:

«فى سنة ١٩٥٤ كنت عضوا بالمجلس الأعلى للجامعات، وكانت موجة فى كثير من الكليات أن يتخلص العمداء ممن لا يرغبون فيهم لسبب أو آخر، وكان مدير إحدى الجامعات يحضر فى كل جلسة مفكرة حمراء ويتلو أسماء مَنْ يريد التخلص منهم، إلا إذا رغب أحد العمداء فى انتقال هذا غير المرغوب فيه إلى كليته، وكنت رئيسا لجمعية خريجى كليات العلوم، وكنا على وشك أن نكون نقابة المهن العلمية، وكنت منذ تخرجى أعتبر الزملاء والخريجين كأنهم أولادى، وأعد نفسى مسئولا عنهم، فقبلت فى كلية العلوم نحو ثمانية عشر عضوا كان مفروضا أن يفصلوا من جامعتهم، أو ينقلوا إلى المدارس الثانوية، أو غيرها، وعلى ذلك قبلت مَنْ ذكر اسمه أمامى من خريجى كليات العلوم، فكان السؤال: هل تأخذ فلانا؟ فيكون جوابى: نعم، وكذلك زودت أقسام الكلية المختلفة من حيوان وكيمياء ورياضيات وطبيعة ونبات وجيولوجيا، وبذلك دعمت هيئة التدريس بالكلية المنشأة، وأرضيت ضميرى كمسئول عن هؤلاء الخريجين الذين كانوا يفصلون أو ينقلون دون تحقيق أو مساءلة».

(٢٩)

ومع هذا فإن الدكتور عبد الحليم منتصر حريص على أن يشير إلى أنه لم يمض فى قاعدته الأبوية والثقافية هذه إلى النهاية، فقد أصر على رفض قبول واحد من هؤلاء للعمل فى كليته، وهو يبرر السبب فى عدم قبوله:

«... على أنى فى إحدى الحالات، وقد سأل مدير الجامعة سؤاله التقليدى: تأخذ فلانا؟ قلت: لا، قال: لا يعنى إيه! قلت: لا يعنى لا، وليس لها من معنى آخر، وكان هذا هو الشخص الوحيد الذى رفضت نقله إلى كلية العلوم بجامعة عين شمس، ممن عرضت أسماؤهم علىّ، وكان هذا الشخص مشهورا بتقديم الشكاوى والعرائض فى حق زملائه ورؤسائه، وأشيع عنه أنه قدم فى عميده مائة

وتسعا من الشكاوى والعرائض المدموغة، ولهذا استعملت حقى فى رفض قبوله عضوا فى هيئة تدريس كلية العلوم جامعة عين شمس».

....

وعلى صعيد ثالث يفخر الدكتور منتصر بأن كليته كانت الكلية الوحيدة التى لم ينقل منها أحد فى التطهير، سواء فى ذلك المدرسون والمعيدون والموظفون والعمال، وهى ملاحظة جديرة بالتأمل، كما أنها تدلنا على أن إجراءات التطهير وكل الإجراءات الثورية المشابهة كان من الممكن إيقافها إذا ما وجدت مَنْ يتولى الدفاع عن المظلومين أو تبنيهم أو يكون هو نفسه قد ضبط أداءهم من قبل بحيث لا يصبح هناك محل لإجراءات استثنائية من أجل التطهير:

«وكانت كليتنا هى الكلية الوحيدة بين كليات الجامعات التى لم يفصل أو ينقل منها أى عضو من هيئة التدريس أو معيد أو موظف أو عامل ولله الحمد».

(٣٠)

ويتصل بموقف الدكتور عبد الحليم منتصر المشرف فى مواجهة قرارات التطهير، مواقفه النقابية الشامخة، ولا ننسى أن وجود نقابة للعلميين لم يكن بالأمر القديم المتعارف عليه فى المجتمع المصرى، ومن ثم فقد استندت النقابة فى بدء عمرها إلى قوة شخصية هذا العالم الجليل واتصالاته، وحماسه للتصدى الفعال للقضايا النقابية، وهو يروى أحد هذه المواقف وهو النزاع الذى نشب حول تداخل أعمال أعضاء النقابة مع أعمال تمارسها نقابات أخرى، ونحن نرى الدكتور منتصر وهو حريص على أن يعامل وزير الصناعة من منطلق أنه الأستاذ العميد المعتز بأستاذيته وعلمه وأقدميته، ومن الحق أن موقف هذا الوزير أيا كان جدير بالإشادة لمعرفته بقدر الدكتور منتصر واستجابته له:

«فى أثناء عمادتى للكلية، وكنت نقيبا للمهن العلمية، أوقف وزير الصناعة وكانت نقابتنا تتبعه، أوقف العمل باللائحة الملحقة بالقانون والتى تحدد الأعمال التى يمارسها العلميون، نظرا لاحتجاجات النقابات الأخرى من صيدلية وهندسية وطبية وزراعية عليها لتداخل أعمال نقابتنا ضمن اختصاصات أعضاء هذه النقابات، وأضرب الطلبة احتجاجا، وطلبنى الوزير على التليفون، وقال: تفضل للمقابلة فى مكتبى، قلت له: ولم لا تتفضل أنت، سبحان الذى أعطاك ملكا وعلمك الجلوس على السرير! لقد كان سيادته مدرسا، ورفض مجلس الجامعة الذى أنا عضو به ترقيته إلى أستاذ مساعد لعدم وجود إنتاج علمى مناسب لترقية سيادته، وهو الآن يطلبنى لأذهب إلى مكتبه بدلا من أن كان يتفضل هو بالزيارة، قلت له: إنى مستعد لمناقشة الجميع بشرط أن يعود العمل بالقانون أولا، وفعلا عاد العمل بالقرار والقانون بإضافة عبارة هى من قبيل تحصيل الحاصل: «بما لا يتعارض مع عمل الآخرين»، وذلك لأن لكل نقابة قانونا ولا يمكن إيقاف العمل به إلا بقانون، كل ما فى المسألة أن لعضو نقابتنا أن يمارس التحاليل والأعمال التى قد يشترك فى ممارستها آخرون بحكم قوانينهم».

(٣١)

ويبدو بوضوح أن هذه المشكلة الخاصة بممارسة خريجى كليات العلوم لبعض الوظائف والمهن كانت قديمة العهد حتى من قبل نشأة النقابة، وقد كان الدكتور منتصر نفسه يتولاها بحكم رئاسته لجمعية خريجى كليات العلوم:

«ولعبت الجمعية دورا كبيرا فى نشر آراء الخريجين والدفاع عن مصالحهم، فقد كانت أعمال الخريجين تتداخل مع أعمال كثيرة من خريجى كليات أخرى كالصيدلة والزراعة والهندسة وما إليها، وكنت أبعث ببرقيات احتجاج وشكاوى

ودفاع عن الخريجين الذين يضارون، بل ويفصلون من أعمالهم بحجة أنها تدخل فى اختصاص أصحاب مهنة أخرى، ومن هنا نشأت حزازات وعداءات بيننا وبين خريجى الكليات الأخرى، وكان الوزراء أغلب الأمر من خريجى كليات أخرى، كانوا خصما وحكما، وقد كنت أعد نفسى مسئولا عن الخريجين والدفاع عن مصالحهم، وما أشك فى أن كثيرا من الزملاء يذكرون هذه الجهود التى بذلت فى هذا المجال».

(٣٢)

ونأتى إلى آراء عالمنا الجليل فى الحياة السياسية والعامة، ونحن نرى عبد الحليم منتصر وهو يروى أنه كان لا يجد غضاضة فى أن ينتقد مشروعات الثورة فى حرية، وأنه كان يجهر بهذه الآراء فى المحيطات الثقافية والعلمية، ولا ننسى أنه كان هناك من طراز الدكتور عبد الحليم منتصر عدد محدود من ذوى الرأى ولكنه لم يكن يمثل القاعدة، وقد كان العامل الذى يحميهم من بطش الثورة هو عدم انتمائهم السياسى إلى أى جماعة من الجماعات المعادية للثورة أو النظام الحاكم وكان هذا السبب «السلبى» هو الذى يحميهم من إجراءات القمع والقهر والاعتقال، وهو يروى فى المذكرات التى بين أيدينا قصة حوار دار بينه وبين الشاعر عزيز أباظة حول هذا المعنى، ولا ننسى أن الأستاذ عزيز أباظة كان الشاعر الذى مجد السد العالى بالأغنية الشهيرة التى تغنيها السيدة أم كلثوم على حين كان الدكتور منتصر يهاجم فكرة السد العالى تماما.

ولنقرأ ما يرويه الدكتور عبد الحليم منتصر:

«احمد ربنا أن تتكلم بهذه الصورة، وتبقى خارج السجون والمعتقلات» عبارة قالها لى المرحوم عزيز أباظة حين كان يسمعنى أتحدث عن مساوئ السد العالى

ومشروع الوادى الجديد ومديرية التحرير وما إليها من مشروعات فاشلة، كلفت الدولة ملايين الجنيهات، ونتائجها سلبية إلى أبعد الحدود، فكان رحمات الله عليه يشفق علىّ من آثار هذه الأحاديث الصريحة التى تصل إلى المسئولين قطعا».

ويستطرد الدكتور منتصر راويا حوارا دار بينه وبين الشاعر عزيز أباظة وأخيه أحمد بك:

«وذات مرة التقيت معه وأخيه أحمد فقال لى: إن لدى أخيه بضعة آلاف من الجنيهات ويريد أن يشترى بها ألف فدان فيما أسموه الوادى الجديد فنصحت له بعدم تنفيذ هذا المشروع، وعددت له الأسباب التى أعتقدها».

(٣٣)

ويحرص الدكتور منتصر على أن يروى أنه لم يتوان عن إبداء رأيه للصحفيين فى عدم جدوى مشروع الوادى الجديد عقب إلقاء الرئيس لخطابه الذى أعلن فيه كشفه لهذا الوادى:

«وعندما خطب الرئيس معلنا كشفه لهذا الوادى الجديد الذى تبلغ مساحته ثمانية ملايين فدان، التقيت فى الاتحاد العلمى المصرى بوفد من الصحفيين وقلت لهم: إن نيلنا يجرى رخاء فى وادى صنعه هو منذ آلاف السنين وبالكاد زرعنا ستة ملايين فدان، فما بالكم بوادٍ فيه مرتفعات تعلو مئات الأمتار، والتربة الرملية الخشنة. إن الوادى الجديد يحتاج إلى عشرة أنهار مثل النيل لكى تكفيه مع هذه الظروف، ولم ينبت بعد هناك نيل ثان يجرى رخاء فى هذه المنطقة، والماء حفرى كما ثبت بالكربون المشع، فالماء المستغل لا يُعوض بالسرعة الكافية».

«من أجل ذلك كان المرحوم عزيز أباظة يخشى علىّ، ولكنها كلمات حق أؤمن بها لأن الساكت عن الحق شيطان والرزق على الله».

وانطلاقا من هذه المقدمات ذاتها نرى الدكتور عبد الحليم منتصر فى هذه المذكرات يكرر التعبير الواضح عن مجمل آرائه فى جدوى مشروعات استصلاح الأراضى التى كانت الثورة قد بدأت فيها مع ضجيج كبير عن جدواها وإمكانياتها وعوائدها، ولنقرأ ما يرويه عن هذا الحوار الذى دار بينه وبين أحد رجال الثورة:

«بينما أنا جالس فى مكتبى، عميدا لكلية العلوم بجامعة عين شمس فى أواسط الخمسينيات زارنى أحد الضباط، وكان فيما يقال مستشارا لرئيس الجمهورية، وقد عمل بعد ذلك محافظا ووزيرا، وتطرق الحديث إلى مديرية التحرير فقلت له: إنه مشروع فاشل، قال: ناجح، قلت: فاشل، فكم أنفقتم عليه؟ قال: بضعة ملايين، قلت: عندى ما يؤكد أنها بضعة عشر مليونا من الجنيهات، ومع ذلك كم من الفدادين أصلحتم وزرعتم،قال أربعة عشر ألف فدان، قلت: عندى من المعلومات ما يؤكد أنها لا تزيد على ثلاثة آلاف فدان، ومع ذلك فليس هذا هو المهم، فإنى أستطيع أن أزرع لك نباتا يزهر ويثمر فى هذه الغرفة وفوق هذه البلورة، ولكن لا تسألنى كم تتكلف، فقد تتكلف الوردة مائة جنيه أو أكثر، لكنها ستنمو وتزهر كأينع ما تكون، فسأنظم لها كل ما يحتاج إليه النبات من ضوء ورطوبة ورى وصرف وعناصر معدنية وما إليها، فما هو العائد إذا كنا نكلف النبات فى مديرية التحرير مثل هذه التكلفة العالية لنحصل على عائد لا يجاوز عشر معشار ما أنفق. إن الوردة فى البستان أو الحقل لا تتكلف أكثر من ملاليم، وإنها لتباع وتشترى بهذا الثمن».

ويردف الدكتور عبد الحليم منتصر :

«والغريب أن هذا الحديث تسرب إلى الصحف ونشر فى بعضها، فجاءنى تأييد كثير من بعض الزملاء، والغريب أنى قابلت زائرى بعد أيام فسألته: هل بلغت؟ قال: نعم، ولكن خففت نوعا، قلت: ولم تخفف؟، إنها بلادنا ونتمنى على الله أن تغدو جنة وارفة فى كل ربوعها».

(٣٥)

ويكرر الدكتور منتصر هذا المعنى بصورة أخرى فى موضع آخر من مذكراته حيث يصفها بالمشروعات الوهمية، وهو يقول:

«فى أوائل عهد الثورة ظهرت دعوات وادعاءات كثيرة لمشروعات وهمية مثل تشجير الصحراء، أو إسقاط المطر الصناعى، وذهبت هيئات كثيرة إلى الصحراء، حيث زرع كل واحد شجرة فى الصحراء، وظهر كثير من المؤيدين والمطبلين للمشروع، على أنى نبهت بنى قومى إلى الحقيقة المرة، فكتبت ونشرت وأذعت أن الصحراء ستظل صحراء إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها إلا إذا أرادت وشاءت إرادة الله أن ينزل علينا غيثا من السماء وأن يبدل الجو غير الجو، ويأتينا بجو الغابات المطير».

على هذا النحو يبدى الدكتور منتصر رأيه فى استصلاح الأراضى، وكنت أظنه يضمن هذا الرأى بعض الأفكار الذكية من قبيل ضرورة عناية الحكومات المتعاقبة بالأجزاء الزراعية القريبة من ضفاف النيل وترعه الرئيسية التى لا تتطلب أكثر من رفع كفاءة الرى والصرف.

(٣٦)

وفى هذا الإطار أيضا يكرر الدكتور منتصر آراءه فى السد العالى، وهو يغلب الحديث عن الآثار الجانبية دون أن يعنى بالحديث عن الإنجاز الهندسى أو السياسى فى المشروع:

«ذكرت فى محاضرة عامة أن من نتائج السد العالى أن غدا نهر النيل مستنقعا، ودليلى على ذلك هو نباتات ورد النيل وغيره من نباتات المستنقعات التى توجد الآن فى مياه النيل، تحت الجسور، والنباتات لا تخطئ ولا تكذب، كما قلت: إن ابن الهيثم ادعى الجنون لكى لا يقيم السد، ولكنا أقمناه، فصاح وزير سابق فى قاعة المحاضرة: «نحن دخلنا السجن لكى يقول فلان مثل هذا الكلام، نسأل الله السلامة والتوفيق».

(٣٧)

وبالإضافة إلى هذا كله نرى الدكتور منتصر وهو يأسى للمظهرية الواضحة التى سادت وسيطرت على بعض تنظيمات السياسة فى وقت من الأوقات وذلك من خلال تجربته حين دعى لإلقاء محاضرة على حين لم يكن هناك مهتمون بالمحاضرة:

«طلب إلىّ مسئولون من الاتحاد الاشتراكى أن ألقى محاضرة عامة فى مقر الاتحاد آنئذ بسراى عابدين، وكنت نقيبا للمهن العلمية، ورئيسا لجمعية خريجى كليات العلوم، ورئيسا لتحرير مجلة رسالة العلم التى تصدرها الجمعية، وعميدا لكلية العلوم، وأمينا للاتحاد العلمى المصرى، ولم يكن بد من قبول إلقاء المحاضرة حتى لا تضار هذه الهيئات التى أنتسب إليها، فقبلت وذهبت فى الموعد المحدد فاستقبلنى المسئولون بالترحاب ولكن لم أجد أحدا فى قاعة المحاضرات، فقالوا لى: بعد تناول القهوة سيتوافد الحضور، ولكنى لاحظت أنهم ينادون بعض العمال للحضور مع أن المحاضرة علمية، فاعتذرت عن عدم إلقائها فى تلك الليلة، وطلبت تأجيلها إلى موعد آخر لم يحن بعد».

(٣٨)

ولا تخلو هذه المذكرات من بعض الروايات التى تصور قدرة الدكتور منتصر كرجل دولة وفهمه للاستراتيجية العسكرية،ونحن نراه يطالب فى مرحلة مبكرة وبطريقة علنية بأن تقوم مصر بصناعة القنبلة الذرية :

«... سألتنى مجلة الهلال الغراء أن أكتب فى موضوع القنبلة الذرية، وكان ذلك بعد إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما وناجازاكى، التى كان فى إلقائها فصل الخطاب، ووضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها فور إلقائها، كتبت فى ذلك مقالا نشرته المجلة المذكورة فى الأربعينيات، وقلت فيه: فلنصنعها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، فينبغى أن يتسلح العاقل بأحدث ما أنتجه العلم من أسلحة، فإن عدوى سيفكر مرات قبل أن يستعمل سلاحا لدى نظيره، وأن الأسلحة فى تطور مستمر، وما نصنعه اليوم من أسلحة سيحتاج إلى متحف بعد بضع سنين قد لا تتجاوز الخمس».

(٣٩)

ولا يكف الدكتور منتصر عن نقد ما حدث فى هزيمة ١٩٦٧، وهو يعبر عن آلامه بطريقة مباشرة وغير مباشرة، ويكرر هذا التعبير فى مواضع متعددة ونكتفى بأن ننقل إحدى عباراته فى المقارنة بين موقف كليوباترا من الهزيمة وموقف قادتنا فى ١٩٦٧:

«وقلت ليس ذنبها أن تكون فاتنة الدنيا وحسناء الزمان كما أطلق عليها شوقى، وليس ذنبها أن يحترب القواد من أجلها، ويكفيها فخرا أنها ألهمت ثلاثة من أعظم الشعراء هم: شكسبير وشوقى وبرنارد شو، وقد كانت حساسة، فلما انهزمت انتحرت فلبست أبهى حلاها وتزينت وجلست على كرسى العرش،

وطلبت إلى الكاهن أن ينهى حياتها فناولها سم العقرب أو الحية، وبذلك تكون قد عاشت ملكة وماتت ملكة».

● ●

ويشير الدكتور منتصر إلى أنه هو نفسه كان يتبنى الشائعة القائلة بقتل المشير عبد الحكيم عامر:

«وفى عرض كلمة «أكونيت» فى المجمع اللغوى قلت إنه نبات يسمى خانق الذئب أو قاتل النمر أو قاتل المشير، وكانت إشاعة أنه قتل بسمه».

(٤٠)

ونأتى إلى جانب آخر يؤكد لنا رفعة شخصية هذا الرجل العظيم، ونحن نراه لا يستنكف الاعتراف بجهله فى بعض المواقف، ومن هذه المواقف ذلك الموقف الذى وجد نفسه فيه وهو لا يعرف لحن «الدانوب الأزرق»:

«وفى إحدى أمسيات أسبوع المؤتمر، دعانا محافظ الإسكندرية إلى حفل ساهر فى محل ممتاز فى محطة الرمل، وكانت تجلس بجوارى زوجة المحافظ وقد أزعجها أن جمهور المؤتمرين لم يحيوا الفرقة الموسيقية،مع أن الدور الذى تعزفه مصرى، ثم عزفت دورا آخر، فتساءلت: وهل هذا الدور مصرى كذلك؟ فارتاعت السيدة وجزعت من جهلى بالموسيقى، وصاحت فى هلع وذعر: «إنه الدانوب الأزرق».

● ●

على أن هناك قصة أخرى تدلنا على حسن حظ الدكتور منتصر حين أتيحت له معرفة شخصيات قادرة على الحكم على الأمور، من هذه ما يرويه الدكتور

منتصر من خبرة العشماوى باشا فى معرفة الرجال دون أن يشير إلى هذا المعنى بهذا اللفظ الصريح:

«لقينى ذات يوم معالى المرحوم محمد العشماوى باشا، فقال: إن لديكم عالما ممتازا، قلت: مَنْ عساه يكون؟ قال: الأستاذ محمد حسيب، قلت: وكيف قدرت علمه وفضله وهو فى غير اختصاصك ولا شأن له بالقانون وأهله؟ قال: لقد كنت معه فى رحلة فى شبه جزيرة سيناء، وسألناه عن اسم نبات التقطناه من الصحراء فقال ببساطة: «لا أدرى» مع أنه لو برطم بأى اسم أجنبى أو لاتينى لما استطاع أحد أن يخطئه، وحقا من قال لا أدرى فقد أفتى، وحادثة أخرى دلت على عظم قدره، ذلك أنه التقط نباتا من صحراء سيناء فى أثناء تجولنا وأعطاه للتابع ليحفظه، وبعد برهة سأل الرجل عن النبات فأجابه بأنه أكله، فتميز الأستاذ حسيب غيظا وكاد يفجر بطنه لكى يستخرج النبات، وذلك يدل على مدى حبه لعلمه وفنه».

(٤١)

ومع هذا الشموخ كله لا يجد الدكتور منتصر حرجا فى أن يعترف فى مواضع كثيرة باهتمامه أو انشغاله بالمقابل المادى الذى يمنح نظير جهوده العلمية وشكواه من ضعف هذا المقابل وإصراره على الحصول على حقوقه.

وهذا هو أحد نماذج حديثه عن هذا المعنى:

«طلبت إلىّ مديرة البرنامج الثقافى فى التليفزيون إعداد برنامج يذاع فى رمضان تحت عنوان مسابقة «مَنْ هو؟» وكان موضوعه عددا من العلماء العرب، فأعددت المادة العلمية وسلمتها للمخرج الذى يحولها إلى حوار فى صورة معينة

تنتهى بسؤال مَنْ هو؟ وحضر إلىّ المخرج فى المنزل ليعرض علىّ بعض ما أتم من سيناريو، وفى أثناء الحديث ذكر عبارة الفئة الممتازة، فسألته ماذا تعنى بالفئة الممتازة؟ وفهمت منه أن هناك فئة ممتازة تتقاضى أجرا مضاعفا،فقلت له: إذا كان هناك خيار وفقوس فلن أكون فقوسا، وامتنعت عن متابعة العمل، فعاد إلى رئيسته وأخبرها بما كان من أمرى ورفضى العمل إلا أن أكون خيارا ومن الفئة الممتازة، لأنه مادام هناك مفاضلة فلن أقبل هذا الوضع».

● ●

ويتكرر تعبير الدكتور منتصر عن هذا المعنى فى موضع آخر، كما يتكرر قبل هذا عند حديثه عن مقارنته أجر العلماء بأجر الراقصة، وهى الفكرة التى قتلت بحثا وتنكيتا ورواية:

«تقابلت مرة مصادفة عند صراف التليفزيون مع إحدى الراقصات وكانت تتقاضى مكافآتها عن لقطة راقصة قدمتها فى إحدى السهرات استغرقت نحو خمس دقائق، وكان الصراف يعد لها: عشرة.. عشرين.. ثلاثين.. أربعين إلى أن وصل إلى الخمسين، ثم التفت إلىّ وجعل يعد: واحد.. اثنين.. ثلاثة إلى أن وصل إلى العشرة، وذلك عن سهرة تليفزيونية طويلة استغرقت نحو الساعة، فخجلت الراقصة من نفسها (هكذا كان الدكتور منتصر يظن الأمر) والتفتت إلىّ قائلة: إن عندها مصاريف من كوافير ومكياج وخلافه، فقلت لها: إن الأمر ليس كذلك، لكنك تعرضين مادة يحب أن يراها كل إنسان..أما أنا فإنى أعرض مادة لا يحب أن يراها إنسان».

«حكيت هذه القصة للمهندس الدكتور سيد كريم فقال: إن هذا هو الفرق بين العالم و«العالمة».

(٤٢)

وعلى الرغم من هذا الاهتمام الظاهر بالحقوق المادية فإن الدكتور منتصر حريص أيضا دون قصد على أن يثبت عنايته بالجانب المعنوى فى حياته، ولعل هذا المعنى يتجلى فى حديثه عن الحوار الذى دار بينه وبين إحدى بناته حول تكاليف حفل زفافها:

«قالت لى إحدى بناتى وكنا قد عزمنا على إقامة حفل زواجها فى فندق هيلتون النيل: إنى أفضل أن تعطينى ما ستنفقه فى الحفل، قلت: لا، إن المسألة ليست صفقة ولكنى أحب أن أسجل حفل قرانك فى ذاكرتى وفى قلبى ولا يرضينى أن تغادرى المنزل على صورة المسافر، يحمل حقيبته فى يده، فإنك ذاهبة إلى حياة جديدة ومنزل آخر، فلا أقل من أن نحتفل احتفالا لائقا بهذه المناسبة السعيدة، وفى الموعد المحدد أقيم الحفل، وكان رائعا، وفى عصر اليوم التالى طلبت ابنتى على التليفون وسألتها إن كان قد أعجبها الحفل؟ قالت: جدا، قلت: وهل أنت راضية عنه؟ قالت: كل الرضا، قلت: إن رضاك هذا أنسأ فى عمرى، قالت: ما معنى أنسأ؟ قلت: يعنى أطال وأمد، كأنما أضاف إلى عمرى».

(٤٣)

وعلى صعيد ثالث تطالعنا على الدوام صورة الدكتور منتصر العالم الكبير ورجل المجتمع والجامعة البارز الذى يحظى بالتكريم والاحترام والتبجيل، لكنه مع هذا حريص على أن يشير فى غير مغالاة إلى بعض المصاعب المعتادة (أو الطبيعية) التى واجهته فى فترة التكوين، وهو يروى انطباع ابنته بعد سماعها لهذا الجانب من حياة والدها:

«نشـرت لى جـريدة الأخبـار ذات يوم حـديثـا عن ذكـرياتى أيام الدراسـة الابتـدائيـة، قلت فيـه: إن المدرسـة كـانت بـالبندر - فـارسكور، وتبعـد عن قـريتنا الغوابين نحو خمسة كيلومترات، وكنا نركب «أتانا» لا تحب السرعة ولا تطيقها، لذلك كنا نغـادر القـرية قبل السـابعة وأحيـانا قبل السـادسـة لنكون بالمدرسـة قبل الثامنة، وذلك لأن الاتفـاق مع الناظر أن كل دقيقة تأخير نعـاقب عليها بالضـرب عصـا واحـدة، لذلك كنا نحـرص على التـبكيـر، لأن الطـريق لم تكن ممهـدة ولا مسفلتة، والأيام المطيرة فى الشتـاء كثيـرة، ولا يخلو الأمر من وحل وتـزحلق، وكان بعض الفـريق من القـرية يذهب راجـلا، والبـعض الآخر يشتـرك ثلاثة من الزمـلاء فى أتان واحدة. المهم أن ابنتى المرحومة د. ليلى كانت طالبة فى كلية الطب قصر العينى، عندمـا قـرأت الحديث بكت لأنهـا شـعـرت بشىء من عـدم الزهو، فلعلهـا كـانت تظن أن والدها من أصـحـاب السـيـارات الفـارهـة، ولعل هـذه الظـاهـرة فى شباب الجيل الحديث، أو لعلهم لا يفخرون بالعصامية».

(٤٤)

ومع أن المذكرات لا تحفل بإشـارات وافيـة عن فتـرات تكوين صاحبهـا الدكتـور عبد الحليم منتصـر، إلا أننا نجده حريصـا على الإشارة إلى دراسته فى مدرسـة فـارسكور الابتدائية، والإشـادة بهذه المدرسة وحرصه على الوفـاء لهـا ببعض مـا تستحق من الامـتنان والفخـر، ومن الجديـر بالذكر أننا نرى نفس هـذه الروح تجـاه المدرسـة نفسـهـا فـى مـذكرات الدكتـور عبـد الرحـمن بدوى، ومـن الجـديـر بالذكـر أيضـا أن الدكتور منتصـر قـد زامل فى هذه المدرسـة زميله فـيمـا بعد فى كليـة العلوم والمجمع العلمى والمجمع اللغوى الدكتور محمود حافظ إبراهيم:

«لما نجحنا كلانا أنا وأخى رحمه الله فى الشهادة الابتدائية، أصر والدى رحمه الله على أن نمر على ناظر المدرسة لنقدم له التحية والشكر والعرفان، فذهبنا ثلاثتنا ورحب بنا الناظر أجمل ترحيب، وقدر لنا هذا الوفاء وشكر للوالد هذه اللمحة».

«وفى الحق أننا لا نذكر إلا كل خير عن المدرسة الابتدائية ومعلميها وناظرها، فقد كان الجد والإخلاص والأمانة هى أهم ما يميزهم من صفات، وكانت المدرسة تهيئ لنا قاعة للمذاكرة فى بعض أيام الأسبوع، لنلتقى بالمدرسين ليجيبوا عن أسئلة الطلاب».

«لقد ترك هؤلاء الأفذاذ طابعهم على خلقنا وتعليمنا، وجب أن نذكرهم بالشكر والعرفان».

«وكذلك عندما تخرجت فى كلية العلوم، وأصدرت مجلة «رسالة العلم» باللغة العربية، وكنت رئيسا لتحريرها، أهديت ناظر مدرسة فارسكور الابتدائية، وكان هو الناظر على أيامى، أرسلت إليه بعض أعدادها فأرسل شاكرا مقدرا ممتنا وفخورا فى الوقت نفسه أن نذكره بهذا الوفاء، وفقنا الله إلى الوفاء لمن أحسنوا لنا.. وحقا إن الإنسان ابن بيئته».

(٤٥)

ونأتى إلى بعض النقاط المضيئة فى حديث الدكتور منتصر عن الأعلام الذين علموه وأفاد من معرفتهم، ونبدأ بعميده وأستاذه مشرفة، وهو يلخص رأيه فيه فى أنه: «عبقرى نادر المثال، أو على غير مثال».

وهو يشير إلى أمثلة كثيرة على همته العالية ويضرب مثلا على هذا آراءه فيما يتعلق بقضية علمية قومية كتعريب العلوم:

«وشجعنا على إصدار مجلة «رسالة العلم» ويدعونا لتعريب التعليم العالى، وفى الاستفتاء الذى أجريته فى العدد الأول من المجلة (يناير ١٩٣٤) كانت إجابته أنه مستعد فورا ومن الآن، وكان أقل المستفتين تفاؤلا مَنْ طلب مدة عشرين عاما».

وهنا يعقب الدكتور منتصر بالإشارة إلى أن تكاسلنا جعلنا لا نصل حتى إلى توقعات مَنْ كانوا أقل الناس تفاؤلا بين من أخذ رأيهم فى ذلك الوقت وهم الذين قالوا بأنه يلزمنا عشرون عاما من أجل تعريب التعليم الجامعى:

«وها قد مضى أكثر من خمسين عاما ولم يتحقق هذا الحلم».

(٤٦)

كذلك يشير الدكتور عبد الحليم منتصر إلى دقة الدكتور على مصطفى مشرفة وأمانته المفرطة :

«كان صريحا إلى أبعد الحدود، حازما دقيقا، وكان يرأس جلسة الممتحنين لإقرار النتيجة قبل إعلانها، وإذا بها فى مادته صفر فى المائة، إذ لم ينجح أحد، فكان يعلق قائلا: المسألة بسيطة الظاهر إن الطلبة يقسمون المواد بين امتحانى مايو وأكتوبر».

....

كما يشير الدكتور منتصر فى موضع آخر إلى موقف طريف يجتمع فيه التعبير عن بساطة الدكتور مشرفة وصراحته وعدالته:

«فى سبتمبر من الأربعينيات، أرسل إلىّ أحد أقاربى شخصا يوسطنى حتى يقبل ابنه فى كلية العلوم، فذهبت معه إلى لقاء أستاذنا المرحوم الدكتور مشرفة

وكان عميدا للكلية، فدخلت عليه مكتبه فى غير حرج ولا انتظار، وقدمت له صاحبنا قائلا: إنه جاء يسأل عن موقف ابنه بالنسبة للقبول فى الكلية، فأجاب فى بساطة وصراحة: إنه لا يعرف، ثم سألنى إن كنت أعرف فأجبت بالنفى، ثم وجه السؤال للحاضرين واحدا بعد الآخر، وكانت إجابة الجميع بالنفى طبعا، ثم أجاب قائلا: أوتدرى مَنْ يعرف، إنه الكاتب المنوط به أمر القبول فى الكلية، لديه كشف بأسماء المتقدمين، وسيظهر كشف آخر به أسماء الناجحين فى الدور الثانى المنقولين إلى السنة الثانية، وسيعد أسماء الناجحين الذين خلت أمكنتهم فى السنة الأولى ليأخذ مكانه من المتقدمين من الحاصلين على التوجيهية، ولاشك أنه سيضع خطا فاصلا بين المقبولين الذين سيحلون محل المنقولين، أين يضع هذا الخط؟ أنا لا أعرف، ثم وجه السوال إلىّ، ثم إلى الحاضرين بالتتابع، وكانت النتيجة بالطبع إننا لا نعرف، فالأمر كله موكول إلى الكاتب المنوط به ذلك، وهو وحده الذى يعرف أين يضع الخط، وهو المسئول أولا وأخيرا عن هذه العملية، فخرج الرجل متعجبا من هذه البساطة وتلك الصراحة وتلك العدالة، وخرج فى الوقت نفسه مطمئنا أن ابنه إذا كان صاحب حق فسيأخذه حتما، ولهذا كان يقال إنه (أى الدكتور مشرفة) إذا جاءته واسطة من أعلى المستويات كان يؤشر: يحفظ إلى أن نصل إلى مجموعه».

(٤٧)

كما يروى الدكتور منتصر لقطة ذكية تعبر عن عبقرية مشرفة وقدرته على الانتصار لأفكاره، حين كان عليه أن يواجه الدكتور طه حسين فى إحدى المناظرات التى كانت كلية العلوم تعقدها، وقد أسند إلى الدكتور مشرفة فى هذه المناظرة الدفاع عن الأدب على حين أسند إلى الدكتور طه حسين الدفاع عن

العلم، وعهد إلى الدكتور منتصر أن يكون من فريق طه حسين (وقد سبق لنا فى هذا الباب أن رأينا منتصر نفسه فى مناظرة أخرى فى فريق يدافع عن الأدب)، ويبدو أن مشرفة قد استطاع التفوق الساحق فى المناظرة، وقد روى الدكتور منتصر هذه الواقعة فى مواضع كثيرة من مذكراته، ولكن أكثرها تفصيلا هى قوله:

«فى سنة ١٩٣٤ كنت معيدا بكلية العلوم بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة)، ونظم اتحاد الكلية مناظرة بين الدكتور طه حسين وأنا معه مدافعين عن العلم، وبين الدكتور على مشرفة ومعه الدكتور إبراهيم عبده مدافعين عن الأدب، واستدعانى الدكتور طه حسين فى مكتبه بكلية الآداب بالجيزة لأتفق معه على النقاط التى سنتناولها، ولأذكر له ما سأتناوله فى حديثى، فقال رحمه الله: المهم «أننا نلت شوية ونكسب»، وفى أثناء حديثى فى المناظرة تهكمت على الدراسات الأدبية وضربت مثلا بقول بشار فى المناظرة:

ربابة ربة البيت تصب الخل فى الزيت   لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

«ويدور البحث حول صحة نسبة مثل هذا الشعر إلى بشار».

«وقلت: إن مقام الأدب عندى مقام فنجان القهوة المتقنة الصنع، أو السيجارة الطيبة النكهة، بعد أكلة دسمة لذيذة غنية بالبروتينات والسكريات والدهون التى تمثل الغذاء الحقيقى، وتساءلت فى أثناء دفاعى عن العلم قائلا: دلونى على أمة رعت استقلالها ودافعت عن كيانها بشعر شاعر، أو أدب أديب، وقد رد الدكتور مشرفة على تساؤلى قائلا: أنا أدلكم على ذلك الأديب وهو سعد زغلول، فهاج المدرج وصفق الحضور طويلا، فقد كان لاسم سعد فى ذلك الوقت رنينه، فعلق الدكتور طه حسين قائلا: «هذه هى القنبلة التى يرتكن عليها لكن - ولو، ورد عليه..».

(٤٨)

ويعتز الدكتور عبد الحليم منتصر اعتزازا كبيرا بتتلمذه على يد الدكتور أحمد زكى، ثم بمزاملته له فى الكويت حين كان هو مديرا للجامعة وكان الدكتور أحمد زكى رئيسا لتحرير مجلة «العربى» وإلى أن أنهى الدكتور أحمد زكى إليه أنه رشحه ليخلفه فى هذه المجلة، وهو يشير إلى أن تلمذته على الدكتور زكى شملت القراءة ثم التلمذة المباشرة أيضا:

وهو يصف الدكتور أحمد زكى بعبارات موحية فيقول:

«عالم إلا أنه أديب، وأديب إلا أنه عالم، قرأت له فى شبابى ترجمته لرواية «غادة الكاميليا» وشاء القدر أن أتتلمذ عليه فى كلية العلوم، وهو أستاذ فى الكيمياء العضوية، فإذا به أستاذ متمرس يغرس المعرفة فى فكر تلميذه وسامعه فى أسلوب متميز لا أظنه يتكرر كثيرا بين المدرسين».

(٤٩)

وفى موضع آخر يشير الدكتور منتصر إلى القدرة الفذة التى تمتع بها الدكتور أحمد زكى كأستاذ جامعى حتى إن كل تلاميذه كانوا يفضلون التخصص فى الكيمياء على غيرها نتيجة حبهم للدكتور أحمد زكى ولشرحه:

«لاشك أن كل مَنْ تتلمذ على الدكتور فى الكيمياء قد أحب الكيمياء كعلم، وأذكر أن الدفعة التى درست على يديه عندما سئلت قبيل التخرج عن المادة والعمل الذى يحب أن يمارسه بعد تخرجه فكان ما يقارب الإجماع من الطلاب يحبون الكيمياء ويتمنون أن يكونوا كيميائيين، لقد غرس فيهم الدكتور زكى حب المعرفة، وحب الاطلاع، والثقافة العالية، والأدب الرفيع».

● ●

كما يشير إلى ما يمكن أن نسميه عقلية أحمد زكى التحليلية:

«وأذكر نقاشا حول أحد الكتّاب ممن يخالفهم البعض فى الرأى، فقال له أستاذنا: لابد أن نفرق بين الريشة وصاحبها، فاللوحة ممتازة لاشك لا يضيرها وجود نقص عند صاحبها أى مبدعها».

....

كما يروى الدكتور منتصر باعتزاز ما يدل على خلق الدكتور أحمد زكى الرفيع:

«وعندما تركت وظيفة مدير الجامعة، وغادرت الكويت، كان هو الوحيد الذى شرفنى بتوديعى فى المطار، على حين كان استقبالى فى الصالة الكبرى للزوار بعدد من كبار موظفى وزارة المعارف».

(٥٠)

ويبدى الدكتور عبد الحليم منتصر إعجابا لا حدود له بالدكتور محمد كامل حسين (شيخه الأول: أول رئيس لجامعة عين شمس) ويصرفه هذا الإعجاب والحميمية عن أن يبدأ بالترجمة له قبل الحديث عن نوادرهما أو مواقفهما المشتركة، كما أنه يحرص فى هذه المواقف على الاعتزاز بآرائه وتعليقاته وعلاجه له، ولنقرأ هذه الفقرة التى تدلنا على الفارق الأساسى بين شخصيتى العالمين الجليلين، وهو ما يظهر فى أن محمد كامل حسين كان على سبيل المثال أكثر احتمالا وتحملا للآخرين، على حين ظل عبد الحليم منتصر يقلق نفسه بتصرفات الآخرين:

«... ولم يكن بد كذلك من متابعة الحديث فى الأحوال الجارية، والأمور المتعلقة بالوطن ومشاكله ومَنْ فيه، وما فيه ومَنْ تناول مسائل علمية، واجتماعية

وسياسية على مدى أربع ساعات كاملة، وكان تعليق أستاذنا الدكتور حسين أنه ليس عجيبا أن تتفق آراؤنا اتفاقا كاملا فى كل ما عرضنا له من شئون وشجون، ولكنى علقت على ذلك بقولى: ولكنى عندى «مرارة»، قال: أليس غريبا أن نتفق حتى فى المرض،قلت: لا، وما ذلك إلا لأن مرارتى معنوية، قال: أما أنا فقد اعتدت أن أنظر إلى الأشخاص والناس من الجانب الحسن، فلكل إنسان مهما تكن مساوئه جانب أو أكثر يوصف بالحسن، ثم إنى إلى جانب ذلك أفضل أن أكون مغلوبا عن أن أكون غالبا، قلت لأستاذى: إن هذه ملائكية لا أدعى أنى وصلت إليها أو قاربتها، قال: لعلك لو حاولت تستريح وتريح، قلت: فات الأوان، وإن ما أشعر به من مرارة مما لقيت من عنت من الأصدقاء وغير الأصدقاء على السواء مما يفوق الوصف».

(٥١)

ونحن نرى التعبير عن هذا المعنى الدقيق الذى أشرنا إليه متمثلا فى حوار آخر سريع جرى بين العالمين، والحوار يدلنا على مدى ما كان يشعر به محمد كامل حسين من ألم دون أن يجعل هذا الألم يسيطر على نفسه أو تصرفاته:

«قلت لأستاذنا المرحوم الدكتور محمد كامل حسين يوما: إن الإنسان حين يمضى شهرا أو شهرين فى الخارج فى أوروبا أو أمريكا، فإنه يحس بآدميته وإنسانيته، أما حين يعود إلى الوطن فإنه مع الأسف يحس بالآدمية المهدرة، فأجاب: بل الحيوانية المهدرة».

....

وفى موضع آخر يشير إلى مجاملة محمد كامل حسين:

«قلت مازحا لأستاذنا كامل حسين: إن المغفل الوحيد الذى يقرأ هذه المجلة وهى رسالة العلم من الجلدة إلى الجلدة هو أنا، وإنى أستفيد من قراءتها مهما كانت بعض موضوعاتها بعيدة عن تخصصى لأنى أقرأ تجارب الطبع مرة وثانية وثالثة، وأدهشنى أستاذنا بقوله: إنه المغفل الثانى لأنه يستمتع بقراءتها دائما، وكانت تلك مجاملة كريمة من أستاذ كريم».

(٥٢)

وتفيض صفحات كتاب الدكتور عبد الحليم منتصر بالإشارة إلى عظمة شيخه الثانى (الرئيس الثانى لجامعة عين شمس) الأستاذ مصطفى نظيف وهو يرى فيه نموذجا لا يتكرر:

«كان مثالا يحتذى علما، وخلقا، وشخصية، وأدبا، واعتزازا بالنفس، والكرامة، والرجولة، والإباء، والشمم، والاستعلاء على صغائر الأمور».

ويشير عبد الحليم منتصر إلى فضل الأستاذ مصطفى نظيف فى دفعه إلى الاهتمام بتاريخ العلم:

«دعانى مرة لألقى محاضرة فى تاريخ العلم، وكان رئيسا للجمعية المصرية لتاريخ العلوم، وحدد لى الموضوع «علماء النبات من العرب القدامى» فإذا بى لأول مرة أعرف نحو عشرين عالما عربيا تكلموا فى النبات والزراعة، كالدينورى وابن العوام وابن وحشية وابن البيطار وداود الأنطاكى وابن سينا وغيرهم، وبعد إلقاء المحاضرة جاءنى الأستاذ نظيف هاشا باشا سعيدا جدا، مثنيا على البحث واللغة والإلقاء وما إلى ذلك، ومذ ذلك الوقت عشقت تاريخ العلم وألقيت فيه محاضرات وألفت فيه كتابا طبع عدة مرات، وأسهمت فى نشاطات الجمعية المصرية لتاريخ العلوم».

(٥٣)

ولا يتوانى الدكتور منتصر عن الإشادة بشخصية أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد ومواقفه على مدى صفحات كتاب مذكراته، وهو يذكر على سبيل المثال زيارته له ضمن وفد الجامعة حين استقال لطفى السيد احتجاجا على نقل الدكتور طه حسين من كلية الآداب وكان الدكتور منتصر لا يزال معيدا:

«فذهبنا إلى زيارته فى منزله فى مصر الجديدة وكنت معيدا فى كلية العلوم، فشكر لنا زيارتنا وقال: «المرة الجاية لا أحب أن أستقيل وحدى» ولم يعد إلى الجامعة إلا بعد أن أعيد طه حسين إليها».

....

وهو يشير فى مواضع كثيرة إلى أستاذية لطفى السيد الذى لم يكن يتوانى عن تصحيح الخطأ اللغوى ما سنحت الفرصة لهذا التصحيح فيقول:

«عندما أصدرت جمعية خريجى كلية العلوم مجلة «رسالة العلم» ذهبت مع الدكتور حامد جوهر لإهدائه العدد الأول، شكر لنا اهتمامنا بتعريب العلوم الحديثة ونشرها فى مجلة علمية عربية، وسأل الدكتور جوهر عما يعمل فى الغردقة، وتطرق الحديث إلى الشعب المرجانية ونطقها الدكتور جوهر بالضم، فقال له: تقول مُرجان كالعوام اسمه المَرجان بالفتح».

....

كذلك فإنه يشير إلى ولع لطفى السيد بالثقافة:

«وكان يتفضل بتشريف المحاضرات العامة والمناظرات التى أشارك فيها أو أنظمها فى مدرج الطبيعة بكلية العلوم بالعباسية».

(٥٤)

وقبل هذا كله يشير الدكتور منتصر إلى موقف أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد الحانى عليه كأب موجه، وإلى مدى العلاقة الروحية التى كانت تربط شباب الجامعة بأقطاب الجامعة من طراز أحمد لطفى السيد، وعلى مصطفى مشرفة:

«وقد نظمت وزارة المعارف سنة ١٩٣٨ مسابقة للتأليف فحظى كتابى «حياة النبات» بالجائزة الأولى، وأقامت الوزارة حفل تكريم للفائزين فى قاعة الاحتفالات بالجامعة،وحضر الحفل مدير الجامعة لطفى السيد، ووزير المعارف الدكتور محمد حسين هيكل، وطُلب إلىّ أن ألقى كلمة تذاع مباشرة، فإذا بى أنقد الجامعة فى حضرة مديرها، فقال لى عاتبا فى نهاية الحفل: «كده» فقلت له: إن هذه حرية الرأى التى علمتنا إياها معاليك، فانفرجت أساريره، وفى اليوم التالى أبلغت عميدنا الدكتور مشرفة بما فعلت فقال: «عملت طيب»، لكن أستاذنا لطفى السيد أرسل إليه بأنى نقدت الجامعة أمام غير الجامعيين، فإذا كان هذا يرضيك فأنا راض، وإذا كان لا يرضيك فأنا غير راض وقد جعلتك حكما، ورضيت حكمك، فأبلغنى الدكتور مشرفة بذلك، فقلت له: إنه أقر ما فعلت، فقال: إنه لا يغضب من ذلك، وقد حصل معى شخصيا مثل ذلك، فراح يعتذر إليه، فقال له: «أنا بانبسط لما باشوفكوا كده».

(٥٥)

ولم تقف علاقة أستاذ علم النبات الشاب (المولود ١٩٠٨) بأستاذ الجيل (المولود ١٨٧١) عند هذا الحد، وإنما امتدت إلى النشاط المبكر للمجمع اللغوى، ونحن نرى الدكتور منتصر وهو يشير إلى بدء علاقته بالمجمع اللغوى من خلال

أحمد لطفى السيد نفسه فى موضعين مختلفين من مذكراته وسنختار للقارئ الأكثر تفصيلا:

«فى شتاء سنة ١٩٤٦ قرأت فى جريدة الأهرام خبرا يقول إن مجمع اللغة العربية قد ألف لجنة لألفاظ الحضارة الحديثة، لاحظت أن جميع أعضائها من رجال الأدب واللغة، وخطر لى أن أكتب إلى رئيس المجمع أن مثل هذا التكوين ينقصه أعضاء من المتخصصين فى العلوم المختلفة، لأن الحضارة الحديثة قامت على أكتاف العلم، وكيانها على أغلب الأمر، وفعلا كتبت خطابا إلى أستاذنا المرحوم أحمد لطفى السيد رئيس المجمع آنئذ، قلت له فيه: إن الحضارة الحديثة أساسها العلم، ولا يستطيع أن يعطى المدلول الحقيقى لكلمة فى العلم إلا من مارس استعمالها من المتخصصين. وأضفت: كم أحب أن تعلموا يارجال الأدب أن رجال العلوم لا يقلون عنكم غيرة على اللغة».

«وفى نفس اليوم كنت أتناول الغداء مع المرحوم الأستاذ محمد العشماوى، وكان وزيرا للمعارف، عرضت عليه الخطاب فاعترض على قول سيدى معالى الأستاذ أحمد لطفى السيد بقوله: إنه يناديه بقوله سيدى وأستاذى، فأعدت كتابة الخطاب مضيفا كلمة أستاذى وأرسلت الخطاب بالبريد العادى».

«وبعد أيام وصلتنى دعوة من أستاذ الجيل محددا لى موعدا للقائه بالمجمع، وكان فى شارع قصر العينى، وذهبت فى الموعد المحدد ودخلت على معاليه قائلا: السلام عليكم.. فرد قائلا: وعليكم السلام جاى تناكف فى إيه تانى، قلت: أستغفر الله يامعالى الباشا، فأجاب: استغفر كيف تشاء، يمكن يغفر لك، وكان بذلك يشيرإلى عدد من الاجتماعات والندوات والمناظرات التى كنت أشارك فيها، كان يشرفها بالحضور فى كلية العلوم بالعباسية، أو كلية العلوم بالجيزة، أو

فى قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة، كان يرأس هذه الاجتماعات وكانت له تعليقات بارعة، فقد كان يسعده أن يرى من أبناء جيلنا من يشاركون فى هذا النشاط الأدبى والاجتماعى».

«ثم وجه حديثه إلىّ قائلا: «جوابك عجبنى، وأنا غلطان، وأنت معك حق» هكذا قال فى بساطة العظماء.. وعظمة العلماء..»».

«قلت لمعاليه: ينبغى تأليف لجان من المتخصصين فى الطب والهندسة والكيمياء والجيولوجيا والأحياء وما إليها من علوم وفنون، هم الخبراء المتخصصون الذين يقومون بتعريف المصطلحات وألفاظ الحضارة، تعريفا علميا ثم يأتى دور اللغويين فى وضع الصيغ الصحيحة، والتعبيرات اللغوية الدقيقة، فأجاب معاليه: اقترح ما تشاء من أسماء، قلت لمعاليه: معاليك أبو الجامعات وأدرى برجالها، قال: دعك من هذه الديباجة ما ستقترحه سينفذ».

«وكان أول الأسماء التى خطرت لى اسم أستاذنا المرحوم الدكتور محمد والى (هو أستاذ علم الحيوان الشهير فى كلية العلوم، وشقيق الوزير والسياسى جعفر والى، وكان حفيا بتدريس العلوم باللغة العربية، وقد أطلقت كلية العلوم اسمه على أحد مدرجيها الكبيرين، على حين أطلقت اسم الدكتور مشرفة على المدرج الثانى)، قال: إنه عجّز، ونحن نريدكم ياشباب أن تحملوا الأمانة، فذكرت له عددا من أسماء الأساتذة المتخصصين فى فروع العلم المختلفة تكونت منهم لجان كثيرة على هيئة خبراء، على أن يكون بكل لجنة عضو أو أكثر من أعضاء المجمع، تجتمع هذه اللجان فى أوقات محددة بدار المجمع، يناقشون ما يعرض عليهم من مصطلحات وألفاظ ومستحدثات فى العلوم المختلفة،ثم تعرض قرارات هذه اللجان على المجمع فى جلسته الأسبوعية التى تعقد عادة يوم الاثنين من كل أسبوع من الساعة الحادية عشرة حتى الساعة الواحدة، ثم تعرض قرارات

المجلس على مؤتمر المجمع، الذى يضم أعضاء من البلاد العربية المختلفة، مرة كل عام على مدى أسبوعين، فكان مرور المصطلح فى هذه المراحل الثلاث كفيلا بحسن صقله، وكمال صياغته، وصحة مادته وأسلوبه».

(٥٦)

ونأتى إلى علاقته بالدكتور طه حسين، ونحن نلاحظ ما يرويه عن شغفه المبكر بالاستماع إلى طه حسين والتلمذة عليه، وهو يذكر كيف أنه كان يوفق بين واجباته العلمية فى كل العلوم وهذه الهواية المحببة إليه:

«كانت كلية الآداب تشغل سراى الزعفران ذاتها، على حين كانت كلية العلوم تشغل المبانى الملحقة بها، وكانت محاضرة الدكتور طه حسين فى يوم الخميس من الساعة الثانية عشرة إلى الساعة الواحدة، وكانت حصة الكيمياء العملى فى ذلك اليوم من الساعة العاشرة والنصف إلى الساعة الواحدة، فكنت أجتهد فى إنهاء تحضيرتى الكيميائية، وأسارع لحضور محاضرة الدكتور طه حسين وكان ذلك ميسورا، إلا أن أستاذ الكيمياء لاحظ عنايتى بمجلة السياسة الأسبوعية، فتساءل علانية: ما شأن حامل «السياسة الأسبوعية» ودراسة الكيمياء؟ وأصر على سؤالى فى الكيمياء ليعرف مدى اهتمامى بالعلوم الطبيعية، ولم يكن يعلم أنى أسارع لأحضر فى كلية الآداب المجاورة درسا لأستاذنا الدكتور طه حسين».

....

كذلك فإن الدكتور منتصر يحرص فى هذه المذكرات على أن يروى ما أسعده ولاحظه من حيوية الدكتور طه حسين فى مناقشات المجمع اللغوى:

«واعترض على كلمة «مسننة» وقال: قل «مضرسة»، فقلت كل ضرس سن وليس كل سن ضرسا وأخشى أن يلتبس الأمر على القارئ أو السامع، فقال: لا

اشتقاق من الاسم الجامد، قلت: أجاز المجلس هذا عند الضرورة، فسأل الرئيس عما نستعمله فى الدراسة قلت مسننة، قال: خلاص مهمة المجمع أن يسجل ما تقوله المدرسة، فرد الدكتور طه حسين: «مهمة المجمع أن يسجل ما تقوله المدرسة صحيحا»، وأخذت الأصوات فكانت فى جانب «مسننة» كل ذلك فى نقاش هادئ رائع دون غضب أو ثورة».

(٥٧)

كما يدلنا الدكتور عبدالحليم منتصر، وهو طرف غير متورط فى خصومات الأدب، على مدى تقدير طه حسين لعبقرية أمير الشعراء أحمد شوقى:

«وسمعنا قصة أن شوقى طلب من زكى مبارك أن يقدم للشوقيات، فاعتذر مجاملة لطه حسين، ولكن عندما أخبر طه حسين بذلك قال له أخطأت «فشوقى أعظم شاعر فى العربية بعد المتنبى».

●●

وهو يقارن بين أعلام الأدب الثلاثة طه حسين والعقاد وأحمد أمين من وجهة نظره فيقول:

«سألتنى جريدة الرياض عن طريق أحد محرريها عن رأيى فى أدب طه حسين والعقاد وأحمد أمين، فقلت: إن طه حسين فنان، والعقاد مفكر، وأحمد أمين مؤرخ، ولكل منهم دوره فى الأدب العربى، فطه حسين يرسم لوحة فنية بعباراته الأدبية الرائعة، أما العقاد فهو مفكر يفرض رأيه الصواب ولا صواب سواه، أما أحمد أمين فهو مؤرخ يعرض الحقائق الأدبية عرضا تاريخيا يصور تتابع الأحداث».

(٥٨)

ونأتى إلى حديث المذكرات عن الدكتور محمد حسين هيكل، ونحن نرى الدكتور منتصر معجبا به كأديب وكمفكر وكوزير للمعارف، ويجدر بنا أن ننقل فقرة ثناء الدكتور منتصر على ما بدا له من عناية الدكتور هيكل بالصواب:

«كنت أكتب مقالات علمية فى السياسة اليومية والسياسة الأسبوعية، وكان رحمه الله يرحب بمقالاتى ويشجعنى على الكتابة، كتبت مرة مقالا فى السياسة اليومية أقارن فيه بين الآثار اليونانية والآثار الفرعونية، وكان من رأيى أن هناك أوجه شبه كثيرة بين الحضارتين، وكنت عائدا من زيارة لليونان وشاهدت الأكروبول وسجن سقراط وكثيرا من مظاهر الحضارة اليونانية القديمة، وكنت شاهدت قبل سنين الآثار الفرعونية فى الأقصر وأسوان، ووجدت أوجه شبه كثيرة مما جعلنى أستنتج وجود صلات بين الحضارتين، إلا أن المحرر وضع تعليقا ينتقد ذلك، فلما حضر الدكتور هيكل شكوت له من هذا التعليق، فقرأ المقال مرة أخرى وأنحى باللائمة على المحرر موافقا على رأيى».

....

والشاهد أن الدكتور منتصر يبدو حريصا على إظهار إعجابه الشديد بالموقف السياسى المهم الذى وقفه الدكتور هيكل فى محاكمات الثورة، ولكنه يضيف إلى هذا الموقف انطباع الدكتور هيكل نفسه الذى عبر له عنه عندما التقيا فى جبل لبنان، فقد أبدى الدكتور هيكل أسفه مما يعنيه المديح من أنه لم تكن هناك شجاعة عند الآخرين:

«ولقيته مرة فى جبل لبنان بعد محاكمات الثورة، فقلت له: لقد أعجبتنى شهادتك ولعلها الوحيدة التى أعجبت بها، فقال إنه يأسف لأن يسمع مثل هذا المديح لأن معناه أنه لم تكن هناك شجاعة عند الآخرين».

(٥٩)

وتطلعنا المذكرات على حب الدكتور عبد الحليم منتصر للأديب الكبير الأستاذ أحمد حسن الزيات، وهو حريص على الاعتراف بالدور الذى لعبته مجلة «الرسالة» فى تكوين وجدانه ووجدان جيله، ومع هذا كله فإن الدكتور منتصر كان يجد نفسه غير قادر على أن يتجاوز عن سقطة الأستاذ الزيات حين قال: «وأما عبد الناصر فإنه جاء بالميثاق على نحو ما جاء الرسل بالكتب السماوية»، ومع هذا فإنه يشير إلى اقتدائه بالزيات فى تسمية مجلة «رسالة العلم» إشارة إلى الرسالة:

«لا أظن أن أحدا من جيلنا ينكر تأثره بأسلوب الأستاذ الزيات ومجلته الرسالة التى أصدرها على مدى عدة أعوام، وإنى لأعترف بأنى فى جمعية خريجى كلية العلوم أصدرنا مجلة «رسالة العلم» على أمل أن تكون فى العلم على مستوى الرسالة فى الأدب، فكنا نتلهف على قراءتها كل أسبوع حتى لنضن بثمنها على أى شىء آخر لاقتنائها والانتفاع بها، وكم كانت فجيعتنا ونحن نقرأ يوما فى الأهرام مقالا للأستاذ الزيات بعنوان «الرسالة تحتجب»، وكنت أنشر بها بعض مقالاتى بعد أن احتجبت السياسة الأسبوعية، حتى لقد اقتنيت جميع أعداد الرسالة،وعندما صدرت مرة أخرى لعدة أعوام فرحنا بها فرحًا شديدًا، فقد عاد الأستاذ الزيات بقلمه البليغ وأسلوبه الموسيقى الجميل ليغذى عقولنا ونفوسنا وأرواحنا، ولكن من أسف أن احتجبت الرسالة مرة أخرى وبلا عودة، ولا أظن أحدا ينسى مقالاته «لقد جعلناكم أمراء» وبحوثه الأدبية الممتازة،وأسلوبه الموسيقى الرقيق».

ويبدو الدكتور منتصر حريصا على الإشارة إلى مودته ومحبته للشاعر عزيز أباظة، وإن لم يعده ضمن العشرة الكبار، ويبدو أنهما كانا قريبين إلى بعضهما وأن علاقتهما الوثيقة استمرت فترة طويلة.

وعلى الرغم من انتقاده المبكر في المذكرات لثناء عزيز أباظة الجم على الشاعرة عاتكة الخزرجي وتعبيره عن اعتقاده في مبالغة الشاعر عزيز أباظة في مديح الشاعرة، إلا أننا نجد الدكتور منتصر هو الآخر يقع في هوى هذه الشاعرة قبل نهاية مذكراته:

«كتبت إليها شاكرا هديتها الجميلة، قلت لها بوصفي أستاذًا للنبات فإني أقرر أن أجمل أزهاره الزهرة الأولى، أعني الوردة التي تتوسطها صورتها، وبوصفي متذوقا للشعر العربي فإني أقرر أن شعرها كله يفوح منه شذى عطر جميل، لابد أن به بعض أنفاسها، وقصائد الديوان كله، إنما هي شعر حب وغزل جميل في ذات الله سبحانه وتعالى، فهي فيما تقول شاعرة متصوفة».

....

كذلك يروي الدكتور منتصر أنه سمع من الشاعر عزيز أباظة بيت الشعر الذي يقول:

«رأى الإنسان ضرب من العرض   هذان هما الأكرمان من حرماته»

وذلك في رثاء أحد أعضاء المجمع فأعجبني كثيرا، وسألت كثيرا من الزملاء: هل سبق شاعرنا إلى هذا المعنى، وهو مقارنة الرأي بالعرض،فقالوا لا، قلت: لو أني هارون الرشيد لأعطيته مليونا من الجنيهات على هذا المعنى المبتكر الأصيل،

رحم الله شاعرنا الكبير، وبالطبع كان يشير إلى ما استشرى فى ذلك العهد من النفاق والاتجار بالآراء».

ويعتز الدكتور منتصر أيما اعتزاز بقصيدة الشاعر عزيزأباظة فى الثناء على مجلة «رسالة العلم» وما تضمنته هذه القصيدة من ثناء عليه هو نفسه:

«وفى عيدها الأربعين نشر فى صدر عددها الأول لعام ١٩٧٣ قصيدة عصماء للمرحوم شاعرنا الكبير الأستاذ محمد عزيز أباظة، حيا فيها المجلة والعلم وأهله، وأشار إلىّ فى بضعة أبيات، فقلت له رحمات الله عليه: إنى سأحذف هذه الأبيات التى ذكرت فيها اسمى صراحة، فأجاب رحمه الله: إن ذلك ليس من حقى، وكان له ما أراد، ونشرت القصيدة كاملة».

(٦١)

بقى أن أشير إلى أن هذه المذكرات قد عكست بصدق شديد شخصية صاحبها العظيم الذى شغلته الحياة العلمية عن أن يستمتع بالحياة نفسها على نحو ما يستمتع بها الآخرون، ونحن لا نراه طوال رحلة المذكرات يشير من قريب ولا من بعيد إلى متع الحياة وزخرفها، ولا يكاد يفرغ للاستمتاع بها، على الرغم من تطوافه ببلاد العالم، وأقصى ما نرى من استمتاعه هو مثل واحد يرويه عن رحلته الجميلة إلى أمريكا فى إطار زيارة أبنائه:

«فى أكتوبر سنة ١٩٧٤ كنت وزوجتى فى أمريكا، فى زيارة لولدنا «عادل»، وقمنا بزيارة مدينة الشمس فى ولاية أريزونا، حيث البحيرات والنوافير الصناعية، والسيمفونيات التى تنطلق تلقائيا، والحدائق البهيجة، والأشجار الباسقة، والفيلات ذات الحدائق وحمامات السباحة الخاصة، قالت زوجتى: إن هذه هى الجنة بعينها، فقلت: ولكن ينقصها شىء، قالت: ما عساه يكون؟ قلت:

«الحور العين»، قالت: نحن هنا، قلت: على العين والرأس ولكنك واحدة والنص القرآنى الكريم يستعمل صيغة الجمع وفسره المفسرون بأن عدد الحوريات لا يقل عن مائتين وقيل ثلاثمائة وقيل أكثر، فمعنى ذلك أنه ينقصنى مائة وتسع وتسعون حورية على الأقل».

الباب الرابع

حصاد السنين

مذكرات الدكتور عبد الكريم درويش

(١)

ولد الدكتور عبدالكريم درويش عام ستة و عشرين (١٩٢٦) فى السابع من أبريل، فى البرامون محافظة الدقهلية، وتخرج فى كلية الشرطة (١٩٤٦)، فى الدفعة التى تخرج فيها الوزراء الثلاثة: النبوى إسماعيل وأحمد رشدى وزكى بدر، كما تخرج فيها زميله اللواء فاروق الحينى الذى عين معه فى نفس اليوم نائبا لوزير الداخلية.

نال الدكتور عبد الكريم درويش درجة الماجستير فى العلاقات العامة (١٩٦٠)، ثم الدكتوراه فى الإدارة العامة (١٩٦٢).

تدرج عبد الكريم درويش فى وظائف الشرطة وشغل عدة مناصب مهمة فيها، فقد عمل مديرًا للمكتب الفنى لوزير الداخلية، ومديرًا للتدريب بمصلحة التدريب بالوزارة، ثم مديرًا لمعهد تدريب احتياط الشرطة، فمديرًا لكلية الشرطة، وهو المنصب الذى بقى فيه مع ترفيع درجته شيئًا فشيئًا حتى أصبح مساعدًا أول للوزير ورئيسا لأكاديمية الشرطة، وقد اختير نائبًا للوزير وهو يشغل هذا المنصب.

تمتع الدكتور عبدالكريم درويش - ولايزال - بعضوية عدد من المجالس القومية المهمة، فكان عضوًا فى المجلس القومى للتعليم والبحث العلمى والتكنولوجيا،

وعضوًا فى المجلس القومى للخدمات، وفى أكاديمية البحث العلمى، وفى اتحاد جمعيات التنمية الإدارية. كما انتخب نائبا لرئيس اتحاد اللجان الأوليمبية الأفريقية، ونائبًا لرئيس الاتحاد العالمى للتايكوندو، وحصل على كثير من التقدير الرسمى.

وهو زوج الدكتورة ليلى تكلا أستاذة الإدارة بأكاديمية السادات والبرلمانية المخضرمة.

عين عبدالكريم درويش نائبا للوزير فى أول مارس ١٩٨٦ (هو وفاروق الحينى) عقب تعيين زكى بدر وزيرًا للداخلية بأيام معدودة، وأديا اليمين الدستورية أمام الرئيس حسنى مبارك، لكن التشكيل الوزارى التالى لم يتضمن اسميهما !.

(٢)

نجح الدكتور عبد الكريم درويش فى أن يقدم لأبناء أمته، ولأبناء مهنته أيضا، كتابا قيما يتناول فيه تجربته الناجحة فى الحياة، وقد استطاع هذا الأستاذ المتمكن أن يبلور خبرات الحياة العريضة المثمرة فى صفحات قليلة، وأن يضمن هذه الصفحات كثيرًا من الدروس الحية فى الإدارة والقيادة على حد سواء، كما استطاع أن يلم إلماما سريعا وذكيا بالتحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى شهدها وطنه مع تقلب العصور واختلاف أنظمة الحكم، وقد صدرت أحكامه فى كل هذه الجزئيات عن نفس سوية متزنة قادرة على استشراف الصواب، وعلى الدقة فى الحكم على الظواهر، وعلى الوصول إلى الجزئيات المهمة فى كل ما تناوله قلمه مما مر به فى الحياة.

وقد نجح عبد الكريم درويش فى أن يصور لأبناء وطنه الجانب المضىء فى التجربة الشرطية، وهو يعترف أنه كثيرا ما واجه أسئلة من شخصيات تنتمى إلى

طبقات مختلفة عن مدى صحة ما هو شائع عن تكوين ضباط الشرطة فى كليتهم، وهو يذكر أن كثيرا من المثقفين سألوه فى لقاءات عامة وثنائية وفى ندوات ومؤتمرات عن الأسلوب الذى تتبعه القيادات الشرطية المسئولة عن التعليم فى تكوين كوادر الشرطة، وما إذا كان هذا التكوين يستلزم تعليم هؤلاء الضباط قدرا من السباب والشتائم والألفاظ النابية والغلظة والقسوة وسوء المعاملة؟ ولا يجد الدكتور درويش حرجا فى أن يروى هذا السؤال على هذا النحو، ثم هو يلخص لنا كثيرا مما أجاب به على هذا السؤال على الرغم من اعترافه بأنه كان يتملكه الغيظ مع كل مرة يسمع فيها هذا السؤال.

(٣)

ينبهنا الدكتور عبد الكريم درويش إلى الطبيعة المختلفة للعمل الأمنى والمشكلة الدائمة فى خطورة اتصاله بالجماهير أو ممارسة الإعلان عن أدائه، وهو يقول فى هذا المعنى:

«العمل الأمنى ـ على عكس أى عمل آخر ـ هو العمل الذى لا يمكن بحكم طبيعته أن يكون مجالا للإعلان عنه، أو الدخول فى تفاصيله، وذلك تجنبًا للإفصاح عن إجراءاته، أو تناول ما ينبغى عدم البوح به من أسرار المهنة، أو إفساد خططه. كما أن طبيعة هذا العمل تملى على المسئولين عنه الحرص الشديد فى التحدث عنه لأن العبرة بنتائجه لا بأشخاصه. وأكثر من هذا فإن المسئولين عنه ـ سواء بالشرطة أو بالأجهزة الأمنية الأخرى أو رجال النيابة العامة والقضاء ـ مطلوب منهم عدم الإعلام عن جهودهم أو التحدث إلى الرأى العام إلا من خلال نظم محددة».

(٤)

ولا تغيب عن ذهن عبد الكريم درويش العلاقة الوثيقة بين الأمن والعدالة وهو يحكى بعض مشاهداته فى اسكتلانديارد متمنيا أن نصل فى مصر إلى مثل هذا المستوى الكفيل بتحقيق عدالة ناجزة:

«من أهم الدروس المستفادة أثناء وجودنا باسكتلانديارد، زيارتنا لأحد أقسام بوليس مدينة لندن. فى هذا القسم حضرنا تحقيقًا مع لص ضبط متلبسًا فى الليلة السابقة بسرقة إحدى الشقق، تابعنا إجراءات التحقيق.. إثبات أقوال المبلغ وسؤال الشهود، والشروع فى استجواب المتهم بإلقاء العبارة التحذيرية التقليدية عليه التى يتطلبها القانون، التى تقول: «أنت غير ملزم بإبداء أقوال لا تريد أن تقولها، لكن أى شىء تقوله يمكن أن يستخدم كدليل ضدك». وبعد هذا التحذير يبدأ استجوابه، وفحص وتحريز الأدوات المضبوطة معه فى أكياس من البلاستيك، وأخذ بصماته والكشف عن سوابقه.. إلى آخر ما يتطلبه الموقف من إجراءات يقتضيها القانون وسلامة التحقيق. لم نجد شيئا جديدا فى كل ما سردت سوى التحذير الذى أشرت إليه، والمعاملة الطيبة التى يلقاها المتهم أثناء التحقيق معه».

«ثم كانت المفاجأة الكبرى التى لم نكن نتوقعها، فقد وجهت إلينا الدعوة لحضور جلسة محاكمة هذا المتهم فى نفس اليوم بالمحكمة المختصة بلندن».

«ذهبنا إلى المحكمة، وأخذنا أماكننا فى قاعة الجلسة، وجىء بالمتهم، ومثل أمام القاضى، ووجه إليه ممثل الادعاء التهمة، واعترف بجرمه دون مراوغة، ونودى على الشهود وأدلوا بشهادتهم، وتمت المحاكمة وصدر الحكم، كل هذا يجرى ونحن لا نكاد نصدق.. بالله كيف اختزلت كل إجراءات التحقيق والإحالة

للقضاء والمحاكمة وصدور الحكم فى يوم واحد؟ كان هذا الواقع الذى عايشناه وتعلمناه درسا ذا مغزى عميقا جديرا بالتسجيل، يعبر عن قمة الكفاءة وروعة الأداء فى إدارة العدالة الجنائية».

«أين هذا مما يجرى عليه العمل فى بلادنا وفى العديد من بلاد العالم، حيث تبقى القضايا تتداول لسنين عديدة بالمحاكم، ويبقى المتهمون محبوسين لفترات طويلة يتعاظم خلالها اللدد فى الخصومة، وتتلاشى الغاية من الردع، ويتوارى مفهوم العدالة.. بل تصبح العدالة نوعا من الظلم. حقا إن تكلفة العدالة الجنائية فى بلادنا باهظة جدا، باهظة اجتماعيا وإنسانيا، وباهظة ماديا أيضا للدولة والناس على حد سواء».

«أقول: لقد كان من الصعب أن نصدق هذا الذى حدث لولا أننا كنا شهودًا عليه».

(٥)

ويستعرض عبد الكريم درويش تجربته الناجحة فى تأسيس وإدارة أكاديمية الشرطة على مدى أحد عشر عاما استطاع فيها، على حد تعبيره، أن يعيد إلى هذه الأكاديمية رونقها ونظامها ونجاحها وانضباطها.

وهو يروى تجربته فى كلية الشرطة بشىء من الاعتزاز:

«عندما ذهبت لأشكره (ممدوح سالم) على اختيارى مديرًا للكلية، كانت توجيهاته أن تبدأ عملية تغيير شامل لكل الأوضاع دون تمهل. وروى لى واقعة شخصية أثارت غضبه واستياءه وخجله، فقد ذهب لحضور احتفال فى إحدى المناسبات الرسمية، وكانت هناك فرقة موسيقية نحاسية فى مدخل الاحتفال،

قال: «لقيت فرقة هزلية شكلاً وموضوعًا، تلبس ملابس مبهدلة، لا هندام، ولا تناسق، ولا نظافة، والآلات النحاسية يعلوها الصدأ مثلما يعلو أزرار الزى الرسمى، غطاء الرأس - البريهات - زى الطواقى. افتكرتهم كمبارس من شارع محمد على، ولما سألت عنهم قالوا: دى فرقة موسيقى كلية الشرطة. شخطت فى الصول اللى معاهم وقلت له: انصرف فورًا من هنا، قِلّتكم أحسن من الفضائح دى.. مصدقتش نفسى، وقلت بقى دى فرقة موسيقى الكلية اللى كانت مُعتمدة رسميًا من الإذاعة قبل التليفزيون ما يبتدى، وكنا نستمتع بعزفها صباح كل يوم جمعة فى كشك الموسيقى بحديقة الأزبكية، توصل للحال المزرى ده؟ ثم عاد ليوجه الحديث إلىَّ قائلا: فيه حاجات كتيرة لازم تتغير بسرعة، وأى مشكلة تصادفك وتستعصى عليك اعرضها علىَّ دون تمهل».

«مكثت فى منصبى رئيسًا للأكاديمية ١١ عامًا، وهى أطول مدة استمر خلالها رئيس واحد للأكاديمية فى هذا المنصب منذ إنشائها، كما شرفت برئاسة المجلس الأعلى للشرطة ست سنوات متصلة، وهو ما لم يتكرر بعد ذلك».

«لم يكن غريبا خلال هذه الفترة أن أشعر بأن الأكاديمية أصبحت جزءًا من كيانى، بل أصبحت كيانى كله، ومحور حياتى واهتماماتى، ومصدر سعادتى. كذلك أصبحت جزءا منها، ورمزًا لها، وأقرن بها، وأحمد الله أننى بقدر ما أعطيت الأكاديمية، بقدر ما أعطتنى، بل وأكثر، فمازلت حتى اليوم، وفى كل يوم، أجنى ثمار هذا العطاء المتبادل.. محبة واحترامًا وتقديرًا وودًا من آلاف ضباط الشرطة السابقين والمعاصرين الذين سعدت بزمالتهم وبتعليمهم وتدريبهم وتخريجهم، بمن فيهم ثلاثة وزراء للداخلية: اللواء محمد عبد الحليم موسى، واللواء حسن الألفى، واللواء حبيب العادلى، والذين يسعدوننى الآن كل السعادة ويملأون علىّ حياتى بمبادرات التواصل والوفاء وبأجمل الذكريات».

(٦)

ويشير الدكتور درويش إلى أنه استطاع خلال رئاسته لأكاديمية الشرطة أن يحرز نجاحات ساحقة فى مجالات مهمة، وقد كانت الرياضة هى المجال الأول الذى استطاع أن يعيد إلى الأكاديمية رونقها فيه بعدما كانت وصلت عندما تولى قيادتها إلى حالة لم تحصل فيها على أى كأس من كئوس النشاط الرياضى على مستوى مصالح وإدارات وزارة الداخلية، وهو يعبر عن شعوره فى أثناء حضوره ذلك الحفل الذى شهده عقب توليه منصبه كمدير لكلية الشرطة، وأنه كان يتمنى أن تنشق الأرض لتبلعه حين لم يجد الكلية قد فازت بأى كأس على مستوى إدارات وزارة الداخلية، بينما كانت الكلية نفسها قد فازت بكأس الملك فاروق (١٩٤٦) بعد أن فازت فى معظم الألعاب الرياضية المختلفة على مستوى الجامعات والكليات العسكرية وقت أن كان عدد طلبتها لا يتجاوز ٣٠٠ طالب.

ويروى الدكتور عبد الكريم درويش كيف تمكن بجهد دائب من أن يحقق عودة الرياضة إلى كلية الشرطة على الرغم من الاعتقاد الذى ساد لبعض الوقت فى استحالة هذه العودة بسبب انشغال الطلبة باستذكار المواد القانونية التى تؤهلهم للحصول على ليسانس الحقوق فى ظل سياسة التوءمة العلمية التى تمت بين كلية حقوق عين شمس وكلية الشرطة، وهو يقول:

«كان هناك تخوف من بعض المتشككين فى أن تكون للنشاط الرياضى المتزايد فى كلية الشرطة آثاره السلبية على التحصيل العلمى للطلاب ينعكس على نتائج الكلية، وأن يكون لقبول الطلبة الرياضيين استثناء من الحد الأدنى للمجموع تأثيره على هذه النتائج فى نهاية العام الدراسى. كانت وجهة النظر هذه جديرة بالاهتمام والدراسة، ومع علمنا بأن الطلبة الرياضيين لم يصادفوا مشاكل أو صعوبات فى

دراستهم، ولم يتعثروا فى تحصيلهم العلمى من واقع النتائج المعلنة فى نهاية العام الدراسى، فقد رأيت أن أحسم الجدل حول هذا الموضوع بأسلوب علمى».

«كان الأستاذ محمود قاسم (الدكتور محمود قاسم حاليا) - أحد المسئولين بقطاع الرياضة بالأكاديمية وخريج كلية التربية الرياضية - يعتزم إعداد رسالة ماجستير فى مجال التربية الرياضية قد طلب منى النصيحة فى اختيار موضوع الرسالة، اقترحت عليه أن تتناول الرسالة موضوع «العلاقة بين التفوق الرياضى والتفوق العلمى»، من واقع تجربة كلية الشرطة».

«جاءت النتائج التى توصلت إليها هذه الدراسة على أعلى درجة من الأهمية، ليس لإدارة الأكاديمية فحسب، وإنما أيضًا لكل مَنْ يهمه الأمر من الباحثين ورجال التربية والتعليم، وأولياء أمور الطلبة».

«لقد أكدت الدراسة أن التربية الرياضية ليست مضيعة للوقت، أو عبئًا على التحصيل العلمى، وإنما تعود على ممارسيها بفوائد بدنية ونفسية وعقلية واجتماعية، إضافة إلى أنها استثمار إيجابى لوقت الفراغ، بل ملؤه بما ينفع الشباب مصداقًا لمقولة: «إن لم نعط الشباب شيئًا يفعله فى وقت فراغه، فإن الشيطان سوف يتكفل عنا بذلك»».

«هذه الدراسة تؤكد أيضًا أهمية وقيمة انضباط العملية التعليمية، ذلك أنه إذا أحسن تنظيم استغلال وقت الطالب وترشيد إدارة هذا الوقت، فلا شىء يتهدد سبيل الطالب للتفوق فى الدراسة دون معاناة أو دروس خصوصية».

«يعزز هذا القول مقارنة نتائج النجاح فى الليسانس بكلية الشرطة وكليات الحقوق بالجامعات المصرية، فعلى الرغم من أن طالب الشرطة محمل بثلاثة مناهج فى آن واحد: علم القانون، وعلوم الأمن والشرطة، والمواد العملية كالرماية

وركوب الخيل وعمليات الشرطة والتدريبات العسكرية، مقابل منهج واحد لمواد القانون فى كليات الحقوق، فإن نتائج ليسانس القانون وعلوم الشرطة بكلية الشرطة تفضل نتائج الليسانس بمعظم كليات الحقوق بحوالى ثلاثة أضعافها».

«حسم الجدل حول هذا الموضوع.. وعادت الرياضة، وعادت الروح والحيوية والإحساس بالانتماء إلى الأكاديمية».

(٧)

أما المجال الثانى الذى نجح عبد الكريم درويش فى تطويره فى كلية الشرطة فقد كان أيضا بمثابة استعادة لوجه قديم جميل فى أكاديمية الشرطة، وهو يفخر - ولا نقول يعتز - بأنه هو الذى أعاد فكرة انتقاء طلاب الشرطة، وأنه هو الذى أدخل تقليد شجرة العائلة فى مسوغات القبول بالكلية، وقد صدر فى هذا التوجه عن اقتناع بأنه إذا كان المواطن حرا فى أن يختار لنفسه أفضل طبيب إذا مرض، وأفضل مهندس إذا أراد أن يبنى مسكنه، وأفضل محام إذا أراد أن يتقاضى، إذا كان هذا حقه فإن من حقه على الدولة أن تختار له أفضل قاض، وأفضل وكيل نيابة، وأفضل دبلوماسى، وأفضل ضابط شرطة.. هذا واجب الدولة والتزام عليها ولا يجب أن تتخلى عنه.

«... فقد كانت الكلية تقبل الطلبة على أساس مجموع الدرجات التى حصلوا عليها فى الثانوية العامة فقط، دون النظر إلى مدى صلاحية البيئة ومناسبة الحالة الاجتماعية للطالب لكى يصبح عضوًا عاملاً فى مهنة تتطلب ضوابط ومعايير معينة فى شاغليها. وحين تقصيت سبب العدول عن اختيار الأصلح والأفضل من بين المتقدمين للالتحاق بالكلية، علمت أنها قد اضطرت للعدول عن هذا النظام بناء على توجيهات من وزير الداخلية السابق، بدعوى تحقيق العدالة

والمساواة بين جميع المتقدمين وفقًا لمجموع الدرجات التى حصلوا عليها فى امتحان الثانوية العامة، بما يتمشى ومبادئ النظام الاشتراكى».

«وضعت نظامًا جديدًا لاختيار الطلبة للالتحاق بكلية الشرطة، وكانت أهم إضافة أدخلت على هذا النظام وثيقة التعارف، أو «شجرة العائلة» كما أطلق عليها، والاختبار النفسى، وأيضًا تقرير من مدير المدرسة الثانوية التى كان بها الطالب عن سلوكه فى أثناء الدراسة، ورأى مدير المدرسة فى مدى صلاحية الطالب لأن يكون ضابط شرطة»

«عند تطبيق هذا النظام الجديد، كانت له ردود فعل إيجابية قوية لدى الرأى العام، خاصة أن الناس كانت قد استبد بهم الضيق ببعض تطبيقات النظام الاشتراكى التى أتت بنتائج سلبية. كما كان له صدى طيب فى بعض أجهزة الدولة التى تتشابه ظروفها مع هيئة الشرطة، وفى داخل وزارة الداخلية ومحيط أكاديمية الشرطة، وأتى نظام القبول الجديد بنتائج طيبة لم تكن متوقعة».

(٨)

ويشير عبد الكريم درويش إلى أنه أعد رد وزير الداخلية على طلب إحاطة تقدم به أحد أعضاء مجلس الشعب إلى السيد ممدوح سالم وزير الداخلية، وأنه ضمّن هذا الرد دراسة تحليلية لبيانات الطلبة المقبولين وخلفياتهم العائلية والاجتماعية والاقتصادية، وقد خلصت الدراسة إلى أن أعلى نسبة من الطلبة المقبولين كانوا من أبناء رجال التربية والتعليم، يليهم أبناء صغار ملاك الأراضى الزراعية، ثم أبناء العاملين بالحكومة.

«فى العام التالى لتطبيق هذا النظام، طلبنى السيد ممدوح سالم وزير الداخلية وقال: فيه عضو فى مجلس الشعب تقدم بطلب إحاطة ينتقد فيه وثيقة

التعارف، ويهاجم نظام القبول بكلية الشرطة بدعوى أنه نظام طبقى يتعارض مع مبادئ النظام الاشتراكى، لأنه يحول بين أبناء الشعب وبين دخول الكية، ويطالب بإلغاء هذا النظام والعودة إلى نظام المجموع، ومطلوب منى أن أرد على طلب الإحاطة هذا، قلت للوزير: إننى سوف أعد الرد المناسب على طلب الإحاطة».

«وجاء رد الوزير موضوعيًا ومقنعًا، واستمر نظام القبول مطبقًا ومعمولاً به حتى يومنا هذا.. فى ظل «شجرة العائلة».

(٩)

ويفاجئنا عبد الكريم درويش بعد هذا بالإشارة إلى أن المستشار أحمد على موسى النائب العام فى ذلك الوقت اتصل به وسأله عن نظام القبول الذى استحدثته أكاديمية الشرطة فى عهده، وطور نظام قبول أعضاء النيابة العامة فى ضوء تجربة أكاديمية الشرطة.

«اتصل بى المستشار أحمد موسى النائب العام وقتئذ، وحكى لى بعض التجارب السلبية التى صادفها مع بعض معاونى النيابة الجدد الذين ذهبوا لحلف اليمين بعد أن قبلوا أعضاء فى النيابة العامة وفقًا لمجموع الدرجات دون أى معيار آخر، وسأل عن نظام القبول الذى استحدثته الأكاديمية، شرحت له النظام، وأرسلت له بنسخة من وثيقة التعارف، وبالفعل طور نظام قبول أعضاء النيابة العامة فى ضوء تجربة أكاديمية الشرطة».

(١٠)

أما المجال الثالث الذى يفخر عبد الكريم درويش بالنجاح الذى حققه فيه، فهو إدخال المرأة فى أكاديمية الشرطة، ويصل اقتناع درويش بهذا النجاح وفخره به إلى أن يخصص أحد ملاحق كتابه لذكر أسماء الخريجات الأوائل لهذا

النظام، وهو يشير إلى الحوار الإنسانى العقلانى الذى دار بينه وبين الوزير حسن أبو باشا حتى اقتنع الأخير بإدخال الشرطة النسائية فى مصر، وتخرجت أولى الدفعات فى عام ١٩٨٤.

وهو فخور بالفتاة المصرية وقد أصبحت تلبس زى ضابط الشرطة الجذاب الأنيق، وتحمل رتبة الملازم أول فى رشاقة ورونق ولياقة بدنية وحسن هندام، وهو ينتبه إلى أن هذه الخطوة كانت جزءا من حركة المجتمع فى اتجاه التقدم. ومع أن هذه الخطوة الجبارة لقيت بعض التوقف فى عهد محمد عبد الحليم موسى الذى كان من الرافضين لهذا النظام، فإنها سرعان ما استؤنفت مرة ثانية ولا تزال العجلة تسير.

(١١)

يُرجع عبد الكريم درويش سبب نجاحه فى إدارة أكاديمية الشرطة وفى غيرها من المهمات الكبرى لفهمه لقيمة التمويل ودوره وأهمية الاعتماد على مدير الميزانية:

«عندما حضرت أول محاضرة فى مادة الميزانية، بدأ البروفيسور سبيرو حديثه إلينا بقوله: أنا أثق فى أنكم لم تكونوا أحرارًا فى اختيار هذه المادة لأنها فرضت عليكم بحكم نظام دراسة دكتوراه فلسفة فى الإدارة، ولكن دعونى أؤكد لكم أن هذه المادة هى أهم وأخطر أسلحة وأدوات أى مدير يريد النجاح، فلا سبيل لكم إلى تحقيق أهدافكم الطموحة فى إدارة المنظمات إلا بتوافر الاعتمادات المالية، وهذا يفرض على المدير أمرين مهمين:

«الأول: أن يعى جيدًا أن مدير الميزانية فى الوزارة أو الهيئة التى يتبعها هو أهم شخص يمكن أن يدفعه قدمًا إلى الأمام، أو يجمده فى موقعه، بمجرد

تأشيرة بالموافقة على مشروع الموازنة السنوى وما به من مشروعات جديدة، أو رفض هذا المشروع».

«الثانى: أن الميزانية معركة.. مَنْ يخوضها بروح وجسارة المحارب فإنه سوف يحصل على الاعتمادات، أما مَنْ يستسلم من أول مواجهة بالرفض فهو بذلك سوف يمنح فرصة ذهبية لغيره لاقتناصها».

«كانت هذه نصيحة غالية استثمرتها تمامًا خلال مراحل حياتى العملية المختلفة، وفى كل محاولة كانت النتيجة إيجابية، وبصفة خاصة فى تجربتى فى رئاسة أكاديمية الشرطة، وفى رئاستى للجنة الأوليمبية المصرية، واللجنة المنظمة للدورة الخامسة للألعاب الإفريقية بالقاهرة عام ١٩٩١، التى تكلفت منشآتها مئات الملايين التى لم تكن معتمدة أصلاً فى ميزانية الدولة، الأمر الذى أريد أن أؤكده أن مَنْ يتعلل بعدم توافر الاعتمادات المالية يتعلل بخيط واهٍ، أو بطوق نجاة مثقوب. فهناك عشرات التجارب والأمثلة لمنظمات تغيرت أحوالها وازدهرت وطفرت وحققت نجاحات مرموقة مع قدوم قائد جديد استطاع أن يجد حلولاً لمشكلة الموارد المالية بطريقة أو بأخرى».

«وحتى على المستوى القومى، فإن مشكلة أى بلد فى معظم الأحيان لا تكمن فى الفارق بين ما تملك وما لا تملك، بقدر ما هى مشكلة الاستخدام والاستغلال الرشيد لذلك القدر الذى تملكه من إمكانات بشرية ومادية.. وهى إذًا مشكلة إدارة فى المقام الأول. وهناك دول غنية ومع ذلك بقيت متخلفة، وتوجد دول محدودة الموارد كاليابان لكنها فى عداد الدول المتقدمة، والفرق بين التقدم والتخلف - من وجهة نظرى - هو الفرق بين إدارة رشيدة واعية متفوقة ومنجزة، وإدارة محدودة القدرات».

ويستطرد عبدالكريم درويش إلي إثبات نجاح النظرية التى أخذ بها:

«لقد جددت منشآت الأكاديمية كلها وتبدل حالها، وزاد عليها منشآت حديثة عصرية تكلفت الملايين، منها الصالة المغطاة، وحمام السباحة الأوليمبى، وميدان الرماية الإلكترونى، وقاعة المؤتمرات، وقاعة الاحتفالات، والفصول المطورة.. وغيرها، دون أن يكون لهذه الإنجازات رصيد فى بنود الميزانية، لكن وللحقيقة أمكن تحقيق هذا على حساب جهات أخرى تقاعست عن تنفيذ الميزانيات المخصصة لها فاقتنصتها الأكاديمية، وأيضًا من خلال الاتصالات الشخصية والإلحاح على الحصول على الاعتمادات، والاقتناع بجدوى المشاريع التى تنفذ، والجدية والسرعة فى إنجازها».

(١٢)

كذلك ينبهنا الدكتور عبد الكريم درويش إلى فهمه المتقدم للدور التربوى للمؤسسات التعليمية، وهو ينتقد ما يراه فى نظام التعليم الجامعى المصرى بعدما رآه فى جامعة نيويورك:

«لقد تضاءل مفهوم الجامعة عندنا ـ من وجهة نظرى ـ من حيث إنها مكان للمعرفة والتكوين العلمى الحر، والتفكير الخلاق، وإعمال العقل، وحرية الاختيار والاختلاف، والنمو المعرفى، والنضج الثقافى».

«معذرة وأنا أتوقف عند هذه المقارنة بين نظام التعليم الجامعى عندنا وعندهم، فأنا أشارك كل المفكرين المصريين فى أن هذا الاتجاه السائد فى أسلوب التعليم الجامعى المصرى ـ التلقين وحفظ كتاب الأستاذ المقرر ـ هو المعوق الحقيقى دون تنمية الأجيال الجديدة من خريجى الجامعات المصرية فى الاتجاه السليم، الذى يعدهم لمواجهة تحديات العصر ومتطلباته، وبناء مستقبل أفضل لمصر، وتحمل أعباء هذا المستقبل».

(١٣)

لهذه الأسباب كلها فهما وإنجازا، ظل عبد الكريم درويش معتزًا كل الاعتزاز بتجربته فى أكاديمية الشرطة، وهو يعبر عن أن النجاح الذى حققه فيها قد ملء عليه حياته، ولا يزال يظلل هذه الحياة، وهو يقول فى هذا المعنى:

«أرانى أكثر الناس حظًا وتوفيقًا وثراءً بما أجنيه من عائد متجدد لا ينضب من ثمار علاقة ذات معنى عميق، وذكريات غنية لا يعفو عليها الزمن ولا تفتر، ألمسها من ضباط من مختلف الرتب والمناصب ممن ألقاهم أو أصادفهم أو يتصلون بىّ. وهى صلات لا تنقطع ولا تذبل على مر الزمن، لأنها لم تكن نتاج علاقة رئاسية أو علاقة عمل، بقدر ما هى رابطة أستاذ بزملائه وبأبنائه وطلبته مهما ترقوا فى الرتب أو بلغوا من شاء فى مناصب وزارة الداخلية».

«حياتى مع الأكاديمية أجنى ثمارها كل يوم حتى يومنا هذا، أنا وأسرتى وأصدقائى ومعارفى وكل مَنْ يلجأون إلىّ مدينون للإخوة والزملاء الأوفياء بكل هذا الإحساس بالثراء والوفاء، حصاد ذلك الزمن الجميل».

(١٤)

ولا يقتصر ما يرويه عبد الكريم دريش عن أكاديمية الشرطة على فترة رئاسته لها، وإنما هو حريص على أن يورد ذكرياته عن فترة الدراسة فيها، وهو يجيد تصوير ما يسميه «عملية الصهر» التى كان لابد لطلاب كلية الشرطة أن يتعرضوا لها فى أيامهم الأولى فى الكلية وقسمها الداخلى، وهو يقول:

«... وما إن عبرت المدخل حتى تلقفتنى وزملائى الجدد مجموعة من ضباط الصف من قدامى الطلبة بالدفعات السابقة الذين عُهد إليهم بمهمة استقبالنا والإشراف علينا، وكأننا دخلنا باب جهنم.. صياح وزعيق و«بهدلة» ترتعد لها

الفرائص، وترتاع النفوس، وتتعثر الخطى، أوامر ونواهٍ تصدر متتالية فى غير تأنٍ، مزمجرة مدوية كطلقات الرصاص توجه إلينا، يشل معها التفكير والتصرف والحركة، وتنتهى بأمر صارم لكل طالب جديد قادم: «شيل يا تلميذ شنطتك واجرى بالخطوة السريعة على العنبر رقم .....».

«ويا ويل ما وجدنا أنفسنا عليه.. نجرى فى غير توقف ملبين متعثرين، لا يكاد الطالب الجديد يعرف رأسه من قدمه، أو يمينه من شماله، حتى اسمه نسيه.. ضياع بمعنى الكلمة.. أين أنا؟ كأننى فى ملحمة درامية مفزعة، أو حلم مزعج، كل مَنْ يصادفنى من ضباط الصف آمر ناه، صياح وتعليمات وأوامر لا عقلانية ولا مترابطة، أسماؤنا تبدلت إلى أسماء بنات، وحقائبنا ترمى من الدور الثانى لننزل مسرعين متعثرى الخطى لنجمعها وإعادتها، ثم يعاد قذفها من جديد، ونعود للصعود بها مرة ثانية دون تردد.. وفرش السرير يتطاير فى كل اتجاه، فنسرع لجمعه وترتيب الأسّرة مرة بعد مرة».

«ثم تصدر الأوامر بفتح حقائبنا التى قدمنا بها، ويتناول «الأومباشى» علبة بودرة «تلك» كانت ضمن قائمة اللوازم المطلوبة فى القائمة الموزعة علينا.. ومع ذلك يصيح: اتفرجوا على التلميذ اللى عاوز يحط بودرة.. دى مش المدرسة السنّية ياتلميذ، اجرى بالخطوة السريعة ياشاطر».

«ما هذا الذى يجرى لنا أو علينا؟ لم تكن لدينا ثانية أو مجرد فرصة للتفكير أو حتى تبين فحوى الأوامر، لا مجال للتردد، لا مجال للاعتراض، ولا حتى إبداء عدم الرضا، علينا أن نقبل ما يجرى علينا وأن نتقبله.. هذه هى العسكرية».

«نحن أشبه بدمى تتحرك لا إراديًا وفق إرادة «الأومباشى» لأداء أدوار فرضت علينا، هذه عملية تحويل مبتسرة فى الزمان والمكان والأسلوب، تُمارس علينا من

خلال تمثيلية درامية عنيفة وهابطة إلى أبعد مدى. إنها عملية تستهدف إحداث صدمة متعمدة، صدمة نشعر معها بأننا انتقلنا من عالم إلى آخر مختلف فى كل شىء، من حياة مدنية سهلة ورخوة، إلى مناخ جديد مختلف تمامًا فى هدفه وأسلوبه ووسائله، صدمة تجعلنا شئنا أم أبينا ننفتح على التغيير المستهدف، ونتقبله، ونسير فى اتجاهه دون تردد أو مقاومة، ونتعود عليه، نتعلم الطاعة العمياء، والانصياع للأوامر، وضبط النفس، والانضباط والنظام، وهى جميعها من متطلبات الأداء فى الهيئة التى اخترنا أن ننضم إليها، وأن نعد لها، وأن نتخذها مهنة مستقرة مدى الحياة».

«تمت عملية الصهر».

(١٥)

وبعد فقرة مطولة من حديث وجدانى يسترجع فيه ذكرياته عن هذه الأيام، يشير الدكتور عبد الكريم درويش إلى تجربة حديثة له وهو رئيس لأكاديمية الشرطة مع ابن زميل دفعته فيقول:

«... وحتى أختزل جدوى عملية التغيير والتحويل التى تجرى على الطلبة خلال فترة المستجدين، أذكر واقعة طريفة ذات مغزى عميق فى هذا المجال، حدث وأنا رئيس لأكاديمية الشرطة أن خرج طلبة الدفعة الجديدة لأول مرة بعد انقضاء فترة المستجدين، وكان من بينهم الطالب محمود أحمد رشدى، ابن الزميل أحمد رشدى الذى كان مديرًا لأمن القاهرة وقتئذ (وزير الداخلية فيما بعد)، ودق جرس التليفون فى مكتبى وكان اللواء أحمد رشدى هو المتحدث».

«وبادرنى قائلا: يا عبد الكريم أنا مش مصدق.. أنا مش عارف أشكرك إزاى.. لأول مرة فى حياتى ابنى محمود يشوفنى داخل البيت يقوم منطور من

على الكرسى ويقف انتباه ويحيينى.. طبعًا اللى شافه من الأومباشى بتاعه فى الكلية خلاه يقدر يعنى إيه لواء ويعرف لأول مرة معنى الانضباط».

(١٦)

ولا يخلو كتاب الدكتور عبد الكريم درويش من حديث متميز عن تجارب ناجحة قدر له أن يخوضها باقتدار على مدى سنوات خدمته الشرطية، وهو يكشف السر ربما لأول مرة عن الدور الذكى الذى قدر له أن يلعبه من أجل إعادة لوحة «زهرة الخشخاش» الشهيرة التى سرقت فى وقت من الأوقات من متحف محمد محمود خليل،

كما يحكى تجربة إنسانية فى غاية الذكاء يعترف فيها بالفضل لمجند بسيط استطاع أن يتوصل إلى فكرة بسيطة تمكنت بها الشرطة بل أجهزة الدولة من إزاحة كتلة خرسانية كبيرة من الطريق بعدما عجزت الأجهزة المسئولة عن أن توفر الونش الكفيل برفع هذه الكتلة الخرسانية،

وكان بودى لو أن الدكتور عبد الكريم درويش بذل جهدا من أجل ذكر اسم هذا المجند البسيط صاحب الفكرة الرائعة.

(١٧)

كذلك يروى الدكتور عبد الكريم درويش باعتزاز بالغ تجربته الناجحة فى مؤسستين مهمتين: الأولى مصلحة تحقيق الشخصية التى تمكن من إعادة تنظيمها بخطوات جبارة لم تكن ممكنة إلا لشاب فى مثل سنه وبدعم جبار من وزير متميز كزكريا محيى الدين، أما التجربة الثانية فكانت فى معهد تدريب الضباط، وعلى الرغم من الجهد الكبير الذى بذله عبد الكريم درويش فى هذا المعهد فإنه يجيد تصوير معاناته من القيادة فيه، ومع أنه يذكر النهاية السعيدة عند لقائه الحاسم مع وزير الداخلية شعراوى جمعة، فإن هذا اللقاء لا يمكن أن

يمحو ما ترسب فى وجدان القارئ من ألم وهو يعيش مع عبد الكريم درويش تجربته القاسية فى ظل الوشايات والتقارير، ونحن نفهم الآن أن هذا كله كان جزءا طبيعيا من نسيج الحياة فى ذلك العهد، لكننا فى الوقت نفسه لا نستطيع إلا أن نسجل أسفنا وأسانا لمثل هذه الأساليب والأجواء التى نجانا الله منها ونرجوه وندعوه ألا يعيد علينا مثلها.

(١٨)

ويأتى زكريا محيى الدين على رأس السياسيين الذين يشيد عبد الكريم درويش بذكرهم وبأدائهم التنفيذى، وهو يذكر تجربته فى العمل كأركان حرب لمصلحة تحقيق الشخصية التى لم تلق النجاح إلا بسبب تعاون زكريا محيى الدين ورعايته وتفويضه له فى صلاحيات كثيرة:

«أرسلت مشروع الاختصاصات إلى السيد زكريا محيى الدين عن طريق الصاغ صلاح دسوقى أركان حرب الوزارة، فى مقره المجاور بوزارة الداخلية، وأرفقت به مذكرة قلت فيها: «السيد البكباشى زكريا محيى الدين وزير الداخلية.. تحية طيبة وبعد.. أتشرف بعرض مشروع اختصاصات أركان حرب مصلحة تحقيق الشخصية التى أقترحها، وأجدها ضرورية للبدء فى مهمتى بما يمكننى من إنجازها على الوجه المأمول. وفى حالة تعذر إقرارها، أرجو التفضل بالموافقة على عودتى إلى عملى بكلية البوليس.. ووقعت المذكرة».

ويعقب صاحب المذكرات مباشرة بقوله:

«مما يسترعى الاهتمام هنا أن مصر كانت فى مرحلة مبكرة من الثورة، وأن أسلوب العمل وقتئذ كان يسمح لأهل الثقة بأن يخاطبوا وزراء الثورة مباشرة دون إبطاء أو تعقيدات إدارية، كإجراء يضمن فاعلية نظام الاتصالات وفورية اتخاذ القرارات وتنفيذها».

(١٩)

هكذا يعترف عبد الكريم درويش فى فخر بأنه فى تلك المرحلة كان من أهل الثقة، ونحن نرى الوطن قد أفاد من مثل هذا الانتماء، لكننا كنا نتطلع إلى فقرة يتحدث فيها صاحب المذكرات عن بديل أمثل، وهو إدارة جيدة ليست فى حاجة إلى مثل هذه الروح الاستثنائية:

«فى اليوم التالى لهذه الرسالة استدعانى وكيل وزارة الداخلية الأستاذ حسين رأفت لمكتبه (وهو مدنى)، ذهبت إليه، واستأذنت فى الدخول، وأديت التحية الواجبة، وأثناء ذلك لمحت أمامه مشروع الاختصاصات الذى أرسلته بالأمس للسيد زكريا محيى الدين، وعليه علامة (صح) بالمداد الأحمر فى أعلى ورقة المشروع. كانت هذه هى طريقة السيد زكريا محيى الدين فى إبداء الموافقة على المذكرات التى تعرض عليه، وكان يكتفى بذلك، فاطمأنت نفسى إلى موافقته، وبادرنى وكيل الوزارة قائلا:

- أنت طالب اختصاصات لك؟

- أيوه يا أفندم.. بس دى اختصاصات لوظيفة أركان حرب.

- أنت طالب اختصاصات أكثر من اختصاصات المدير العام!

- سعادتك تعلم أننى نقلت للمصلحة فى مهمة صعبة، والاختصاصات دى هى اللى ممكن تساعدنى فى أداء مهمتى وإنجاز المطلوب منى بنجاح.

- لكن بالطريقة دى حيكون فيه تضارب فى الاختصاصات ومشاكل فى العمل!

- إذا كنت سيادتك شايف كده اسمح لى أرجع الكلية تانى، لأنه بدون هذه الاختصاصات يتعذر عمل شىء. أنا فكرت أنه لإمكان النجاح فى مهمتى فإن هذه الاختصاصات ضرورية حتى تتوازن مع المسئوليات المنوطة بى.

- طيب شكرا .. اتفضل.

«أديت التحية، وانصرفت عائدا إلى مكتبى وأنا مطمئن إلى النتيجة».

«وكنت واثقًا أن هذا «الديالوج» مع وكيل الوزارة كان مجرد جس نبض واستكمالا للشكل، أو وسيلة للتعرف علىّ، وأن المقابلة والحوار عملية «تحصيل حاصل» لا جدوى منها لأن الوزير أقر المشروع كما هو».

«وفى اليوم التالى صدر قرار بالاختصاصات كما جاءت بمذكرتى، ونشر فى الأوامر العمومية لوزارة الداخلية، وفى الوقائع الرسمية».

(٢٠)

ومن المهم أن نطالع بعض ما يرويه عبد الكريم درويش عن مراحل أخرى فى هذه التجربة المبكرة له فى إدارة واحدة من المؤسسات الشرطية:

«فى صباح اليوم التالى، وأثنا وجودى بمكتبى، سمعت هرجًا ومرجًا بطرقات المصلحة، ثم هتافات تردد: «يسقط أركان حرب تحقيق الشخصية..» خرجت من مكتبى أستجلى الأمر، فعلمت أن الموظفين رفضوا التوقيع وتجمهروا محتجين على هذا النظام الجديد. كان الموقف يفرض علىّ أن أدير هذه الأزمة بذكاء وحنكة دون انفعال أو تهور، حتى أتمكن من امتصاص الغضب والسيطرة على الموقف. وعلى الفور ابتلعت كبريائى، وبهدوء أصدرت تعليماتى بأن يذهب كل إلى عمله، وأن ينصرفوا من الطرقات دون توقيع، ففعلوا وساد الهدوء مرة ثانية».

«استدعيت رؤساء الأقسام وكلفتهم بعمل حصر فورى للموظفين الذين تزعموا حركة التمرد. قدم رؤساء الأقسام البيان المطلوب، وتحققت منه».

«وفى نفس اليوم كانت هناك مذكرة تحوى أسماء ١٦ موظفا قادوا زملاءهم للتمرد. أرسلت المذكرة للسيد زكريا محيى الدين بمضمون ما حدث، وأنهيتها بأننى لن أسمح لهؤلاء المشاغبين بدخول المصلحة فى اليوم التالى، وعلى الوزارة أن تتصرف معهم بالأسلوب الذى تراه مناسبًا. فى نفس اليوم صدر قرار وزير الداخلية بنقلهم جميعا إلى قنا، على أن ينفذ النقل فورًا، ونزل الخبر على الموظفين كالصاعقة».

«وكان هذا الإجراء هو بداية العلاج بالصدمة».

(٢١)

ويستأنف عبد الكريم درويش رواية الخطوات الأولى من تجربته فى إدارة مصلحة تحقيق الشخصية، فيشير إلى الفرصة التى واتته لإثبات قدرته على جلب الخير للعاملين:

«فى اليوم التالى استوقفنى موظف وأنا قادم صباحًا إلى مكتبى، ويبدو أنه استشعر من تجربة الأمس أننى يمكن أن أحل مشكلته، قال إن له علاوة متأخرة لم يصرفها على مدى بضعة شهور، ولما أبديت تعجبى من هذا الأمر قال: «ده مش أنا بس اللى علاوتى متأخرة، ده فيه موظفين كتير زى حالى». اجتمعت برؤساء الأقسام فى نفس اليوم وطلبت منهم عمل حصر بكل الموظفين المستحقين لعلاوات تأخر صرفها، على أن يوافونى بهذا البيان فى ٢٤ ساعة. فى صباح اليوم التالى كان أمامى بيان كامل عن الموضوع، به أسماء ٧٤ موظفًا استحقوا علاوات تأخر صرفها لفترات تتراوح بين ثلاثة وستة شهور».

«كانت هذه فرصة مواتية لأن أقنع العاملين بأننى أستهدف خيرهم جنبًا إلى جانب خير المصلحة، وأن شدة اهتمامى بأهداف العمل وصالحه يتوازى معها اهتمامى بأهدافهم الشخصية».

«ومرة ثانية أعددت مذكرة بالموضوع وأرسلتها إلى السيد زكريا محيى الدين، وفى نفس اليوم صدر أمر إلى جميع موظفى الحسابات والشئون المالية بوزارة الداخلية بعدم الانصراف من مكاتبهم حتى ينتهوا من تسوية موضوع العلاوات المتأخرة لموظفى مصلحة تحقيق الشخصية».

«وفى اليوم التالى كنت أقف بمكتبى وبيدى ٧٤ شيكًا بالعلاوات المستحقة للموظفين أسلمها لهم وهم لا يكادون يصدقون ما يحدث. كان حالى تمامًا مثلما كان حال الرئيس عبد الناصر ونحن نشاهده وهو يسلم صكوك تملك الأراضى الزراعية التى خضعت لقانون الإصلاح الزراعى لصغار الفلاحين».

«ومرة ثانية جاءت هذه الصدمة من توابع الصدمة الأولى، وإن كانت من نوع آخر.. كانت صدمة إيجابية فى الاتجاه الإنسانى. جعلت العاملين يوقنون بأن هذا القادم الجديد عليهم قادر على الحسم والإنجاز، وأنه لا يبغى النيل من أحد بقدر ما هو قادر على تحقيق مصالحهم فى إطار من الحرص على تحقيق الصالح العام».

(٢٢)

وهذا أخيرًا هو تعليق نهائى لعبد الكريم درويش على نجاح تجربته فى هذه المصلحة وطبيعة هذا النجاح:

«... ومن واقع هذه التجربة المحدودة يتأكد أنه لولا دعم ومؤازرة وزير الداخلية السيد زكريا محيى الدين ما كان يمكن أن يكتب لهذه التجربة النجاح الذى حققته. فقد كان زكريا محيى الدين يعمل بمنهج ثورى، وبفكر خلاق مبدع، وبعقلية تنظيمية تقدمية، فأعاد صياغة رسالة الوزارة من مجرد جهاز لسيطرة الحزب الحاكم وضمان نتائج الانتخابات لصالحه، إلى جهاز عصرى خادم ذى أهداف أمنية قومية فى المقام الأول».

«أصبحت المصلحة محط الأنظار والإعلام والزيارات والدراسات، الوفود الأجنبية التى تزور وزارة الداخلية تبدأ زياراتها بالمصلحة».

«وطلبة الدراسات العليا فى الإدارة والتنظيم بتجارة القاهرة يزورونها مع أساتذتهم للوقوف على تجربة إدارية رائدة جديرة بالرصد والدراسة والتطبيق، وتحقيقات صحيفة، وبرامج إعلامية... إلخ».

وأصبح على مَنْ يقصد مصلحة تحقيق الشخصية أن يذهب إلى شارع منصور، وأن يبحث عن أجمل وأنظم مبنى فيه، ثم يغمض عينيه ويدخله، وحينما يفتحها سيجد نفسه داخل مصفحة تحقيق اشخصية».

«وفعلها السيد زكريا محيى الدين، ومنحت أول وسام فى حياتى المهنية تقديرًا لهذا الإنجاز».

(٢٣)

ومع كل هذا الزخم فى الحياة الشرطية فإن حياة عبد الكريم درويش حفلت بجانب متميز تفرد فيه بين أبناء جيله، وهو تمتعه بنهم طبيعى إلى المعرفة، وقد توجه بحصوله على أعلى الدرجات العلمية فى الإدارة من جامعة نيويورك، وهو يجيد تصوير تجربته مع العلم حين انقطع له بالليل والنهار وحين أصبح وهو فى كامل الصحة أقرب ما يكون إلى كامل المرض بسبب الاستخدام المكثف والزائد لحواسه وملكاته من أجل العلم والتحصيل العلمى، ونحن نقرأ تجربته العلمية وتكوينه فندعو الله أن يهىء لنا من أمثاله فى عصر جديد مَنْ يستطيعون أن يكرروا تجربته الناجحة فى الحياة.

ويتصل بتجربة عبد الكريم درويش فى المجال العلمى وفى مجال علم الإدارة بالذات، تجربتاه البارزتان فى معهد الإدارة العامة وفى المركز القومى للبحوث

الاجتماعية والجنائية، وقد كان من مؤسسى هذا المركز، ولست أدرى لماذا أغفل الدكتور عبد الكريم درويش الحديث عن جهده الجبار فى الإشراف على الجزء الخاص بالشرطة فى المسح الاجتماعى للمجتمع المصرى (١٩٥٢ ـ ١٩٨٠) الذى قام به هذا المركز، وقد كان هذا المسح من أهم مراجعى فى كتابى «قادة الشرطة فى السياسة المصرية ١٩٥٢ ـ ٢٠٠١»، ولا أذكر أن فصلا من فصول كتابى قد خلا من الاستناد إلى بعض المعلومات التى أوردها هذا المسح المتميز الذى يدين بالفضل للدكتور أحمد خليفة كما يدين به للدكتور عبد الكريم درويش.

أما التجربة الأخرى فكانت فى معهد الإدارة العامة، ومع أن عبد الكريم درويش ينظر إلى هذه التجربة كنقطة تحول فى حياته، فإننا نعتقد أنها كانت جزءا من تيار إنسانى معرفى (ابستمولوجى) قادت إليه النفس السوية التى لقيت الاهتمام والتوجيه فى مطلع الصبا فأصبحت بحكم البيئة التى صادفتها قادرة على أن تنمو عقليا وذهنيا مع الزمن.

(٢٤)

وعلى نحو ما رأينا من اعتزاز الدكتور عبد الكريم درويش بثقة زكريا محيى الدن وحسن تصريفه للأمور، فإننا نراه يظهر اعتزازا كبيرا بأستاذه فى معهد الإدارة العامة، وهذه فقرة من فقرات ثنائه على الدكتور محمد توفيق رمزى:

«... كان طرازًا فريدا من الأساتذة، يحكى هو عن نفسه أنه عندما عاد من أمريكا كان متأثرًا بالحياة البسيطة الواقعية التى عاشها هناك كطالب دون ادعاء أو مظهرية، وتصور أنه بعد عودته وزوجته الاسكتلندية كان يمكن أن يستمر فى هذا النوع من الحياة دون أن يزج أحد بأنفه فى أسلوب حياته، أو أن يشغل نفسه بمظهره. كانت إمكاناته المالية لا تساعده على شراء سيارة، فاشترى موتوسيكلا

كان يذهب به إلى الجامعة، مرتديًا (جاكيت) من الصوف ذو كوعين من الجلد. ويقول الدكتور رمزى: إن زملاءه وطلبته شغلوا أنفسهم بالتندر على مظهره بالموتوسيكل والجاكيت أكثر من اهتمامهم بمكانته العلمية وأفكاره ومبادئه وفلسفته فى الحياة، مما جعله يقتنع بأن المجتمعات المتخلفة تعطى اهتمامًا للمظهر أكثر مما تعطيه للجوهر والفكر والعلم والمبادئ».

«الدكتور محمد توفيق رمزى - فى زمانه - فى تقدير العارفين الذين يصدق رأيهم من المصريين والأجانب، أحد الشخصيات المصرية المرموقة علمًا ومسلكًا فى المجتمع المصرى. وأول رائد من رواد الإدارة العلمية العصرية فى تاريخ الإدارة العامة بمصر والعالم العربى. بل ومن أبرزهم فى العالم الثالث. من الصعب - وأنا أحاول أن أكون موضوعيًا - أن أفى هذا الرجل حقه، أو أن أعبر عن مدى تأثيره فى أجيال متعاقبة من طلبته ودارسيه، أو أثر فلسفته فى الحياة على الآخرين، أو تقدير مدى فضله على مسار دراسة الإدارة العامة وتطبيقاتها فى مصر والدول العربية الأخرى التى لجأت إلى استشارته. لقد استنهض الدكتور رمزى باختصار شديد همم الآلاف الذين أثر فيهم وطبعهم بطابعه العلمى الرصين، وبفكره المستنير، وبمسلكه الشخصى. كان مدرسة شاملة متكاملة يندر أن تتكرر».

«لماذا أقول هذا عنه؟ وأنا مهما قلت أعجز عن الوفاء بقدره ومكانته».

«استطاع الدكتور رمزى بعلاقاته الدولية المتميزة ومع الأمم المتحدة، أن يحصل على عدد محدود من المنح لا يزيد على منحة أو اثنتين كل عام لخريجى المعهد المتفوقين».

«وفى عام ١٩٥٨ رشحنى المعهد للحصول على منحة دراسية مقدمة من الأمم المتحدة لدراسة الإدارة العامة بجامعة نيويورك لمدة ٩ أشهر».

ويصل الدكتور عبد الكريم درويش فى اعتزازه بمرحلة دراسة الإدارة فى مصر وأمريكا إلى أن يقول:

«هل كنت مبالغًا إذًا عندما ذكرت فى الحديث عن معهد الإدارة العامة أن دراستى بالمعهد كانت أهم نقطة تحول فى مسار حياتى؟».

(٢٥)

ومع كل هذا الزخم الوظيفى والمهنى والعلمى فإن لمسات الوطنية تضع يدها على صاحب هذا العقل الكبير منذ مرحلة مبكرة من حياته، فإذا به واحد من الذين شاركوا فى مقاومة المحتل البريطانى فى القناة من خلال الجهود التى كان الوفد يتبناها ويدعمها (١٩٥٠ ـ ١٩٥٢)، وإذا به أيضا من خلال موقعه كضابط شرطة يبذل جهودا وطنية أخرى فى مكافحة وباء الكوليرا (١٩٤٧)، وإذا به على صعيد ثالث بين هذا وذاك يشارك فى إضراب ضباط الشرطة (١٩٤٨).

(٢٦)

ويحرص عبد الكريم درويش على أن يخصص جزءًا من مذكراته للحديث عن مشاركته فى النشاط الوطنى فى منطقة القناة من خلال موقعه الرسمى كضابط بوليس مع ما كانت هذه المشاركة تمثله من مخاطر، وهو يروى إحدى وقائع مشاركاته الوطنية هذه فيقول:

«ذات يوم اتصل بى وجيه أباظة من مركز أبو حماد الذى تتبعه نقطة المعسكر، واتفقنا على أن نتقابل عند بلدة العباسة التى تقع عند أول منطقة القنال، خارج حدود تواجد القوات البريطانية، والتقينا، وكان وجيه ينتظرنى فى سيارة شرطة «بيك أب» ومعه اليوزباشى على الحديدى معاون بوليس مركز أبو حماد، وفى مؤخرة السيارة كان يجلس مجموعة من الفدائيين لم يخطئ حدسى فى أنهم من

طلبة الجامعة. ركبت مع وجيه وعلى الحديدى السيارة، واتجهت بنا إلى إحدى العزب التابعة لبلدة العباسة، وتوقفت السيارة أمام دار بذاتها فى العزبة ونزلنا جميعًا ودخلنا الدار. كان واضحا أنها خالية تمامًا، وأنها أعدت لاستقبالنا، وشرح لى وجيه المهمة، كان فى حوزة المجموعة «قصعة»، ومجموعة من أصابع الجليجنايت التى انهمك الشبان فى إعدادها كعبوة ناسفة بالقصعة وتركيب جهاز التفجير وضبط التوقيت».

«بعد تمام تجهيز هذا اللغم ركبت واثنان من الفدائيين سيارة الشرطة واتجهنا نحو المعسكر، وتركت وجيه وعلى الحديدى وباقى الشبان بالدار تفاديًا لأى مفاجآت غير متوقعة، وبحكم وظيفتى دخلنا من البوابة الرئيسية للمعسكر المجاور لنقطة البوليس المصرى دون تفتيش، وفى النقطة أتم الفدائيان اللمسات الأخيرة للمهمة، وبحلول الظلام تم وضع اللغم خفية أسفل مدخل سينما المعسكر، وتركناه لينفجر فى التوقيت المحدد، وعادت السيارة لتنطلق بركابها خارج المعسكر إلى العزبة حيث وجيه أباظة واليوزباشى على الحديدى والمجموعة لتنقلهم إلى مركز أبو حماد وأخليت الدار تمامًا».

«قرابة منتصف الليل أخطرنى قائد البوليس الحربى الإنجليزى بأن انفجارًا وقع بسينما المعسكر أسفر عن وقوع عدد من الضحايا، وأنهم بصدد القيام بعملية تفتيش خارج المنطقة العسكرية، وطلب منى مرافقتهم تنفيذًا للتعليمات التى تستوجب ضرورة وجود ممثل البوليس المصرى معهم إذا تجاوزوا حدود منطقة القناة. رافقت البوليس الحربى البريطانى، واتجهت السيارة صوب بلدة العباسة، وصدق حدسى فقد أخذت السيارة طريقها صوب العزبة، وتوقفت عند الدار التى كانت بها مجموعة الفدائيين وفتشوا الدار ولم يجدوا أثرا لهم بها،

وفى اليوم التالى اتجهت قوة من الجيش البريطانى إلى العزبة وقصفوها قصفًا شديدًا فى تركيز على الدار المستهدفة من هذه الغارة، والسؤال الذى راودنى أنا ووجيه أباظة: مَنْ الذى وشى بالفدائيين؟ ومَنْ الذى أرشد الإنجليز إلى الدار؟ أسئلة أجاب عنها وجيه أباظة فى مذكراته.. فقد كان للإنجليز عملاء فى كل مكان وموقع».

(٢٧)

ويحرص صاحب المذكرات على أن يستشهد بالكتاب الذى نشره عبد الله إمام عن «وجيه أباظة والعمل الفدائى»، وهو يشير إلى أن المصريين جميعًا بمَنْ فيهم كبار الرسميين كانوا يشاركون فى إنجاز وإنجاح هذه الجهود:

«كنت أعلم بوجود ضباط من الجيش المصرى بالمنطقة ينظمون العمل الفدائى، وكنت أساعدهم فى الاستيلاء على الأسلحة والذخيرة من المعسكر لحاجة الجيش المصرى الملحة إليها. وفي واقعة بعينها أمكن الاستيلاء على عربتى سكة حديد بكامل شحنتهما من الأسلحة والذخيرة بعد فصلهما عن القطار الذى كان ينقلهما من مخازن منطقة القناة إلى خارجها، وذلك بفضل التخطيط الذكى لهذه العملية، وبفضل تعاون عبد المجيد باشا بدر مدير عام السكك الحديدية، وبفضل توجيه إبراهيم باشا عبد الهادى رئيس الديوان الملكى وقتئذ».

(٢٨)

وهو يروى واقعة أخرى تبين عن نوع آخر من المساهمة فى العمل الوطنى الفدائى فى ذلك الوقت:

«وأذكر أنه فى صباح أحد الأيام اتصل بى تليفونيا اللواء سعيد المسيرى، وكان آنذاك مديرًا لسلاح المهمات بالجيش المصرى، وأبلغنى بأن ثلاثة من ضباطه تم ضبطهم بمنطقة شركة الدلتا التجارية بواسطة البوليس الحربى البريطانى، وكانوا يرتدون ملابس عمل الشركة، وطلب إلىّ اللواء المسيرى بذل جهودى للإفراج عنهم».

«توجهت إلى رئاسة البوليس الحربى وفوجئت بوجود ثلاثة من الشبان فى ملابس العمال بمكتب الضابط المنوب يجلسون القرفصاء فى حراسة أحد الكلاب البوليسية الضخمة. تحدثت إلى ضابط البوليس الحربى عن سبب احتجاز هؤلاء العمال، فأجاب بأنهم كانوا ينظمون عمليات سرقة الأسلحة والذخائر من المعسكر، فطلبت استلامهم على الفور مع التقرير اللازم. نظر إلىّ وعلى وجهه ابتسامة صفراء ذات معنى خبيث، وكأنه يريد أن يقول لى: «أنا فاهم وأنت فاهم أنهم ضباط جيش وليسوا عمالاً». استلمت التقرير والضباط وعدنا معًا إلى نقطة البوليس المصرى ومعنا مندوب البوليس الحربى، حررت محضرًا بالواقعة، وسلمت مندوب البوليس الحربى مذكرة برقم وتاريخ المحضر، وبعد انصرافه دبرت للضباط الثلاثة وسيلة مواصلات أخذتهم إلى خارج المعسكر، ومزقت المحضر وألقيت به فى سلة المهملات».

«وبعد فترة قصيرة دق جرس التليفون فى مكتبى لأجد اللواء المسيرى عند الطرف الآخر يشكرنى بحرارة على واجب أديته لا أستحق عليه الشكر».

ويعلق عبد الكريم درويش على هذه القصة بما يحرص على ذكره من طبيعة المواقف الوطنية لقيادات الشرطة ورجال النيابة العامة والقضاء تجاه إخوانهم من الفدائيين المصريين فيقول:

«شجعنى على الإقدام على هذا الإجراء أننى كنت أدرك حق الإدراك المواقف الوطنية المشرفة لقياداتى ولرجال النيابة العامة والقضاء حيال إخوانهم المصريين الذين كرسوا حياتهم للعمل الفدائى ومقاومة الاستعمار، وخدمة أهداف المصالح العليا للوطن. كذلك ما كنت ألمسه من واقع تصرفاتهم فى التحقيقات من تفهم كامل لدوافع ما نقوم به من إجراءات قد لا تكون مقبولة أو سليمة، لكنها فى صالح قضية الوطن الكبرى».

(٢٩)

ومع كل هذا يتوج عبد الكريم درويش حياته فى الخدمة العامة بوصوله إلى منصب نائب وزير الداخلية وعضو مجلس الوزراء بعدما رأس المجلس الأعلى للشرطة لفترة غير مسبوقة لا من قبله ولا من بعده، كما يرأس اللجنة الأوليمبية المصرية فى دورتين ويأبى إلا أن يقدم منصبه فى رئاسة هذه اللجنة قربانا سخيا لينبه به قومه وأهله إلى التقاعس الذى ساد أجهزة الدولة المسئولة فى الإعداد للدورة الإفريقية (١٩٩١)، ولولا استقالة هذا الرجل فى ذلك الوقت ما تنبهت أجهزة الدولة إلى دورها الذى لعبته حتى نجحت الدورة على نحو ما نعرف.

ويروى الدكتور عبد الكريم درويش بتأمل تجربته فى رئاسة اللجنة الأوليمبية:

«خلال فترة رئاستى للجنة الأوليمبية المصرية عاصرت انعقاد دورة الألعاب الأوليمبية التى عقدت فى سول عام ١٩٨٨، وكنت رئيس البعثة الرياضية المصرية التى شاركت فى فعاليات هذه الدورة، وقد نجحت الدورة بكل المقاييس، وعبر سمارانش رئيس اللجنة الأوليمبية الدولية عن ذلك بقوله: «إن دورة سول كانت رائعة، وإنها أفضل دورة أوليمبية نظمت من كل الوجوه». ومن تجربتى وخبرتى

بعدد من الدورات الأوليمبية أقول بكل الحيدة والتجرد: إن دورة سول كانت جديرة بهذا الإطراء».

«الأمر الجدير بالاهتمام أنه عند إعداد الفرق المصرية المشاركة فى دورة سول للسفر، طلبنا عمل فحص كامل لجميع الرياضيين الذين وقع عليهم الاختيار فى الفرق الرياضية المختلفة لتمثيل مصر فى الدورة، وكانت المفاجأة - بكل أسف - أن أكثر من ٥٠٪ منهم تبين أنهم يعانون من فقر الدم والأنيميا وسوء التغذية، بالإضافة إلى هذه الصورة العامة للرياضيين المشاركين بالدورة، كانت بينهم حالات صارخة من المعاناة، أذكر منها مثالين للتدليل على سوء أحوال أبطالنا الرياضيين:

«الأول: حالة أحد الأبطال الذى كان مصدر دخله العمل على سيارة تاكسى، وكانت المشكلة التى تواجهه كيف سيبقى بعيدًا فترة الدورة لمدة أكثر من أسبوعين عن أسرته المكونة من الأب والأم وثلاث شقيقات دون عائل سواه، فقد اضطر لوضع التاكسى فى «جراج» لحين عودته. والثانى: حالة بطل كان مقيمًا فى دمياط ويضطر للسفر منها إلى القاهرة والعودة فى نفس اليوم ثلاث مرات فى الأسبوع ليشترك فى التدريب للاستعداد للدورة، مع ما يترتب على ذلك من إرهاق مادى ومعنوى.. ومع ذلك كان مطلوبًا من مثل هذه النماذج من البشر أن يحصلوا على ميدالية أوليمبية!».

«وجدير بنا أن نمنح اهتماما مناسبا ورعاية كاملة لأبنائنا الأبطال الرياضيين، وأن نقتنع بأن إعداد البطل الأوليمبى أصبح علمًا له أسسه وقواعده، وأن نهتم بدراسة تجارب الدول المتقدمة فى إعداد وتأهيل ورعاية وإعاشة وتمويل الأبطال الأوليمبيين، التى تقرر لهم مرتبات سخية فى أثناء ممارستهم الرياضة ومعاشًا

مناسبًا يؤمن حياتهم ويحفظ عليهم كرامتهم عند تقاعدهم. إن كنا جادين حقًا فى إعداد شبابنا لبطولات قارية أو عالمية أو أوليمبية».

«إلى جانب رئاستى للجنة الأوليمبية المصرية، استطعت أن أفوز فى انتخابات مجلس إدارة اتحاد اللجان الأوليمبية الوطنية الإفريقية «ANOCA» بمنصب النائب الأول لرئيس الاتحاد على مدى دورتين متعاقبتين. كذلك استطعت أن أفوز بمنصب نائب رئيس الاتحاد العالمى للتايكوندو لثلاث مرات. كما شرفت بالحصول على وسام اللجنة الأوليمبية الدولية».

(٣٠)

والواقع أنه يروى تجربته مع تنظيم دورة الألعاب الإفريقية على نحو تفصيلى يهمنا فيه أن نكرر الإشارة إلى مدى تقديره للمسئولية وإحساسه بها، وتضحيته بمنصبه من أجل تنبيه الدولة والرأى العام إلى مدى التقصير فى الاستعداد لمثل هذا الحدث:

«... بعد ثلاثة أشهر من هذا الاجتماع قامت اللجنة المنظمة للدورة بعمل تقرير متابعة للمرة الثانية، ولم تكن النتيجة أفضل من سابقتها، والمؤسف أنه خلال الاجتماع الثانى للسيد الدكتور رئيس اللجنة العليا ورئيس مجلس الوزراء، كان المنطق السائد لدى معظم المسئولين «إحنا فين والدورة فين.. له لسه باقى على انعقاد الدورة سنة وثلاثة شهور!» هذا المنطق يتجاهل أو يجهل أن الإعداد للدورات الأوليمبية يبدأ قبل انعقادها بثمانى سنوات، وأن الإعداد للدورات القارية يبدأ قبلها بأربع سنوات».

«أدركت عندئذ، كرئيس للجنة المنظمة للدور، أننى مقدم على مغامرة غير محسوبة، بل مقدم على تقصير فى حق مصر لا تستحقه، وعلى فشل لم أصادفه

من قبل كان يمكن أن يسيء إلى تاريخى وإنجازاتى السابقة. لم أتردد فى تقديم استقالتى من رئاسة اللجنة المنظمة للدورة ومن رئاسة اللجنة الأوليمبية المصرية. ضمنت الاستقالة تقريرًا عرضت فيه كل ما قامت به اللجنة المنظمة من إنجازات، والنتائج السلبية التى أسفرت عنها متابعة أداء الجهات الأخرى، وأنهيت التقرير بعدد من الاقتراحات التى وجدتها ضرورية لإنقاذ الدورة».

(٣١)

وتحفل مذكرات عبد الكريم درويش بتصوير دقيق ووضوح لكثير من فترات عمله فى الشرطة وكيف أسهمت هذه الفترات فى تكوين شخصيته المتميزة.

وقد كان الدكتور عبد الكريم درويش من الذكاء والحنكة بحيث أشار إلى فضل كل مرحلة من مراحل حياته على مسيرة حياته كلها، وهو على سبيل المثال يصف تجربته فى معهد البحوث الجنائية بقوله:

«... هكذا كانت القيمة الحقيقية لدور معهد البحوث الجنائية فى حياتى، وهى إتاحة الفرصة لى للتعود على استخدام المنهج العلمى والتفكير المنطقى فى الوصول إلى المعرفة وإلى الحقائق، هذا الدور كان له أثره الإيجابى فى مساعدتى فيما بعد على السير فى دراساتى الأكاديمية بخطى أكثر وعيًا وفكرٍ أكثر استنارة، ومهد لى السبيل لكى أتابع دراساتى فى سبيل الحصول على درجتى الماجستير والدكتوراه بقدر أفضل من النضج فى التفكير والالتزام بالمنهج العلمى».

«وفى إيجاز، كان عملى - بعض الوقت - بالمعهد القومى للبحوث الجنائية محطة مهمة وعلامة طريق بارزة فى تحديد المسار الذى اخترته لحياتى فيما بعد.. ليس فقط مسار الحياة العلمية، وإنما أيضا مسار الحياة العائلية».

وفى موضع آخر من مذكراته يجيد عبد الكريم درويش تصوير التجارب الأولى لضابط الشرطة فى الأقسام وهو يتحدث عن تجربته فى قسم العطارين كطالب تدريب بإشراف الملازم أول السيد فهمى (وزير الداخلية فيما بعد) فيقول:

«بدأت حياتى بالنوبتجية، ولم تمض أيام قلائل حتى أدركت الفرق الواضح بين ما نتعلمه فى الكلية وما يفرضه علينا واقع الحياة العملية داخل غرفة النوبتجية، الفرق بين مجتمع العلم ومجتمع الجريمة. عالم النوبتجية عالم مثير لا أخلاقى ولا منطقى، عالم متناقضات.. الخير والشر، الصالح والطالح، الشاكى والمشكو فى حقه، الجانى والمجنى عليه، المسجل الخطر والإنسان الطيب، البلطجى والملتزم، المصاب ومدعى الإصابة... إلخ».

«أمامى يتوه الحق، ويتوارى الحياء، وتعم الفوضى، ويسود الادعاء والتحايل. مَنْ الجانى ومَنْ المجنى عليه؟ مَنْ الصادق ومَنْ الكاذب؟ مَنْ الواضح ومَنْ المخادع؟ مَنْ الأمين ومَنْ المتحايل؟ مَنْ الطيب ومَنْ السيء؟ مَنْ العاقل ومَنْ المختل؟... إلخ. تساؤلات لا نهاية لها ومتناقضات كلها تفرض نفسها وتحتويها جدران غرفة واحدة، لكن أليست كل هذه المتناقضات هى الحياة نفسها.. وهى مبرر وجودنا كشرطة؟».

«حقيقة ما أعظم الفجوة بين عالم المثل بالكلية، وعالم الواقع الذى أحياه لأول مرة داخل هذه الجدران الأربعة».

«إن عالم النوبتجية عالم جديد غريب مثير.. عالم لم أعهده ولم أتصوره وأنا أتلقى محاضرات القانون ودراسات الجريمة والعقاب. ما هذا التنوع البشرى

المهلهل المتناقض المتصارع الملىء بالمآسى الاجتماعية والإنسانية والعبر، وأيضًا بالإثم والإفك والانحراف. جرائم واتهامات وادعاءات من كل نوع، منها ماكان من إفرازات تلك الحقبة فى الأربعينيات، ومنها ما هو مخالفات وجرائم تقليدية وجدت منذ بدء الخليقة».

(٣٣)

ويستطرد عبد الكريم درويش إلى ضرب أمثلة دالة على خصوبة التجربة التى مرّ بها فى أثناء تدريبه وحيويتها:

«أمامنا بغرفة النوبتجية مسجل خطر يحدث إصابات بجسمه من شفرة حلاقة أخرجها من فمه يدمى به جسده، ثم يخبط رأسه بحائط الغرفة ويصيح والدم ينزف منه مدعيًا أن الضابط المنوب هو الذى أحدث به الإصابات، وأنه مظلوم ويطلب الإحالة للكشف الطبى... والمح الضابط يبتسم لأنه مر بالعديد من الحالات المماثلة، وصاحبة بنسيون يونانية تشكو أحد النزلاء لأنه استضاف صديقته بحجرته ورفض أن يدفع أجر إقامتها، وامرأة من معتادى الشغب والشجار مع جيرانها تدعى أن جارتها اعتدت عليها بالضرب والقذف بسبب خناقة بين الأطفال ونتشت خطفت «الكردان» من رقبتها وهربت به (جناية سرقة بالإكراه)، ونشال ومعاونوه محالون من شرطة محطة مصر بالإسكندرية لنشلهم أحد الركاب، وإخطار بوجود مصابين فى المستشفى الميرى (الميرى) نتيجة معركة استعملت فيها المدى بسبب عدم دفع الإتاوة، وقواد يسهل عملية البغاء للجنود الإنجليز، و«شبيح» قفز إلى لورى خاص بالجيش البريطانى وألقى بفردتين من الإطارات إلى زميلين له بالطريق، وكانت أزمة الإطارات مستحكمة بسبب الحرب، ومختل نصّب نفسه مسئولاً عن إدارة وتنظيم حركة المرور بميدان محطة

الرمل تشاجر مع سائق لم يمتثل لإشاراته واقتيدا معًا إلى القسم، ولقيط عُثر عليه بجوار سور المستشفى الميرى، واثنان من البلطجية فى حالة سكر بيّن يثيران الفوضى والذعر بالمنطقة، ونصب على الطريقة الأمريكية، ومقبوض عليهم مطلوبون للتحقيق أو لترحيلهم للخدمة العسكرية، وعشرات المخالفات التى كانت الشرطة وبلدية الإسكندرية وقتئذ تهتم برصدها.. إلقاء قمامة، لحوم مكشوفة،باعة سريحون بدون رخصة، إشغال طريق، قهاوى ممتدة على الأرصفة، تسول، معاكسات.. إلخ».

«كل هذا وغيره يجرى بين جدران غرفة الضابط المنوب بقسم العطارين خلال نوبة الصباح، أمر يفوق طاقة وتصور البشر.. وأين للضابط المنوب كل ما تتطلبه هذه المواقف والأحداث من حكمة وبصيرة وأناة وضبط للنفس وحسن تصرف»؟

(٣٤)

ويستطرد صاحب المذكرات فى هذا المقام إلى الحديث عن إدراكه المبكر للفرق بين التعليم والتدريب، وربما أنه لم يدرك هذا المعنى فى ذلك الوقت المبكر لكنه على كل حال يجيد تقديم هذا المعنى حيث يقول:

«لكننى - على أية حال استثمرت فترة التدريب أفضل استثمار، وأيضًا استوعبت الدرس، فالحكمة تأتى من الخبرة، والخبرة تأتى من التجارب والأخطاء، استوعبت الدرس وتفتحت عيناى على حقيقة مؤكدة لم أكن أعيها قبل التدريب، مؤداها الفرق الكبير بين التعليم والتدريب، لقد وجدت التعليم كمًا من المعارف التى ندخلها فى عقولنا، أما التدريب فهو كم من الخبرات والدروس المستفادة التى نستخلصها من تجارب الحياة، التعليم هدفه تزويد الفرد بحصيلة

معينة من العلم والمعرفة فى إطار ومجال معين، أما التدريب فغايته مختلفة، فهو نشاط يهدف إلى إحداث تغييرات جوهرية فى الفرد من خلال المرور بالتجارب والمواقف المختلفة واكتساب الخبرات والمهارات وتغيير الاتجاهات والسلوك، والارتفاء بمعدلات الأداء وطرق وأساليب العمل، ومتابعة كل تحديث وتطوير، والتعرض للمواقف الصعبة، ومواجهة الأحداث، واتخاذ القرارات الفورية السديدة، بما يجعل الإنسان لائقا لأداء مهام وظيفته بكفاءة واقتدار عندما ينزل إلى معترك الحياة العملية».

(٣٥)

وهو قبل هذا يتحدث عن الأثر الجميل الذى أحدثه تنقله بين المدارس المختلفة والبلاد المختلفة فى أكثر من موضع من مذكراته ونقتطف للقارئ من هذه المواضع حديثه عن دراسته فى المرحلة الثانوية حيث يقول:

«أتممت دراستى الثانوية فى كل من مدرسة المنصورة الثانوية والحلمية الثانوية بالقاهرة والعباسية الثانوية بالإسكندرية، ويمتد بنا الحديث لو أننى حاولت تناول هذه الفترة التى لم تكن تخلو من دروس مستفادة عميقة، فقد كان تنقلى من مدرسة إلى مدرسة، ومن بلدة إلى أخرى (رهنًا) بانتقال الأخ الأكبر الدكتور طاهر درويش - الذى كنا نعيش معه أنا وأخى حسن - من مدينة إلى أخرى بسبب دواعى عمله وتكفله بنا، وكانت الدراسة بالمدرسة الثانوية وقتئذٍ تتضمن مناهج ومواد دسمة.. كنا ندرس اللغتين الإنجليزية والفرنسية، والأدب العربى، والشعر بمراحله التاريخية المختلفة، كنا ندرس المعلقات، ونماذج من الأدب العالمى مثل رواية «دكتور جيكل ومستر هايد»، وكانت المنافسات الرياضية بين المدارس الثانوية أشبه بمنافسات الدورى والكأس فى هذه الأيام».

«أقول كان للمدرسة الثانوية فى تلك الحقب السالفة مكانتها وسمعتها الطيبة، وكان لأغلب نظار هذه المدارس منزلة اجتماعية عالية ومكانة مرموقة، ومهابة واحترام لدى طلابهم وأولياء أمورهم، وكانت أسماء النظار تتردد على ألسنة الكافة وتقترن عادة بالتبجيل والاحترام، ويُضرب بهم المثل فى أصول التربية وحسن إدارة العملية التعليمية على درجة عالية من الحزم والكفاءة، أما مبانى معظم المدارس الثانوية ومنشآتها وساحاتها وإمكاناتها فقد كانت نموذجية، وكانت مرافقها متكاملة وبحالة جيدة، ويكفى أن أشير إلى أن كلا من مدرسة العباسية الثانوية بالإسكندرية والمنصورة الثانوية اللتين درست بهما قد صارتا فيما بعد نواة لكل من جامعتى الإسكندرية والمنصورة عند بدء إنشائهما، بما يحمله هذا من مغزى عميق لقدرات وإمكانات ورحابة هذه المدارس فى ذلك الزمان».

(٣٦)

وهو يذكر بالتقدير فضل أخيه الأكبر الدكتور طاهر درويش على تكوينه وتوجهاته الثقافية والحضارية:

«كان لأخينا الأكبر الدكتور طاهر درويش (رحمه الله) أثر كبير فى تربيتنا وتنشئتنا نحن الأخوة الأصغر، وكان يقوم منا جميعًا مقام الأب فى الأسرة نظرا لانشغال والدنا فى حياته ومهامه بالقرية، يعاونه ويرعى مصالحنا بالقرية أخى أبو الفتوح. كان الدكتور طاهر مثلا طيبا فى تحمل مسئوليتنا ورعايتنا، واتصف بالوقار والعلم والشخصية المتزنة والوسامة، وكنا نعيش ونتنقل معه إلى كل جهة يعمل بها».

«أذكر ونحن فى امتحان الشهادة التوجيهية أنه أعطى رقمىّ جلوسنا أنا وأخى حسن إلى صديق له ليتابع النتيجة ويخبرنا بها تلغرافيا فور إعلانها، فقد كنا بالبلدة لقضاء العطلة الصيفية، وكانت فرصة وصول الجرائد إلى القرية فى موعدها أمرا نادرا، وجاءت برقية الصديق تقول: «حسن نجح، وعبدالكريم مع الأسف». كان لهذا النبأ وقع الصاعقة علىّ وعلى أهل المنزل، خاصة أننى كنت على ثقة من أننى أديت الامتحان على ما يرام. واستولت علىّ حالة من الحزن والاكتئاب والإحساس بالخزى، وسادت الأسرة حالة من خيبة الأمل والأسى، فقد كان الرسوب فى ذلك الزمان يمثل عارًا يلحق بأهل الريف».

«استثناء من موقف الأسرة عند استقبالها لهذا الخبر، أذكر أن أخى الدكتور طاهر انتحى بى جانبًا، وحدثنى حديث العقل والمواساة، وأعاد إلى الثقة فى نفسى، وطلب منى أن أتماسك حتى «لا يشمت فينا حد». وكان لحديثه هذا وإدراكى بأنه غير غاضب علىَّ أثر نفسى عميق هدأ من اضطرابى وأراحنى وأزال عنى كثيرًا من الهم والحزن. وفى اليوم التالى وصلتنى برقية أخرى من زميل لىّ بالدراسة يهنئنى بالنجاح، وتأكد لنا أن البرقية الأولى كانت على خطأ، فزادنى هذا النبأ السار من تقديرى لمشاعر وحكمة أخى الأكبر».

(٣٧)

ومع اعترافى بالفضل الذى لعبه أستاذ الإدارة الدكتور محمد توفيق رمزى فى تأهيل الدكتور درويش تأهيلا متميزا، فإنى أميل إلى إرجاع الفضل إلى شقيقيه الكبيرين الدكتور طاهر وعبد الله اللذين صحباه (هو وأخوه حسن) معهما وجملا أعينهم تتفتح على نمو معرفى مبكر، ولو أن عبد الكريم درويش لقى تجارب أخرى من تجارب أقرانه المريرة لقدر فضل هذين الأخوين حق قدره.

(٣٨)

وهو ينتبه إلى ضرورة الحديث عن بعض القيم التربوية المهمة، من ذلك ما يرويه عن حرص التربويين على نظافة الأصابع فى المدرسة الأولية فى القرية:

«... لعله من الجدير بالذكر أنه على الرغم مما كانت تعانيه حياة القرية فى العشرينيات والثلاثينيات من شظف وتخلف وتلوث، وتدهور فى الأوضاع الاقتصادية والصحية والاجتماعية والثقافية، فقد كانت المدرسة بالنسبة للتلاميذ مجتمعًا مختلفًا بصورة واضحة. كان الشيخ يس يفتش على نظافة ملابسنا ويتأكد من اغتسالنا، ومن أن الأظافر مقلمة، وهذه النقطة الأخيرة كانت مصدر قلق للتلاميذ ومبررا لعقاب المخالف. فقد كانت غالبية أهل القرية لا يقتنون مقص الأظافر، ويعهدون بهذه المهمة لحلاق الصحة كلما ذهبوا إلى دكانه لقص الشعر، لذلك كان معظم التلاميذ يلجأون إلى حائط سور المدرسة الخارجى لأداء هذه المهمة. كانت محارق السور من الأسمنت الخشن، وعندما تحك به الأظافر يبريها مثلما تبرى الأقلام الرصاص، فإذا بدأ طابور تفتيش الصباح نقف مصطفين وأيدينا ممدودة أمامنا باطنها تجاه الأرض، ويمر الشيخ يس علينا للتفتيش ممسكًا فى يده بمسطرة، فإذا صادف تلميذًا أظافره طويلة يهوى بالمسطرة دون تردد على يده دون تمييز بين ابن العمدة أو ابن الأجير».

«هذا التوجه فى الاهتمام بنظافة التلاميذ فى زمن كانت القرية فيه أشبه بقرى العصور الوسطى، ذو مغزى عميق بالنسبة للأحوال السائدة فى زماننا هذا فى القرن الحادى والعشرين».

(٣٩)

ويلفت عبد الكريم درويش نظرنا إلى حقيقة الأمر فيما يتعلق بعمل البوليس فى بريطانيا ومكانته فى المجتمع هناك:

«... هذه الدرجة الرفيعة لرجل البوليس فى انجلترا نتاج فلسفة قامت عليها فكرة إنشاء البوليس الإنجليزى كهيئة مدنية ذات وظيفة اجتماعية وإنسانية بالدرجة الأولى، وهى خدمة الشعب دون تعال أو تسلط مع الاحترام الكامل للحريات، ولأن البوليس يجب أن يتصف فى تعامله مع الناس بالود والدماثة فقد أصر مؤسسه «السير روبرت بيل» على أن يكون البوليس في انجلترا غير مسلح حتى فى أثناء قيامه بواجبات مهنته الشاقة، شأنه فى ذلك شأن رجال الإسعاف والإطفاء، فالبوليس هيئة مدنية ذات وظيفة اجتماعية وإنسانية.. وهكذا يجب أن تكون. وهكذا بقيت كذلك فى انجلترا رغم معاناة رجال البوليس فى بداية إنشائه من اعتداءات وتنكيل من رجال العصابات والمارقين».

«إذا استوقفت رجل البويس فى لندن لسؤال أو استفسار، لابد أن يبدأك بالتحية فى أدب وثقة قبل أن يجيب، وإذا لم يسعفه الرد ففى جيبه دليل صغير جمع فأوعى، مسجل به كل موقع وكل منشأة وكل مؤسسة وكل متجر وناد وفندق ومبنى حكومى، وكل ميدان وشارع وحارة.. إلخ، لذلك يندر أن يخذلك رجل البوليس فى إجابة طلبك».

«وإذا استغثت ببوليس النجدة، فإن إدارة بوليس لندن تضمن وصول سيارة النجدة إليك أيًا كان موقعك بالمدينة فى مدة أقصاها ٣ دقائق، وقد طلبوا منا إجراء تجارب استدعاء وقت نشاء أينما كان موقعنا لنتأكد بأنفسنا من دقة وسرعة الاستجابة، وبالفعل أجرينا بعض تجارب الاستدعاء، وكانت النتائج مؤكدة لكفاءة هذا النظام».

(٤٠)

ويردف الدكتور عبد الكريم درويش برواية بعض المواقف التى تؤكد هذه الفكرة التى يبلورها عن مكانة البوليس البريطانى وطريقة عمله فيقول:

«... لقد صادفنا عددًا من المواقف التى تؤكد قدر الاحترام والثقة التى يمنحها الشعب فى انجلترا لرجل البوليس، والمكانة المرموقة التى يحتلها فى قلب ووجدان المواطن، أذكر منها واقعتين: الأولى تتلخص فى أننا كنا نحضر الاحتفال برأس السنة الجديدة بنادى «أعالى البحار» فى لندن. كانت قاعة الاحتفالات مملوءة عن آخرها بشبان وشابات أرادوا أن يجعلوا من هذه الليلة ذكرى غاية فى البهجة والسرور والمتعة، وكانت القاعة تعج بالصخب والموسيقى والصياح والضحكات الرنانة والطعام والشراب، وللأسف قامت مشاجرة بين فريقين من الشباب وحدث هرج ومرج، وتعالى الصراخ».

«وفجأة ظهر رجل البوليس فى منتصف القاعة، ورفع ذراعه لأعلى مناديًا الجميع بالهدوء، وكأنه رفع عصا سحرية، ففى تجاوب سريع انتهى كل شىء.. انصاع الجميع ليد القانون ممثلاً فى رجل البوليس، وعمّ الهدوء، وعادت القاعة إلى سابق عهدها. نظرت وزملائى إلى بعضنا البعض نتساءل: «فين الخناقة... عسكرى واحد يفض عركة زى دى؟ ما هذا الانصياع؟ دول مش جدعان.. لكن هذا هو قدر رجل البوليس فى وجدان الشعب هناك».

وفى رأيى المتواضع أن دراسة عبد الكريم درويش فى «اسكتلنديارد» كانت خطوة أخرى مبكرة على طريق نموه المعرفى الذى قدم لنا واحدا من أفضل العقول العلمية فى الإدارة المتخصصة علما وممارسة وتطبيقا وريادة.

(٤١)

ونأتى إلى انطباعات عبد الكريم درويش التى يقيم بها بعض رجال السياسة والاجتماع فى عهد الثورة، وقد رأينا من قبل ثناءه المستطاب على زكريا محيى الدين، وعلى الدكتور محمد توفيق رمزى.

وهو يثنى على وزير الداخلية حسن أبو باشا فى معرض حديثه عن حواره معه حول إدخال تجربة الشرطة النسائية فيقول:

«يمتاز اللواء حسن أبو باشا بأنه إنسان عقلانى وتقدمى، صاحب فكر ومنطق، قادر على الحوار الهادئ، ويبدأ مناقشة أى موضوع أو قضية دون سابق تحيز لفكرة معينة تلح عليه، وإنما يترك لمحدثه أن يناقشه إلى أبعد مدى حتى يصل الطرفان إلى حالة من الاقتناع والقبول، وهذه سمة من سمات الوزير حسن أبو باشا التى كانت تبدو بصفة خاصة واضحة فى اجتماعات مجلس مساعدى وزير الداخلية، المشكل من جميع المساعدين الأول ومساعدى الوزير، والذى كان يعقد دوريا برئاسته لمناقشة أمور السياسة العامة والتخطيط والقضايا الأمنية المهمة المثارة. وأيضا فى احترامه لقرارات المجلس الأعلى للشرطة الذى كنت أرأسه».

(٤٢)

كذلك نراه حريصا على أن يثنى على العالم العظيم الدكتور أحمد خليفة المدير المؤسس للمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية:

«قابلنى الأستاذ أحمد خليفة بترحاب وابتسامة لا تفارق وجهه، ووجدته شابًا وسيمًا فى مقتبل العمر مملوءًا بالحيوية، شيق الحديث، ذا ذهن متفتح، طموحًا ولديه آمال عراض فى مستقبل المعهد. كان اللقاء يبعث على الارتياح، وكانت لديه القدرة على أن يجعل الإنسان يألف إليه فى التو واللحظة. قال: «إحنا ماكناش نعرف بعض، لكن أنا كنت متتبعًا لجهودك فى مصلحة تحقيق الشخصية والانقلاب اللى عملته فيها، إنما أنا معجب بصفة خاصة بالكتاب الذى ألفته فى «التحقيق والبحث الجنائى»، الذى يدل على عمق الدراسة والبحث، مما يجعله مرجعًا على مستوى عالٍ فى مجاله، ولما قرأت الكتاب شعرت بأنه بيقدمك

للإسهام معنا ضمن أسرة المعهد القومى للبحوث الجنائية، ويعبر عن عطائك وجهدك العلمى».

كما يثنى على أستاذ الاجتماع الدكتور سيد عويس الذى عمل مستشارا فى المعهد القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية:

«وعلى الرغم من عملية الانتقاء والتفضيل بين أعضاء الهيئة العلمية بالمعهد - دائمين ومنتدبين - فقد شد انتباهى إنسان فاضل من بين هذه المجموعة هو الدكتور سيد عويس. وجدته نموذجًا مختلفًا.. وقف حياته وكرس جهوده للعمل والبحث العلمى، فى إنكار للذات، وتواضع جم، وعطاء غير محدود، وحب لكل الناس. كانت آراؤه العلمية دائمًا موضع التقدير، وكان زملاؤه الذين يختلفون معه يرجعون إليه بعد فترة مقتنعين بصواب رأيه. وكان عطوفًا ومجاملاً إلى أقصى الحدود، وكريمًا مع العمال والسعاة والخدم الذين يتكفلون بشئون المعهد اليومية. كان الدكتور سيد عويس مثلاً يحتذى للابن البار المحب لمصر ولناسها وترابها وتراثها».

(٤٣)

وهو يذكر باعتزاز نصيحة الوزير عبد العظيم فهمى له بعدم قبول الانتداب للعمل برئاسة الجمهورية:

«ذات صباح طلبنى السيد عبد العظيم فهمى لمقابلته، ذهبت إليه وحييته، سألنى من فوره: «أنت لك مين فى رئاسة الجمهورية؟» أجبته: لا أحد. قال: «أنا مصدقك». قلت: هو فيه حاجة؟ فتح الوزير درج مكتبه وأخرج منه خطابًا موجهًا إليه من أمين عام رئاسة الجمهورية يطلب فيه ندبى للعمل برئاسة الجمهورية، وقال الوزير: «الجواب ده وصلنى من شهر، وأنا تعمدت أركنه فى مكتبى لأعلم

من وراء إرسال طلب ندبك للعمل بالرئاسة، ولما لم يتصل بيّ أحد تأكد ليّ أنك ليس لك دور فى هذا الموضوع، وإلا كنت استعجلت الموافقة على الندب وألححت عليّ فى ذلك».

«وتفضل الوزير مشكورًا بإعطائى فكرة عن مناخ العمل بالرئاسة، والأجواء السائدة بين العاملين بالسكرتارية الخاصة بها وقتئذ. ونبهنى إلى أننى مهما كنت كفئًا ومؤهلاً فأنا من خارج هذه الدائرة المغلقة وغريب عنها، وليس لى عيش طويل فيها، وأننى بوزارة الداخلية فى بيتى وبيت أهلى وزملائى، ولى إنجازات ورأى عام يقدرنى... إلخ. وفى النهاية قال الوزير: لك حرية الاختيار دون أى حرج، وإذا شئت تنفيذ النقل إلى الرئاسة من باكر فسوف أوافق لك الآن».

«شكرت الوزير، ومن فورى قلت له: «أفضل البقاء بوزارة الداخلية، حيث أنتمى، وأجيد عملى، ويقدرنى رؤسائى». قال الوزير: «لن تندم على هذا القرار، وبكره تقدر نصيحتى». ومرت الأيام وحقًا كان السيد عبد العظيم فهمى على حق، وكانت نصيحة غالية أقدرها له».

(٤٤)

وفى مقابل هذا كله يحرص عبد الكريم درويش على أن يذكر معاناته فى عهد شعراوى جمعة من الحقد الدفين، على الرغم من تقديره لشعراوى جمعة، وهو يروى تجربته الأليمة فى هذا العهد ضمن حديثه عن نجاحه فى معهد إدارة تدريب ضباط الشرطة:

«... خطف المعهد (معهد تدريب ضباط الشرطة) الأضواء، أو كما يقال «أخذ الرياح من شراع الآخرين»، وانطلق بخطى واثقة من نجاح إلى نجاح لتحقيق الأهداف التى من أجلها أنشىء ولها يعمل.. وللنجاح ثمنه وضريبته ومعاناته على

يد المتربصين وأعداء النجاح، وصدق الرئيس عبد الناصر حين قال ذات مرة فى مؤتمر عام: «أنا قدرت على كل شىء فى البلد دى إلا الحقد».

«وكانت الأمم المتحدة قد طلبت إلىَّ مرتين أن أعمل خبيرًا بها، لكننى اعتذرت فى كل مرة من عدم القبول اعتزازًا بالعمل فى وطنى، واعتزازًا برسالتى وبالهيئة التى أنتمى إليها، وبمهنتى، وبمنصبى مديرًا لمعهد ذى رسالة ضخمة. وهذا ما كنت أصرّ على أن أؤكد عليه فى لقاءاتى بالضباط الدارسين. كنت أقول لهم: «عليكم بالعلم فإن ما يمكن أن تختزنه فى عقلك هو الشىء الوحيد الذى لا تستطيع الدولة أن تسلبه منك أو تستولى عليه أو تؤممه فى ظل النظام الاشتراكى».

«قال الوزير: «أنت تعرف ماذا يعنى معهد تدريب ضباط الشرطة بالنسبة لى، فأنا أراه فى مقدمة إنجازاتى كوزير للداخلية، وقد اخترتك أول مدير له لثقتى فى أن سوف تدبر هذا المعهد بالفلسفة والأسلوب الذى أرجوه له، وقد نجحت فى ذلك تمامًا، وقد حاول الحاقدون والغيورون النيل منك، فوصفوك بأنك «أمريكانى» لا تؤمن بالنظام الاشتراكى، وبأنك تعتبر المعهد معهدًا خاصًا بك، وبأنك أدخلت فى معهد الضباط نظامًا للموسيقى الخفيفة بما لا يتفق مع الضبط والربط على الرغم من أننى قدرت هذه المبادرة جدًا.. و.. و.. إلخ. ولأول مرة أصارحك أيضا بأننى على مدى السنتين الماضيتين قد وضعتك فى اختبارات عديدة، ولجأت فى ذلك إلى جميع الأساليب التى تلجأ إليها الأجهزة الأمنية، وأصارحك بأننى لم أجد ما يمكن أن آخذه عليك، وهذا ما دعانى إلى الإبقاء عليك فى إدارة المعهد طوال هذه الفترة لكفاءتك والتزامك، وذلك على الرغم من أن مديرك كان قد طلب منى كتابة عقب صدامك معه أن أمنحك إجازة مفتوحة أو أحيلك إلى الاحتياط! كما طلب أيضا نقل جميع الضباط

العاملين معك بالمعهد لارتباطهم بك، وفشله فى تجنيدهم واستمالتهم إليه، ورشح آخرين غيرهم، ومع ذلك فلم أستجب له».

«وقد قرأت المذكرة التى أرسلتها إلىّ بالأمس، ولك الحق فى كل ما ذكرته بها، ولكن التمس لىّ العذر فقد كنت متأثرا بما كتبه اللواء مدير المصلحة عنك، حتى انه فى أحد التقارير السنوية أعطاك تقدير (جيد) فقط، ولعلمى بأن هذا التقدير غير موضوعى وغير منصف، فقد أمرت برفعه إلى تقدير (ممتاز) عن قناعة، ولأن جميع تقارير خدمتك منذ تخرجك بتقدير (ممتاز)».

«وأخرج الوزير من درج مكتبه المذكرتين اللتين كتبهما مدير المصلحة بطلب منحى إجازة مفتوحة - وهو إجراء كان يتم دون إبداء أسباب فى تلك المرحلة من مراحل النظام الشمولى لاستبعاد غير المرضى عنهم - أو إحالتى إلى الاحتياط، وكذلك طلبه الخاص بنقل ضباط المعهد وترشيح غيرهم بدلا عنهم، وقرأت المذكرتين».

«ثم استطرد الوزير قائلا: «عاوز أقول لك إن المعهد من اليوم سوف يتبعنى مباشرة فى كل أموره، وليس لك علاقة بمدير المصلحة، وقد أبلغته بذلك. خرجت من مكتب الوزير لا أكاد أصدق ما حدث، ونظرت إلى مدير المكتب فوجدته يبتسم، ذلك أنه كان قد قرأ المذكرة التى بعثت بها للوزير قبل أن يعرضها عليه، وربما كان قد توقع هذه النهاية».

... ...

وبعد هذا كله يخلص عبد الكريم درويش إلى تقييمه للأمور مثنيا على شعراوى جمعة حيث يقول:

«استشعرت قدر شعراوى جمعة وقدرته على إحقاق الحق، والتراجع دون حساسية أو حرج عن موقف تسرع فى تقديره بناء على معلومات وصلته من طرف واحد».

وتحفل مذكرات عبد الكريم درويش بالتقدير لكثير من أساتذته وزملائه ورؤسائه، وكما يثنى على الأفراد فإنه يثنى على الجماعات، وهو يثنى على مجموعة ضباط الخيالة فى كلية الشرطة:

«... كان بالخيالة وقتئذ مجموعة منتقاة من خيرة ضباط الشرطة خلقًا ومسلكًا والمتفوقين فى الفروسية والتدريب على ركوب الخيل. كان عدد ضباط الخيالة ثمانية ضباط: البكباشى لبيب نوحى، والصاغ يوسف غراب، والصاغ أنور العبد، واليوزباشى أحمد الوتيدى، واليوزباشى صلاح دسوقى، واليوزباشى كمال الحديدى، واليوزباشى مصطفى رفعت، واليوزباشى فتحى الرشيدى، وكانوا يكونون فيما بينهم مجتمعًا خاصًا متآلفا ومتفاهمًا، يعتزون بمكانتهم فى الكلية، ويركبون الخيل فى أناقة وبهاء بين عشرات الضباط المرتجلين أو المشاة، وكانوا أشبه بمجتمع شبه أرستقراطى ويعيشون داخل مجتمعهم الصغير فى شىء من الاعتزاز بأنفسهم».

«ومن الجدير بالتسجيل فى هذا المقام أن هذه المجموعة من ضباط خيالة كلية البوليس، هى نفس المجموعة التى وقعت أول بيان لتأييد الثورة بعد قيامها بيومين، ذلك البيان الذى أذاعه البكباشى أنور السادات باسم نادى ضباط البوليس».

«ومن الطريف أن هذه المجموعة من الضباط الذين عملوا بخيالة الكلية بعد الثورة، والذين أخذوا دور المبادأة فى تأييد الثورة فور قيامها، قد ورثوا «الطبقة الأرستقراطية» (هكذا يقول وربما أنه يقصد: اللعبة الأرستقراطية وحدث خطأ مطبعى) من الأمراء والنبلاء وعلية القوم فى رياضة البولو بالخيول. والبولو لعبة

أرستقراطية مكلفة جدًا لم يكن يقدر على نفقات ممارستها سوى الندرة الغنية الأرستقراطية، على العكس من اللعبات الشعبية. فلاعب البولو يلزمه عدد من الخيول القوية المدربة تدريبًا عاليًا على هذه الرياضة، كما يلزمه «سايس» أو أكثر ذو خبرة مناسبة، وأن تخضع الخيول لنظام تغذية ورعاية بدنية وطبية تحت إشراف دقيق. أما اللاعب نفسه فإلى جانب إجادته ركوب الخيل ومهارة أداء اللعبة، فهو بحاجة لاقتناء الزى الخاص للاعب البولو، وهو زى متميز ومكلف».

«فلما ورث ضباط خيالة الكلية ـ ذوو الدخول المحدودة ـ هذه الرياضة كأحد مكاسب الثورة، كانت خيول الكلية و«سياسها» تحت إمرتهم بالمجان، بقيت مشكلة واحدة هى مشكلة اقتناء الملابس الأنيقة الفاخرة للاعب البولو ومستلزمات ممارسة هذه اللعبة، ولما لم يكن باستطاعتهم شراء هذه الملابس فقد اكتفوا بملابس ركوب الخيل العادية، وبقيت مشكلة الخوذة البيضاء الأنيقة (أو الكاب) الخاص باللعبة. عمد كل ضابط إلى الحصول على «برنيطة كاكى» من الفلين التى كانت تستخدم لحماية عساكر المرور من ضربة الشمس، وطلاها باللون الأبيض، وذهب فريق بولو الكلية للعب بنادى الجزيرة لأول مرة، وكان هو النادى الوحيد الذى تتاح به ممارسة هذه الرياضة الأرستقراطية».

«فوجئ وحيد باشا يسرى ـ زوج الأميرة شويكار ـ (ربما نتوقف هنا لنصحح المعلومة ولنذكر أن وحيد يسرى لم يكن زوج الأميرة شويكار وإنما كان ابنها!!) وهو بملعب البولو بمجموعة من الغرباء فى كل شىء يلبسون زيًا غريبًا على رياضة البولو يدخلون أرض الملعب، تساءل فى دهشة عمن هم؟ وجاء الرد بأنهم مجموعة من ضباط خيالة كلية البوليس قد حضروا للعب، فأطلق عليهم مسمى «الهكسوس». كان وحيد يسرى من المهتمين بهذه الرياضة، وهان عليه أن يراها

تتدهور. أتاح وحيد يسرى للضباط الحصول على الزى الرسمى لرياضة البولو من محل «كلوناريس» للملابس الرياضية على نفقته الخاصة، حتى يحافظ على مستوى الرياضة وعلى مظهرها الأنيق. ومن الطريف أن البوزباشى كمال الحديدى عندما تسلم ملابس اللعبة لم يجد كابا يناسب مقاس رأسه، ومع ذلك تشبث بواحد واسع رفض أن يخلعه عن رأسه خوفًا من أن تضيع عليه هذه الفرصة السانحة».

(٤٦)

ومن هؤلاء الذين يثنى عليهم صاحب المذكرات أيضا البوزباشى إسماعيل المليجى أحد أساتذته فى كلية البوليس الذى يتحدث عن قيمه وأخلاقه بتفصيل كبير، ومن المهم هنا أن نشير إلى ما يحظى به هذا الرجل من ثناء كثير من الكتابات والأدبيات، ومنها على سبيل المثال مذكرات الأستاذ محمد زكى عبد القادر، ومن ثناء الدكتور عبد الكريم درويش على إسماعيل المليجى نجتزئ قوله:

«... كان اليوزباشى إسماعيل المليجى (شقيق إبراهيم باشا عبد الهادى رئيس الوزراء السابق) قائدًا للسرية التى ألحقت بها، وكان قائدًا مثاليًا أثر فينا أبلغ الأثر بكل ما تحمله هذه الكلمات من معانٍ عظيمة. كان يرعانا فى حزم وحب، وكان صارمًا فى غير تجاوز، وإنما من منطلق الحرص علينا ورغبته الصادقة فى أن يصنع منا رجالاً قادرين على تحمل المسئولية. غرس فينا حب العطاء والجدية والرغبة فى التفوق على سائر سرايا الطلبة الأخرى. كان قائدًا عظيمًا، وكان يتصرف تصرف القادة العظام.. عمق وفهم وحسن استماع وتوجيه هادف، وقدرة فائقة على التصدى للمواقف الصعبة ومعالجتها. أحبنا فأحببناه، بل تعلقنا به. رأيناه مثلنا الأعلى وقدوتنا ونحن فى هذه السن المبكرة، سن الافتتان بالنماذج

القدوة والرجولة والمثالية ونحن نتفتح على الحياة. كنا نتأمله، ونحاول تقمص شخصيته ونحذو حذوه ونقلده فى سلوكه وتصرفاته، فى وقفته ومشيته، وطريقة حديثه وإيماءاته، وأسلوب معالجته للأمور، ونستجيب لكل تعليماته، ورغم صرامته أحببناه، لأنه تأكد لنا من مسلكه أن القسوة تأتى بدافع الحرص والحب والتربية السليمة لأبنائه الطلبة، وكأننا نتمثل قول الشاعر:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازمًا فليقسُ أحيانًا على مَنْ يرحم»

(٤٧)

وتتضمن مذكرات عبد الكريم درويش كثيرا من طرائف الحياة المصرية الجميلة بكل ما تحمله من معان مرتبطة بالقيم، ومن هذا ما يرويه عن قصة مشاركته فى القوة التى أنيط بها تحديد إقامة فؤاد سراج الدين باشا فى مزرعته عقب وقوع حريق القاهرة:

«.. فعندما وصلنا إلى بساتين سراج الدين لأداء مهمتنا، صادفتنا مشكلة الطعام، من أين نجىء به؟ ومَنْ يقوم على إعداده؟ وكيف ندبر ذلك؟ لم تكن هناك مشكلة بالنسبة لجنود الهجانة لأنهم كانوا عادة ينتقلون للمأموريات التى يكلفون بها ومعهم زادهم وتموينهم الكامل، وهم يتكفلون بكل ما يتطلبه إعداد طعامهم».

«وأما نحن الضباط فقد كان علينا أن نجد حلاً لمشكلتنا، فكنا نرسل أحد الجنود إلى بلبيس لشراء احتياجاتنا من الطعام التى كانت تشمل فى كل الأحوال سندويتشات الجبنة الرومى والفول والطعمية».

«فى اليوم التالى لبدء المأمورية دعانا فؤاد باشا للغداء معه على مائدته بالسراى، وكان يلازمه طوال فترة تحديد إقامته صديق حميم له، هو الأستاذ محمود الإتربى، الذى نقل إلينا الدعوة، حينما أبلغنا بدعوة الغداء أحسسنا

بالقلق وراودتنا المخاوف بأن تكون إجابة هذه الدعوة هى نهاية صلتنا بالمهنة، وذلك بسبب الظروف السياسية المضطربة التى كانت سائدة فى ذلك الوقت، والصراع المعلن بين الأحزاب، وما كان يمكن أن يؤدى إليه من ضحايا حسنى النية لا ناقة لهم ولا جمل فى هذا الصراع الحزبى الذى جعل من وزير الداخلية حبيسًا فى مزرعته بين عشية وضحاها».

«اعتذر الأميرالاى محمود عبد المجيد عن الدعوة معللاً ذلك بأننا تناولنا الغداء فعلاً، فطلب فواد باشا أن يلقانا، ذهبنا إليه بالسراى، وكانت مائدة الغداء ممتدة حافلة بكل خيرات الله، عدا الفول والطعمية طبعًا، ودار الحديث التالى:

ـ فؤاد سراج الدين: أنتم مش عاوزين تتغدوا معايا ليه؟

(لاحظ أن المتحدث وزير الداخلية بالأمس مع ضباط كانوا طوع يمينه وقتئذ)

ـ الأميرالاى محمود عبد المجيد: يا أفندم إحنا اتغدينا فعلاً.

ـ فواد سراج الدين: عاوز أقول لكم حاجة.. بصرف النظر عن أى اعتبار، أنتم هنا ضيوف فى بيتى، وإحنا ناس فلاحين ونعرف الأصول، ولا يمكن أقبل وأنتم عندى إنكم تبعتوا تشتروا أكل من بلبيس.

ـ محمود عبد المجيد: يا أفندم متشكرين جدًا.. لكن إحنا اتغدينا.

تناول فؤاد سراج الدين التليفون، ولم نكن نتوقع أنه سوف يطلب وزير الداخلية الذى حدد إقامته بالأمس.. ودار الحديث التالى:

ـ فؤاد سراج الدين: أهلاً مرتضى باشا.. إن شاء الله الأحوال تكون طيبة ودولتك بخير.

ـ مرتضى باشا : .... (لم نسمع حديثه)

ـ فؤاد سراج الدين: مرتضى باشا.. طبعًا أنا وأنت فلاحين ونعرف الأصول ونحترم تقاليدنا فى الريف.. الضباط بتوع الحراسة اللى عندى رافضين الأكل بتاعنا، وبيبعتوا يشتروا أكل من بلبيس.. وده وضع لا أنا أقبله ولا معاليك تقبله، لأنه عيب كبير علينا، وأنا رجائى الآتى:

ـ إما أن يقبل الضباط أن يأكلوا من أكلنا، وإما معاليك تسحبهم، وأنا أعدك بشرفى ألا أغادر أسوار المزرعة نهائيًا طوال فترة تحديد إقامتى.

مرتضى باشا : .... (يرد).

فؤاد باشا للأميرالاى محمود عبد المجيد: معالى الوزير عاوز يكلمك.

ويأخذ الأميرالاى محمود عبد المجيد السماعة ويتلقى توجيهات وزير الداخلية بأن نقبل الدعوة للغداء، وكان هذا التوجيه من وزير الداخلية بمثابة انفراجة ما بعدها انفراجة فى أحوالنا المعيشية، وتناولنا طعام الغداء على مائدة وزير الداخلية الأسبق المحددة إقامته بدعوة منه وبحضوره».

ولا يفوت عبد الكريم درويش أن يسجل انطباعه تجاه هذا الموقف فيقول:

«وعبرة هذه الواقعة فى التذكرة بتلك القيم الاجتماعية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت، والتى كانت ترسخ معانى «الأصول والكرامة،وتقاليد الأسر العريقة.. إلخ»،على الرغم من الخلاف والصراع السياسى والحزبى الذى كان فى ذروته فى تلك المرحلة، والذى لم يكن ليفسد للود قضية».

(٤٨)

وفى مقابل هذا الحديث عن القيم الاجتماعية النبيلة، يتحدث صاحب المذكرات حديثًا ذا مغزى وذا دلالة قاسية عن مفاجأة اختيار شعار الدورة الإفريقية الخامسة للألعاب التى عقدت فى القاهرة فى ١٩٩١:

«ونحن نقوم بالإعداد للدورة الإفريقية الخامسة للألعاب، القاهرة ١٩٩١، أعلنت اللجنة المنظمة لها عن مسابقة مفتوحة بين الفنانين لتصميم شعار الدورة، وأخرى لتصميم «التميمة» الخاصة بها، ورصدت اللجنة جائزة مالية مناسبة للشعارين الفائزين، إلى جانب ما فى هذا العمل من إسهام أدبى فى عمل وطنى».

«وقد شارك فى هذه المسابقة ٣٤ فنانا متنافسا قدموا أعمالهم فى مظاريف مغلقة. قامت اللجنة المنظمة باستبعاد أسماء مقدميها، ووضعت بدلاً عنها أرقامًا كودية، وشكلت لجنة من كبار الفنانين الأساتذة صلاح طاهر، وحسين بيكار وصبرى راغب لاختيار الشعارين الفائزين».

«اختارت اللجنة الفنية الشعار المقدم من الأستاذ مصطفى حسين، كأفضل تميمة للدورة بدون منافس، ثم رشحت شعارين للدورة لاختيار أفضلهما من خلال عملية إعلامية تشارك فيها فئات مختلفة من المهتمين بالدورة، تحقيقا للمشاركة الجماهيرية بما يحققه ذلك من مساهمة المواطنين فى اختيار شعار دورتهم».

دعت اللجنة المنظمة للدورة إلى حفل كبير بفندق سمير أميس حضره الدكتور عبد الأحد جمال الدين رئيس المجلس الأعلى للشباب والرياضة وحشد من قيادات العمل الرياضى والشبابى، وأساتذة كليات الفنون والتربية الرياضية، ونخبة من الفنانين، ورجال الإعلام الرياضى والصحافة، والمهتمين بالدورة».

«عرض شعار «التميمة» للفنان مصطفى حسين على شاشة عرض كبيرة فنال إعجابًا وتقديرًا وتصفيقًا من جميع الحاضرين، ثم عرض الشعاران المتنافسان على جمهور الحاضرين لاختيار أحدهما، ولما أعلن اسم مصمم الشعار الفائز

تبين أنه لطالب بالسنة النهائية بكلية الفنون الجميلة، كما تبين أيضًا أن الشعار الآخر المنافس كان لطالب زميل له، وتعانق الطالبان فى سعادة وود وسط تقدير وإعجاب الحضور».

«وكان تفوق الطالبين مفاجأة للجميع غير متوقعة، خاصة أن بعض أساتذة كلية الفنون الجميلة كانوا قد تقدموا بأعمالهم فى هذه المسابقة ولم يصادفهم التوفيق».

«الأمر الذى لم يكن متوقعًا أن الطالب صاحب الشعار الفائز - وهو الفنان الشاب أيمن فتحى - تردد علىَّ بعد فوزه بالمركز الأول فى مسابقة شعار الدورة أكثر من مرة يشكو لىّ فى مرارة تعنت ومجافاة بعض أساتذته له، وتعسفهم معه فى امتحانات نهاية العام الدراسى!».

(٤٩)

ولا تخلو مذكرات الدكتور عبد الكريم درويش من الحديث عن كثير من المصاعب البيئية والمهنية التى صادفها على مدى سنوات خدمته الطويلة فى البوليس، ولنقرأ على سبيل المثال هذه الفقرة التى يصور بها معاناته البدنية ليلة ليلاء من ليالى الداوريات فى مركز منيا القمح:

« ... ومن الصعب أن أصف مدى العناء والمعاناة التى كانت تمثلها داوريات السوارى بعد منتصف الليل فى شهرى طوبة وأمشير.. ظلام دامس حتى لا يكاد المرء يرى أذنى الحصان، وبرد قارس تتجمع قسوته مع الندى والصقيع فى ركاب السرج لتصب فى قدمىَّ وساقىَّ حتى تكادا (تتجمدان) ويتلاشى الإحساس بهما».

«نقضى معظم الليل بين الدروب والمدقات والجسور التى تسلكها الخيل، لا بصيص من نور، ولا صوت سوى حوافر الخيل ونباح الكلاب الذى يعلن اقترابنا من مكان مأهول لا نراه ولا نتبينه وسط ظلام يلف الكون. ولو أن (متربصا) يريد النيل من الداورية لما وجد مشكلة، لأنه يستطيع أن يكمن على مسافة متر واحد من أفرادها دون أن يروه ليفعل بهم ما يشاء ثم يلوذ بالفرار فى المزارع دون أن يدركه أحد. وفى حلكة الليل هذه لم يكن باستطاعة رئيس الداورية أن يرى أو يميز طريقه بوضوح، وكانت هذه المهمة موكولة فى كثير من الأحيان إلى الخيل التى عرفت الدروب والسكك وقد طرقتها على مدى سنوات عديدة منذ ألحقت بالنقطة».

«ذات مرة مع وحشة الليل، وزمهرير الشتاء، وعصف الرياح الهوجاء، وقسوة الصقيع، وجدتنى أفقد الإحساس بقدمىَّ بعد ساعتين من المرور بخط سير دوارية السوارى بعد منتصف الليل، وذلك على الرغم من أننى كنت متدثرًا بطبقات فوق بعضها من الملابس الصوفية. كنت على مقربة من عزبة، ومع وقع أقدام الخيل بدأت أجراس الإنذار المبكر تدق، وهو نباح الكلاب التى يقتنيها خفير العزبة لأداء هذه المهمة فيستيقظ قبل وصول الداورية إليه. اتجه الحصان إلى حيث اعتاد خفير العزبة أن يتوارى من البرد القارس، فوجدته يلملم حاجياته ويلتقط سلاحه ويحيينى. كان الخفير قد أوقد نارًا للتدفئة، نزلت عن الحصان، جلست على كومة من الحطب ووضعت قدمى قرب النار أستمد منها دفئًا وحيوية. استرخت الكلاب إلى جوارنا قرب النار، والسكون يخيم على المكان، ولا أحد من أهل العزبة يشعر بوجودنا وقد تحملنا كل هذه المشقة من أجل أمنهم وسلامتهم. وبعد فترة شعرت بأن الحياة بدأت تسرى فى أوصالى مرة ثانية، ثم

تنبهت إلى صياح أحد الجنود المرافقين لى بالداورية.. «الحق يا أفندى النار حرقت نعل الجزمة»، ولم أكن أشعر بالنار من شدة البرد.. يا إلهى، ما أقسى حياة الغلابة والعراة فى مثل هذه الأجواء والأنواء».

(٥٠)

وتحفل هذه المذكرات بكثير من صور التعبير النفسى الدقيق عن مشاعر صاحبها، وعلى سبيل المثال فإنه يجيد التعبير عن ضيقه وتبرمه من العمل فى مكتب البوليس السياسى:

«... حينما دخلت مكتب البوليس السياسى، أحسست بمناخ غريب تسوده مشاعر الريبة والشكوك تجاه القادم الجديد، فلم يكن ضباط القسم يسمحون لأنفسهم بالحديث فى أمور العمل فى حضورى، وكان كل منهم يمثل جزيرة منعزلة فى بحر الأسرار والاتصالات المريبة والتحركات غير المعلنة، وكان ضباط القسم يتفادون الحديث إلىّ أو حتى مجرد التعرف بىّ، وكأننى جسم غريب غير مرغوب فيه داخل هذا الكيان الخاص جدا من محموعة الضباط القدامى، وأكثر من هذا لقد كانوا فيما بينهم يتكتمون الاتصالات ويحجبون المعلومات عن بعضهم البعض، ويتسترون على المصادر والعلاقات فى عملية تعتيم تام على كل أوجه النشاط والعلاقات والاتصالات التى تتم».

«أحسست بالغربة الشديدة داخل هذا المكتب، وعدم الارتياح النفسى إلى طبيعة العمل الذى ينتظرنى، وعدم القدرة على التكيف والتأقلم مع ظروف هذا العمل والضباط القائمين به، وكنت أشعر بضيق نفسى شديد، وبضآلة شأنى، وبأن دورى هامشى بين ضباط المكتب، وبمرور أسبوعين كنت قد ضقت ذرعا

بعملى ـ أو تعطلى ـ فى البوليس السياسى، ولم أعد أطيق البقاء به، وفكرت فى الرحيل عن هذا المكتب إلى أى مكان آخر، بأى وسيلة، وكنت متأكدا من الاستجابة لهذه الرغبة، ومن أن أمر نقلى سوف يكون أمرا سهلا وميسورا لأننى على أى حال ـ من وجهة نظر الوزارة ـ لم أكن أسعى للحصول على ميزة، بل أطلب التنازل عن ميزة كبرى، وهى النقل من البوليس السياسى ذى الجاه والحظوة والصولجان إلى أى جهة أخرى».

(٥١)

ومن المواضع التى بلغت المذكرات فيها ذرى التعبير الفنى، تلك الفقرة التى يعبر فيها الدكتور عبد الكريم درويش بصدق بالغ عما اعتراه من ألم نفسى حين علم بنقله من الإسكندرية فجأة بعد مدة قصيرة لم يستمتع بالعمل فيها:

«وإذا باسمى بين أسماء الضباط المنقولين إلى كلية البوليس اعتبارا من ١٩٥٣/٩/١، وأحسست بصدمة وأخذت أقرأ اسمى مرة ومرات أكاد لا أصدق عينى، ولا أستوعب النبأ. نعم نقلت من هذه المدينة الجميلة التى أجد فيها ذاتى وأحبها وتتغلغل فى كيانى، وأهجر هذا الاستقرار العائلى الممتع فى شقة على البحر المتوسط مباشرة، وأمامى اللانهاية من الماء والسماء، والنسمة التى تداعب البدن، وقطرة المطر التى تحيى الحياة وتنعش الأمل وتجعل للوجود معنى، وعملى الشيق أستقبل فيه القادمين من أنحاء العالم، وأودعهم إليها فى تواصل له متعة وله نغم».

... ...

ونأتى إلى هذه الفقرة القصيرة الحافلة بالمعانى:

«هكذا بجرة قلم فى يد غير حانية جافة أرحل عن هذه المدينة الحبيبة إلى قلبى ونفسى، والتى قضيت فيها أجمل أيامى ولياليَّ منذ كنت طالبًا بالعباسية الثانوية».

(٥٢)

وفى الجانب الآخر من الحياة يلخص صاحب المذكرات سعادته عند حصوله على الدكتوراه:

«عدت من حفل التخرج، ولدىّ إحساس بأننى قد أهديت نفسى أنفس هدية يمكن أن يعتز بها إنسان.. وهى حصولى على درجة الدكتوراه، أعظم استثمار اقدمت عليه فى حياتى. أشعر الآنى أننى إنسان مختلف تماما عن ذلك الذى بدأ الدراسة فى عام ١٩٥٨، إحساس بالنمو والتغير فى الفكر والشخصية والاهتمامات وطريقة الحياة. إحساس بالثقة والأمن والاستقرار، وبأن مهنتى بحاجة إلىّ الآن أكثر من حاجتى إليها.. حقا ما أمتع وأروع العلم».

«وتذكرت زملاء لى فى مصر، فهم مازالوا على ما هم عليه، يدورون فى حلقة الحياة المفرغة، ويقتلون الوقت بالتسلية، ويرددون نفس الأحاديث والنكات، ويتطلعون إلى غدٍ لا إثارة فيه ولا طموح، ويمر بهم العمر دون استثمار حقيقى ذى معنى.. وعمر الإنسان هو الشىء الوحيد الذى يسلب منه دون أن يقدر على استرداده.. هكذا كنت أشعر، وقد أكون مخطئا».

(٥٣)

بقى أن أشير إلى ما يتحدث به عبد الكريم درويش عن نهاية إضراب ضباط الشرطة فى ١٥ أبريل ١٩٤٨ من حديث حافل بالإحباط الشديد حيث يقول:

«وانتهى الاعتصام سلميًا دون وقوع أى مصادمات أو اشتباك، وانصرف ضباط البوليس من النادى فى هدوء ومرارة، تملأ نفوسهم مشاعر الإحباط واليأس، وعند تفتيش الجيش لحديقة الأزبكية حول مبنى النادى عثر على مجموعة من المسدسات وجهاز لاسلكى».

«وبانتهاء الإضراب رفع وزير الحربية تقريرا حول نجاح قوات الجيش فى حفظ الأمن، بالقاهرة والإسكندرية، وتسوية مشكلة الإضراب بأمر من الملك، جاء فيه«: إن قوات الجيش قد أثبتت قدرتها وتصميمها على حفظ الأمن، وأكدت المرة تلو الأخرى ولاءها وإخلاصها لجلالة الملك فاروق القائد الأعلى».

«كانت هذه هى النهاية المؤسفة لإضراب ضباط البوليس، فقد كانت هناك تحت سطح الأحداث التى تمر بها مصر فى تلك الفترة، حركة أخرى أعمق مغزى، وأعظم تأثيرًا فى تاريخ مصر الوطنى، يعد لها نخبة من ضباط الجيش الأحرار، وأخذت قوة هذه الحركة تتجمع وتشتد لتؤتى ثمارها هادرة فى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢».

(٥٤)

وهو يروى بثقة وفخر، تفصيلات تجربة مشرفة له مع أحد تجار المخدرات فى الفترة التى عمل فيها فى نقطة بوليس المعسكر البريطانى بمنطقة التل الكبير:

«استثناء من عملى اليومى الروتينى هذا، أذكر واقعة مهمة ساقتها الأقدار فى طريقى، تصادف أن كنت برفقة قائد البوليس الحربى البريطانى ومساعده فى سيارته الجيب نبحث عن سيارة للجيش البريطانى خرجت من المعسكر ولم تعد فى موعدها المحدد، وأثناء البحث والتجول بالصحراء خارج المعسكر فوجئنا بسيارة ليموزين مدنية تسير على غير العادة، استوقفت السيارة وكان بها شخصان، سألت قائد السيارة عن وجهته، فأجاب بأنه كان فى طريقه من القاهرة إلى الإسماعيلية لكنه ضل الطريق».

«كانت إجابته غير منطقية وغير مقنعة، لأن الطريق بين القاهرة والإسماعيلية طريق مرصوف وممهد وممتد بحذاء ترعة الإسماعيلية مباشرة،

ويتعذر أن يضله أى جاهل، مما زاد فى ريبتى فى الأمر. طلبت من قائد السيارة أن يفتح شنطتها الخلفية، فوافق دون أى اعتراض، ونزل من السيارة متجها صوب الشنطة، وهمس لى فى هدوء وثبات يحسد عليهما قائلا: «أنا معايا ١٥ حتة أفيون وأدى ٥٠٠ جنيه تأخذهم وربنا يسهل لك».. هكذا قالها بكل بساطة وأوقع نفسه فى حالة تلبس بحيازة هذه الكمية من الأفيون، أصررت على فتح حقيبة السيارة، فرأيت داخلها حقيبة ملابس، طلبت منه فتحها فأجاب وهو على نفس الوتيرة من الهدوء والثبات: «خلاص بقى على كده ومفيش داعى للفضائح.. الإنجليز اللى معاك ماهماش فاهمين حاجة.. وربنا أمر بالسترا».

«أصررت على فتح الحقيبة، وفتحها، وهو مازال على نفس الهدوء والثقة التى كان يتكلم بهما، وكأن الأمر تحصيل حاصل، والمسألة منتهية، بما يوحى بتعوده على التعامل مع مثل هذه المواقف من قبل. رأيت داخل الحقيبة أكياسا مغلفة بالبلاستيك مرصوصة بعناية وترتيب، قال قائد السيارة: «أدى الأفيون.. كل كيس فيه أقة»، فقد كان التعامل بالكيلو غير متعارف عليه وقتئذ».

«فحصت أحد الأكياس فانبعثت منه رائحة نفاذة للغاية، فقد كان أفيونا خاما، وكانت الأقة الواحدة تخلط بمواد أخرى ليصبح وزنها مضاعفًا عند تداولها بالسوق. قمت بضبط الأفيون، وفتشت السيارة التى اتضح أنه مالكها، فعثرت على بعض المشغولات الذهبية مما يتحلى به الأعراب، أما المرافق له بالسيارة فقد تبين أنه السائق الذى لم يكن فى مقعد القيادة».

«تحرر محضر ضبط للواقعة، وتم التحفظ على السيارة، وحرزت المضبوطات وألقى القبض على مالك السيارة والسائق، وتمت المحاكمة وصدر حكم محكمة

«تحرر محضر ضبط للواقعة، وتم التحفظ على السيارة، وحرزت المضبوطات وألقى القبض على مالك السيارة والسائق، وتمت المحاكمة وصدر حكم محكمة أول درجة بسجن كل منهما ٣ سنوات ومصادرة المضبوطات والسيارة».

«وفى محكمة الاستئناف تأيد الحكم بالنسبة لمالك السيارة الذى كان يقودها، وبرىء السائق. ومن الجدير بالذكر أن الذى تولى الدفاع فى هذه القضية فى مرحلة الاستئناف هو مكرم عبيد باشا، وكان من أبرز المحامين المرموقين خلال هذه الفترة، إلى جانب مكانته السياسية، وكان حضوره لمحكمة استئناف الزقازيق أمرا مثيرا للغاية».

«كانت هذه هى أضخم كمية أفيون تضبط فى نفس العام، وقدرت بمبالغ طائلة، وكان لها صدى عميق فى أوساط مديرية الشرقية ووزارة الداخلية، وأخذت اهتماما إعلاميا واسعا، ونشرت صورها بالصحف».

«والأمر الذى يدعو للتندر أننى حصلت على مكافأة قدرها ٥٤ جنيها عن جهدى فى هذه القضية!».

كتب للمؤلف

■ **الدكتور محمد كامل حسين عالماً ومفكراً وأديباً**

سيرة حياة المفكر المصرى الكبير محمد كامل حسين (١٩٠٢ ـ ١٩٧٧) صاحب «قرية ظالمة» و«وحدة المعرفة» و«الوادى المقدس» و«النحو المعقول» و«التحليل البيولوجى للتاريخ».

فاز بجائزة مجمع اللغة العربية الأولى فى الأدب (١٩٧٨)، صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٧٨، وضمت الطبعة الثانية أبواباً وفصولاً لم تضمها الطبعة الأولى.

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢.

■ **مشرّفة بين الذرة والذروة**

سيرة العالم المصرى الكبير الدكتور على مصطفى مشرفة (١٨٩٨ ـ ١٩٥٠)، وإنجازاته العلمية ومدرسته الرائدة وأفكاره الاجتماعية وقدراته البيانية والموسيقية، وببليوجرافيا بإنتاجه وما كتب عنه، صدرت طبعته الأولى عام ١٩٨٠، ونال جائزة الدولة التشجيعية فى أدب التراجم (١٩٨٢).

الطبعة الثانية، مكتبة مدبولى، ٢٠٠١.

■ **سيرة حياة العالم الأديب الدكتور أحمد زكى**

يستعرض الإنتاج الفكرى والأدبى للدكتور أحمد زكى (١٨٩٤ ـ ١٩٧٥) فى كافة الميادين ويعرض آراءه وفلسفته فى الحياة والعلم والسياسة والفكر والاجتماع، وتتميز الطبعة الثانية باحتوائها على الببليوجرافيا الكاملة لإنتاج الدكتور أحمد زكى فى كتبه ودراساته وترجماته ومقالاته المتنوعة فى مجلات: الرسالة، والثقافة، والهلال، والاثنين، والدنيا، والعربى وغيرها.

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٣.

■ **أحمد زكى حياته وفكره وأدبه**

يضم هذا الكتاب معظم فصول الأبواب الأولى من كتاب سيرة حياة العالم الأديب الدكتور أحمد زكى.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٤.

■ **الدكتور على باشا إبراهيم**

سيرة حياة رائد الطب المصرى فى العصر الحديث د. على إبراهيم (١٨٨٠ - ١٩٤٧) وإنجازاته العلمية والحضارية، وآراؤه فى الحياة والعلم والطب والجامعة.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٥.

■ **الدكتور نجيب محفوظ**

سيرة حياة الرائد الأول لطب النساء فى العالم العربى د. نجيب محفوظ (١٨٨٢ - ١٩٧٢)، الذى أضاف إلى العلم كثيراً من الإنجازات، وعرض لفلسفته وقدراته العلمية والبحثية والبيانية.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٦.

■ **الدكتور سليمان عزمى باشا**

سيرة حياة أول أطبائنا الباطنيين د. سليمان عزمى (١٨٨٢ - ١٩٦٦)، وتحليل لآرائه فى التعليم الطبى والجامعى، وفلسفته فى ربط الطب والتعليم الطبى بالحياة العامة.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٦.

■ **عثمان محرم .. مهندس الحقبة الليبرالية المصرية (١٩٢٤ - ١٩٥٢)**

يستعرض المقومات العقلية والفكرية والمهنية والسياسية التى أسهمت فى صنع إنجازات المهندس الوطنى العبقرى عثمان محرم (١٨٨١ - ١٩٦٣)، ويعرض لسيرته المهنية والسياسية والوطنية، ويتدارس أوراق محنته فى أول عهد الثورة حين قدم للمحاكمة كنموذج لكباش الفداء التى أراد العهد الجديد بها أن يمحو من الأذهان مهابة وقيمة رموز العهد السابق.

مكتبة مدبولى ، ٢٠٠٤ .

■ **سيد مرعى، شريك وشاهد على عصور الليبرالية والثورة والانفتاح (١٩٤٤ - ١٩٨١)**

سيرة حياة المهندس سيد مرعى (١٩١٤ - ١٩٩٢)، وإسهاماته السياسية والمهنية والزراعية فى ثلاثة عصور متتالية، وما تركته شخصيته من بصمات سياسية واجتماعية لاتزال آثارها باقية.

مكتبة مدبولى، ١٩٩٩.

■ **إسماعيل صدقى باشا (١٨٧٥ - ١٩٥٠)**

سيرة حياة واحد من أهم الشخصيات التى مرت بتاريخ مصر الحديث وأثرت فى تاريخها القومى تأثيراً كبيراً بالإيجاب والسلب، وعرض لإنجازاته الاقتصادية والحضارية، ونقد

لعقليته السياسية، وتقدير لأفكاره الاستراتيجية.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، ١٩٨٩.

■ صانع النصر .. المشير أحمد إسماعيل (١٩١٧ ـ ١٩٧٤)

سيرة حياة قائد عسكرى متميز أتيح له أن يتحقق على يديه أعظم نصر فى تاريخ مصر المعاصر، وملامح حياته وتكوين شخصيته وإنجازاته العسكرية على مدى حياته، ويناقش النقاط الخلافية فى تاريخه.

دار جهاد، ٢٠٠٣ .

■ مايسترو العبور .. المشير أحمد إسماعيل

سيرة موجزة لحياة قائد القوات العربية فى حرب ١٩٧٣.

دار الأطباء ، ١٩٨٤.

■ سماء العسكرية المصرية الشهيد عبدالمنعم رياض (١٩١٩ ـ ١٩٦٩)

سيرة موجزة لحياة ألمع العسكريين العرب، وعرض سريع لأفكاره العسكرية والاستراتيجية وإسهاماته التاريخية.

دار الأطباء ، ١٩٨٤.

■ توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية

إطلالة سريعة بترتيب موضوعى على شخصية توفيق الحكيم وحياته وآثاره الأدبية، من خلال رحلته فى الحياة، وتعريف موجز بآثاره الأدبية والفكرية.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، المكتبة الثقافية، ١٩٨٨.

■ عبداللطيف البغدادى .. شهيد النزاهة الثورية

سيرة حياة عبداللطيف البغدادى (١٩١٧ ـ ٢٠٠٠) أبرز رجال عهد الثورة فى المجال التنفيذى، وتتبع لفكره الإصلاحى والسياسى، وإنجازاته الحضارية، وإسهاماته فى الحياة البرلمانية، والوزارات المختلفة، والعلاقات العربية، ومحكمة الثورة، ورؤاه الاستراتيجية والسياسية والحربية.

دار الخيال، ٢٠٠٥.

■ مصريون معاصرون

مجموعة من كلمات ومقالات التأبين التى نشرت فى رثاء بعض المصريين المعاصرين أو إحياء ذكراهم، متضمنة أضواء موحية على بعض من الجوانب التى تبدت فى حياة وإنتاج هذه الشخصيات.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤.

■ **يرحمهم الله : كلمات فى التأبين**

تراجم انطباعية تأبينية لكل من: بدرالدين أبوغازى، وصلاح عبدالصبور، ومحمد زكى عبدالقادر، ود. يحيى المشد، ومحمد فهمى عبداللطيف.

دار الأطباء، ١٩٨٤.

■ **فن كتابة التجربة الذاتية : مذكرات الهواة والمحترفين**

مجموعة من القضايا النقدية والفكرية، المرتبطة بفن كتابة التجربة الذاتية، وأساسياته، وأركانه، وتطوره، ومدى الحاجة إليه، والنقاط الخلافية فيه مع محاولة لتأصيل مذهب المؤلف فى نقد أدبيات التجارب الذاتية المنشورة فى صور مختلفة.

دار الشروق، ١٩٩٧.

■ **فى ظلال السياسة.. نجيب محفوظ .. الروائى بين المثالية والواقع**

دراسة أدبية نقدية تحليلية تستعرض الفكر السياسى لنجيب محفوظ من خلال آرائه الصريحة المباشرة وأعماله الفنية ومذكراته المتعددة، وتثبت أنه فكر متقدم تناول القضايا الوطنية برؤية واضحة ونظر ثاقب وعبّر عن وعى سياسى من طراز متميز نجا من التقولب والأيدلوجيات واستشرف الأمل فى الآفاق الرحبة لمستقبل مزدهر لأمته ونجح فى لفت النظر إلى حقيقة الإيجابيات الليبرالية التى تحققت بفضل ثورة الشعب فى ١٩١٩.

دار جهاد، ٢٠٠٣.

■ **على هوامش الأدب**

مجموعة من الدراسات والبحوث فى اللغة والأدب والنقد، تحاول فهم النقد ووظيفته وتصور علاقة الإبداع بالحياة، وتحلل الوسائل الكفيلة بالارتقاء بالذوق الأدبى العام، وتناقش كثيراً من القضايا والإشكاليات التى شغلت الحياة الثقافية، وترتاد آفاقاً جديدة فى درس علاقة اللغة بالحياة فى عصر المعلومات، وفى علاقة النقد بالذوق فى حقبة تتسم بتسارع الخطى والانكفاء على الذات معاً.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢.

■ **ثلاثية التاريخ والأدب والسياسة**

يناقش التأثيرات المتبادلة بين السياسة والتاريخ والأدب من خلال مجموعة من الفصول الموثقة (٢٣ فصلاً) تستعرض وقائع ثقافية وأدبية ونقدية محددة بعضها مشهور وبعضها لا يتمتع بالقدر الكافى من المعرفة به.

دار جهاد، ٢٠٠٣.

■ **من بين سطور حياتنا الأدبية**

خمسة من الفصول التى يضمها كتاب ثلاثية التاريخ والأدب والسياسية نشرت مبكراً.

دار الأطباء ، ١٩٨٤.

■ **أدباء التنوير والتاريخ الإسلامى**

دراسة وتعريف وتقييم لجهد ثلاثة من أساتذة كلية الآداب فى الجامعة المصرية تصدوا لكتابة تاريخ الأمة الإسلامية، تلقى الدراسة الضوء على ملامح وسمات ومميزات هذه التجربة الرائدة التى أثمرت عملاً يجمع بين الأدب والتاريخ، وقد أصبح بمثابة المصدر المفضل لأهل التاريخ وتاريخ الأدب العربى، وكثير من الدراسات الإنسانية.

الطبعة الثانية، دار الشروق، ١٩٩٤.

■ **كلمات القرآن التى لا نستعملها**

دراسة تطبيقية لنظرية العينات اللفظية مع جداول تفصيلية كاملة بالكلمات ومعانيها والآيات التى وردت فيها من خلال تصنيف لغوى دقيق مع شرح موجز لفكرة اختلاف العينات اللفظية والعوامل المؤثرة فى هذا الاختلاف.

صدر فى طبعتين : دار الأطباء، ١٩٨٤، دار الشروق، ١٩٩٧.

■ **أوراق القلب (رسائل وجدانية)**

يضم أكثر من خمس وسبعين رسالة من الرسائل القصيرة تعبر بطريقة مبتكرة عن أحوال وجدانية متباينة، وتعكس قدرة عالية على التصوير والتعبير والقبض على لحظات الخصوصية والتفرد والمفارقة فى العلاقات الإنسانية.

الطبعة الأولى، دار الشروق، ١٩٩٤، الطبعة الثانية، دار جهاد، ٢٠٠٥.

■ **أوهام الحب : دراسة فى عواطف الأنثى**

يتضمن خمسة وثلاثين فصلاً ترسم الملامح الجوهرية فى الطبائع الإنسانية المتباينة، وتقدم صوراً فنية ونفسية دقيقة أقرب فى طبيعتها إلى اللقطة اللحظية، كما تقدم استعراضاً دقيقاً لتقلبات الوجدان ودواعيها وتواعبها.

الطبعة الأولى، الكتاب الأول فى سلسلة كتاب الجمهورية الشهرى، أغسطس ١٩٩٩.

الطبعة الثانية، دار جهاد، ٢٠٠٥.

■ **رحلات شاب مسلم**

انطباعات ذاتية عن رحلات علمية مبكرة فى أمريكا وإيطاليا والهند وبريطانيا صورت فى دقة إبداعية بعض مشاعر الاحتكاك المباشر للمؤلف مع بيئات مختلفة وحضارات متعددة، كتبت بحرص شديد على الالتزام والدقة الموحية.

صدر فى ثلاث طبعات : دار الصحوة ١٩٨٧، دار الشروق ١٩٩٥، دار جهاد ٢٠٠٣.

■ **شمس الأصيل فى أمريكا**

يتميز بأسلوب مستحدث فى كتابة الرحلات لا يصف الطبيعة كما فعل السابقون، لكنه يحاول أن يصف الحضارة، وعلى حين أن وصف الطبيعة لا يستلزم إلا الحاسة الصادقة.. فإن وصف الحضارة يستلزم كذلك أقداراً متنامية من الدقة والإحاطة والتعمق والفهم والترتيب.. ويستلزم قبل ذلك أن تكون جندياً من جنود الحضارة لا فارساً من فرسان الطبيعة.

صدر فى طبعتين عن دار الشروق، ١٩٩٦، ودار جهاد، ٢٠٠٣.

■ **مجلة الثقافة (١٩٣٩ ـ ١٩٥٢) تعريف وفهرسة وتوثيق**

سيرة حياة مجلة رائدة، ودراسة صحفية وأدبية تحليلية للمجلة الشهيرة التى أصدرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر بصفة أسبوعية، وتشمل فهرسة كاملة للأعداد الـ ٧٣٣، وكشافات للموضوعات التى أسهم بها الكتاب الذين بلغ عددهم أكثر من ألف، مع تراجم وافية لحوالى ١٣٠ كاتباً بارزاً واظبوا على الكتابة للمجلة، وتعد بعض النبذات البيوجرافية المقدمة عن هؤلاء بمثابة النبذات التعريفية الوحيدة المتاحة عنهم.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣.

■ **الببليوجرافيا القومية للطب المصرى (٨ أجزاء)**

ببليوجرافيا كاملة للبحوث الطبية المنشورة فى مائة وخمسين دورية طبية مصرية (١٩٨٥ ـ ١٩٨٨)، مع معلومات ببليوجرافية كاملة وملخصات وافية للبحوث، صدر فى ثمانية أجزاء نشرتها الأكاديمية الطبية العسكرية على مدى الفترة من ١٩٨٨ وحتى ١٩٩١.

■ **مذكرات وزراء الثورة**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات عشرة من وزراء ثورة يوليو ١٩٥٢ من ذوى الانتماءات المختلفة والأدوار المتباينة، فضلاً عن اختلاف آرائهم السياسية: كمال حسن على، وسيد مرعى، وعبدالجليل العمرى، وثروت عكاشة، وإسماعيل فهمى، وعثمان أحمد عثمان، وضياء داود، وأحمد خليفة، وعبدالوهاب البرلسى، وحسن أبوباشا.

دار الشروق، ١٩٩٤.

■ **المرأة والحرية ، مذكرات المرأة المصرية**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لقضية الحرية فى النظام الاجتماعى من خلال قراءة متأنية لمذكرات أربعة اتجاهات كاشفة عن دور المرأة المصرية فى الحياة العامة مشاركة للزوج فى مجده، أو ممارسة للسياسة، أو للوظيفة، أو عارضة لتجربة حياة متميزة: بنت الشاطئ،

وجيهان السادات، ولطيفة الزيات، وزينب الغزالى، وإنجى أفلاطون، واعتدال ممتاز، وإقبال بركة، ونوال السعداوى، وسلوى العنانى، وثريا رشدى.

دار الخيال، ٢٠٠٤.

■ **مذكرات المرأة المصرية**

طبعة مختصرة ومبكرة من كتاب «الثورة والحرية» ، دار الشروق، ١٩٩٥.

■ **نحو حكم الفرد : مذكرات الضباط الأحرار**

تصوير دقيق للفترة الأولى من حكم ثورة يوليو (١٩٥٢ - ١٩٥٤) ومقدماتها وصراعاتها والتحولات التى انتهت إليها من خلال مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات كل من: اللواء محمد نجيب، وخالد محيى الدين، وعبدالمنعم عبدالرؤوف، وجمال منصور، ومحمد عبدالفتاح أبوالفضل، وحسين حمودة.

دار الخيال، ٢٠٠٣.

■ **مذكرات الضباط الأحرار**

طبعة مختصرة ومبكرة من كتاب «نحو حكم الفرد» تضم أيضاً باباً عن مذكرات عبداللطيف البغدادى لم تتضمنه الطبعة الثانية.

دار الشروق، ١٩٩٦.

■ **محاكمة ثورة يوليو : مذكرات رجال القانون والقضاء**

دراسة لعلاقة ثورة يوليو ١٩٥٢ بالقانون، وكيف أعلت الثورة من قيمة القانون فى بعض المواقف والصراعات التى نشبت بين تنظيمات الثورة وبين رجال القضاء الوطنى وذلك من خلال مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات مجموعة من أعلام القانون والقضاء الذين مارسوا السياسة أو شاركوا فى الحياة العامة، وتشمل مذكرات كل من: محمد عصام الدين حسونة، وممتاز نصار، ومحمد عبدالسلام، وجمال العطيفى، ومحمد عبدالسلام الزيات، وماهر برسوم، وحسن عبدالغفار.

دار الخيال، ١٩٩٩ .

■ **من أجل السلام ، مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية**

تحليل ومقارنة لرؤى مجموعة من أعلام الدبلوماسية المصرية الذين شغلوا مواقع مختلفة وعاصروا حروب مصر الدبلوماسية من أجل استعادة التراب الوطنى : أحمد عصمت عبدالمجيد، ومحمود رياض، ومحمد إبراهيم كامل، وحسين ذوالفقار صبرى، ومحمد عبدالوهاب العشماوى، وجمال بركات.

دار الخيال، ١٩٩٩.

■ **الطريق إلى النكسة ، مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧**

مجموعة فصول تاريخية نقدية تتناول استعراضاً ومدارسة لمذكرات قادة الصف الأول فى حرب يونيو ١٩٦٧ وتحليل لآرائهم ورؤاهم عن الأسباب التى صنعت الهزيمة أو أدت إليها، أو حالت دون السيطرة عليها فى الوقت المناسب، والدراسة بمثابة أوفى مرجع لمذكرات عبدالحميد الدغيدى، وعبدالمحسن كامل مرتجى، وأنور القاضى، وصلاح الحديدى، ومحمد فوزى. وبعض هذه المذكرات لم تنشر إلا فى صحف محدودة التوزيع.

دار الخيال، ٢٠٠٠ .

■ **النصر الوحيد : مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣**

مرجع أساسى لا غنى عنه لدراسة أمجد المعارك العربية التى خاضتها الأمة العربية فى ١٩٧٣، يتضمن الكتاب مدارسة ضخمة عن حقائق تلك الحرب ووقائعها من منظور وطنى وعلمى أمين مترفع عن الانحياز والفرض، ويقدم نظرات غير مسبوقة فى تحليل أحداث الحرب وتطورها ويستعرض بأمانة وتدقيق مذكرات خمسة من قادة حرب أكتوبر من مستويات مختلفة شاركوا بجهد وافر فى صياغة وصناعة النصر : محمد عبدالغنى الجمسى، وسعد الشاذلى، وعبدالمنعم خليل، ويوسف عفيفى، وعادل يسرى.

دار الخيال، ٢٠٠٠ .

■ **فى أعقاب النكسة : مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ ـ ١٩٧٢**

أوفى دراسة متاحة حتى الآن للفترة التى اصطلح على تسميتها بحرب الاستنزاف وهى فترة حافلة بالتناقضات فى الرأى والتصور والتكتيك ورواية الوقائع، ويقدم الكتاب تحقيقاً لكثير من هذه الجزئيات الخلافية من خلال مذكرات كل من: مدكور أبوالعز، ومحمد أحمد صادق، ومحمد صدقى محمود، ومحمد فوزى، والفريق صلاح الحديدى، والكتاب هو المصدر الوحيد لبعض هذه المذكرات التى لم تنشر إلا فى الصحف.

دار الخيال، ٢٠٠١ .

■ **على مشارف الثورة : مذكرات وزراء نهاية الملكية ١٩٤٩ ـ ١٩٥٢**

دراسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات خمسة من وزراء السنوات الأخيرة فى عهد الملكية ينتمون إلى اتجاهات وتوجهات مختلفة، مع تحليل أدبى تاريخى لما تضمنته المذكرات من حقائق وروايات، وتشمل مذكرات كل من: أحمد مرتضى المراغى، وكريم ثابت، وإبراهيم فرج، وصليب سامى، وعبدالرحمن الرافعى.

دار الخيال، ٢٠٠١ .

■ **عسكرة المجتمع المدنى : مذكرات الضباط خارج الجيش**

دراسة موسعة للتأثيرات العملية المباشرة وغير المباشرة لممارسة رجال القوات المسلحة للأدوار والمهام المدنية فى عهد الثورة فى مجالات الإدارة والوزارة والتنظيمات والسياسة والصحافة والقضاء والإعلام والدعوة والدبلوماسية والهندسة من خلال مدارسات مكثفة لمذكرات سمير فاضل، وأحمد طعيمة، وحلمى السعيد، ومصطفى بهجت بدوى، ورياض سامى.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥.

■ **مذكرات الصحفيين .. فى خدمة السلطة**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لعلاقات الصحافة بالسلطة على مدى عهد الثورة انتقالاً من عصر الليبرالية إلى التأميم والتنظيم إلى انفتاح محسوب، مع تحقيق لوقائع استغلال النفوذ ومصادرة الرأى: موسى صبرى، وأحمد بهاء الدين، وعبدالستار الطويلة، وفتحى غانم، وحلمى سلام، وجلال الدين الحمامصى.

دار الخيال، ٢٠٠٢ .

■ **مذكرات المفكرين والتربويين .. تكوين العقل العربى**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات مجموعة من أبرز المفكرين والتربويين الذين أسهموا فى تكوين العقل العربى، وعرض لرؤاهم التربوية والفكرية ولوجهات نظرهم فى الحياة العقلية فى مصر المعاصرة من خلال تحليل انطباعاتهم ورؤاهم فيما يتعلق بتكوين عقلياتهم وعقلية تلاميذهم وأساتذتهم ومعاصريهم. وتشمل المدارسة مذكرات: شوقى ضيف، وعبدالرحمن بدوى، ومحمد عبدالله عنان، ومحمد على العريان، وأحمد عبدالسلام الكردانى، ونادية رضوان.

دار الخيال، ٢٠٠٢ .

■ **الثورة والإحباط : مذكرات أساتذة الأدباء والأدباء**

دراسة أدبية نقدية لمجموعة من المذكرات كتبها الأدباء وأساتذة الأدب وأضاءت علاقاتهم بالسياسة والحياة العامة وتفاعلات الأدب والكتابة فى عهد الثورة، وخبراتهم الفنية والأدبية، والعوامل التى شكلت وجدانهم، والتجارب التى عكستها آثارهم الأدبية، وتضم مذكرات الدكتورين: أحمد هيكل وعلى الحديدى، والأساتذة صالح مرسى، وفتحى أبوالفضل، وجليلة رضا، وعايدة الشريف، وأمانى فريد.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤.

■ **آراء حرة فى التربية والتعليم**

يتضمن هذا الكتاب مجموعة من الفصول عرض فيها المؤلف آراء حرة ومدروسة فى قضايا التربية والتعليم حاول بها أن يفتح الأبواب أمام الفهم المستقيم لهذه القضايا، وأن يقدم

الحلول الأكثر مناسبة والأجدى فائدة لمشكلات مزمنة، وأن يؤصل للفهم التربوى المعاصر من خلال فكر مفتوح لا يخضع للأهواء الوقتية.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

■ **مستقبل الجامعة المصرية**

مجموعة مختارة من الأفكار والتصورات والمقترحات التى نشرها المؤلف فى الصحافة المصرية على مدى تسع سنوات مستهدفاً تجديد الرؤى فى إصلاح الجامعة على أسس علمية دون طفرة، ومعبراً عن رؤية علمية وعملية مختلفة عن تلك المطروحة على الساحة.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩ .

■ **منهجية العلوم والفنون: مذكرات الأكاديميين المؤسسين**

تحليل تاريخى وتوثيق تربوى للجانب المؤسسى فى أكاديميات التعليم المتخصص فى الشرطة والفنون والجامعات الإقليمية والاتحادات العلمية عبر مدارسة لمذكرات أربعة من الأكاديميين المؤسسين: سليمان حزين، وسمحة الخولى، وعبدالحليم منتصر، وعبدالكريم درويش.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥.

■ **القاهرة تبحث عن مستقبلها**

مجموعة من المقالات والفصول استهدفت تغيير وجه القاهرة من خلال أفكار علمية وعملية تستند إلى تحليل المعلومات وتوظيفها، والقدرة على تصور البدائل وطرح الحلول انطلاقاً من رؤية رحبة الأفق، وقد تحقق بعض هذه الأفكار، ونتمنى أن يتحقق البعض الآخر لتصبح عاصمتنا فىَ المكانة اللائقة بها بين بقاع الدنيا.

دار المعارف، ٢٠٠٠.

■ **التنمية الممكنة : أفكار لمصر من أجل الازدهار**

مجموعة مختارة ومنتقاة من المقالات والدراسات التى كتبها ونشرها المؤلف على مدى سبع سنوات (١٩٩٤ - ٢٠٠١) طارحاً فيها أسلوبًا جديدًا لمعالجة قضايا الوطن الاقتصادية والاجتماعية، معتمداً على منهج موظف للمعلومات من أجل الانطلاق بفكر رحب يفيد من تجارب الحضارات السابقة والنظم السياسية المعاصرة، وتتناول الأفكار مناحى متعددة فى حياة الوطن ومستقبله واقتصادياته ويجمع هذه الأفكار أنها صادرة عن رؤية عملية قابلة للتنفيذ دون أن تتطلب موارد جديدة، وهو ما يدفع إلى المطالبة بالإسراع فى الأخذ بها من أجل ما ننشده من ازدهار فى مستقبل الوطن.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

■ **مستقبلنا فى مصر : دراسات فى الإعلام والبيئة والتنمية**

مقالات ودراسات مستفيضة لبعض مشكلات الحياة العامة فى مصر، تقدم رؤى مختلفة الطابع تصدر عن فهم جديد لطبيعة الحضارة المعاصرة بعيداً عن الآثار الكلاسيكية للأفكار الأيديولوجية التى صبغت بعض مناحى الحياة العامة فى مصر بما يستحسن الخلاص منه فى ظل فكر إنسانى علمى جديد يعتمد على التعويل على العناصر الإيجابية فى الإنسان، وعلى إعلاء قيمة الحرية، والتمكين للقيم الفاضلة فى حياة المجتمع، وفهم المشكلات فى إطارها الخاص بعيداً عن التعميم، وعلى استنطاق الإحصاءات بالبعد التنموى الذكى والمحافظ فى الوقت ذاته على البيئة.

الطبعة الثانية، دار الشروق، ١٩٩٧ .

■ **الصحة والطب والعلاج فى مصر**

مجموعة من المقالات والفصول والدراسات تستعرض جوهر العلاقة بين الطب والصحة والمجتمع، وتقدم لمحات عن الدين والمرض، وعن مستقبل الطب الإسلامى، وعن طب الطوارئ. كما تقدم أفكاراً جديدة فى تطوير التعليم الطبى وتنظيم المؤسسات الطبية. وتتضمن الطبعة الثانية دراسات موسعة تستهدف تطوير الخدمات الصحية بإعادة استخدام الموارد المتاحة من خلال رؤى عصرية لسياسات العلاج والصحة.

الطبعة الأولى، جامعة الزقازيق، ١٩٨٧ .

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥ .

■ **أقوى من السلطة : مذكرات أساتذة الطب**

استعراض للتاريخ الاجتماعى فى الحياة المصرية المعاصرة من خلال منظور طبى وتعليمى اصطبغ بالعلاقة المباشرة والتجربة الحية مع شخصيات السلطة المتعاقبة وتوجهاتها المتباينة على نحو ما تضيئه مذكرات الدكاترة: زكى سويدان، ومصطفى الرفاعى، ومصطفى الديوانى، ودمرداش أحمد، وأرنست سليمان شلبى.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤ .

■ **الفلسطينيون ينتصرون أخيراً .. دراسات فى التنبؤ السياسى**

تقدم مجموعة المقالات والفصول التى يتضمنها الكتاب أفكار المؤلف وتصوراته لمسار الصراع العربى - الإسرائيلى وقضية فلسطين، وهجرة اليهود العرب إلى فلسطين، ومعضلات السياسات الفلسطينية، وأخطاء السياسات العربية فى حقب متتالية، وحقيقة العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية والحركة الصهيونية وإسرائيل.

دار جهاد، ٢٠٠٢ .

■ **المسلمون والأمريكان فى عصر جديد**

مجموعة من الفصول والمقالات تتميز بجسارة فكرية وعقلية كفيلة بالنفاذ إلى جوهر المشكلات والتوجهات فى السياسة العالمية، ويجاهر المؤلف بأن الدعوة إلى الإسلام أجدى بكثير من الدفاع عنه. كما يستعرض مبرراته للتنبؤ بأن أمريكا قد تعتنق الإسلام، ويلقى الضوء على الدور الذى يلعبه الدين فى الانتخابات الأمريكية وفى غيرها من مواقع الأحداث فى عصر العولمة.

دار جهاد، ٢٠٠٢ .

■ **النخبة المصرية الحاكمة (١٩٥٢ ـ ٢٠٠٠)**

مجموعة من الدراسات البيوجرافية التى يمكن وصفها بلغة البحث العلمى بأنها أصيلة وغير مسبوقة، ومجموعة من المقالات (المستندة إلى دراسات) تتناول بالبحث والتعليق تكوين شخصيات النخبة الحاكمة فى النصف الثانى من القرن العشرين وعوامل صعود هذه الشخصيات إلى مواقع المسئولية.

مكتبة مدبولى، ٢٠٠١ .

■ **قادة الشرطة فى السياسة المصرية (١٩٥٢ ـ ٢٠٠٠) دراسة تحليلية وموسوعة شخصيات**

دراسة عميقة لدور جهاز مهنى حيوى فى الحياة السياسية فى النصف الثانى من القرن العشرين، وتعريف بيوجرافى بستين شخصية شرطية مع ذكر أدوارها التاريخية وذلك من خلال قراءات مكثفة، ومقابلات منتقاة، ودراسات عميقة.

مكتبة مدبولى، ٢٠٠٢ .

■ **البنيان الوزارى فى مصر (١٨٧٨ ـ ٢٠٠٠)**

المرجع الأول والأوفى فى مجاله، وهو دراسة تاريخية وفهارس كمية وتفصيلية لإنشاء وإلغاء وإدماج الوزارات والقطاعات الوزارية وتبعيات المصالح والهيئات للوزارات المختلفة، ودراسة لتوزيع المسئوليات الوزارية والوزراء الذين تعاقبوا على كل وزارة.

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عن دار الشروق، وركزت على فترة الثورة.

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠ .

■ **الوزراء ورؤساؤهم ونواب رؤسائهم ونوابهم ، تشكيلاتهم وترتيبهم ومسئولياتهم**

توثيق تاريخ الوزارات المصرية وتشكيلاتها منذ قيام الثورة ١٩٥٢، من خلال ثلاثة أبواب، الأول: ترتيبى، والثانى: زمنى، والثالث: شخصى، ويقدم معلومات عن الوزراء ورؤسائهم ونواب رؤسائهم ونوابهم وتشكيلاتهم وترتيبهم ومسئولياتهم.

صدر فى طبعتين عن دار الشروق، ١٩٩٦ ، ١٩٩٧ .

■ **التشكيلات الوزارية فى عهد الثورة (١٩٥٢ ـ ١٩٨١)**

طبعة مبكرة ومختصرة من كتاب الوزراء، تقف عند نهاية حكم الرئيس السادات، وتقدم فقط بعض ما شمله البابان الثانى والثالث من كتاب الوزراء.

الهيئة العامة للاستعلامات، ١٩٨٦ .

■ **المحافظون**

دراسة تأسيسية تشمل قوائم كاملة وترتيبية وفهارس تفصيلية وأبجدية وزمنية ودراسة لتسلسل وتطور اختيار المحافظين منذ بدء نظام الإدارة المحلية (١٩٦٠) وحتى نهاية القرن العشرين. مع الإشارة إلى خلفياتهم المهنية وعلاقتهم بالمناصب الوزارية والإدارية.

صدرت الطبعة الأولى عن دار الشروق، ١٩٩٦.

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

■ **كيف أصبحوا وزراء .. دراسة فى صناعة القرار السياسى**

فصول بيوجرافية وتاريخية فى إطار دراسة تحليلية ونقدية لصناعة القرار السياسى فى مصر، وهى دراسة لا تخلو من استرجاع ومن إحصاء ومن استقراء ومن استنباط، ومن تحقيق للروايات ومن عرض للرأى والرأى الآخر، ومن وضع المقارنات على هيئة جداول وأرقام.

دار الخيال، ٢٠٠٢.

■ **دليل الخبرات الطبية القومية وتاريخ التعليم الطبى الحديث**

نبذات وافية ومعلومات كاملة تاريخية عن تطور مؤسسات وهيئات التعليم الطبى المصرية فى الجامعات ومراكز البحوث ووزارة الصحة.

الجمعية المصرية للأطباء الشبان، ١٩٨٧.

■ **يوميات على مصطفى مشرفة .. يناير ١٩١٨ ـ يوليو ١٩١٨**

تحقيق دقيق لمخطوطة من اليوميات التى وجدت فى آثار العالم المصرى الكبير عن الشهور الأولى من فترة بعثته إلى بريطانيا وما حفلت به مشاعره من حس وطنى ودينى، وتفاعل مع صورة مختلفة من الحياة، وحوارات عقيدية وفكرية، وخبرات علمية وحضرية وثقافية مكثفة.

مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣.

■ **القاموس الطبى نوبل فى ٣ أجزاء (بالاشتراك مع أ. د. محمد عبداللطيف)**

قاموس طبى ضخم يحوى ستين ألف مصطلح يسهل من خلاله الوصول إلى المصطلح المقابل من خلال أى لغة من لغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية، ويشمل مسارد كاملة لكافة المصطلحات الطبية الواردة فى اللغات.

دار الكتاب المصرى، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، القاهرة، ١٩٩٨.

■ **أمراض القلب الخلقية الصمامية ٢٠٠١**

كتاب طبى مرجعى يصلح أيضاً للثقافة العامة، يستعرض الخلقية الصمامية وأسبابها وطرائق تشخيصها وعلاجها وجراحاتها ومآلها.

دار المعارف، ٢٠٠١.

■ **أمراض القلب الخلقية : الثقوب والتحويلات ٢٠٠٢**

كتاب طبى مرجعى يصلح أيضاً للثقافة العامة، عرض فيه المؤلف الأمراض الناشئة عن وجود ثقوب أو تحويلات فى تشريح القلب، مع تقديم صورة وافية عنها والاستعانة بكل ما يمكن أن يصور طبيعة المرض وحقيقته وسماته والطرق المتاحة لتشخيصه وعلاجه وجراحاته.

دار المعارف، ٢٠٠١ .

الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW. egyptianbook. org

E - mail : info @egyptianbook.org